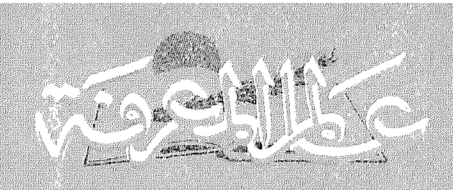
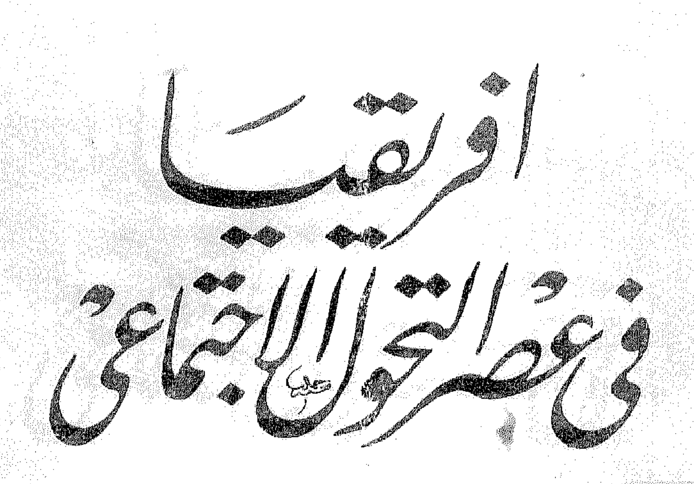
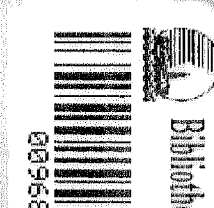




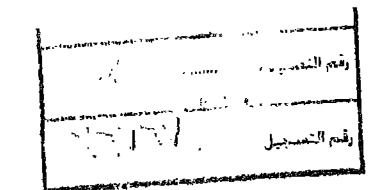
تأليف : ب. س. لويد

ترجمة : شوقي جلال



... شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت







سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

افريقيا في عصر التحول الاجتماعي

تأليف : ب. س. لويد
ترجمة : شوقي جلال

٢٨ ـ جمادى الاولى / جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ ابريل (نيسان) ١٩٨٠م

المراسلات :

توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب ٢٣٩٩٦ الكويت



العنــوان الأصلـــي للكتاب

Africa in Social Change; changing traditional societies in the modern world, by: P.C. Lloyd, Penguin African Library, 1969.

تقديم

لقد صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب منذ عقد ونيف باللغة الانجليزية تحت عنوان : **التغير الاجتماعي في أفريقيا** ثم صدرت بعد ذلك عدة طبعات بنفس اللغة ونظرا لما مر من الوقت بين صدور الكتاب لاول مرة وبين تاريخ نشره باللغة العربية فقد جرت بعض التغيرات فى الساحة التى يتناولها الكتاب، لذلك فان مابين يدى القارىء العربى اليوم ليس ترجمه حرفية لهذا الكتاب الذى يتناول التغيرات الاجتماعيه في غرب أفريقيا فقد ادخل على النص الأصلى تغييران اساسيان الأول هو حذف بعض الاستطرادات التى اعتقدت ان لاضرر على المعنى العام من حذفها من جهه ومن جهه أخرى حتى يتلائم حجم الكتاب العربى المطبوع مع حجم السلسله، اما التغيير الآخر فهو اضافة معلومات جديده لا تضر ايضا بسياق التحليل العلمي للظواهر الاجتماعيه التي جرى مناقشتها فى الكتاب وذلك من أجل وضع معلومات استجدت كأسماء المدن والبلدان التى تغيرت بعد استقلالها بدلا من تلك القديمه وسيلاحظ القارىء هذا النوع من المعلومات بسهوله و يسر فى متن الكتاب.

بسبب هذه التغيرات رأت اللجنة المشرفة التنويه عنها فى مقدمة هذا الكتاب الذى يصدر باللغة العربية لأول مره حفاظا على القيمة العلمية التى تتواخاها فى أصدار مثل هذه الدراسات.

ومن الله نسأل التوفيق والسداد ،،،،

د . محمد غانم الرميحى
استاذ الاجتماع المساعد
بجامعة الكويت .



تصدير

ليست افريقيا وحدها التي تعيش عصر تحول اجتماعي سريع بل العالم الثالث كله ونحن جزء منه ... اننا نعيش عالمين ، عالم الباطن قوامه ارث ثقافي وحضاري عريق ولكن اصابه اليبس والجمود دهرا .. وعالم الحضارة والثقافة المعاصرة الوافدتين . وبين الاثنين زمان طويل ، أو قرون عديدة ، وتحد صارخ ، ثم معاناة انسانية على المستوى الاجتماعي والذاتي ... وكل منا ينقب في باطنه ، ويتأمل حوله ، ويواجه التحدي ، ويتساءل كيف السبيل ؟ والى اين المصير ؟ المشكلات تثقلنا ، والطرق امامنا متباينة ، والرؤية غير متجانسة ، واليأس يستبد بنفوس بعضنا ، والتقوقع على النفس او الردة الى الماضي تكاد تكون وسادة الكسالى ومن قصرت هممهم دون فهم الواقع واستيعاب الفكر المعاصر وتمثل ايجابيات الماضي ، واستخلاص العبرة ، وصوغ الحلول للواقع المعاش .

اننا نفكر بنص عبارات مضت عليها قرون ، ولا نزال نرددها وكأنها ترياق مشكلاتنا ، فنكون اشبه بقروي ساذج يطبب امراض العصر بوصفات طبية موروثة . ولعل من أخطر المشكلات اننا غير متفقين على تشخيص امراضنا ناهيك عن علاجها ... هذا حالنا منذ عقود ، بينما واقع الحياة محليا وعالميا في تغير متصل ... لقد تغيرت بنية المجتمعات العربية ومن ثم تغيرت العلاقات وتغيرت المشكلات ، واستتبع هذا تحول في فكرية الانسان العربي ورؤيته ... والتغير عملية مزدوجة ، انه ليس تغيرا في الواقع المادي

فحسب ، بل تغير في فكر الانسان ايضا ، او هكذا يجب ان يكون ، وكل منهما يؤثر في الاخر . ولا بد وأن يتوفر قدر من المواكبة بين الاثنين ضمانا لسلاسة الحركة الاجتماعية ، وضمانا لتوفر اكبر قدر من التوافق الاجتماعي بين المرء والمجتمع ، وبين الواقع المادي والواقع الفكري ، ثم ضمانا لاطراد حركة المجتمع في تقدمها وارتقائها ..

بيد أن المشكلة المطروحة بالحاح أن واقع الحياة الاجتماعية في دول العالم الثالث بعامة يتغير ، وايقاع التغير سريع سريع ... تحول سياسي من نظم قبلية ومن تبعية استعمارية الى استقلال ونظم حكم عصرية الشكل ... تحول من تكنولوجيا متخلفة الى تكنولوجيا متقدمة وما يستتبع ذلك من آثار على الانسان وعلى حياته كفرد وكمجتمع .. تحول ثقافي واقتصادي وما يلزم عنهما من تغير في البنية الاجتماعية والطموحات والقيم والنظرة الى الحياة .. الخ . ومع التحول الاجتماعي السريع يعاني المرء تمزقا نفسيا اذ يجد انماط حياته تتحداها خبرات جديدة . واذا عجز المجتمع في شموله عن مواكبة التحول السريع انعكس هذا العجز في اعراض التمزق النفسي والامراض النفسية وقصور الفرد والمجتمع .

وليست القضية ان نكون أو لا نكون ... فان المجتمعات لا تموت .. وانما التحدي يظل مفروضا . وقد تنتحر حضارة ، ولكن لا بد وان تنشأ حضارة بديلة . ومن ثم نتساءل في ضوء التمزق المعاش هل نحن نشاهد فصل الختام لحضارة دارسة ، وعلينا أن نترقب ميلاد حضارة جديدة ؟ لماذا وكيف ؟ سؤالان مطروحان كرها ، ونحن بحاجة الى اجابة جريئة ... ولكن الشيء المؤكد أن المجتمعات العربية تواجه تحديات عديدة وخطيرة هي قرار الوجود أو العدم . واذا كان البقاء للاصلح فان الاصلح هنا هو صاحب الرؤية الصحيحة ، والرد الصواب ، والاسلوب الناجح في مواجهة هذه التحديات .

ومن هنا كانت دلالة هذا الكتاب . ان افريقيا وهي تعيش عصر التحول الاجتماعي السريع تواجه ذات المشكلات التي تواجهها مجتمعاتنا العربية من حيث عمومياتها . ولهذا فان الكتاب الذي بين ايدينا يبدو لنا وكأنه يحفزنا الى سبر اغوار نفوسنا ، وتفهم واقعنا ، والعمل الجاد لوضع الحلول الجذرية . اننا مثل افريقيا عشنا حقبة من الزمن دولا تابعة أو مستعمرة وكانت حقبة الاستعمار فرصة الغرب للتأثير علينا : ـ فرض علينا نظما سياسية ، ومؤسسات اجتماعية ، وفكرا وثقافة ، ولم نكن في هذا كله خلاقين أو مشاركين ايجابيين . ثم بعد هذا حاول فصلنا عن ماضينا ... وكان صراعنا ضده فرصة للوقوف بأقدام راسخة على أرض واقعنا بامتداده التاريخي . ومن هنا كان البحث عن الاصالة في خضم الاتصال بالغرب . وحاول جيل الرواد اكتشاف جذور ثقافتنا لنقف على أرض صلبة في انطلاقنا الى التحديث وتأكيد هويتنا أو البحث عن ذاتنا وشخصيتنا .. وتشعبت امامنا السبل ، وتباينت النظرات ... ولا نزال .. فمن داع الى الانتماء للغرب ، واخر الى الانتماء للماضي فحسب ، وثالث الى الاقتباس بفكر مفتوح وقلب مفتوح ثم صهر كل ذلك في نفوسنا ووجداننا ، وصهره مع واقعنا ببعديه المكاني والزماني على امتداد التاريخ بمظانه الايجابية . ولا نزال على مفترق الطرق تحكمنا احيانا عصبية فكرية ضيقة مثلما هو الحال في أفريقيا على الرغم من جهود جيل الرواد فيها من أمثال سنجور ونكروما وسيكوتوري وغيرهم من قادة التحرر الافريقي والداعين لتأكيد الشخصية الافريقية .

نعم نحن بحاجة الى ان نعي ذاتنا الاجتماعية بأن نكتشف أنفسنا من خلال تحديات الواقع العديدة ، ونكتشف القوانين المميزة لمجتمعاتنا كظاهرة مطروحة للبحث العلمي ، وهي ظاهرة حية .. متطورة لها قوانينها الخاصة التي لا

تنفي القوانين العامة للتطور الاجتماعي بل يضيف اليهـا خصائصها ، وبهذا يكون تحديث المجتمع او تطويره نابعا من واقع سوسيولوجي ، وليس مفروضا من اطار غريب .

ونحن بحاجة الى ان نعرف كيف نقرن الثورة الاجتماعية بالثورة الثقافية ، بالتراث القديم و ما يحمله من قيم ايجابية ، حتى لا يكون التحول انفصالا عن الماضي ، ولا استيرادا منبت الصلة بتاريخ الواقع بل يضرب التحول المنشود بجذوره عميقا فيكون تحولا راسخا . ان المجتمع لا يولد ابدا جديدا ، كما لا يمكن لمجتمع ان يعيش بذاكرة ذابلة ... وانما هو امتداد ارتقائي .. والمجتمع ايضا لا يمكن ان يحيا اسير تراث جامد بل يأخذ ويعطي متفاعلا دائما وابدا مع كل جديد ايجابي يضيفه الانسان في كل مكان وزمان .

ومن هنا نجد أوجه كثيرة بيننا في العالم العربي وبين افريقيا في ضوء ما يعرضه هذا الكتاب . عاشت افريقيا ردحا طويلا تحت سطوة الاستعمار نهبا مباحا ، ثم انتزعت استقلالها . وفي معركتها من أجل الاستقلال ثم من أجل البناء شرعت مثلنا تبحث عن أصالتها في خضم الاتصال بالعالم الغربي ، وحاولت اكتشاف جذورها الثقافية من جديد لتقف على أرض صلبة في انطلاقها الى التحديث وتأكيد هويتها أو البحث عن ذاتها وشخصيتها الثقافية على اساس صحي سليم .

وعانت أفريقيا مثلما نعاني في ظروف التحول الاجتماعي من شكل الارتباط بتقاليد الماضي : كيف تحافظ وتتطور ؟ وماذا تبقي وماذا ترد ؟ وأخطر ما في الامر أن تغير التقاليد والتراث ليس بالامر الهين فهما وعاء ثقافي يحدد قواعد السلوك ويحكم العلاقات الاجتماعية بين الفرد وبين الجماعة ، بل وبين الجماعات وبعضها البعض ، كما يحدد معالم الشخصية الاجتماعية .

ويطرح الكتاب عديدا من القضايا الخطيرة احرى بنا ان نتدبرها . ومن بين هذه القضايا البحث عن اطار للتحـــول الاجتماعي يستوعب متناقضات الواقع المتمثل في الطوائف المتباينة لغة وتاريخا وثقافة وربما عرقا أيضا .. الخ . ونجد ظلا لمثل هذه القضية في عالمنا العربي ولكننا نخفيها خداعا للنفس . فنحن نعيش في عالم ينطوي على متناقضات تاريخية عديدة وان كان لنا جميعا تراث شامل على مدى قرون . بيد أن تراثنا الشامل له عناصر كثيرة بعضها متجانس وبعضها الاخر متنافر .. عناصر اتاح لها التاريخ والنظم السياسية فرصة الهيمنة ، وعناصر حرمتها هـذه النظم ، ولاسباب عديدة متباينة ، من فرصة التعبير عن نفسها وعن تاريخهـا وثقافتها فعاشت موؤدة وان ظلت باقية موجودة تؤكد حقهـا أو تتحين الفرصة .

اننا نؤمن بشعار القومية العربية ايمانا رومانسيا ولم يخضع هذا الايمان للعقل والعلم ، واذا بنا نعيش عمليـا وسلوكيا واقعا قبليا أو طائفيا او قوميا ضيقا ، وان كذبنا على انفسنا ، دون ان نتعالى على هذا كله لنصل الى فكر عقلاني حر ديمقراطي يؤمن بالتناقضات الكامنة وحركتها ، ويهدينا الى طريق استيعابها .

وطبيعي أن المشاعر القومية الضيقة أو الطائفية الموؤدة أو المقهورة تضعف من مشاعر الانتماء الاجتماعي ، وتعمق من وجدان الاغتراب ، وتشكل اغلالا تحد من حركة المجتمع وانطلاقه ، وتحول دون تطور الوعي الجمعـي المتجانس ، وتفرز أمراضا اجتماعية فضلا عن انها قد تكون أداة في يد أصحاب المصلحة داخليا أو خارجيا على حساب تطور المجتمع ومستقبله .

ويستتبع هذا البحث عن سبيل للتعبير عن مصالح الجماعات والطوائف المختلفة ، ومدى وعي هـذه الجماعات بمصالحها على المستويين القومي والطائفي في تصالح واتساق. وهل لديها القنوات الملائمة للتعبير عنها ؟ أم ان هناك قوى تقمع كل محاولة لذلك وهو ما من شأنه ان يؤدي الى ردة طائفية وتفتيت للبنية الاجتماعية على نحو ما نشاهد من صراعات وتمزقات في دول افريقيا تؤكد كلها ان مجتمعات العالم الثالث تزخر بالمتناقضات وان نشدت الاستقرار . ولن تجد الاستقرار الا في اللحظة التي يمكن ان يكون فيها الحوار الديمقراطي هو وسيلة القوى والمؤسسات الاجتماعية والافراد لادارة التفاعلات بينها . ولن يتحقق هذا التفاعل الا اذا توفر قدر من التوازن يكفل مصالح كل الطبقات والفئات والطوائف ويتيح لها حرية التعبير بحيث يكون الحوار الديمقراطي الحر مدخلا للتغيير الثوري . وسوف يتأكد التوازن الاجتماعي حين تجد هذه القوى فرصتها المتوازنة لتنال حقها السياسي والثقافي والاقتصادي بحيث تنتفي صورة النفاق الاجتماعي ، أو ينتهي والى الابد ذلك التباين بين ما يظهر على السطح وبين ما يجري ويعتمل في اعماق النفس والمجتمع .

لقد اقتصر التحول الاجتماعي عند بعض الدول الافريقية ، مثلما هو الحال في كثير من دول العالم الثالث ، على تحولات مظهرية في البنية الاجتماعية ، على نحو يدعم سلطة النخبة الجديدة الحاكمة المؤمنة بأنها صاحبة الراي ، والاحق بالحكم والتوجيه بل والتميز على من دونها . ولهذا اتجهت بعض هذه الدول الى تحولات اقتصادية خالصة أو الاهتمام ببناء مشروعات ضخمة ذات طابع مظهري ابتغاء الابهه الاجتماعية ، أو الفردية او التفاخر ، وكأنها تعويض عن ماضي دني ،دون أعتبار لظروف التطور التكنولوجي الحديث أو طبيعة الحاجة الفعلية . وكانت اغلب هذه التحولات مفروضة من اعلى وليست نابعة من القاعدة ، ولا استجابة لقناعة

جماهيرية واسعة تحميها . واقترن هذا أيضا بفهم خاطيء لدور الدولة فتفاقم الروتين واستشرى الفساد ، وتحطمت فعالية المؤسسات ، وفسدت صورتها لدى العامة مما اكد لها انفصالها واغترابها عن الواقع . فلم تجد العامة فيما يجري من تحولات تعبيرا عن ذاتها ، ولم تجد فيما تطرحه النخبة الحاكمة من فكر مذهبا لها يمنحها حماسا ودينامية ووعيا بتحررها فتنطلق طاقاتها لبناء مجتمع تشعر بالانتماء اليه نظاما وفكرا وانتاجا ، فالاغتراب لا ينتفى الا من خلال النشاط الابداعي الخلاق ، وعن طريق النشاط العملي والاجتماعي للمنتجين وللافراد المنظمين كمجتمع وثيق الروابط . وانما قنعت النخبة بأيديولوجية تبرر نظامها وسلطانها ، وتبرر معاييرها للانجاز وقيمها الاستهلاكية ، وهي أيديولوجية لا يجد فيها الافريقي ذاته فتكون وعاء لفكره وقيمه وتطلعاته ، وهو عين الواقع في كثير من بلدان العالم الثالث .

لقد اغفلت النخبة في كل هذا دور الجماهير كقوة فعالة للتطوير وحامية لمنجزاتها . واغفلت كذلك دور الثقافة فلم تؤمن بأن التحول الاجتماعي ما لم تظاهره ثورة ثقافية فانه يصبح صرخة في واد أو رحلة في فراغ . فالتحول الاجتماعي عملية متكاملة ، ولادة جديدة من رحم الماضي ، أو هو ثورة على هذا الماضي . وليس المقصود بالثورة هنا نفي الماضي أو نبذه ، بل النظر اليه نظرة نقدية من حيث هو فكر وعمل وقيم تحكم السلوك . فالثورة الثقافية تعني بداية وعيا تاريخيا بماهية المحتوى الثقافي المرفوض ، ووعيا عقلانيا بماهية المحتوى الثقافي المنشود ... انها رفض واع للثقافة البالية ، وتحد اجتماعي لغرس الجديد بكل عناصره المتكاملة من خلال القنوات الديمقراطية التي يدعمها نشاط فكري أو ثقافي بكل انواعه وضروبه .

ان صفحات هذا الكتاب عن افريقيا في عصر التحول الاجتماعي جاءت ثمرة خبرة غنية وخصبة لعالم وباحث متخصص في الانثروبولوجيا عاش قرابة خمس عشرة عاما في غرب افريقيا باحثا ودارسا للعديد من قضايا المنطقة . وتؤكد هذه الصفحات خطا عاما لمشكلات وقضايا بلدان العالم الثالث . اننا نجد انفسنا بين سطور هذا الكتاب حتى لاخال اننا ونحن نقلب صفحاته انما نقلب بعض صفحات من حياتنا بكل طموحاتها وعثراتها . وتؤكد لنا في عالمنا العربي أن الوعي بالذات هو الخطوة الاولى على طريق الاصالة والابداع ، وأن التحليل النقدي للعقل العربي ، النظري والعملي ، بكل متناقضاته هو منطلقنا على طريق المستقبل . وهو ما لن يتأتى الا بمواجهة تحدياتنا الاجتماعية والثقافية وغيرها في اطار من حرية الفكر والتعبير والالتزام بنهج علمي أصيل ركيزته الايمان بقيمة العقل والانسان .

شوقي جلال

مدخل

لا يزال البدوي من قبيلة الطوارق يسوق قافلة جماله في الصحراء الى داخل اسوار مدينة كانو القديمة ، مارا في طريقه الى جانب المطار ويشهد الطائرات النفاثة وقد قطعت المفازة كلها في ساعات ثلاث . وعلى بعد خمسمائة ميل الى الجنوب نرى صياد السمك من أبناء قبيلة ايجو Ijoh في دلتا نهر النيجر يبسط على الارض سلة صيده من الاسماك وهو على مرمى البصر من مصفاة تكرير البترول التي انشئت حديثا . وتمضي السنون ومع كل عقد تتسع الهوة الفاصلة بين تكنولوجيا الماضي البسيطة وبين الاساليب التكنيكية الحديثة للاقتصاد المعاصر ، واذا كان أبناء قبيلة الطوارق يكادون يشعرون بأثر عصر النفاثات فان صياد قبيلة ايجو يصلي داعيا الله أن يجد ابناؤه فرصة للعمل في مصفاة تكرير البترول .

حقا ان الكثيرين من ابناء غرب افريقيا من العلماء ومدرسي الجامعة والاطباء والجراحين ولدوا لآباء فقراء اميين يعيشون على الزراعة البدائية وقد استطاعوا أن يجتازوا الهوة التكنولوجية عبر جيل واحد . ولكن التفاعل المعقد بين الاقتصاد التقليدي وبين الاقتصاد الحديث ليس الا مصدرا واحدا فقط من بين مصادر عديدة ومتنوعة على مسرح الحياة في غرب افريقيا . ذلك أن البيئة الطبيعية تتدرج ما بين صحراء قفر جرداء في الشمال حتى الغابات الاستوائية المطيرة ومستنقعات نباتات المانجروف في ساحل غينيا . ونجد في المجتمعات التقليدية تباينا اشد وأعمق مما هو قائم بين الامم الصناعية في العالم الغربي . ان امبراطوريات مناطق السافانا الفسيحة الشاسعة في غانا ومالي والسنغال قد ازدهرت وذوت خلال العصور الوسطى التي شهدتها اوروبا . وذاعت آنذاك

شهرة تومبكتو Tombouctou كمركز للتعاليم الاسلامية . وكانت امارات نيجيريا الشمالية تضارع وتتذاك الممالك الاوروبية الاقطاعية من حيث مستواها ودرجة تعقد نظمها السياسية ، هذا بينما كانت تقوم على اطرافها وتخومها مجتمعات تتألف من مجموعات من القرى الصغيرة تشكل في مجموعها اكبر وحدة للتنظيم السياسي . واذا كان حكام ممالك منطقة السافانا قد اعتنقوا الدين الاسلامي ، ولو اسميا فحسب ، منذ مئات السنين الا ان شعوب المجتمعات الاخرى ظلوا ثابتين على عقائدهم الوثنية يعبدون اسلافهم وآلهتهم القديمة التي تقترن بالظواهر الطبيعية .

وقد أدت الحقبة الاستعمارية الى خلق فوارق متعددة ، ذلك أن كلا من بريطانيا وفرنسا والبرتغال أدخلت الى مستعمراتها لغتها ونظمها التشريعية والتعليمية . ومن ثم نجد أهل النيجر وغانا يسهل عليهم التحدث معا بينما يصعب عليهم التحدث مع جيرانهم من مواطني البلاد التي تتكلم الفرنسية . ولا نزال نـــرى النفوذ الالماني واضحا في توجو حيث كانت سابقا مستعمرة المانية وهي المنطقة التي قسمت فيما بعد الى اقليمين تحت الانتداب البريطاني والفرنسي ، واندمج الاقليم البريطاني مع غانا بينمــا اصبح الاقليم الفرنسي هو دولة توجو المستقلة اليوم . وهكذا نرى افريقيا الغربية اشبه بمجموعة مركبة من الوان الطيف المتباينة .

وتشارك منطقة غرب افريقيا بقية القارة في كثير من صفاتها وخصائصها ؛ وان كان هذا لا ينفي تميزها بخصائص ذاتية تبرر معالجتنا لها كمنطقة فريدة لها طابعها الخاص والمميز . لقد اعتاد الاوروبيون زيارة سواحلها منذ ما يقرب من خمسمائة عام ، ولم يكن هدفهم تجاريا فحسب بل تعليميا أيضا وبخاصة في القرنـين الاخيرين . ولم يكن غريبا أن المدن الساحلية التي يمكنها أن تزهو بأنها موطن عدد قليل من الاسر التي انجبت أجيالا متعاقبة على حظ وافر من التعليم قد انجبت أيضا اجيالا متعاقبة من النخبة « المتغربة » (غريبة الثقافة) كلا منها له خصائصه وسماته المميزة .

وعلى الرغم من أن سياسة الحكومة البريطانية قد اختلفت من نواح عدة عن سياسة الحكومة الفرنسية الا انهما تشابهتا من حيث اطلاق حرية زراعة المحاصيل الوطنية في محمياتهم الواقعة غرب افريقيا كما تشابهتا ايضا من حيث تقييد ، او الحد من ، استيطان السكان الاوروبيين في تلك المناطق (وربما يعود ذلك الى طبيعة المناخ والبعوض) . ونلاحظ أن كل بلدان غرب افريقيا ليست من نوع المجتمعات المتعددة الاعراق Plural Society على نحو ما هو قائم في كينيا أو زامبيا او روديسيا . ونلاحظ أيضا أن نسبة السكان العاملين في وظائف بالاجر في غرب افريقيا اقل منها في هذه البلدان الاخيرة .

وهكذا فبينما كان معدل التطور اكبر في الاقتصاد الوطني التقليدي لدول غرب افريقيا ، فان اكثر العمال الافريقيين في البلدان الافريقية الاخرى اتجه الى العمل في مجالات اقتصادية أكثر تعقيدا نسبيا . ومن ثم فان الهدف الاساسي لكتابنا هذا هو دراسة درجة الملاءمة والتكيف بين المجتمع التقليدي في غرب افريقيا وبين الظروف والاوضاع الحديثة ـ وجدير بالذكر أن كلمة تقليدي هنا تشير الى المؤسسات البعيدة عن النمط الثباتي (الاستاتيكي static) والمستمدة أصلا من المرحلة السابقة على الاستعمار ولا تزال باقية ومؤثرة حتى الان .

وقد ظهر في الآونة الاخيرة طوفان من الكتب والمقالات التي تناولت بالتأريخ والتحليل عمليات التحول السريع في النظم السياسية لدول غرب افريقيا خلال انتقالها من السيطرة الاستعمارية الى الاستقلال . وعنى كثير من الكتاب بتناول موضوع « آفاق الديمقراطية » بينما عنى اخرون بموضوع اقامة حكومات مستقرة يمكنها توجيه النمو الاقتصادي . ونلاحظ أن الاقتصاديين الذين توفروا على دراسة مشكلات البلدان « المتخلفة » أو غير النامية يلجأون كثيرا الى علماء الاجتماع في بحثهم عن العوامل الحيوية التي تضاعف او تكبح « معدل الانطلاق نحو نمو راسخ قوي

ومتين » ويسعى كل من العالم السياسي والباحث الاقتصادي الى فهم اثر عمليات التحديث على المجتمعات التقليدية . وقد نشأت فئات اجتماعية جديدة وبخاصة النخبة التي اكتسبت السمات الثقافية المميزة للغرب . ولكن ما هي العلاقة بين هذه الفئات الجديدة المتباينة وبين بعضها البعض من ناحية وبينها في مجموعها وبين مجتمعاتها التقليدية من ناحية أخرى ؟ والى أي حد أمكن ان تظهر في غرب افريقيا انماط من المجتمع الصناعي الغربي وبخاصة انقسام المجتمع الى طبقات اجتماعية ؟ وتنهال الاسئلة أكثر واكثر على علماء الاجتماع لكي يحددوا الشروط الاولية اللازمة لحدوث ثورة سياسية ، وتقدم اقتصادي سريع وما شابه ذلك . ويبدو ان الاجابة تكاد تكون شبه مستحيلة وفق فهمنا للمجتمع في الوضع الراهن . بيد أن دراسة هذه القضايا دراسة فاحصة هي أساس هذا الكتاب وسوف نركز اهتمامنا بوجه خاص على تطور النخبة وسماتها المميزة ذلك لان مستقبل افريقيا سوف يقع أولا والى حد كبير على عاتق هذه الفئات .

ونلاحظ أن أكثر الدراسات التي عنيت بمسألة نشوء المجتمع الصناعي قد حصرت نفسها في نطاق أوروبا الغربية واليابان حيث نشأت الراسمالية بين أحضان مجتمع اقطاعي في جوهره وكانت القضايا الرئيسية التي تناولتها تلك الدراسات هي ظهور البرجوازية واهمية الاخلاق البروتستانتية . ولكن المجتمعات التقليدية في غرب افريقيا لم تكن في الغالب الاعم مجتمعات اقطاعية بل قبلية ، كما لا يبدو أن بامكان أصحاب المشروعات الراسمالية الصغيرة القيام بدور ذي شأن كبير في التطور الاقتصادي لدول غرب أفريقيا . ومن ثم فان انتقال المجتمع القبلي الى دولة حديثة ترتكز على الاقتصاد الموجه من شأنه أن يثير عديداً من القضايا والمشكلات الجديدة لم تشملها الدراسات التقليدية . ونعود لنجد انفسنا مرة أخرى ازاء مفارقات بينة ، اذ يبدو ان التحديث يفضي غالبا الى دعم للعلاقات القبلية لا الى اندثارها ، او يبدو ان المجتمع ذا البنية الاجتماعية والسياسية

الاقل تطورا هو الذي لديه استعداد اكثر لتقبل التطور . بيد ان الكثير من هذه المفارقات تزول وتختفي ونكتشف حلها حين نعكف على دراسة كل مجتمع على حدة تفصيلا . وهكذا يجد المرء نفسه اسير امرين ، الحاجة الى دراسة تفصيلية لمناطق واقاليم صغيرة او دراسة مشكلات صغيرة تفصيلية ، والحاجة الى التعميم وتقنين ما ندرسه .

وانه لامر عسير استخراج قانون عام بشأن غرب افريقيا . وذلك بسبب ما اسلفناه من اختلاف البيئة في المجتمع التقليدي واختلاف التراث الاجتماعي ، ونلاحظ ان غرب افريقيا يضم اليوم اربع عشرة دولة مستقلة ومستعمرة واحدة هي غينيا البرتغالية *، هذا فضلا عن أن الاحصاءات القومية ، مثل الاحصاءات الخاصة بنصيب الفرد من الدخل القومي ونسبة التعليم بين الاطفال ، كثيرا ما تكون احصاءات مضللة . مثال ذلك أن غانا تندرج عادة بين أغنى الاقاليم التي تحظى بأكبر قدر من مظاهر الخدمات الاجتماعية بينما تندرج نيجيريا في درجة ادنى منها بكثير بالقياس الى معدلات دول غرب أفريقيا . هذا بينما الوضع في اكرا يختلف اختلافا ضئيلا عنه في لاجوس ، كما ان مناطق انتاج الكاكاو في اشانتي تشبه وتماثل مناطق غرب نيجيريا . فكل من غانا ونيجيريا لهما مناطق زراعية شديدة الفقر .

ولهذا فان القوانين العامة التي تشمل كل المجتمعات داخل دولة واحدة لن تكون ذات دلالة كبيرة . واذا سلمنا بهذه الفوارق المتناقضة يصبح لزاما علينا تجنب النهج الموسوعي في الدراسة ومحاولة وصف الاوضاع والمؤسسات في كل دولة وكل اقليم ويقتضينا الامر بدلا عن ذلك ان نركز على عمليات التحول الاجتماعي . وقد يتسنى لنا ونحن نستخلص المتغيرات الاساسية من بين الانماط المتباينة والمعقدة لمجتمع غرب أفريقيا ، ان نبني

---

* استقلت غينيا البرتغالية عام ١٩٧٤ وتسمت غينيا بيساو [الناشر]

نماذج نظرية تكون معبرة وموضحة لطبيعة التحولات المعاصرة . اذ قد نستطيع بفضل هذه النماذج ، وفي ضوء المعطيات المتاحة ، أن نصل الى تنبؤات عن الثورة السياسية وعن التقدم أو الكساد الاقتصادي .

وسوف نحاول ونحن بصدد اختيار مادة الدراسة أن تكون هذه المادة شاملة لكل اجزاء غرب افريقيا . ولكن ما معنى أن يكون الشمول موضوعيا وصحيحا ؟ اننا لو أعطينا ثقلا متوازيا ومتساويا لكل من الاربعة عشر بلدا فان معنى هذا اغفال واقع أن سكان نيجيريا البالغ عددهم ست وأربعون مليونا يربو كثيرا على تعداد سكان البلدان الثلاث عشر الاخرى الباقية مجتمعة ، كما وأن سكان نيجيريا الغربية البالغ عددهم عشرة ملايين يربو على عدد سكان اي دولتين مجتمعتين من الدول التي تتحدث الفرنسية ، كذلك فان سكان امارة كانو وحدها يزيد على سكان نصف الدول المستقلة مجتمعة . هذا علاوة على أن القضايا التي نعرض لها بالمناقشة في الفصول التالية سبق أن كانت موضوع دراسة مكثفة ولقيت عناية من الباحثين الامريكان والانجليز أكثر من الباحثين الفرنسيين. وطبيعي أن الامريكان والانجليز رصدوا كل اهتمامهم للبلدان المتحدثة بالانجليزية ولهذا لم يكن غريبا الا نجد غير النزر اليسير من المعلومات عن المجتمع الحديث بالنسبة لعدد من الدول (موريتانيا ومالي وفولتا العليا والنيجر وغينيا بيساو) . وثمة أسباب أخرى لا تختلف كثيرا عما سبق من الاسباب التي أوردناها جعلت غينيا غير معروفة بوضوح لدى الباحثين الغربيين .

وقد يفيد المرء من خبراته وانطباعاته الشخصية ليثري بها المعارف المتناثرة ، ولعل هذا المظهر من الانحياز سيبدو واضحا في دراستنا هنا . وجدير بالذكر أن انطباعاتي الذاتية هي وليدة اقامة امتدت أربعة عشر عاما قضيتها باحثا ومعلما في نيجيريا الغربية هذا علاوة على العديد من الزيارات الطويلة خلال تلك الفترة للمناطق الاخرى من نيجيريا وغانا ، وزيارات قصيرة للدول الناطقة

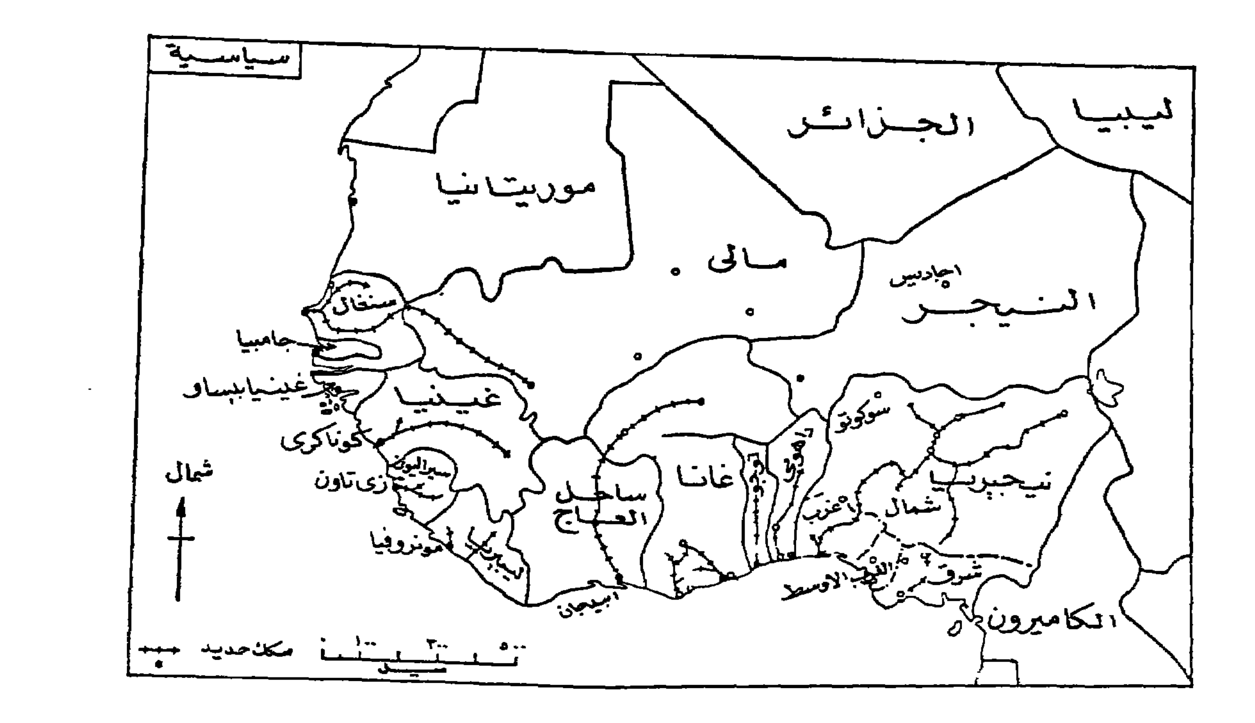
بالفرنسية . ولعل هذا هو السبب في أنني خلال الصفحات التالية قد أفيض واكرر في الحديث عن البلدان الناطقة بالانجليزية حتى حتى اضحت هي الغالبة فيما أسوقه من أمثلة توضيحية فضلا عن استشهادي بالكثير من الامثلة عن نيجيريا اكثر من غيرها . ولا ريب في أن الطبيعة غير اليقينية لكثير من احكامنا فضلا عن نقص المعلومات اللازمة لتأكيد صوابها سيكون مؤشراودليلا على حاجتنا الى المزيد من البحث والدراسة لمجتمع غرب أفريقيا .

مقدمة لطبعة ١٩٦٩ :

مضى عامان كاملان منذ صدور الطبعة الاولى لهذا الكتاب ، واذا كان المرء لا يفتأ يردد الحديث عن سرعة عملية التحول الاجتماعي في دول افريقيا الا أن الفترة ما بين الطبعتين غدت قصيرة تماما بحيث لا تسمح باضافة اي زيادة أو تنقيح ذي قيمة على النص ، بيد اننا ادخلنا قليلا من التصويبات . ووقع خلال تلك الفترة انقلاب سيراليون وهو ما اشرنا اليه بايجاز في حاشية اضفناها للكتاب ابان الطبع . وتضمنت الحاشية ايضا اشارات الى الاحداث الاخيرة في نيجيريا والغاء التقسيم الاقليمي في عديد من الدول مما استلزم ادخال بعض التعديلات على النص ، واضفنا الى ثبت الكتب والمراجع الكتب القليلة التي صدرت مؤخرا ولكن ظل الترقيم الاصلي للمراجع ثابتا كما أوردناه من قبل تفاديا لاي صعوبات محتملة اذا ما رجع احد القراء الى الطبعتين معا .

ب ك . لويد

بريتون ساسكس


سياسية
ليبيا
الجزائر
موريتانيا
مالى
النيجر
اجاديس
سنغال
جامبيا
غينيابيساو
غينيا
كوناكرى
سيراليون
فريتاون
مونروفيا
ليبيريا
ساحل العاج
ابيجان
غانا
توجو
داهومى
سوكوتو
نيجيريا
شمال
غرب
شرق
الاوسط
الكاميرون
شمال
سكة حديد
ميل
٥٠٠
٣٠٠
١٠٠

الباب الاول
تراث الماضي



١

المجتمع التقليدي

تبين خريطة غرب افريقيا منطقة يحدها غربا وجنوبا المحيط الاطلسي وتحدها شمالا صحراء جرداء مترامية الاطراف . وتمتد شرقا عبر جبال الكاميرون مساحات شاسعة من السافانا ، وهي من المناطق الافريقية التي لا تعرف عنها معلومات كافية ــ وتشمل : اراضي الكونغو الشمالية وتشاد ودارفور في جمهورية السودان . وتطل كل دول غرب افريقيا على المحيط الاطلسي فيما عدا ثلاثة منها فقط ، ولكل من تلك الدول عاصمتها الساحلية ــ ويقع بعضها في اشباه جزر صخرية أو جزر قريبة من سطح الماء (بحيرات ساحلية Lagoon على نحو يذكرنا بانها كانت يوما مراكز أمامية للسيطرة الاوروبية . وتمتد خطوط السكك الحديدية ابتداء من العاصمة الى داخل البلاد ولكن دون أن تربط بشبكتها مدن البلدان المجاورة . وتسوء حالة الطرق او تتلاشى تماما كلما اقتربنا من الحدود الدولية . وتبدو دول غرب افريقيا اليوم وكأن كلا منها تتخذ لنفسها منحى خاصا بها تجاه العالم الغربي . بيد أن هذه الظاهرة وليدة القرون الاخيرة ، ذلك أن الزنوج زحفوا أول ما زحفوا الى غرب افريقيا عبر مناطق السفانا من منابع النيل العليا . وقد وفدت عبر هذا الطريق فيما يبدو جماعات غازية مظفرة وربما كانت مرتبطة بالممالك النوبية حاملة معها نظام الملكية المقدس . وربما جاءت عبر طريق مماثل أيضا النباتات الغذائية التي يزرعها الان أبناء غرب افريقيا وهي الموز وبعض أنواع من اليام والكوكويام . ومن المحتمل ايضا ان تجارة الذهب ، الذي كان يستخرج من مناجم جنوب غانا ليباع في مناطق البحر الابيض المتوسط ، ساعدت على نمو وازدهار امبراطورية غانا ثم وريثتيها من بعدها في

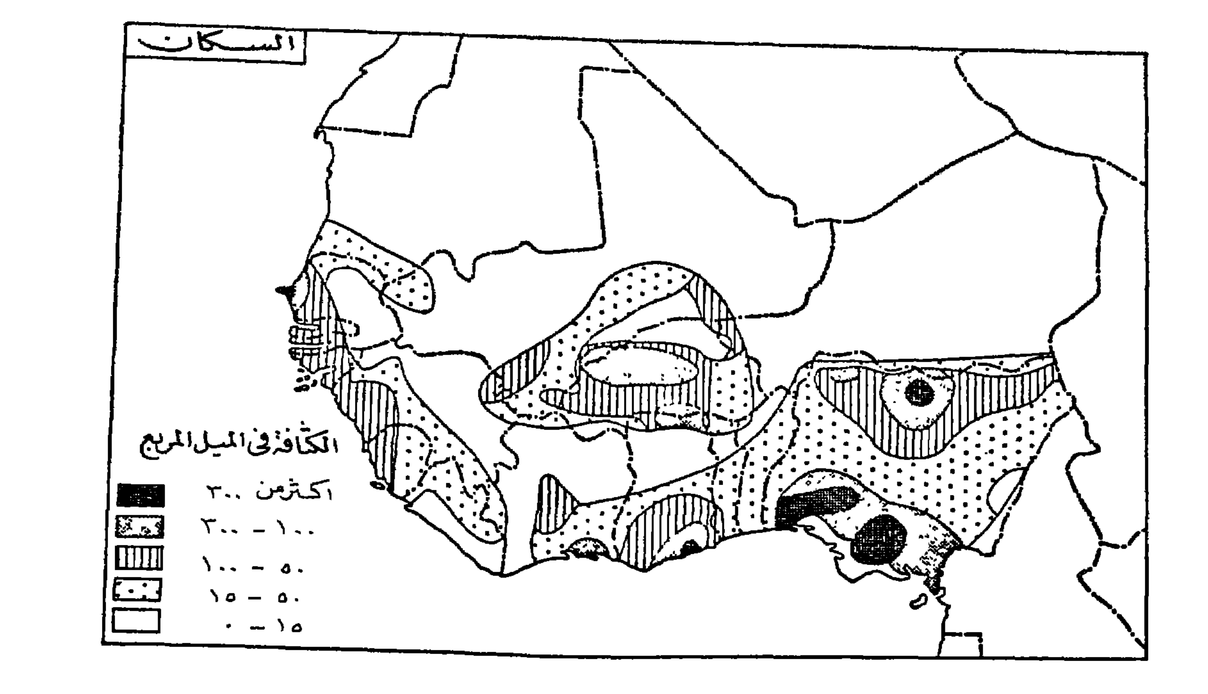
منطقة النيجر العليا وهما مالي وسونغاي Songhai . وانبعثت اليوم محاولات احياء الروابط بين شعوب افريقيا الغربية في الشمال والغرب بعد أن بدأ زعماؤهم السياسيون المسلمون يتطلعون الى اشقائهم في العقيدة من الشعوب الاسلامية الاخرى وبعد أن بدات الصحراء تبشر بالكشف عن ثرواتها الدفينة ومن ثم امكانية انشاء شبكات من الطرق الكبيرة عبر الصحراء .

واذا القينا نظرة على الخريطة الديموجرافية نجد بها ثلاث مناطق ذات كثافة سكانية عالية وهي امارات هاوسا ـ فولاني Hausa-Faulani وممالك يوروبا Yoruba وبلدة ابو Iho وتقع كلها في نيجيريا . وتختلف المناطق الثلاث عن بعضها اختلافا بينا حتى ليصعب الربط مباشرة بين الكثافة السكانية وبين العوامل التاريخية او البيئية . وتقع بلدة (أبو) داخل غابة مطيرة في اقليم ذي تربة رسوبية فقيرة ، ولكن تم استئصال القطاع الاكبر من اشجار هذه الغابة وابدلت اشجارها بحزام من نخيل الزيت البري ـ اجمة النخيل . ونجد اليوم في بعض المناطق اكثر من الف نسمة يعيشون ويزرعون داخل مساحة لا تزيد على ميل واحد مربع .

وعلى النقيض من ذلك عواصم امارات هاوسا ـ فولاني : ونذكر منها على سبيل المثال مدينة كانو ، وزاريو ، وسوكوتو وكاتسينا . اذ تضم هذه المدن مستوطنات مسورة يقطن كل منها بضعة آلاف من السكان وتشكل مراكز ادارية وتجارية لمناطق ريفية واسعة . وتشبه هذه المدن في نواح كثيرة مدن اوروبا في العصر الوسيط . ونلاحظ ان الكثير من الاساليب والطرز المعمارية السائدة في تلك المدن هي ذاتها السائدة في السودان والبلدان العربية الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط . وقد ترجع كثافتها السكانية الراهنة الى طبيعة الاستقرار السياسي لتلك الممالك خلال القرون الماضية فضلا عن اسر العديد من سكان المناطق المجاورة التي تفتقر الى حكومات مركزية . وثمة اعتقاد بأن نصف سكان بعض الامارات كانوا عبيدا حتى مستهل القرن الحالي .

كذلك الحال بالنسبة لمدن اقليم (يوروبا) فانها مختلفة تماما ، اذ يعيش الان اكثر من ستين بالمائة من جملة السكان في الجزء الاوسط ويسكنون مدنا تضم كل واحدة منها اكثر من عشرين الف نسمة . الا أن هذه المستوطنات المسورة والمكتظة بسكانها نادرا ما تكتسب صبغة حضرية ـ اذ ان ثلاثة ارباع البالغين من سكانها يعملون بالزراعة ويروحون ويجيئون في رحلات يومية يقطعونها ما بين موطن سكناهم في المدينة الى مزرعتهم التي تبعد قرابة خمسة أميال . اما الكثافة السكانية العالية داخل مناطق الغابات فيفسرها جزئيا الهجرة الجماعية من يوروبا جنوبا في مطلع القرن التاسع عشر اثر انهيار امبراطورية اويو Oyo التي دمرتها الصراعات الاهلية وهجمات مملكة فولاني .

ولكن الكثافة السكانية في الاجزاء الباقية من غرب افريقيا فهي قليلة نسبيا حيث تبلغ في المتوسط خمسة وعشرين نسمة في الميل المربع . ونلاحظ حالات من التمركز اكثر من ذلك في بعض الممالك المستقرة ـ مثال ذلك مملكة موصي Mossi في الفولتا العليا ـ وعلى طول ضفاف نهر النيجر في اقاليم السافانا . ويمكن القول بوجه عام اننا كلما اتجهنا جنوبا في مناطق الغابات حيث تغزر الامطار ويقصر موسم الجفاف ، كلما كانت الظروف اكثر ملاءمة للاستيطان بكثافة سكانية عالية . ويزرع الفلاحون من اهالي تلك المناطق محاصيل زراعية اضافية تتخلل النباتات الاصلية كما يكون بالامكان جني محصولين من الاذرة كل عام وبهذا يزيد عائد الزراعة بالنسبة لقلة الارض والعمل معا . بيد أن اكثر تلك الاراضي لم يبدا تعميرها الا خلال القرنين الاخيرين . وثمة اعتقاد شائع بأن تجارة الرقيق عبر المحيط الاطلسي والتي شحنت قرابة ستة ملايين زنجي الى العالم الجديد خلال النصف الثاني فقط من القرن الثامن عشر هي المسئولة عن قلة الكثافة السكانية في غرب افريقيا . ولكن يبدو ان الجانب الاكبر من هؤلاء الرقيق اتوا من المناطق ذات الكثافة السكانية العالية اليوم ـ « ساحل الرقيق » الذي يشمل اليوم القطاعات الجنوبية من غانا وتوجو وداهومي ونيجيريا .


السكان
الكثافة في الميل المربع
اكثر من ٣٠٠
١٠٠ – ٣٠٠
٥٠ – ١٠٠
٥٠ – ١٥
١٥ – ٠


الجماعات
العرقية الرئيسية
بربر
طوارق
طوكولور
فولانى
ساراكول
مالينك
سونغى
هاوسا
باماراا
موصى
سوسو
فولاني
بادبيا
فولانى
هاوسا
كانورى
نوبي
بولى
اكان
تيف
يودوبا
ادو
ايبو
اكرو
باسا
جاو
اجوه

ولقد كان اكثر سكان افريقيا الغربية في الماضي ـ مثلما هم اليوم ـ يعملون بالزراعة . وساعد فائض القيمة البسيط الناتج عن عمل الفلاحين بين بعض الشعوب على ظهور جماعات من الحرفيين المتخصصين ورجال سياسة وموظفين ورجال دين حكوميين . بينما نجد الحرف لدى بعض الجماعات العرقية الاخرى يقوم بها رجال هم في الاساس فلاحون، بل ان قسيس القرية كان يفلح ارضه شأنه شأن كثيرين غيره . واعتاد الفلاح استخدام ابسط الادوات في عمله ـ معزقة ذات مقبض صغير ، وفاس وسكين . واتبع الفلاحون في زراعتهم نظام الزراعة بالراحة حيث يزرعون الاراضي عامين او ثلاثة اعوام متتالية ثم يتركونها لتعود سيرتها الاولى اجمة كما كانت وينزحون الى منطقة مجاورة ليبداون معها دورة زراعية جديدة .

ولم يستخدم الفلاحون الاسمدة البشرية او الحيوانية الا في بعض مناطق السافانا حيث كانت تقوم علاقة تكافل ـ ولا تزال قائمة ـ بين البدو الرحل من اقليم فولاني Fulani وبين المزارعين المستوطنين .

ولكن بات فلاح افريقيا الغربية يعرف الان انواعا عديدة ومتباينة من المحاصيل . ولا يزال ثمة قلة من الشعوب يقصرون نشاطهم الزراعي على زراعة نوع من الحبوب الصغيرة الرديئة تعرف باسم ديجيتاريا Digitaria ويقطن اغلب هؤلاء هضبة جوسي في شمال نيجيريا وكذلك جبال الكاميرون الملاصقة لها . بيد ان اكثر شعوب منطقة السافانا اعتادوا منذ احقاب بعيدة الاعتماد على انواع مختلفة من الدخن ـ ولعل هذه المحاصيل كانت تزرع اصلا في جنوب اثيوبيا . ولا تزال نشأة زراعة الارز فيمناطق ماندي Mande في أعالي النيجر سرا غامضا غير معروف . ويعتبر نبات اليام (الابيض منه والانواع الغينية المختلفة) المحصول الغذائي الاساسي وهو على ما يبدو نبات طبيعي اصلي في اقاليم الغابات . ولكن اضيفت الى تلك الحاصلات الانواع الاخرى الواردة من آسيا

والتي سبق أن ذكرناهـا بالاضافة الى الاذرة والمينهوت وهما غلتان وفدتا من امريكا . ولم يكن فلاح غرب افريقيا يعرف من المحاصيل الوافدة غير انواع قليلة بينما يعرف الكثير من الانواع المحلية . أما الان فان فلاح (يوروبا) يعرف ما يزيد على ثلاثين نوعا مختلفا من نبات اليام وهكذا اصبحت الزراعة بعد هذه المعرفـة الفنية مهمة معقدة ، كما دخلت المحاصيل المتباينة في دورة زراعية منتظمة مع وضع ظروف التربة والمناخ موضع الاعتبار .

وكانت الصناعات الحرفية في غرب افريقيا اكثر تطورا منها في بقية مناطق القارة على الرغم من بساطة التكنولوجيا هنا ايضا . ولوحظ عشية الحقبة الاستعمارية أن جل شعوب المنطقة تستخدم أدوات حديدية بينما كانت صناعة السلال والاواني الفخارية عامة وشائعة . وانتشرت زراعة القطن في مساحات واسعة من اقاليم السافانا وعلى حواف الغابات . واعتاد سكان المنطقة غزل خيوطه على انوال افقية وراسية ليصنع الحائكون من نسيجه ملابس ذات تصميم معقد في الغالب الاعم ـ مثل رداء الريجا Riga في منطقة الهاوسا او رداء الاجبادا Agbada والسكوتو Sokoto في اليوروبا . وعمد البلاط الملكي الى توظيف عاملين متخصصين في القصـر لانتاج الملابس والاوشحة الملكية وغير ذلك من النياشين أو الزخارف الفاخـرة اللازمة للملابـس او الاقمشـة المزركشـة المستخدمة للمزارات . وانتشـرت في منطقة الغابات صناعات خشبية ذات مستوى فني رفيع وبخاصة في مجال صناعة الاقنعة المستخدمة في الاحتفالات الدينية . ولعل أقدم الامثلة على هذا الفـن رؤوس أيف Ife النحاسية في جنوب غرب نيجيريا وبنين Benin وغيرهـا من المراكز الواقعة في الحوض الادنى من نهر النيجر ، ويرجع تاريخها الى القرن الرابع عشر وتعتبر اليوم من الاعمال الشهيرة في العالم الغربي .

وافضت درجة التخصص العالية في مجالي الزراعة والحرف الى قيام اسواق كبيرة في غرب افريقيا تعد اكبر وارقى من غيرها

في بقية القارة . بل اننا نجد عملية التبادل التجاري تتم على مستوى عال حتى في المناطق التي يوجه فيها جمهرة الزراع جهدهم لانتاج الطعام وفاء لحاجتهم للاستهلاك المحلي . واستطاعت الممالك المستقرة ان تهيء الامن لطرق القوافل التجارية . واذا كانت الشعوب المتخلفة جدا تمارس التجارة على اساس نظام المقايضة الا اننا نجد في بعض المناطق الاخرى عملات محلية مثل الاصداف البحرية التي يستعملها اهل اقليم يوروبا وبعض الشعوب الاخرى المجاورة . وتتسم هذه العملات بكل الخصائص المميزة للنقد حسب تعريف رجال الاقتصاد . وزاد معدل التجارة وبخاصة في المناطق الساحلية مع عملة تبادل الرقيق ثم زيت النخيل مقابل البضائع الاوروبية المستوردة . ونلاحظ عن حق أن القدرة التجارية لها شأن كبير ومكانة عظمى بين بعض الجماعات العرقية . وقد داب ابناء اقليم الهاوسا اخيرا على السفر والترحال كثيرا عبر مناطق السافانا والى سواحل نيجيريا وغانا ، بينما نشط أهل يوروبا رجالا ونساء ، في اسواق ابيدجان Abidjan وبوبو ـ ديولاسو Bobo diou lass واواجادوجو Ovagadougoa وفي كل انحاء غانا .

ومما يشد انتباه الزائر لاقليم غرب افريقيا الذي يقطع البلاد من الساحل الى الداخل هو الانتقال التدريجي البطيء من الغابات الى السافانا حتى ليخيل للمشاهد أن الفوارق تكاد تنعدم داخل كل منطقة بيئية متميزة . وتكاد تغيب عن ملاحظته الفوارق المحلية في الاسلوب المعماري وهو ينتقل عبر سلسلة متتابعة من المستوطنات الريفية الصغيرة . ولكن مع هذا كله فان الفوارق الثقافية بين شعوب غرب أفريقيا شديدة الوضوح والتباين .

ويعتبر كل سكان غرب افريقيا تقريبا من الجنس الزنجي بما في ذلك سكان السافانا وهم أميل الى أن يكونوا اكثر سوادا وطولا بالقياس الى سكان الساحل . ويقطن تخوم الصحراء بدو البربر . ويبدو أن الفولاني خليط من البربر وزنوج نهر السنغال اذ انهم أرق بشرة بصورة ملحوظة ولهم قسمات حادة معقوفة . وقد

هاجر رعاة البقر من سكان الفولاني خلال القرون الاخيرة عبر منطقة السافانا الى شمال نيجيريا وجبال الكاميرون حيث تقطن تجمعات كبيرة لهم اليوم .

وبقيت جماعــات الطوكولور Toucouleur الاكثر ســوادا مزارعين مقيمين في السنغال وهم ايضا مولدون نتاج ذلك الخليط . وبينما خرجت من قبائل الفولاني الفئات الارستقراطية الحاكمة لكثير من ممالك السفانا فان الطوكولور هم اليوم مصدر اليد العاملة غير المدربة في داكار ، ونحن لا نكاد نلحظ فارقا واضحا بين الشعبين المتشابهين من حيث الخصائص الجسمية .

ونجد الكثير من السمات الثقافية رائجة على نطاق واسع في غرب أفريقيا ، ونذكر منها الاعتقاد بقدسية الملك والآراء المتوارثة عن اصل الانسان والنشأة الاولى للسلالة التي تحكيها الاساطير . ولا ريب في أنه قد حدث خلال القرون الماضية تحركات سكانية هامة وواسعة داخل منطقة السافانا ومن السافانا الى داخل الغابات . بيد أن الثغرات الثقافية الحادة التي نلمسها بين شعوب المنطقة يمكن تفسيرها بوضوح في ضوء توزيع الجماعات اللغوية . فأكثر شعوب جنوب نهر النيجر يتكلمون لغة « سودانية غربيـــة » ، وينتمي الهاوسا الى المجموعة التشادية ـ الحامية Chad-Hamatic للغات الحامية السامية ، اما لغة سونغاي Songhai التي يتكلمها أهل جاو Gao في النيجر فلا تزال غير محددة الهوية ولم يجر تصنيفها حتى الان . وتتقسم لغات السودان الغربي الى مجموعات عديدة متباينة . لغة كوا Kwa ويتحدث بها أهل منطقة الغابات من نيجيريا حتى ليبيريا ، ولغة جور Cur ويتحدث بهـا سكان فولتا العليا والاجزاء الشمالية من غانا وساحل العاج ، ولغة مند Mend وهي لغة الدول الغربية بما في ذلك القطاع الاكبر من مالي وغينيا وسيراليون واكثر السنغال . وتدخل لغات البانتو Bantu ضمن مجموعة اللغات السودانية الغربية ويتكلمها سكـان المناطق

الشرقية من نيجيريا . وثمة اعتقاد بان لغة البانتو جاءت الى الشرق ووسط وجنوب افريقيا وافدة من المناطق القريبة من بحيرة تشاد . ويعكس لنا هذا التوزيع اللغوي في القطاعات الشرقية من غرب افريقيا الحدود بين السافانا وبين الغابات ، كما يعكس في القطاعات الغربية دخول تجار منطقة الماند Mande والجماعات الحاكمة من موطنهم الاصلي في المنطقة الواقعة بين نهر السنغال وبين هضبة فوتا جالون .

بيد ان هذا التقسيم البسيط للجماعات اللغوية يخفي فوارق هامة وكبيرة بين لغات الجماعات العرقية المجاورة . مثال ذلك أن لغة يوروبا تختلف عن لغة الادو Edo أو النوب Nupe أو الفون Fon (وكلها من لغات جماعة كوا Kwa كما أن جميعها مجاورة للغات يوروبا) بقدر اختلاف الانجليزية عن الروسية . وطبيعي أن مثل هذه الفوارق التي نلمسها بوضوح في جميع أنحاء غرب افريقيا ترجح وجود جماعات ثقافية متمايزة منذ زمان طويل . وتوازي الفوارق اللغوية انماط متمايزة في الطعام وعادات اللباس فضلا عن العديد من القيم الثقافية التي تكاد جميعها تحول دون الاتصال والتفاهم بين الشعوب . اذ نجد لغة الهاوسا اليوم اللغة الاولى لشعب تعداده عشرون مليونا ، بينما يتحدث بها اخرون كلغة ثانية . كما وان اللهجات المفهومة لدى كل من اليوروبا والابو يتحدث بها عشرة ملايين نسمة . ويقال أن سكان هضبة جوس Jos يتكلمون اكثر من مائة لغة متفرقة حتى أن بعض هذه اللغات قاصرة على بضع قرى قليلة متجاورة .

وتنعكس الفوارق الثقافية بين الشعوب المتجاورة بصورة أوضح في الاساطير التي تحكي النشأة الاولى لكل شعب من هذه الشعوب حيث تزعم أكثرها أنها انحدرت عن سلف واحد خاص بكل منها . مثال ذلك أن شعب تيف Tiv وتعداده مليون نسمه ويسكن وادي بينو Benue يعتقد انه من سلالة رجل يدعى تيف وهو الاب الاول للجنس البشري وقد توالدوا جميعا عنه على مدى

ن خمسة عشر جيل متعاقبة . ويعتبر شعب يوروبا نفسه
أودودوا Oduduwa وهو الانسان الاول الذي أمره الله
ليم أن يهبط من السماء وقد تعلق بسلسلة لكي يعمـــر
. تتنبأ الاسطورة أن يكون للحكام المتوجين وحدهم سلسلة
ميزة . ولا تزال كلمة قبيلة مستخدمة على نطاق واسع
تقتصر على شعب منحدر من سلالة واحدة ومنظم
لى أساس العرق والعمر . وهناك جماعات عرقية كثيرة
عليها تلك المعايير . ذلك أن بالامكان اعتبار شعب الابو
، أساس قبلي ، ونجد مبررا لهذا الاعتبار ، ولكنهم لا
سلف واحد مشترك بينهم جميعا فضلا عن أن لكل قرية
اطيرها الخاصة التي تحكي نشأتها الاولى ، وهم على
هذا كله لا يعترفون بأوجه التماثل الثقافي التي تجمع
يز هم عن غيرهم من الشعوب المجاورة . ولعل شـعور
د شعب الابو ظاهرة حديثة وليدة القرن العشرين نتجت
ك المتزايد بين شعب الابو والشعوب المجاورة له . ولكن
وهو مصطلح لغوي يصدق تماما على كل المتحدثين بها ،
م على وجه التقريب مواطنون لإحدى الامارات كما أن
سلمون ونلاحظ في بعض المناطق الثقافية الواسعة نسبيا
قين بلغة جور في شمال غانا أن شعب هذا الاقليم لا
ا عن ادراك الوحدة بين جماعته كلها مما جعل آفاقهم
لغاية . ويمايز هذا الشعب بين نفسه « نحن » وبين
هم » على الرغم من أن جيرانه الذين قد يكونون « هم »
ا يصبحون أعضاء من « النحن » في سياق اخر .

د معلوماتنا الراهنة عن تاريخ غرب أفريقيا تقتصر على
لك الكبرى . وقليل من هذه الممالك لها سجلاتها المسطورة
بية ، وزار اكثرها رحالة متعلمون وسجلوا احداثا
حددة عنها . وتحكي أساطير تلك الممالك أسماء ملوك
هم انجازات كل منهم . وعلى النقيض من ذلك نجد أن

تاريخ الشعوب التي لا تنتظم في دول محددة مسجل شفاهيا ضمن قصص الانساب التي تحكي في اغلب الاحيان قصة اسطورية عن تاسيس الجماعة منذ ثلاثة أو أربعة اجيال فقط قبل ميلاد شيوخهم الاحياء . أما ما بين فترة النشأة الاولى وبين أحداث العقود الاخيرة فهي في طي النسيان . ونحن لا نزال نجهل كل شيء تقريبا عن المجتمع الانساني الاول في غرب أفريقيا حتى أن ما كشفته سجلات الآثار لنا حتى الان لا يعدو شذرات متفرقة .

ويروي التاريخ أن غانا كان يحكمها قديما ملك زنجي لــه حاشية مهيبة ، وبلغت أوج عظمتها خلال القرن العاشر قبل الميلاد وقتما دان لسلطانها قطاع كبير من الدول المعروفة اليوم باسم السنغال ومالي اذ خضعت جميعها لسلطان العاصمة كومبي صالح Kumbi Saleh شمال باماكو . وأطاح المرابطون Al moravides * بالامبراطورية في منتصف القرن الحادي عشر ، وهم طائفة طهورية من الطوارق المسلمين . وازدهرت امبراطورية كانم Kanem في منطقة بحيرة تشاد خلال الفترة من القرن العاشر حتى الخامس عشر ، واعتنق حكامها الدين الاسلامي في القرن الحادي عشر . وخلفت مالي غانا وكان يحكمها حكام من ماندي Mande واعتنقوا الاسلام بدورهم فيما بعد ، ثم دالت امبراطورية مالي لتصبح سونغاي صاحبة القوة والسلطان .

---

* المرابطون Almoravides : اسرة مسلمة طهورية شديدة البأس قاسية الطباع يرجع تاريخها الى القرن الحادي عشر ، اسسها قائد عسكري يدعى يحيى بن يس ومعنى المرابطون « حماة الحدود دفاعا عن العقيدة » . استولى المرابطون على مراكش واسسوا مدينة مراكش عام ١٠٦٢ ثم عبروا الى اسبانيا حيث هزموا الفونسي السادس عام ١٠٨٦ ثم اجتاحوا بقية الممالك الاسلامية المحلية . وبلغ المرابطون اوج سلطانهم في عهد يوسف بن تاشفين ولكن في ظل حكم ابنه علي الذي حكم فيما بين عامي ١١٠٦ ـ ١١٤٦ حدثت ردة فعل ضد قسوة النظام وزالت دولتهم فيما بعد على يد الموحدين عام ١١٤٧ . (موسوعة كاكستون ـ ط ١٩٧٣) .
مادة Almoravides Kumbi Saleh (المترجم) .

ووفرت هذه الامبراطوريات الامن الداخلي تيسيرا للتجارة ، وكانت كل منها تقيم شرق سابقتها ولعل هذا يعكس محور التجارة المتغير . ونظرا لان حكام تلك الامبراطوريات كانوا يبعثون اقاربهم لادارة الاقاليم المجاورة فقد ادى الى انتشار ابناء تلك الاسر في مختلف مناطق السافانا وكان الكثيرون منهم يتمتعون بمكانة عالية . وعلى الرغم من ان الاسلام اصبح دين البلاط الملكي في تلك الامبراطوريات الا انه لم يصل بالضرورة الى الجماهير . ولهذا لم تكد تسقط الامبراطوريات وتستعيد مجتمعات القرى استقلالها الذاتي حتى استعادت الطقوس الدينية التقليدية سيرتها الاولى . ولا يزال القطاع الاكبر من شعب بامبارا Bambara في مالي الحديثة لم يعتنق الاسلام بعد .

وكشفت الممالك الصغيرة عن قدرة أكبر على الاستمرار بينما كانت الامبراطوريات العظمى تظهر لتسقط بعد قليل . مثال ذلك ممالك موصي Mossi التي حكمتها اسرة واحدة منذ القرن الثالث عشر . ويمتد تاريخ ممالك الهاوسا الى نفس الحقبة تقريبا ، والفارق الوحيد أن حكام ممالك الموصي اعتنقوا الاسلام . واستطاعت مناطق السافانا الغربية أن تعيد تنظيم نفسها ثانية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وتؤسس امبراطورية عظمى على يد الحاج عمر وساموري . بيد أن حياة القرية لم يطرأ عليها تغير كبير في أي من الحالتين . واستطاع المسلمون في اقليم فولاني جهة الشرق أن يطيحوا بممالك الهاوسا بعد أن خاضوا ضدهم جهادا مقدسا بحجة أن حكام وشعب الهاوسا قد فترت همتهم الدينية وتهاونوا في أمر عقيدتهم الاسلامية . واحتفظت هذه الممالك ببيئتها الاصلية وان شكل أبناء الفولاني ارستقراطية جديدة حاكمة يتولى أبناؤها المناصب السياسية الرئيسية .

وعرفت شعوب الغابات الحكومة المركزية مؤخرا ولعل المهاجرين من السافانا قد حملوا معهم منذ الف عام تقريبا نظام الملكية المقدس الى هذه المناطق . ولكن يبدو أن اندماج المؤسسات

القبائلية الصغيرة في ممالك قوية انما هو نظام وافد أساسا نتيجة احتكاك الاوروبيين بالساحل اثر انشاء طرق التجارة الجديدة واستعمال الاسلحة النارية . وهكذا فقد نشأت مملكة يوروبا القوية على الطريق من الحوض الادنى لنهر النيجر حتى الساحل ولو انها استعانت في ذلك بالخيل المجلوبة من الشمال اكثر من البنادق . وتعتبر الرماح النحاسية المصنوعة في بنين Benin خلال القرن السادس عشر شاهدا على خطر الاسلحة البرتغالية واهميتها في توسع تلك المملكة .

وبينما كانت كل شعوب السافانا تقريبا تشكل من حين الى اخر جانبا من امبراطوريات شاسعة الا ان الفرص التي اتيحت لاكثرهم للمشاركة في الحكم كانت ضئيلة للغاية ، فقد واصلوا حياتهم في قراهم غافلين عن حياة العاصمة ولا يعلمون عنها شيئا . وعلى النقيض من ذلك ممالك الغابات وان كانت اقل مساحة من تلك اذ كانت الوظائف السياسية متاحة لقطاع كبير من الناس ولم تكن النخبة السياسية جماعة غريبة حاكمة . وهكذا تضم منطقة الغابات شعوبا كثيرة لم تعرف أبدا الحكومة المركزية ، وكانت اكبر وحداتها السياسية مجموعات من القرى يرأسها مجالس من الشيوخ . وهذه تقريبا هي كل شعوب شرق النيجر ، شعب توجو وغانا ، واكثر شعوب جنوب ساحل العاج وليبيريا وسيراليون .

الجماعات السلالية :

اكدنا فيما سبق على التمايز بين الجماعات الثقافية بما يوحي بوجود أنماط متوطنة ومستقرة . ورأينا كيف ان مجتمعات القرية حتى في اعظم الامبراطوريات استمرت على حالها مع تغير طفيف في تنظيمها الاجتماعي والسياسي . ولعل هذه هي الاسباب التي من شأنها ظلت الجماعات القائمة على أساس السلالة هي ركيزة التنظيم الاجتماعي للكثير من شعوب غرب أفريقيا .

والجماعات السلالية ، وتسمى احيانا شجرة الانساب او العشائر أو الاسر ، هي النقيض المقابل للاسرة النواة التي يقوم عليها المجتمع الصناعي في الغالب الاعم ، وتؤكد تلك الاسر على الولاء للجماعة أكثر من تأكيدها على الاستقلال الفردي . واذا نزح المرء من موطنه الريفي الى المدينة بغية العمل فانه يجد نفسه ازاء مظاهر جديدة للولاء تتعارض أو تتنافس مع ولائه للجماعة التي ينتمي اليها وخرج من صلبها . الا انه وعلى الرغم من غيابه عن وطنه الام فانه لا يفقد أيا من حقوقه التي يتمتع بها بحكم انتسابه أسريا ، وتصبح عضويته في الجماعة ضمانا اقتصاديا هاما ، وأمانا عاطفيا حين يجد نفسه ازاء مواقف تتسم بالتغير السريع .

ويقصد بالجماعة السلالية طائفة من الاشخاص تجمعهم شجرة نسب واحدة من صلب ذكر او أنثى أو كليهما معا وينحدرون جميعا من جد قديم معروف الاسم . وتستقبل الجماعة اعضاء جددا بميلاد الاطفال ويسود الاعتقاد بأن الموتى يحتفظون بسلطانهم على الجماعة وهم في العالم الاخر على نحو يفيد خلود الجماعة وديمومتها . ويتحدد انتماء الشخص الى الجماعة في ضوء نسبه الى شجرة العائلة وانحداره عن السلف . بيد أن هذا الانتساب قد يكون وهميا . وهكذا يصبح بالامكان عادة التبني ومن ثم الذوبان والاستغراق في سلسلة الانساب . وتقتصر شجرة الانساب عادة على ثلاثة أو اربعة اجيال قبل شيوخ الاسرة الاحياء . وليس الهدف من تحديد النسب على هذا النحو هو تبيان التاريخ الماضي ، بل أن يكون النسب ضربا من الميثاق للسلوك الاجتماعي بين الاحياء من ابناء الجماعة . ويبدي علماء الاجناس اهتماما بالغا بدرجة التوحد والاندماج داخل الجماعة ، ويعتبرون هذا في نظرهم أهم من شجرة الانساب عند تصنيفهم للجماعات السلالية .

ويلاحظ في اكثر الجماعات السلالية ان الذكور من ابنائها (اذا كان اساس النسب هو صلب الرجل) يستوطنون أرضا

مشتركة . وهكذا يصبح الوطن الارضي للجماعة هو عين الوحدة الاجتماعية . ولنعرض بعض الامثلة لتوضيح ذلك . جماعة قروية من إبو Ibo نموذج للجماعات الرئيسية تضم قرابة العشرين الف نسمة ، يقال انها تأسست على يد رجل وامرأة وضعهما شعبهما في مصاف الآلهة الان ويقرنون بينهما وبين مجرى مائي في ارضهم أو ما شابه ذلك من المظاهر الطبيعية . ويعتقد اصحاب هذا الرأي ان الرجل والمرأة انجبا تسعة ابناء ، اسس كل منهم قرية من القرى التسع التي تستوطنها الجماعة . وانجب كل رجل من هؤلاء ابناء حيث اسس كل ابن بدوره حيا من احياء القرى ثم اسس احفادهم بالتالي الوحدات الاصغر حيث يسكن الاسباط (حسب موضع كل منهم في شجرة النسب) وهم الشيوخ الموجودون على قيد الحياة . ويذهب شعب تيف Tiv بأسره مذهبا مماثلا لما ذكرنا حيث يسرد سلسلة انسابه الى جد اول واحد منذ اربع عشرة جيلا او يزيد . ويشغل كل قطاع من قطاعات النسب ايا كان مستواه مساحة متجانسة من الارض ، ويرد شعب يوروبا الشمالي نسبه الى صلب الرجل . ويرد شعب أكان Akan في غانا نسبه الى المرأة . بيد أن المدن التي يسكنها كل من الشعبين مبنية على نسق متماثل . وتضم المدينة عددا من الجماعات المنحدرة من نسب واحد ، ويقال ان مؤسس كل جماعة هاجر الى المدينة في وقت ما خلال الماضي السحيق وانحدر عن المهاجر الاول ، اي مؤسس المدينة ، ابناء الجماعة السلالية الملكية ، التي يختار الملك من بينهم . وفي كل الحالات يعيش ابناء المجموعة السلالية معا في حي من احياء المدينة . وتتألف الوحدة التقليدية في يوروبا ، والتي قد يبلغ تعدادها اكثر من الف نسمة ، من سلسلة من الابنية المستطيلة المتلاصقة ، ويضم كل منها حجرات لسكانها وتفضي هذه الحجرات الى شرفة تطل على فناء خاص بها .

وتشير عملية الاستيطان المشترك في ذاتها الى طبيعة الاتحاد والتماسك بين ابناء الجماعة السلالية . ولكن الجماعة قد لا تمتلك

فقط الارض التي تسكنها بل كذلك الارض التي تفلحها . وتصبح الحقوق جميعها التي قد تصل ايضا الى حق الملكية ، حقا للجماعة ، ويشارك الفرد عضو الجماعة في المحافل والاجتماعات التي تعقد للتشاور في ادارة الارض وتوزيع حصصها ، وله حق الانتفاع بالارض التي تعهد بها اليه الجماعة شريطة الا يلحق بها ضررا او فسادا . ويمكن للمرء أن يحوز أي مساحة يشاء من الارض ويزرعها تابعوه ، ولكن اذا ما اخفق هو أو ذريته في الانتفاع بها فان الجماعة تعهد بها الى آخرين ، وهكذا تظل الارض دائما ملكا للجماعة في مجموعها ويعاد توزيعها بين حين واخر داخل اعضاء الجماعة .

وتتبع الجماعة السلالية عادة نظام الزواج من الخارج أي من غير الاقارب ـ حيث يختار الرجل زوجته من جماعة اخرى غير جماعته (وربما من غير اقاربه حتى درجة الاجداد) . ويناقش أعضاء الجماعتين مدى ملاءمة مشروع الزواج المقترح ويدفع الرجل مهرا لاسرة العروس وقد يجري توزيعه على نطاق واسع بين أبناء جماعتها السلالية . واذا صادف دائن صعوبة في استرداد دينه فان من حقه أن يحجز على أملاك أي عضو من أعضاء الجماعة السلالية التي ينتمي اليها المدين . وكذلك اذا وقعت جريمة قتل وكانت السلطة السياسية ، ان وجدت ، ضعيفة فان القصاص يتم بأن تقتل جماعة القتيل أي عضو من الجماعة السلالية للقاتل ـ على الرغم من أن هذه الجماعة قد تحاول تفادي القصاص بدفع فدية لجماعة القتيل تمكنها من الحصول على زوجة لواحد من رجالها حتى تستعيض خسارتها وتستكمل عددها . وهكذا تملك الجماعة بهذه الطرق وبغيرها حق الوصاية الشرعية على أبنائها .

وتقوم الجماعة السلالية المبنية على هذا النحو ، مقام الممثل الشرعي لحقوق الانسان حقه في الارض والحريات بصورها المختلفة . وقد يتألف مجلس المدينة أو القرية من ممثلين عن الجماعات السلالية التي تضمها المدينة او القرية ـ اذ ربما يتقرر أن تكون فئة من الرجال هم الارفع مقاما ولهم الراي والكلمة بناء على اجراء خاص

يحدد تسلسل المراتب الاجتماعية ، او بأن تنتخب كل جماعة من بين اعضائها من يمثلها .

واذا كان تلاحم الجماعة السلالية تدعمه حقوقها المشتركة على افرادها ، وهي حقوقهم في الارض والمناصب السياسية فان مما يعزز هذا التلاحم ويزيده رسوخا ايمان الجماعة بآلهة مشتركة تنتمي بصورة او بأخرى الى اصولها ونشأتها الاولى وربما بالاجداد الاول . وعلاوة على ذلك فثمة مزيج من السمات ــ كي أو ندوب رمزية على الوجه أو طعام مقدس ــ تساعد كلها على التمييز بين افراد الجماعات السلالية المختلفة داخل المجتمع الكبير .

ونرى لزاما علينا أن نؤكد هنا مرة ثانية أن النسب أو السلالة لا يشكل دائما وفي كل المجتمعات الاساس الاول والرئيسي للترابط ، وان هناك تباينات عديدة وواسعة من حيث درجة تماسك وتلاحم الجماعات . فاحد اشكال التجمع السائدة هو التجمع على اساس العمر .

وتتخذ كثير من المجتمعات نظما خاصة بها تحدد في ضوئها مراتب العمر ، هذا على الرغم من أننا لا نجد مجتمعا في غرب افريقيا يضارع في هذا المجال مجتمعات شرق أفريقيا من أمثال شعب الماساي أو غيره من شعوب النيل الحامية .

وهكذا فان المجتمعات التي تشكل فيها الجماعة السلالية اساس التنظيم الاجتماعي تتألف من عدد من الجماعات المتماثلة من حيث الحجم والعضوية وبنية العمر والعمل والحقوق المدنية . وقد تضاف الجماعة الى المجتمع الكبير او تفصل عنه دون أن يؤثر ذلك تأثيرا ملحوظا على الباقي . ويقال أن هذه الجماعات تتميز بنوع من التماسك والتضامن الآلي على نحو ما يحدث للدودة التي قد تفقد احدى حلقاتها ولكنها تظهر على قيد الحياة .

وتتنافس الجماعة السلالية في المجتمع مع انداده بغية الحصول على الثروات النادرة ــ الزوجات والارض والسلطة

السياسية . ذلك لان مصالح الفرد ، كما اسلفنا ، تعبر عنها الجماعة ويسود الولاء للجماعة والتوحد معها ، كما يفيد الصراع مع الجماعات المنافسة في دعم التلاحم الداخلي للجماعة . ولكن على الرغم من هذا لا تزال تقع بعض مظاهر التوتر داخل الجماعة ، مثال ذلك التوتر والخلاف بين الاخوة غير الاشقاء حين يتنافسون فيما بينهم من أجل الاب . ونلاحظ ان مثل هذه التوترات والتي قد تدمر تلاحم الجماعة ، يمكن حسمها في بعض المجتمعات عن طريق السحر أو بالقاء اللوم على السحر باعتباره مسئولا عما يحدث من شرور . ويسود الاعتقاد بأن الموت أو المرض سببه قوى شريرة حالة في نفوس بعض الاقارب وأن هؤلاء قد يستخدمون تلك الارواح الشريرة بصورة غير شعورية . وقد يكون بالامكان تحديد مصدر الشر عن طريق السحر والعرافة ومن ثم يلجأ الناس الى ابطال مفعول الروح الشريرة عن طريق ممارسة أعمال سحرية مضادة او التهديد باستخدام العنف .

نقطة أخيرة تتعلق بوضع المرأة ومكانتها في المجتمعات المنظمة على اساس الجماعات السلالية . فلا يزال يتردد على الالسن وصف المرأة في غرب افريقيا بأنها عبدة او ملك الرجل . ويدفع الرجل صداقا في دلالته ثمنا لشرائها ويكون عليها الطاعة والخضوع لزوجها وأفراد جماعته . بيد أن هذه المقارنة لا تصور وضعها تصويرا صادقا . ذلك أن زواج المرأة لا يمنحها حق العضوية الكاملة والمتساوية في جماعة زوجها وتظل مكانتها بين أعضاء هذه الجماعة رهنا الى حد كبير بعدد من تنجبهم من الاطفال . ويمكن أن ينتقل حق الزوج في زوجته اذا ما وافاه الاجل الى أخ أصغر له . ولا ترث عنه وان تكفل بها ابناؤها في سن الشيخوخة . ولكن تظل المرأة محتفظة بعضويتها في جماعتها السلالية التي وفدت منها اصلا ، كما يساندها اعضاء جماعتها اذا ما شجر خلاف بينها وبين زوجها . ونظرا لان انتماء المرأة الى جماعتها لا ينقطع بزواجها فان الطلاق يصبح أمرا يسيرا ، ويكون أكثر يسرا وسهولة حين لا يشكل الزوج والزوجة وحدة مهنية داخل الجماعة ، فنحن نلاحظ أن

الزوج والزوجة في منطقة الابو يعملان بالزراعة بينما تتحدد مهام اخرى على اساس الجنس ، ولهذا نجد الطلاق اقل منه بين ابناء شعب يوروبا حيث لا تعمل المراة على الاطلاق بالزراعة وانما تشتغل ببعض الحرف او التجارة ويكون لها دخلها الخاص الذي تتصرف فيه باستقلال عن زوجها وتفيد منه لدعم مصالحها ووضعها الخاص هي واطفالها الصغار . وحيث الزوجة لا ينظر اليها كعضو في الجماعة السلالية لزوجها ، وحيث الطلاق يكون ميسورا وشائعا ، فان الزوجة لا تشارك الزوج وضعه ومكانته في مجتمعه .

ومن الامور الشائعة في غرب افريقيا انتشار الطرق او الطوائف الدينية وطقوسها وشعائرها الخاصة المعقدة . ويعتبر تقديس الشيوخ او الائمة من الوظائف السياسية الهامة ذات الشأن في بعض هذه الطرق على نحو ما نجد في طريقة بورو Poro لدى شعوب ماند Monde او طريقة اجبوني Agboni لدى شعوب يوروبا . وقد تكون عضوية مثل هذه الطوائف متاحة لكل البالغين من الشباب ، وينضم اكثرهم الى الدرجات الدنيا في سلم الطائفة . ويقدم هؤلاء النذور والهبات والولائم فضلا عن أداء شعائر الطائفة ويتخذون من هذا كله سبيلا لترقي سلم المراتب حتى يصل بعضهم الى أعلى المقامات . وقد لا يكون معروفا خارج الطائفة اي الاعضاء هؤلاء الذين وصلوا الى المقامات العلى . ولا يمثل هؤلاء الجماعات السلالية على الرغم من انه غير مسموح لجماعات مستقلة بذاتها أن تستأثر بالمراكز القيادية لنفسها ويحدث ان يجتمع هؤلاء القادة في مجلس واحد ليصدروا في حالات الطوارىء القصوى قرارا بادانة شخص ما والحكم عليه بالاعدام وينفذون حكمهم بأيديهم في مكان الاجتماع وهم على يقين من أن السرية الكاملة التي تكتنف اجراءاتهم ورضى السماء الذي يرعى هذه السرية ، كفيل بأن يحول دون انتقام أعضاء الجماعة السلالية التي ينتمي اليها الشخص المدان .

النظـام الملكـي :

اتجه علماء الاجناس الى التأكيد على السمات المشتركة للنظام الملكي في كل انحاء افريقيا : المطابقة بين صحة الحاكم وبين خصوبة المحاصيل والنساء ، وحفلات التنصيب التي ترمز الى البعث أو الميلاد الجديد ، وتحريم مشاهدة الملك حين يأكل وغير ذلك كثير . ودرس علمـاء الانتروبولوجيا الاجتماعية العلاقات المتبـادلة بين المؤسسات السياسية والدينية والاجتماعية .

وذهب المؤرخون الى القول بوجود « حضارة سودانية » ذات رصيد كبير من الافكار والسياسة المشتركة .

ويستعين الملك في ممالك غرب افريقيا بمشورة مجلس مـن الرؤساء يتمتع أعضاؤه بسلطة سياسية وادارية معا اذ يجبون من عامة الناس عن طريق موظفين صغار الضريبة السنوية ويحتفظون بنصيبهم منها مكافاة لهم على عملهم . ولا يوجد تخصص واضح ومتطور بالنسبة لتقسيم الواجبات والاعمال التي يؤديها هـؤلاء الرؤساء . ولكن العلاقة بين الملك وبين الرؤساء العاملين معه أبعد من أن تكون علاقة متماثلة ، وقد نجد انماطا متمايزة من البنيـة السياسية . وتعتبر هذه الفوارق ذات أهمية كبرى لفهم الطريقة التي استطاع بها الاداريون الاستعماريون الافادة من المؤسسـات التقليدية في الحكومة ــ ومن ثم درجة بقاء هذه المؤسسات حتى اليـوم .

بيد ان الهالة المقدسة التي تحيط بالنظام الملكي ، والثروة الضخمة المتوارثة وكذلك الفرص المتاحة للملك لمعالجة المنازعات التي تنشب بين الرؤساء ، كل هذه الاسباب متضافرة على مدى التاريخ ساعدت على أن تصبح السلطة التي يتمتع بها الملك الحاكم سلطة قوية وذات نفوذ كبير . ولهذا أيضا أضحت السلطة مطمحا وموضوع تنافس بين الملك والرؤساء . ونظرا لان الملك لا يملك سلطانا مباشرا على الجيش ولا يملك حرسا قويا من عبيد القصر

لحمايته ، فانه يعيش في وضع ضعيف لا يسمح له بفرض رايه قسراً على الرؤساء وهم القادرون اذا اضطرتهم الظروف على عزله ، ويطالبونه عادة في مثل هذه الحالة بالانتحار . وهكذا فان اي محاولة من جانب حاكم ما لتجاوز سلطاته المخولة من قبل الرؤساء تفضي عادة الى اعادة الوضع الى ما كان عليه سابقا . بيد ان بعض العوامل الاستثنائية مثل تحقيق انتصار مظفر في الحرب (وما يترتب على ذلك من زيادة في ثروة الملك وزيادة عدد عبيده) او ازدهار التجارة او ادخال اسلحة جديدة قدتهيىء للملك فرصا جديدة لمضاعفة قوتـه وسلطاته على نحو قد يؤدي الى دعم سلطته في تعيين رؤساء يكونون مسئولين امامه وحده . ومن ثم يتخلص هو من اعتماده على الرؤساء المنتخبين من قبل الجماعات السلالية .

وربما تفضي مثل هذه العملية الى ظهور نمط ثان من النظام الملكي مثل النظام الملكي في بنين Benin وداهومي قبل الاستعمار . اذا يتولى الملك هنا تعيين كل المسئولين عن المناصب الرئيسية في المملكة ، ويستعين في هذا بمشورة الرؤساء التابعين له وان ظل رأيهم استشاريا وليس ملزما . وتتدرج المناصب حسب سلسلة متصلة الحلقات يقل عدد اعضائها كلما ارتفعنا نحو القمة ، كما أن الترقي الى المناصب الاعلى لا يعتمد كثيرا على علاقة قرابة الدم بقدر ما يعتمد على رضى من يحتلون المناصب الارفع وهكـذا دواليك صعودا حتى الملك . وبهذا لا يصبح الرؤســاء أساســا الممثلين الاول للجماعات السلالية التي ينتمون اليها .

نمط ثالث من النظام الملكي وهو النمط الناشىء نتيجة الفتح العسكري . مثال ذلك ما حدث في امارات الهاوسا ـ فولاني في شمال نيجيريا حيث انتزع شعب الفولاني البدوي السلطة من يد حكام الهاوسا بعد جهاد مقدس في مطلع القرن التاسع عشر . بيد أن الغزاة صوروا انفسهم في صورة القديسين او جند الله الذين لا يشغل بالهم سوى أن تستعيد عقيدة الاسلام مكانتها . ولكن ابناءهم استقروا في السلطة ونصبوا انفسهم حكاما دنيويين وشرعوا يقننون

لانتقال السلطة والمناصب العليا الى ابناء جلدتهم كما انشأوا مناصب جديدة لهم . واضحى العرش اليوم قسمة بين عدد من الجماعات السلالية أو البيوت الحاكمة والتي تتنافس فيما بينها تنافسا شديدا . واذا كانت قرابة الدم الوثيقة بالملك في النمطين السالفين من انماط النظام الملكي تحرم التمتع بالسلطة السياسية فان الامر على العكس من ذلك في النمط الثالث حيث نجد الامير في دولة الفولاني يمنح أرقى المناصب السياسية لاقرب الناس الى نفسه من ابناء عشيرته واتباعه . ولا يقتصر الامر هنا على منحهم سلطة ونفوذا فقط بل وثروة ضخمة ايضا . وليس ثمة تمثيلا مباشرا للعامة من شعب الهاوسا في المجالس الحاكمة وان كان بامكانهم ممارسة بعض النفوذ لمساندة منافسيهم من ابناء شعب الفولاني بغية شغل المناصب السياسية علما بأن سيطرتهم تعني بشكل صريح ومحدد سيطرة العقيدة الاسلامية . بيد ان قبول الهاوسا بهذا الوضع الادنى انما ساعدت عليه الى حد كبير عمليات التزاوج المتبادل بين شعبي الفولاني والهاوسا فضلا عن الفرص الكثيرة المتاحة لجني ثروات ضخمة عن طريق التجارة (التي يستنكفها شعب الفولاني) كما ساعد عليه مجتمع الهاوسا . ومن الطبيعي في نهاية الامر أن بقاء سيطرة الفولاني وقبول أيديولوجياتهم انما يدعمه أسلوب القهر من جانب سلطة الفولاني .

التقسيم الطبقي وسبل العيش :

قدمنا في العجالة السابقة عرضا موجزا لطبيعة التنظيم الاجتماعي والسياسي التقليدي لدى شعوب غرب أفريقيا ووضح من خلال هذا العرض وجود بعض الفوارق الهامة والاساسية بينها . مثال ذلك انه في بعض المجتمعات وبخاصة تلك التي يرتكز تنظيمها الاجتماعي على الجماعات السلالية نجد ان مراكز السلطة السياسية او مراكز النفوذ (كما هو لدى شعب تيف Tiv) متاحة لكل أعضاء المجتمع ، بينما في مجتمعات اخرى (مثل امارات الهاوسا ـ فولاني)

لا يتوفر عنصر تكافؤ الفرص للوصول الى المناصب العليا فضلاً عن وجود طبقة حاكمة تتمتع بامتيازات واضحة . وبالمثل فان فرص تكديس الثروات متماثلة بين شعوب افريقيا اكثر مما هو مسلم به علنا في بعض الاحيان . ونحن لا نزال نسمع ان المكانة الاجتماعية للشخص او الحسب والنسب هو الصفة الغالبة المميزة للشخص في المجتمعات التقليدية بمعنى أن المرء لا يسعه الافلات من حسبه ونسبه ومكانته الاجتماعية التي ولد بها . هذا على نقيض ما يحدث في المجتمع الصناعي الحديث حيث الوضعية الاجتماعية المكتسبة هي الصفة المميزة للمرء ــ فمكانة المرء في المجتمع هي ما يصنعه لنفسه بنفسه . بيد ان الحكمين السالفين فيهما تعميم مبالغ فيه . ذلك أن تصوير المجتمع « التقليدي » وكأنه كتلة خاملة من البشر تعوزها القدرة على الحركة والمبادرة انما هو رأي لا يتسق مع وضع شعوب غرب افريقيا اليوم حيث نجد ان المهمة الاساسية لرجال السياسة هناك هي العمل على التخفيف من فورة الآمال الطموحة (وغالبا ما تكون غير واقعية) لشعوبهم من أجل تحقيق تقدم اقتصادي سريع . ويتسع مجال المنافسة داخل كثير من المجتمعات التقليدية فضلا عن الرغبة في الانتقال السريع من الوضع المتخلف الى وضع ارقى . ولعل القيم المقترنة بمثل هذا الموقف تمثل عاملا هاما يحدد معدل التقدم الاقتصادي الممكن في الوقت الراهن .

ولكن عددا قليلا من المجتمعات الافريقية تؤمن بالمساواة ايمانا كاملا . ولقد كان أسلوب الاسترقاق وامتلاك عبيد من أبناء الوطن المحليين عادة مطبقة في اكثر هذه المجتمعات خلال مرحلة ما قبل الاستعمار ، وكان هؤلاء العبيد بوجه عام غير أهل لشغل منصب سياسي أو ديني وان كان ملوك ورؤساء قبائل بعض الدول المركزية اعتادوا أن يمنحوا رقيقهم القابا وربما ايضا قدرا كبيرا من السلطة والنفوذ . ومن المعروف ان نظام الرق قد انتهى الان وأضحى محرما ولكن وصمة عار الوضع الماضي لا تزال تلاحق من جاءوا من نسل الرقيق .

وتنقسم مجتمعات السافانا ، مثل مجتمع ولوف Wolof في السنغال الى عدد من الطوائف وان كانت كلمة طائفة لا تحمل نفس المدلول الشائع عنها في الهند . وتتدرج الجماعات السلالية للاحرار ابتداء من السلالة الملكية في قمة الهرم ومرورا بسلالات النبلاء المرتبطة بالسلالة الملكية ثم الجماعات السلالية لجماهير الفلاحين وانتهاء بجماعات الحرفيين والمهنيين ــ صناع الاحذية الجلدية والمداحين ــ حيث يحتلون قاعدة الهرم .

وتعتبر المنزلة الاجتماعية للمرء الموروثة عن حسبه ونسبه امرا ثابتا لا فكاك منه . أن المرء لا يمكنه أن يغير من مكانته أو طبيعة عضويته في الجماعة السلالية ــ هذا وان كان بالامكان في النظم القائمة على سلالة وحيدة النسب الانتماء احيانا الى جماعة الام ، كما بامكان المرء في النظم القائمة على نسب الام ان يختار بين الجماعات الكثيرة ، التي ينتمي اليها بحكم صفاته ، الجماعة التي يعتزم منحها ولاءه الاول والاساسي . ومن المعروف أن الكثير من الحرف والمهن التقليدية في أفريقيا يتوارثها الابناء عن الآباء . ونظرا لاتساع سوق الانتاج فاننا قد نجد كل ابناء الجماعة السلالية يمارسون مهنة واحدة مثل قرع الطبول أو النسج او الحدادة . وتجري مناقشة وادارة الشئون الاقتصادية للمهنة داخل الجماعة السلالية . ويعتبر السن ايضا منزلة اجتماعية تسبغ على صاحبها خصائصها الاجتماعية ولهذا ليس بامكان المرء أن يصبح شيخا قبل الاوان .

ولكن الجماعة السلالية ذاتها تعتبر عادة رابطة اجتماعية قائمة على المساواة . فكل الاعضاء داخل جماعة بذاتها متساوون من حيث المنزلة الاجتماعية والقانونية ولا ميزة لواحد على الاخرين بفضل مولده . وتتاكد هذه المساواة الاجتماعية لدى بعض المجتمعات وتاخذ شكلا بارزا . مثال ذلك أن لقب الرئاسة بين أبناء شعب يوروبا ينتقل بصورة دورية بين قطاعات الجماعة والتي تتألف من قطاعين الى ستة قطاعات ، فضلا عن أن الرئيس قد لا يخلفه

ابنه مباشرة . ولهذا فان كل عضو من اعضاء الجماعة قد يشعر ابان رجولته ان القطاع الذي ينتمي اليه سيكون بحاجة الى من يشغل منصب الرئاسة وانه هو نفسه قد يكون مرشحا له . ونعود لنؤكد ايضا أن نظام الوراثة الذي يعطي حق الارث للابن الاكبر اقل شيوعا من نظام الوراثة الذي يقضي بأن الابناء جميعا متساوون في الحقوق لهم جميعا انصبة متساوية في الممتلكات التي خلفها الاب الراحل ، وربما يحدث أيضا ـ وهي من التقاليد الشائعة أن تقسم الممتلكات الموروثة عن الزوج الى انصبة بقدر عدد زوجاته واطفاله بحيث يؤلف أبناء كل امراة وحدة متكاملة . وجدير بالذكر هنا أن الارض لا تؤول بالوراثة الى الابناء عادة بهذه الطريقة ما لم تكن ضنينة في غلتها لدرجة مفرطة . والقاعدة أن الرجل باعتباره عضوا في الجماعة السلالية بحكم مولده ، له حق حيازة اي مساحة من الارض بقدر حاجته ومن ثم فانه قد يميل الى زراعة الارض التي كان يفلحها ابوه وان كان له الحق دائما أن يطلب المزيد . ولكن يلاحظ في مقابل هذا أن الارض التي لا يستغلها تعود ثانية الى الجماعة لتوزيعها من جديد بين اعضائها .

ولا تزال اكثر شعوب غرب افريقيا تؤمن بدرجة ما بالقضاء والقدر وأن مصير الانسان في الحياة مقدر مسبقا بتدبير الهي . فالطفل لحظة ولادته تغادر روحه العالم الاخر لتحل فيه ويمنحها الملاك حارس باب السماء نيابة عن الاله الاعظم قدرها في عالم الارض . ولكن المرء قادر بأعماله أن يعدل من قدره المرسوم له الى الاحسن أو الى الاسوأ ولكن في حدود معينة . ولهذا يربي الاب أبناءه على الامتثال لمعايير المجتمع .

ولكن القليل من هذه المكتسبات (مثل المكانة الاجتماعية) يرثه الابناء.ونظرا لان الفلاح الثري يملك عددا كبيرا من الزوجات ـ وهذه احدى الصور الاساسية للاستهلاك الواضح في المجتمعات البسيطة تكنولوجيا ـ فان ثروته تبدد بعد وفاته نتيجة تقسيمها بين أطفاله العديدين . وتلقى ثروة التاجر أيضا نفس المصير ، وقد

لا يرث عنه أبناؤه الفطنة التي يستلزمها عمله ، وربما لا يبلغ أكبر أبنائه السن اللازم لممارسة العمل معه الا حين يترك مهنة التجارة للعمل في مجال السياسة . ونلاحظ في كثير من المجتمعات ان منصب رئاسة القبائل لا يرثه الابناء على الرغم من أن الابن الذي عمل الى جانب ابيه وكان على صلة وثيقة به في عمله قد يكون مرشحا للمنصب في فترة تالية . ويحول نظام تعدد الزوجات ومبدأ المساواة السائد في المجتمعات دون تكديس الثروات عن طريق الوراثة . ويحقق أكثر الناس نجاحهم في الحياة بجهدهم الخاص وليس بفضل ثـروة او منصب موروث عن الآباء . ويرتبط بهذا أوثق ارتباط حقيقة أن المنزلة الاجتماعية المكتسبة تظل طوال حياة المرء امرا شخصيا لـــه دون سواه فلا تشاركه فيها زوجاته او أطفاله ، فضلا عن أن تلـــك المنزلة لا تفيد في تحديد علاقاتهم الخاصة بأعضاء المجتمع .

وتشير القيم المعلنة في المجتمع الى وجود مثل هذه الفوارق . فبعض القيم يؤكد ثبات نظام التسلسل الاجتماعي ويمتدح فضائل الطاعة والولاء للسلطة ، بينما تؤكد قيم مجتمع اخر فضائل المباراة والمنافسة . واذا كانت الاختبارات النفسية التي أجريت على شعوب غرب أفريقيا لم تصل الى نتيجة حاسمة بعد بشأن هذه الفوارق الا ان أنماط السلوك والقيم العامة تدعم مثل هـــذه الفروض . مثال ذلك ان شعب يوروبا ينظر الى جماعة ايجيبو I jebu من ابنائه كرجال أعمال بارعين ــ وهي صورة مماثـــلة لصورة اليهود في المجتمعات الغربية . ويعتقد أكثر النيجريين أن شعب الابو كثير الصخب عدواني الطباع . والسؤال من أين جاءت هذه الفوارق ؟ يردها البعض الى البنية الاجتماعية والقيم المكتسبة خلال عملية تنشئة الطفل . ويردها البعض الى اختلاف الظروف المادية ، فكل من شعب الاجيبو I jebu وشعب الابو (خاصة هذا الاخير) يعيش في مناطق كثيفة السكان قليلة الخصوبة الى حد ما ، ويحتاج المرء الى روح المبادرة والعزيمة للهجرة ابتغاء جزاء اوفر اذا شاء حياة تتجاوز مستوى الفقر .

وبعد أن انتهى الباحثون من دراسة المجتمعــات الافريقية كمثال لشعوب لها تنظيماتها الاجتماعية البسيطة وذلك بهــدف تقييم طاقاتهم الكامنة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية اتخذ مفهوم حافز الانجاز دورا أكثر اهمية وحيوية . ونحن نعرف أن الدراسات الاجتماعية عن التطور الاقتصادي في المجتمع الغربي سادتها فرضية اساسية تقضي بأن ثمة معامل ارتباط قوي ووثيق بين البروتستانتية والرأسمالية . فالانسان البروتستانتي عند ماكس فيبر ـ الزاهد المؤمن بمسئوليته الفردية أمام الرب وبأن العمل الجاد والشــاق هو طريــق الخلاص ـ هيأ النهــج الاقتصادي العقــلاني اللازم للمشروعات الرأسمالية في عصرها الباكر . وقد طور هذا الفرض وأفاض في دراسته عالم النفس الامريكي دافيد ماك كليلاند D.Mc. Clelland الذي عرف دافع الانجاز بأنها الحاجة الى « المنافسة مع معيار باطني للتفوق » ويذهب ماك كليلاند الى أن دافع الانجاز القوي بين أعضاء مجتمع ما يرتبط ارتباطا وثيقا بفترات التقــــدم الاقتصادي السريع سواء في مجتمعات ما قبل الرأسمالية او في المجتمعات الحديثة .

الباب الثاني

اثر الغرب



٢

التجارة والاستعمار

بداية الاحتكاك :

في عام ١٤٣٤ مرت سفن برتغالية براس بوجادور في موريتانيا ، وفي عام ١٤٧٥ وصلت السفن الى فرناندوبو ، وفي عام ١٤٨٣ زار البحارة البرتغاليون العاصمة بنين التي كانتعلى الارجح اكثر ممالك الساحل تنظيما في تلك الفترة . ونالت المنطقة اعجاب البرتغاليين واقاموا بها ميناء تجاريا في بلدة اغوتون Ughoton (جواتو Gwattoo وذلك خلال عام ١٤٨٦) . ولكن اهتمامهم الاساسي كان في اتجاه ساحل الذهب الغني بصادراته الثمينة . واقيمت في عام ١٤٨٢ قلعة ساو جورج دا مينا على الساحل في منطقة المينا . ولكن ساحل غرب افريقيا ظل ضنينا لم يقدم ، باستثناء الذهب ، سوى القليل الذي يجذب التجارة الاوروبية الى ان تم اكتشاف الامريكتين وظهرت الحاجة الى الرقيق . وسرعان ما واجه الاحتكار البرتغالي للتجارة في القرن الخامس عشر تحديا من الشعوب الاوروبية الاخرى التواقة الى المشاركة في هذا النمط المثلث المراكز للتجارة عبر الاطلسي . وبلغ حجم تجارة الرقيق خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر قرابة ١٣٠٠٠ عبدا في العام الواحد يتم شحنهم الى العالم الجديد ـ وارتفع الرقم الى ٢٧٠٠٠ خلال القرن السابع عشر ثم اصبح ٧٠٠٠٠ خلال القرن الثامن عشر .

واقام التجار الاوروبيون قلاعا حصينة كثيفة التسليح فوق المرتفعات الساحلية الممتدة داخل البحر لتكون حصونا لهم يوجهون منها تجارتهم . وانعكست المنافسة الدولية الحادة على التجارة فيما سجلته الاحداث من عمليات حربية للاستيلاء على تلك القلاع

ثم استردادها او اجراء عمليات تبادل بينها . وكانت تتجمع اسفل اسوار الحصن المديد من اكواخ التجار الافريقيين وعائلاتهم وهي الاكواخ التي تحولت فيما بعد الى قصور مهيبة . واعتاد التجار في دلتا النيجر الاقامة في هياكل سفن قديمة راسية قرب مراكز تجمع المواطنين وتحت اشراف ومراقبة الحكام المحليين . ويمكن القول ان عمليات توريد الرقيق وما يتبع ذلك من توزيع للسلع التجارية الاوروبية المستوردة كانت خاضعة كلها للافريقيين . ولكن في بعض الولايات الاكبر حجما مثل بنين وداهومي كانت التجارة خاضعة لسيطرة الملك مباشرة وكان حجم دخله من العائدات الجمركية والارباح يشكل عاملا هاما في تحديد علاقته باتباعه من الشيوخ والرعايا . وأدى الاهتمام المتزايد بطرق التجارة الممتدة من الساحل حتى داخل السافانا الى تشجيع انشاء ممالك اكبر حجما . ولا ريب في أن مملكة أيو فرضت سيطرتها على ممالك يوروبا المجاورة عن طريق تحكمها في الطريق التجاري الممتد من وسط نهر النيجر الى باداجري ويداه Ouidah ، وربما كانت حروبها المتكررة مع جاراتها داهومي تعبيرا عن المنافسة الشديدة للسيطرة على المنطقة الساحلية . ولكن لم يكن من المألوف ارسال كل الرقيق الى الساحل عبر هذه الطرق الرئيسية لاحتجازهم هناك لحين عرضهم للبيع في قلاع التجار أو المحاجر المخصصة لهم . وربما تنتظر السفن في دلتا النيجر ثلاثة اشهر لحين استكمال شحنة قوامها اربعمائة من الرقيق يجري شراؤهم واحدا واحدا من ملاكهم المحليين لحاجتهم الى نقود أو لبعض البضائع المستوردة .

ولم يعتد التجار الاوروبيون مغادرة مواطن اقامتهم على الساحل في القلاع او هياكل السفن الراسية والتوغل بعيدا داخل البلاد كما وأن التجار الافريقيين استبدت بهم الرغبة في الاحتفاظ بدورهم الاحتكاري كوسطاء . وتوغلت السفارات البرتغالية حتى مالي بل وربما وصلت تومبكتو خلال منتصف القرن السادس عشر الا أنها لم تنشيء مراكز تجارة نشطة . ويتناقض هذا بوضوح مع

تغلغلهم في افريقيا الوسطى انطلاقا من مراكزهم الساحلية في لواندا ولورنسو ماركيز . ومع نهاية القرن السابع عشر بدأ الفرنسيون في التوغل داخل البلاد عبر نهر السنغال منطلقين من مراكز قيادتهم في مدينة سان لوي التي تأسست عام ١٦٥٩ ثم من مدينة جوري التي استولوا عليها عام ١٦٧٧ .

وتعلم كثير من الافريقيين الرطان بشكل ما باللغة الانجليزية أو الفرنسية . وقد صدرت مؤخرا يوميات مكتوبة برطان انجليزي وكانت مودعة لدى دوق كالابار وهي من وثائق ارسالية تبشيرية اسكوتلاندية . وغالبا ما كان يحصل التجار على وظائف كتبة أو مترجمين لاقربائهم من الشباب الذين شغلوا فيما بعد وظائف حكومية رفيعة في مجتمعاتهم . ويمثل هؤلاء بمعنى من المعاني نخبة مجتمعاتهم . واتخذ هؤلاء من بعض زي الاوروبيين لباسا لهم وكانوا على حظ من تعلم القراءة والكتابة . الا انهم على الرغم من هذا ظلوا كما كانوا أعضاء في جماعاتهم السلالية واحتفظوا بعلاقاتهم التي تربطهم بأقرباء الدم في مجتمعاتهم . وغالبا ما كان ابناؤهم يأخذون عنهم منزلتهم الاجتماعية . وقد أفادت كل المجتمعات من وضعهم كوسطاء بين الاوروبيين وبين الشعوب في داخل البلاد .

ولقد كان التبشير هدفا رئيسيا للرحالة البرتغاليين الاوائل الذين اعتقدوا ان دخول الرقيق المسيحية يكفي مبررا للتجارة . بيد أن جهودهم الدينية باءت بالفشل الى حد كبير . واخفقت كل المحاولات التي استهدفت اقامة مراكز تبشيرية في السنغال .

ولكن يبدو أن ممارسة شعائر المسيحية كانت قاصرة على البلاط الملكي . ولم يبق في مملكة وارى حتى منتصف القرن التاسع عشر سوى قليل من العادات المأخوذة عن الشعائر المسيحية ، وتمثلت اللغة المحلية الكلمات البرتغالية الدالة على البضائع المستوردة . واستقر في وعي ابناء شعب اتسكيري Itsekiri أن ثمة علاقة خاصة تربطهم بالاوروبيين وتعطيهم امتيازا وتفوقا على غيرهم من الشعوب المجاورة . وعمد الحكام الافريقيون الاصليون

الى دعم اتصالهم بالاوروبيين بهدف تعزيز مكانتهم وتأكيد وضعهم ضد شعوبهم أو ضد الجماعات السلالية المجاورة . وظلت الافكار والقيم الاوروبية غريبة فلم تستوعب منها شعوب البلاد الا أقل القليل .

واستطاعت حركة مقاومة الاسترقاق التي ذاعت وبلغت اوجها في انجلترا مع نهاية القرن الثامن عشر أن تحقق نجاحا كبيرا لم يكن قاصرا فقط على تحريم تجارة الرقيق بل استطاعت ايضا اقامة مستوطنات في المستعمرات للرقيق المحررين . وفي عام ١٧٩٢ ابحر من نوفا سكوتيا الى سيراليون فريق يبلغ تعداده اثنى عشرة الفا كانوا جميعا رقيقا في المستعمرات الامريكية وحررتهم القوات البريطانية خلال حرب الاستقلال وارسلتهم الى الشمال مع وعود لم تتحقق بمنحهم أرضا يفلحونها . وارسلت جمعية الاستعمار الامريكية اكثر من ستمائة عبد محرر الى مزوفيا والى عدة مراكز اخرى تقع على طول ساحل ليبيريا وذلك خلال الفترة ما بين ١٨٢٢ و ١٨٩٢ . ولقد واجهت هذه المستوطنات وامثالها الكثير من التقلبات ولكنها صمدت واستطاعت البقاء اخر الامر . وكان أكثر شعوبها أميين والقليل منهم له مهارة في مهنة ما . كما انقطع كل انصال بهم جميعا يربطهم بجماعاتهم السلالية التي نشأوا فيها مما ساعد على أن يشاركوا في الحياة الغربية ولو بدرجة ضئيلة . واضيفت الى جماعات المستوطنين في بلدة فرى تاون أعداد اكثر واكثر من الرجال والنساء حيث رست بهم هناك سفن لنخاسين اسرتها السفن الحربية البريطانية وهي في عرض البحر . واقيمت عدة قرى حول بلدة فرى تاون استوطنها قرابة سبعين الف نسمة غير ثلاثة آلاف من الامريكتين .

واسس ويلبرفورس Wilberforce واصدقاؤه في عام ١٧٩٩ جماعة الكنيسة للتبشير (ح. ك. ت.) واتخذت سيراليون أول ميدان لنشاطها . وصادفت التعاليم التبشيرية قبولا من الحاكم ماكارتي لاعتقاده ان المبشرين يعملون عملاء للحكومة في قرى العبيد

المحررين ، كذلك سرعان ما اعتنق الافريقيون التعاليم ذاتها لافتقارهم الى لغة أو ثقافة مشتركة ولشعورهم بفقدان اي رابطة تربطهم بالسكان الاصليين فضلا عن نظرتهم بعين الحسد للنجاح العظيم الذي حققه مستوطنو بلدة فرى تاون ممن كانوا في امريكا قبل ذلك . وهكذا نشأت في فرى تاون جماعة سكانية جديدة مولدة لم يقتصر أمرها على احتكار التجارة والمناصب العليا في سيراليون حتى القرن العشرين بل قدمت أيضا أكثرية ابناء الصفوة ذوى الثقافة والميول الغربية في نيجيريا .

ووفدت من البرازيل خلال القرن التاسع عشر مجموعات اخرى من العبيد المحررين قاصدة المدن الساحلية في نيجيريا وداهومي وبخاصة مدينتي لاجوس وبورتو نوفو . وكان الكثيرون من هؤلاء عمالا حرفيين مدربين وهم المسئولون عن ادخال أساليب العمارة « البرازيلية » التي نشاهدها في باها ، وان كان بعض الوافدين الاوائل أسهموا فقط بالعمل كتجار للرقيق . ويمكن القول انه مهما كانت مهنهم فان دورهم في نقل القيم الغربية الى افريقيا كان اقل وضوحا من دور المولدين في سيراليون .

وجدير بالذكر ان المبشرين الكاثوليك الفرنسيين لم تكن أقدامهم راسخة خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر في كل من ساحل العاج وداهومي ، ذلك انهم في داهومي لم يجذبوا الى عقيدتهم حتى نهاية القرن سوى خمسة آلاف نسمة بينما كان لهم اثنين وعشرين قسيسا يعملون داخل البلاد . واقام آباء الروح القدس في عام ١٨٤٥ مقرا تبشيريا لهم في جزيرة جورى Goree ولكنهم لم يحققوا تقدما ملموسا في منطقة كل أهلها من المسلمين . بل انه حتى يومنا هذا حيث يعمل قرابة ثلاثمائة قسيس (نصفهم تقريبا من الافريقيين) فان عدد المسيحيين في السنغال لا يتجاوز خمسة بالمائة من جملة السكان .

وحققت الارساليات التبشيرية البروتستانتية قدرا اكبر من النجاح في المناطق الخاضعة للنفوذ البريطاني . فقد رست

الارسـاليات التبشيرية من اتباع المذهب المنهجي Methodist فـي بلدة باداجري Badagri خلال عام ١٨٤٠ ، كذلـك سرعان مـا اتجهت جماعات تبشيرية انجيلية وجماعات اخرى الى داخل البلاد في اقليم يوروبا مثل مدينة ابيكوتا وايبادان واوجبوموشو . ولكـن الحكام وزعماء القبائل لم يعتنقوا المسيحية ليجعلوا منها بصورة او باخرى الدين الرسمي لممالكهم . .

وتطور النظام التعليمي الذي غرس نبتته و رعاه المبشرون تطورا سريعا . فقد تأسست عام ١٨١٤ في سيراليون مدرسـة لتدريب المعلمين والمبشرين ، ثم أعيد تأسيسها في خليج فـوراه Fourrah عام ١٨٢٧ ، وأصبحت فيما بعد اول جامعة في غـرب افريقيا . وافتتحت حـ. ك. ت عام ١٨٤٥ مدرسة لتعليم اللغـة وقواعدها في بلدة فري تاون لتقديم علوم اكاديمية بالاضافة الى التعليم الديني . وسرعان ما اقدمت جمعيات دينية أخرى على تاسيس مدارس خاصة بها . هذا علاوة على أن العديد مـن الارساليات التبشيرية الاوروبيـــة عمـدت الى تأسيس حـرف وصناعات محلية كما عملت على تطوير الزراعة . ونظرا لان الطبقات المتوسطة ذات السمعة الحسنة في بريطانيا كانت تشكل العمـود الفقري للمحافل المسيحية فقـد ذهب الظـن بالبروتستانتيين الانجيليين الى أن خلق برجوازية افريقية هو افضل سبيل لاصلاح القارة وبعث حياة جديدة فيها . واسست ارسالية حـ. ك. ت في يوروبا مدرسة لاجوس للفات عام ١٨٢٩ ولم يكن دافعها الاساسي الى ذلك ايمانها بقيمة التعليم الثانوي .

وعلى الرغم من معارضة سياسة الحكومة لاي توسع باهظ التكاليف للسلطة الامبريالية الا أن زخم الاحداث فرض نفسه . وقد عقد القناصلة الانجليز والفرنسيون معاهدات مع شعوب المناطق الساحلية في محاولة منهم لاحتكار التجارة وبسط نفوذ بلادهم على المنطقة وابدت الجماعات الاوروبية والارساليات التبشيرية امتعاضها للتدخل الحكومي ، ولكنها طالبت حكوماتها توفير قدر أكبر من . الحماية .

وتم العديد من الرحلات الاستكشافية على امتداد نهر النيجر لاغراض تجارية بلغت أوجها بمنح شركة النيجر الملكية عام ١٨٨٦ امتياز التجارة في المناطق الخاضعة لاشرافها وادارتها ايضا . بيد ان هذا التدخل واجه معارضة من جانب كل من التجار الاوروبيين على الساحل والوسطاء الافريقيين الذين وجدوا احتكاراتهم موضع تهديد .

ولقد كان الفرنسيون هم اول من شرع في محاولة منهجية منسقة للتوغل في الداخل . ففي خلال الفترة من ١٨٥٤ حتى ١٨٦٥ عمل جنرال لويس فيديرب L.Faideherebe حاكما للسنغال . ولم يقتصر جهده على بسط النفوذ الفرنسي على امتداد نهر السنغال حتى بلدة كاييس Kayes بل وضع اسس النظام الاداري والتعليمي وبادر بتطوير زراعة الفول السوداني ليكون محصولا أساسيا للتصدير . بيد أن السلطات الاستعمارية لم تشرع في احتلال المساحات الشاسعة المخصصة لها في افريقيا الا بعد معاهدة برلين المبرمة عام ١٨٨٥ والتي تم بناء عليها « تقسيم افريقيا » . واحتل الفرنسيون كونا كري عام ١٨٨٧ ، وكانوا قد اعادوا بسط وصايتهم على بورتو نوفو قبل ذلك بخمس سنوات الا أنهم عجزوا عن التقدم والتوغل الى الداخل بسبب المقاومة العنيفة من جانب ملوك داهومي . ثم استولوا على ابومي عام ١٨٩٣ وعزلوا حاكمها . وواجه الفرنسيون معارضة في منطقة السافانا من جانب ساموري Samory ورابيه Rabeh وقد طالب الزعماء الافريقيون بحقهم في مساحات شاسعة منها . وتفاوض رجال القنصلية البريطانية في ممالك يوروبا مع رجال الدين المحليين من أجل العمل على اقرار السلام بين الفرق المتحاربة وعقدوا معهم معاهدات تكفل استتباب الامن والسلام وحرية التجارة وتحريم التضحية بالنفس البشرية وما شابه ذلك . واعيد عقد هذه المعاهدات عام ١٨٩٣ .

وهكذا اضحت دول افريقيا الغربية كما نعرفها اليوم مناطق نفوذ استعمارية سواء عن طريق الفتح ، أو عن طريق عقد المعاهدات.

واقيمت حدود ثابتة جرى تحديدها في القالب الاعم وفق التقسيمات المحلية القائمة بين الجماعات السلالية الكبرى . وتم تأسيس شكل ما من اشكال الحكومة المركزية في كل اقليم من تلك الاقاليم وتحدد شكل كل حكومة وفق طبيعة اتجاه ونظام البلاد الاوروبي صاحب النفوذ على المنطقة . وتولى اعضاء الادارة الجديدة في المهجر مهمة الاشراف على العديد من الخدمات وادارتها . وكان الحاكم الاستعماري مسئولا فقط امام البرلمان في عاصمة الدولة الاوروبية صاحبة النفوذ على المنطقة (المتروبوليتان) . ويعنى الحاكم اساسا بمشورة كبار موظفيه المدنيين ، كما كان الحاكم في المقاطعات البريطانية يعني الى حد ما باستشارة المجلس التشريعي الذي كان يتألف اساسا في بادىء الامر من عدد من التجار البريطانيين ثم ضم بعد ذلك اعضاء افريقيين معينين واخيرا اعضاء افريقيين منتخبين . وسعى الحكام الجدد في الاقاليم المستعمرة الى فرض القانون والنظام مع ضمان الحد الادنى من التطور . ولقد كان تحقق هذه الاهداف رهن الى حد كبير بعدد صغير من العاملين المسئولين . مثال ذلك أن جنرال لوجارد بعد غزوه لشمال نيجيريا لم يكن لديه سوى تسع موظفين سياسيين يديرون شئون شعوب يربو عددها على عشرين مليون نسمة .

الحكم الاستعماري :

اختطت الحكومتان الاستعماريتان البريطانية والفرنسية سياستين متمايزتين بحيث يمكن التمييز بينهما باعتبار أن احداهما تستهدف الاتحاد والثانية الاستيعاب بالمعنى الفرنسي لكلمتي Association and Assimilation أو النهج الابوي في الحكم والاندماج بالمعنى الانجليزي للفظتي Paternalism و Identity ، أو اذا ما ترجمناهما الى طرق الادارة المحلية نقول انها طريقة الحكم غير المباشرة والاخرى الطريقة المباشرة . بيد أن هذه الكلمات ليست متماثلة تماما ، ويمكن القول بأن السياسة الفعلية المطبقة لم تكن

دائما وابدا مطابقة ومتسقة مع المبادىء المقررة . لقد نبعت السياسة الفرنسية أساسا من مبادىء الثورة حين صدرت المراسيم التي تحرم الرق لتعلن أن « كل سكان المستعمرات الفرنسية ، دون تمييز بينهم من حيث اللون ، هم مواطنون فرنسيون يتمتعون بكل الحقوق التي كفلها الدستور » . هذا بينما ارتكزت السياسة البريطانية على اسس تجريبية عملية وان وجدت التعبير النهائي لها في كتاب لوجارد « الانتداب الثنائي » Daul Mandate الصادر عام ١٩٢٠ وقد نشره عقب اعتزاله الخدمة في المستعمرات . ويعتبر هذا الكتاب المرجع الوحيد للسياسة الادارية التي كان ينتهجها الموظفون البريطانيون .

وأعلن الفرنسيون أن الافريقيين قادرون على استيعاب الثقافة الفرنسية . وأن من يتقدم على هذا ويحقق نصيبا منه سيقبلونه بين صفوفهم كعضو له كل الحقوق الاجتماعية مثل الفرنسيين سواء بسواء . وذهب الانجليز في نظرتهم الى الافريقيين مذهبا مغايرا ثابتا اذ رأوا أن ليس بامكانهم أن يصبحوا انجليزا سود البشرة ، وان محاولاتهم لتقليد السلوك البريطاني كان مدعاة للسخرية ، ومن ثم عليهم أن يؤسسوا ثقافتهم هم الخاصة بهم . بيد أن التباين بين هاتين السياستين كان يخف ويتعدل كثيرا عن طريق الممارسات الادارية .

وتمتع المقيمون في المستوطنات الساحلية في السنغال بحقوق سياسية ذات شأن كبير ولفترة طويلة . مثال ذلك أنه في عام ١٨٤٨ نال قرابة ١٢٠٠٠ افريقي من بلدتي سان لوي وجوري حق المواطنة الفرنسية على الرغم من أن أكثرهم كان أميا وغير مسيحي . وأكثر من هذا طلبت منهم الحكومة الفرنسية ايفاد ممثل عنهم للجمعية الفرنسية في باريس . وعلى الرغم من أن الحكومة الفرنسية قد سحبت هذا الحق عام ١٨٥٤ الا أن اخرين غيرهم تمتعوا بحق المواطنة الفرنسية ــ كأن يحاكموا في كل قضايا العقوبات وفق القانون الفرنسي مع التمتع بالحصانة ازاء نظام التبعية للادارة

الاستعمارية والسخرة ، والتمثيل امام هيئات البرلمان الفرنسي ـ واستمر هذا التمتع حتى الاستقلال (نذكر هنا انه في ظل نظام التبعية للادارة الاستعمارية فرضت قيود على حرية الرعايا في التعبير وتشكيل الروابط الاجتماعية ، كما كان من حق موظفي الادارة اصدار احكام عاجلة بفرض عقوبات على كثير من الآثام) . بيد أن عدد الافريقيين الذين نالوا هذه الحظوة ظل قليلا . ففي عام ١٩٣٦ لم يتجاوز عدد هؤلاء المواطنين في السنغال ٧٨٠٠٠ وبلغ عددهم في بقية الممتلكات الفرنسية في غرب افريقيا ٢٤٠٠ فقط .

وبدات عمليات رفض سياسة الاستيعاب في منتصف القرن التاسع عشر مع تاسيس امبراطورية لويس نابليون الثانية . وبينما اصر فيديرب Faideherebe على مواصلة سياسة الاستيعاب في مجال الخدمات الاجتماعية للمقيمين في منطقتي سان لوي وجوري فان النظام الاداري الذي اقامه في الاقاليم الخاضعة للسلطة الاستعمارية كان يتسم بالقسوة والخشونة في معاملة الرعايا .

واعتمدت السياسة التعليمية الفرنسية في المستعمرات على انشاء مدارس تقدم مناهج دراسية مماثلة للمناهج التي تدرسها المدارس في فرنسا ذاتها . ولم تكن المدارس الابتدائية في واقع الامر ، تدرس اللغات المحلية لتلاميذها بيد أن الاعتمادات المالية المخصصة للتعليم كانت ضئيلة للغاية بحيث لا تسمح الا بتدريب عدد صغير جدا من النخبة الافريقية . وعلى النقيض من ذلك طبق البريطانيون سياسة الحكم غير المباشر في شمال نيجيريا ، وكان محظورا على الارساليات التبشيرية العمل داخل مدن الامارات الاسلامية ، وعنى التعليم في هذه الامارات بالتركيز على تعليم الدين الاسلامي والحرف المحلية . اما المدارس الحكومية والمدارس التبشيرية الثانوية (معهد كاتسينا الحكومي لتدريب المعلمين الذي تخرج فيه العديد من السياسيين في نيجيريا الشمالية) فقد التزمت بالخطوط العامة للتعليم الانجليزي العام . وكان ثمة نزوع لاغفال تدريس التاريخ القومي لتلك البلاد وكذا جغرافياتها المحلية . ولم

يكن الدافع الى ذلك موقفها مبدئيا في الاساس بقدر ما هو راجع الى عدم توفر معلمين أهل لذلك . واستخدمت الارساليات التبشيرية مدارسها اداة لتعليم الثقافة الانجليزية ، وكانوا مسئولين الى حد كبير عن غرس قيم جديدة بين تلاميذهم .

واذا كان الفرنسيون في ادارتهم للمستعمرات قد التزموا سياسة قائمة على المركزية ومتماثلة الى حد كبير فان البريطانيين كانوا على النقيض منهم حيث ظلوا تجريبيين في ادارتهم لمستعمراتهم. اذ تركت هذه السياسة فرصة كبيرة للمبادرة الذاتية في ايدي مديري الادارات المحلية في المستعمرات . كما بذل هؤلاء محاولات عامدة وواعية قصد الافادة من المؤسسات السياسية المحلية واستخدامها كأدوات للحكم الاستعماري . وثار جدال شديد محوره أن التلاؤم البطيء للابنية الاجتماعية التقليدية قد يقلل الى حد كبير من مظاهر الاضطراب والتوتر في حالات التغير الاجتماعي على العكس مما لو فرضنا على هذه الابنية مؤسسات جديدة . ويبدو أن هذا الرأي صادف دعما وتأييدا في الثلاثينيات من القرن العشرين على نحو ما توضحه لنا كتابات علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية حيث يؤكدون الاهمية الوظيفية لكل المؤسسات التقليدية .

لقد كان الاعتقاد الشائع قبل عام ١٩٣٩ ان برلمان نيجيريا المستقلة ذاتيا لا يمكن بناءه على اساس المجلس التشريعي القائم وقتذاك (الذي تهيمن عليه النخبة من ابناء لاجوس ذوي التكوين الفكري الغربي) ولكن يمكن بناءه على أساس اتحاد فيدرالي يضم السلطات المحلية . وارتبطت بهذا الاعتقاد نظرة تقول ينبغي على الافريقيين الا يدخلوا الادارة الاستعمارية نظراً لانها ليست سوى بناء فوقي سيجري اسقاطه يوما ما باعتباره نظاما عقيما بعد أن تنال البلاد استقلالها . ولكن جرى تطبيق هذه السياسة بصور جد متباينة بما يتلائم مع الاوضاع المحلية .

ويفيد نظام الحكم غير المباشر ضمنا ايضا مشاركة الافريقيين في تسيير دولاب العمل الاداري ، الا أن هذا قد يتمثل في شكل

موظفين مكتبيين (بيروقراطيين) تقليديين داخل البيئة المحلية الاصلية . علاوة على هذا فقد كان بالامكان الاستفادة من البنى السياسية المحلية بطرق مختلفة ومتباينة . اذ نجد عند أحد الطرفين امكانية السماح للمجالس التقليدية بالعمل مثلما كانت تعمل قبل المرحلة الاستعمارية كمجالس مسئولة فقط عن الامور المحلية ، وتقف الادارة الاستعمارية هنا الى جانب النظام التقليدي وتتولى مسئولية جباية الضرائب وتقديم الخدمات الحديثة . ونجد على الطرف الاخر الادارة الاستعمارية تحاول العمل من خلال البناء السياسي التقليدي بحيث يكون هناك حسب الوضع الامثل نظام واحد فقط للادارة المحلية . ولعل نظام الحكم المباشر قد لجأ في الغالب الاعم الى هذا النظام الاخير وان ظل المصطلح دون تحديد واضح دقيق للدلالة على هذا الاسلوب .

ومن الاهمية بمكان دراسة الصور المختلفة والمتباينة التي لجأت اليها القوى الاستعمارية في إستخدامها للنظم السياسية التقليدية في أراضيها . فقد كان لها تأثير واضح لصون هذه النظم كما كان لها أثرها على القيم السائدة المتعلقة بالسلطة والحكومة ودور الشيوخ والزعماء في المجتمع الحديث .

ونلاحظ أن العلاقة بين الحكومة البريطانية وبين حكام ممالك وسط افريقيا كانت تحددها طوال القرن التاسع عشر معاهدات يعقدها ويدعمها قناصلة رسميون . وبرزت لاول مرة مشكلات ادارة جماعات سكانية كبيرة في منطقة ساحل الذهب الجنوبية . وكان للتشريعات القانونية التي صدرت في عامي ١٨٧٤ و ١٨٨٣ والتي استمرت سارية المفعول حتى عام ١٩٢٧ دور كبير في الاعتراف بالحكام المحليين اذ أعطتهم حق اصدار قوانين محلية وحق اصدار قوانين وتشريعات مدنية وجنائية محدودة تلتزم بها المحاكم المحلية . وكانت الخدمات المحلية مسئولية ضباط المقاطعات ولم يكن بمقدور الحكومة الاستعمارية تقديم منح مالية لبعض الهيئات مثل المجالس التقليدية للشيوخ التي لا سلطان او رقابة لها على ثرواتهم . هذا

على الرغم من ان هذه المجالس كانت تملك موارداً مالية ودخولاً كبيرة تاتيها في أغلب الاحيان من تأجير الاراضي لزراع الكاكاو المهاجرين ومن رسوم قطع الاخشاب واستغلال المناجم فضلا عن الضرائب التي تدفعها لهم الشركات الاجنبية . وكثيرا ما ادى سوء تدبير هذه الاموال الى ضعف الحكام التقليديين ومن ثم الى انهيار هيبة المنصب . وظل الوضع على هذا النحو حتى عام ١٩٣٩ حين صدر تشريع يقضي باخضاع الخزانة العامة المحلية لاشراف الادارة الاستعمارية بيد ان هذا الاجراء الاصلاحي لم يؤت ثماره الا بعد أن حلت الحكومة المحلية في أواخر الاربعينيات محل مؤسسات الادارة المحلية .

ولقد كان الدور التقليدى للأمير دوراً اوتوقراطياً حقاً كان يستشير شيوخ امارته ومستشاريه ولكن مسئولا أمامهم وطبيعي ان مثل هذا الدور يتلائم بسهولة مع السلطه البريطانيه وييسر هيمنتها ولايحتاج الامر الا الى تعديلات طفيفة يلزم ادخالها على علاقة الامير بشيوخ بلدته . ونظر لان الضابط المسئول عن الادارة الاستعمارية كان يعتمد على الامير وتابعيه فانه كان يلتزم مقابل ذلك بحماية الدور التقليدي للامير .

واصبحت ادارة الامارات عملا محكما يستلفت الانظار لفعاليته وقلة تكاليفه . وخرج ضباط المقاطعات من مختلف أنحاء نيجيريا وما وراءها بحثا عن الزعيم الذي يمكن أن يعهدوا اليه بالسلطة المحلية المعلنة . وبدت المشكلة يسيرة في ممالك يوروبا وتأسس اول نظام للسلطة المحلية عام ١٩١٧ . بيد أن الاوبا Ibo في يوروبا لم يعد يعتمد في النظام الجديد على مجلسه من الشيوخ — وهم رجال منتخبون من قبل اعضاء جماعاتهم السلالية حسب الفرف في اكثر الممالك — وكان بحكم وضعه الجديد مفتقرا الى مشورة الحاكم الإداري البريطاني . ومن ثم اصبح هذا الاخير ، وليس الشيوخ ، هو صاحب الحل والعقد وله حق عزل الاوبا . وافاد جميع الاوبا بحكم تعلمهم ، ومن وضعهم ليصبح كل منهم في بلدته حاكما فردا مطلقا ، مما أثار معارضة شيوخهم . وعلى الرغم مما عاناه الكثيرون منهم نتيجة النفي لفترات قصيرة الا أن انتصاراتهم ادت الى تدهور

مكانة الشيوخ تدهورا كبيرا بين أهلهم . وأدت بعض الاصلاحات في الثلاثينات الى الاعتراف بالاوبا وبشيوخهم في مجلس واحد يمثل السلطة المحلية (بدلا من سلطة الاوبا وحده وحثت الموظفين الرسميين الاستعماريين على حماية وضع ومكانة الاوبا . بيد ان هذه الاصلاحات لم تغير التناقض الرئيسي في النظام . (وبينما خسر الشيوخ معاركهم ضد الاوبا الاوتوقراطي فان الشباب المتعلمين ممن تم انتخابهم مؤخرا لمجالس الحكومة المحلية وساندتهم الاحزاب السياسية القومية ، سرعان ما نجحوا في اضعاف سلطات الاوبا) وطبيعي أن هذا التناقض له جذوره الموروثة عن النظام الوطني المحلي للسلطة .

وعقب تطبيق نظام الضرائب المباشرة عام ١٩٢٧ ثارت اضطرابات واسعة بقيادة نساء من شعب الابو . وكشفت هذه الاضطرابات عن العداء الواسع والعميق الذي يكنه الشعب للزعماء المفوضين . ولهذا تشكلت في الثلاثينات مجالس ترتكز على قاعدة من الوحدات السياسية التقليدية وممثليها . بيد ان هذه المجالس كانت أصغر من أن تعمل بكفاءة كوحدات حكومية محلية .

والملاحظ انه في كل من الولايات التقليدية واللارئاسية سواء في ظل نظام الحكم المباشر أم غير المباشر ظل عمدة القرية يشغل منصبه بناء على اختياره وفق الاسلوب المتعارف عليه تقليديا وكان هو الحلقة القاعدية في سلسلة السلطة الاستعمارية والمسئول عن حفظ النظام وجباية الضرائب وتعبئة اليد العاملة للخدمات العامة . ولا ريب في أن التنافر بين مطالب الضباط الاداريين وبين تطلعات الشعب جعلت من منصب عمدة القرية امرا مثيرا للاستياء .

ويمكن القول بأن مؤسسة الحكم المباشر في المستعمرات الفرنسية ترجع في نشأتها من ناحية الى سياسة الدمج والاستيعاب كما ترجع من ناحية اخرى الى عوامل تاريخية . ذلك أن امبراطوريات ساموري Samory ورابح Rabeh والحاج عمر Al Haj Omar التي تقع في منطقة السافانا وفتحها الفرنسيون لم تقدم اطارا للنظام الاداري على نحو ما فعل لوجارد في شمال نيجيريا .وقد

عمل النظام الفرنسي على جذب الحكام المحليين اليه ممن لا يزالون يتمتعون بسلطان قوي على ممالكهم كما هو الحال بالنسبة لحكام اقاليم موصي Mossi في الفولتا العليا وامارات الفولاني في شمال الكاميرون واستوعبهم النظام الفرنسي واعتبرهم بمثابة رؤساء كبار ذوي مقام رفيع . ولكن عمد النظام الفرنسي في الوقت ذاته الى تقسيم القطاع الاكبر من مستعمراته الى دوائر ومقاطعات وهي وحدات جرى تقسيمها عادة ، على أساس حدود عرقية وسياسية . ويعتبر رؤساء الالفي مقاطعة هم كبار الموظفين ــ حيث كل منهم مسئول عن وحدة ادارية متوسط تعداد سكانها ثمانية آلاف نسمة ــ ويجري اختيار هؤلاء الرؤساء عن طريق الادارة الاستعمارية . وكانت الادارة تؤثر ابناء العائلات التي لها باع في السلطة تقليديا ولكن مع ملاحظة أن الاولوية هي الولاء لفرنسا والقدرة على خدمتها في الوظائف الحكومية أو الجيش أو الشرطة . ويشرف رئيس المقاطعة على ادارة ما يقرب من أربع وعشرين قرية في المتوسط ، وان ظل هو نفسه تابعا لقائد الدائرة الفرنسي Commandant du Cercle الذي يوقع عليه عقوبات مختلفة مثل الفصل أو الخصم أو اللوم . وثمة فارق كبير بين علاقة القائد الفرنسي ورؤساء المقاطعة من ناحية وبين قائد المقاطعة البريطاني والحكام التقليديين : ذلك أن المسئول البريطاني اعتاد قضاء جل وقته في جولات مختلفة لزيارة الرؤساء في أماكن عملهم مبديا لهم قدرا كبيرا من الاحترام بينما كان على رؤساء المقاطعات في المستعمرات الفرنسية تقديم تقارير دورية الى رئاستهم يسألونهم التعليمات بشأن كل جديد وربما ينتظرون ساعات طويلة خارج مكتب رئيسهم .

وذاعت في العشرينات تقارير عن الفساد وسوء الادارة من جانب رؤساء المقاطعات ــ وهو ما كان متوقعا حدوثه من رجال غير مسئولين بأي صورة من الصور عمن يتولون السلطة عليهم . ومن ثم ساد اللين والتراخي في الادارة خلال سنوات الكساد في

الثلاثينات وأثناء الحرب العالمية الثانية خاصة مع العجز في الضباط الاداريين وهو ما ساعد على استمرار سوء استغلال الادارة . وتزايد عدد الزعماءالذين اتجهوا الى الادارة الاستعمارية التماسا للحماية. وطالب زعماء غينيا في عام ١٩٤٧ اصدار وثيقة حقوق تحدد وضعهم. وفي عام ١٩٥٣ منحت الادارة الاستعمارية الزعماء في كل الاراضي المستعمرة حق التعيين والفصل في الادارة المدنية . وألف هؤلاء الزعماء خلال السنوات التي اعقبت الحرب العالمية الثانية مباشرة، جماعة من النخبة ذات مصالح متميزة . وما ان اصبح الاستقلال وشيكا حتى سعت الادارة الفرنسية قبل كل شيء الى نقل السلطة اليهم بدلا من تسليمها لغيرهم من القادة الذين يفوقونهم تعليما ووعيا سياسيا ، ومع هذا فعندما نوقش امر الغائهم على نَحْوِ ما حدث في غينيا عام ١٩٥٧ لم يقل أحد كلمة في صالحهم حتى من جانب ضباط الادارة الفرنسية .

الاقتصاد الاستعماري :

نشأ نظام اقتصادي استعماري في كل اقليم من أقاليم غرب افريقيا . وجرى تنظيم القطاع الحديث على أساس انتاج قليل من المواد الخام واستخدام عدد قليل جدا من العمال المهرة ، والعمل في اكثر الاحيان على هجرة أعداد كبيرة من اليد العاملة . واختفت تقريبا صناعة السلع الاستهلاكية بل وتصنيع المواد الخام . وكان رأس المال الخاص كله تقريبا وافدا من الخارج ثم كانت أرباحه تعود الى الخارج ، بينما استخدم رأس المال العام لانشاء البنية التحتية غير الانتاجية وفاء للمصالح التجارية الاجنبية . وتركزت غالبية وظائف ذوي الياقات البيضاء في الادارة المدنية . وهكذا نشأت مجتمعات تضم قلة من النخبة المتعلمة وقلة من العمال الفنيين وكثرة غالبة من العمال غير المهرة الذين قضوا قسطا من حياتهم في مناطق حضرية بينما قضوا أكثر حياتهم في قراهم التي نشأوا وتربوا فيها . واستطاع بعض المزارعين مضاعفة دخولهم عن طريق زراعة

محاصيل قابلة للتصدير باسعار مرتفعة مع الاستمرار في زراعة مواد غذائية بالطرق التقليدية . هذا بينما ظل كثيرون جدا غيرهم دون ان يتأثروا بالتغيرات الاقتصادية التي طرأت على بلادهم .

وبعد فورة النشاط التي سادت خلال الفترة الاخيرة من القرن التاسع عشر عندما قسمت القوى الاوروبية افريقيا فيما بينها وسعت الى اقامة نوع من السيطرة على الاراضي التي استولت عليها، دخلت غرب افريقيا في حالة ركود . ذلك ان صادراتها لم تكن تمثل حاجة ملحة لاوروبا ، فضلا عن ان زراعتها لم تكن تمثل سوقا للصناعات الاوروبية . واعتادت كلٌ من الحكومة البريطانية والفرنسية (وكذلك الالمانية حتى عام ١٩١٤) أن ترصد لادارة مستعمراتها ميزانيات هزيلة . حقا لقد أصر البريطانيون منذ البداية على أن يفي كل اقليم بحاجاته الذاتية . وهكذا اعتمدت نيجيريا الجنوبية منذ البداية على عائداتها الخاصة من الجمارك والرسوم المختلفة ، وحصلت منطقة شمال نيجيريا على قسط ضئيل من هذا الدخل مما اضطر لوجارد الى أن ينشيء نظام الفولاني للضريبة المباشرة وفاء بحاجات اقليمه . وظلت المستعمرات الفرنسية من ناحية أخرى عنصرا متكاملا لدرجة كبيرة من الدولة الام . وتقاضى الموظفون الفرنسيون رواتبهم من باريس ، كما اعتادت فرنسا أن تدفع ثمنا اعلى من الاسعار السائدة في السوق العالمية بشراء الكثير من صادرات امبراطوريتها فضلا عن تعويض العجز في ميزانية المستعمرات عن طريق تقديم منح من خزانة الدولة الفرنسية . ويبدو أن هذا التكامل لم يحقق تطويرا كبيرا للمستعمرات الفرنسية وان جعل استقلالها السياسي عن فرنسا مسألة اكثر صعوبة .

وتطور الاقتصاد بطيئا خلال فترة الحكم الاستعماري التي تميزت بحربين عالميتين وكساد اقتصادي شامل مما اضطر الحكومات الى خفض المنح بنسبة كبيرة على مدى سنوات طويلة . واعترفت الحكومات الاستعمارية صراحة في أوائل العشرينات بالتزاماتها ليس فقط تجاه حكم البلاد بل وأيضا من أجل تطوير وتنمية مستعمراتها

اقتصاديا وسياسيا . ولكنها في الوقت ذاته أكدت ـ او تظاهرت ـ بأن خير الدول الام هو خير المستعمرات مما هيا فرصة مواتية لمديد من أجيال الوطنيين الافريقيين ان يشكوا ويتذمروا من أن اقتصاد بلادهم المستعمرة انما ينمو فقط في حدود خدمة المصالح المادية الاوروبية . وهنا وخلال هذه الحقبة على وجه التحديد وضحت العناية بتطوير التعليم والخدمات الاجتماعية من أجل رخاء زراعي كاف لقيام سوق للسلع المصنعة . ولكن لم يتحقق حتى عام ١٩٤٥ سوى النزر القليل من الامال المرسومة بسبب الكساد الاقتصادي خلال الثلاثينات والحرب العالمية الثانية . ولم تحقق المستعمرات أعلى معدل لتقدمها الاقتصادي الا عقب استقلالها سواء من حيث مدى التقدم أو الدرجة التي سمت كل دولة جاهدة من أجل الوصول اليها من خلال اقتصاد متكامل لها .

الزراعـــة :

يفي الانتاج الزراعي بثلثي صادرات غرب أفريقيا حسب بيانات عام ١٩٦١ ، وجلها حاصلات اشرف على زراعتها مزارعون افريقيون .

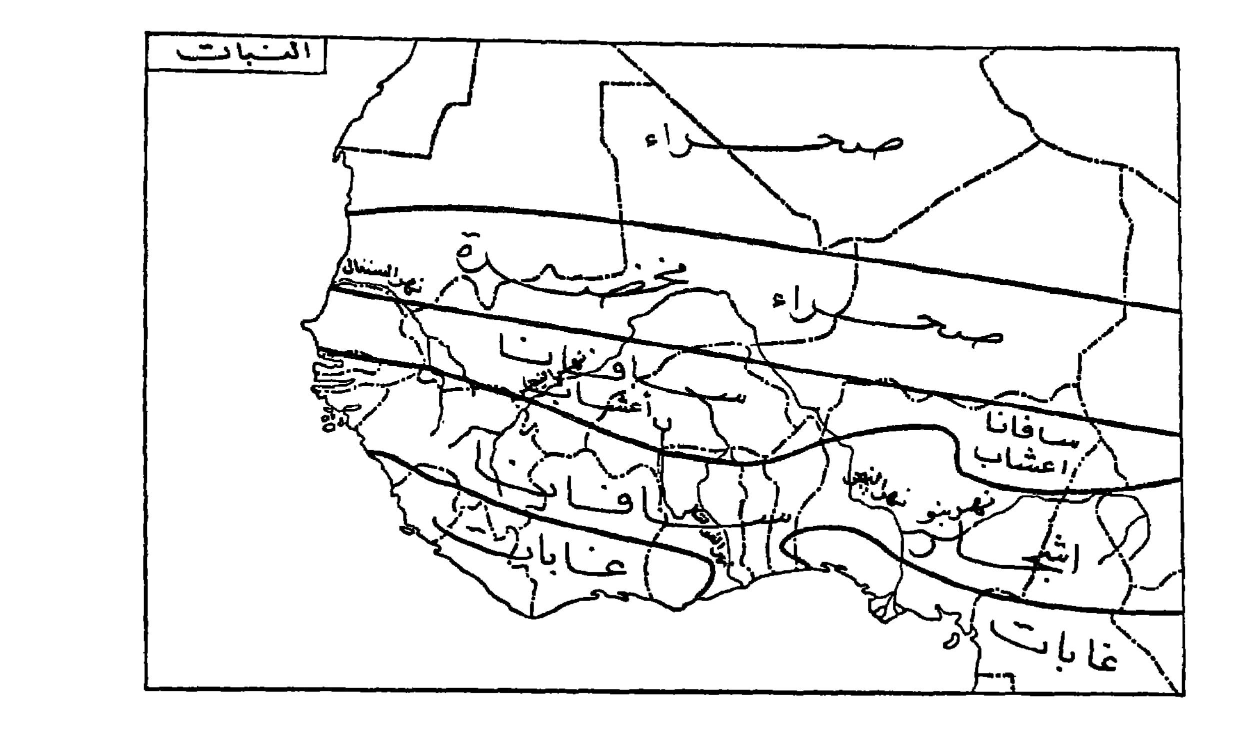
	جملة صادرات غرب افريقيا (مقدرة بالمليون استرليني)	الدول المصدرة الرئيسية (مقدرة بالمليون استرليني)
كاكاو	١٢٠	غانا ٧٠ ، نيجيريا ٣٤ ، ساحل العاج ١٤
فول سوداني	٨٥	نيجيريا ٣٩ ، السنغال ٣٧
منتجات النخيل	٤١	نيجيريا ٣٣
بن	٣٤	ساحل العاج ٢٩
قطن	١٤	نيجيريا ١٣

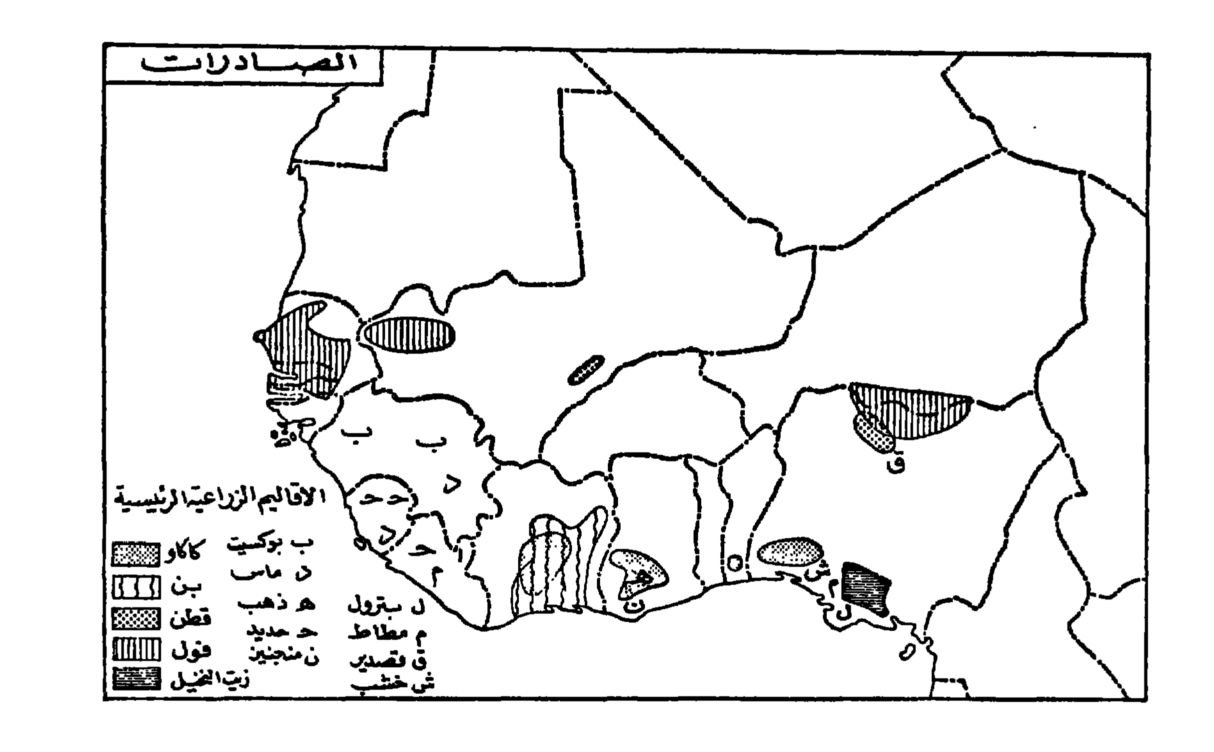
* لم يتيسر لنا احصاءات تفصيلية واضحة عن الزراعة في غرب افريقيا ولكن تفيد موسوعة AL MANAC عام ١٩٧٨ بما يلي : تمثل صادرات غانا من

وقد حلت تجارة زيت النخيل ثم من بعدها تجـارة لب
ـيل محل تجارة الرقيق في مطلع ومنتصف القرن التاسع عشر.
ـو شجر زيت النخيل بريا في جنوب نيجيريا فوق اراضي
ـات التي ازيلـت اشجارها بقصـد استصلاحها للزراعـة
ـدية . ولا تحتاج تلك الزراعة لاكثر من عناية الزراع لها خوفا
ا شتعال الحرائق عند حرقهم لبعض الاعشاب قبيل كل دورة
ـعية جديدة . ويجمع الفلاح الثمار ثم يبدأ بمعاونة نسائه في
ـخراج الزيت الاحمر من الالياف كما يستخرج اللب من داخـل
ـرة ويستهلك القسم الاكبر من الزيت محليا كمادة أساسيـة
ـاعة الحساء ـ ولهذا تصدر اقاليم غرب نيجيريا لب النخيـل
قليل جدا من الزيت ، بينما تصدر الاقاليم الشرقية كلا من
ـت واللب . ولم ترتفع عائدات هذا المحصول غير ارتفاع قليل
ـيء جدا ولم تزد صادرات نيجيريا من منتجات النخيل عن
ـعف خلال الفترة ما بين ١٩١٠ و ١٩٥٠ . ويمثل هذا العمل
ـة ضئيلة من النشاط الانتاجي ، كما تقدم الزراعة كلها ٧ بالمائة
ـ من جملة الانتاج الحالي لاقاليم غرب أفريقيا .

وبدات زراعة الفول السوداني في السنغال خـلال منتصـف
ـن التاسع عشر ، وبلغ انتاجه في مطلع القرن العشرين ١٢٥٠٠٠
، وزاد الانتاج الى ٥٠٠٫٠٠٠ طن قبل عام ١٩٣٩ ثم نقص
ـا كبيرا ليرتفع بعد ذلك ويبلغ ذروته خلال السنوات الاخيرة اذ
ـل الى ٩٠٠٫٠٠٠ طن . وبدأ عقب عام ١٩١٠ مباشرة انتـاج
ـجريا من الفول السوداني وكانت أهم مناطق انتاجه في الاقليم

الكاكاو عام ١٩٧٤ ـ ٥٤٪ من جملة صادراتها . واصبح البترول الخام هو
السلعة الاساسية وربما الوحيدة للتصدير في نيجيريا عام ١٩٧٥ اذ يمثـل
٩٣٪ من جملة صادراتها . وفي ساحل العاج عام ١٩٧٥ كان البن يمثل ٢٤٪
والكاكاو ١٩٪ من جملة الصادرات وفي السنغال (١٩٧٤) يمثل الفوسفات ٢٨٪
وزيت الفول السوداني ٢٢٪ من جملة الصادرات . (المترجم) .


النبات
صحراء
شبه صحراء
مخضبة
نهر السنغال
سافانا أعشاب
سافانا
سافانا أعشاب
نهر النيجر
نهر بنو
أشجار
غابات
غابات


الصادرات
الاقاليم الزراعية الرئيسية
كاكاو
بن
قطن
فول
زيت النخيل
ب بوكسيت
د ماس
هـ ذهب
حـ حديد
ن منجنيز
ل بترول
م مطاط
ق قصدير
ش خشب

الشمالي وبخاصة المنطقة المحصورة بين كانو وزاريا وسوكوتو ، ثم ارتفع الانتاج ارتفاعا كبيرا وسريعا خلال الثلاثينات والخمسينات.

وتتميز الحيازات الفردية في السنغال ونيجيريا بأنها صغيرة ومن ثم فان ناتجها قليل ومنخفض . ويحقق المزارع المتوسط عائدا من زراعته وان كان عائدا ضئيلا ، واقامت حكومة السنغال في منطقة كازامنس مزرعة آلية تبلغ مساحتها خمسة عشر آكر لزراعة الفول السوداني في دورات ، بالاضافة الى زراعة الحبوب وبعض النباتات المخصبة . والمعروف ان الفول السوداني يزرع في المناطق الاخرى كمحصول وحيد على سنوات متعاقبة وانه يقلل من خصوبة الارض .

ودخلت زراعة الكاكاو في غانا عام ١٨٧٩ وبدات اول تصدير للكاكاو عام ١٨٩٦ وارتفع انتاج البلاد الى ٣١٠,٠٠٠ طنا عام ١٩٣٦ ثم نقص وظل كذلك حتى اوائل الستينات حيث بلغ الانتاج السنوي ٤٢٠,٠٠٠ طنا ثم ارتفع الى ما يقرب من ٦٠٠,٠٠٠ طنا في عامي ١٩٦٤ — ١٩٦٥ * . وسار انتاج نيجيريا بنفس المعدل .

ويرجع الفضل في التوسع في زراعة الكاكاو الى مبادرات مزارعي اقليمي أكان Akan ويوروبا Yoruba وكانت الحيازات الارضية صغيرة بوجه عام ، مثال ذلك أن نصف الحيازات في نيجيريا لم يكن يتجاوز نصف آكر لكل منها ، علما بأن الآكر الواحد يعطي المزارع عائدا تقريبيا قدره ٥٠ جنيها استرلينيا بينما سعر الطن من المنتج مائة جنيه استرليني . وتفضل زراعة الكاكاو في اراضي الغابات التي استئصلت اشجارها حديثا (ومن ثم فان اكبر

---

* وانخفض عام ١٩٧١ الى ٤٠٢٧٧٦ طنا قيمتها ١٩٥ مليون سيدي (الجنيه الاسترليني = ٢,٨٥ سيدي) AL MANAC ١٩٧٨ و Stateman's Year ١٩٧٥ ((المترجم)) .

مساحات لزراعتها تقع في غانا حيث الكثافة السكانية اقل) مع امكانية زراعة محاصيل غذائية بين أشجار الكاكاو مما يقلل من تكاليف انشاء المزرعة .

وأدخلت زراعة البن الى ساحل العاج في اواخر القرن التاسع عشر ولكن بدأت زراعته على نطاق واسع في العشرينات وقد اصبح يمثل الان نصف صادرات ساحل العاج . ويمكن القول بوجه عــام أن الحكومات الاستعمارية منعت أو لم تشجع هجرة المزارعين الاوروبيين الى غرب افريقيا ولكن وفد في الثلاثينات عدد قليل منهم الى ساحل العاج لزراعة البن والكاكاو . ولم يزد عددهم عن مائتين وخمسين شخصا ولكنهم مع عام ١٩٤٢ أصبحوا يسيطرون على أكثر من نصف انتاج البن واستطاع الافريقيون ان يترسموا خطاهم بسرعة كبيرة وحذوا حذوهم على الرغم من صغر مساحاتهم المزروعة وساعدهم حماسهم على زيادة حاصلاتهم الى خمسه أمثال انتــاج الاوروبيين خلال الفترة من الثلاثينات وأواخر الخمسينات .

ولا ريب في أن هجرة الرجال والنســاء الى المدن تفضي حتما الى زيادة الطلب على الفلاحين لانتاج الغذاء . ولكن من العسير تقدير مدى ما تحقق انجازه في هذا الشأن . ويمكن القول الى حد ما بأنه امكن الوفاء بالحاجة عن طريق التوسع في زراعة نبــات المنيهوت. والمعروف أن البرتغال هي التي أدخلت زراعة المنيهوت الى الساحل ولكنه لم يصبح غذاء شائعا . ويرجع السبب الاساسي في ذلك الى الصعوبات الخاصة باعداده لازالة ما به من مواد سامة . ولكن سرعان ما حدث توسع في زراعته في بعض المناطق خلال القرن الحالي وبخاصة جنوب نيجيريا . ويعتبر غلة وفيرة الانتاج فضــلا عن قابليته للزراعة في الاراضي الضعيفة أو قليلة الخصوبة (بما في ذلك التربة التي انهكتها زراعة الحاصلات الاخرى) كما يمكن ترك كثير منه في الارض لحين الحاجة اليه لفترة تمتد الى أربع سنوات مما يوفر على الفلاح مشكله تخزينه وما يترتب على ذلــك مـــن خسارة . وينتشر هذا النبات عن طريق امتداد جذوره طوليا

وليس على شكل درنات صالحة للاكل كما هو الحال بالنسبة لنبات اليام . ويعتبر دقيق المنيهوت الان الغذاء الرئيسي لعمال الحفر اذ يستخدمونه بدلا من اليام الذي يفضله من حيث قيمته الغذائية ولكنه أغلى ثمنا .

الصناعـــة :

ويتألف الثلث الباقي من صادرات غرب افريقيا من الانتاج الزراعي والاخشاب والمعادن :

اجمالي صادرات غرب أفريقيا (مقدرة بالمليون استرليني)		الدول الرئيسية المصدرة (بالمليون استرليني)
اخشاب	٣٥	غانا ١٥ ، ساحل العاج ١٢ ، نيجيريا ٨
ماس	٢٨	سيراليون ١٦ ، غانا ٧ ، غينيا ٣
مطاط	٢٠ر٥	نيجيريا ١١ ، ليبيريا ٩ر٥
خام الحديد	١٧	ليبيريا ١٢ ، سيراليون ٥
بترول	١٢	نيجيريا ١٢
بوكسيت والومنيوم	١٢	غينيا ١٢
ذهب	١٠	غانا ١٠
منجنيز	٧	غانا ٦
قصدير	٦ر٥	نيجيريا ٦ر٥

وكان المطاط هو السلعة الرئيسية المخصصة للتصدير في ليبيريا ويمثل ٣٩ بالمائة من عائدات الحكومة قبل اكتشاف واستغلال خام الحديد بها . فقد حصلت شركة فايرستون بلانتيشن كومباني Fire Stone plantations Co. وهي فرع من الشركة الامريكية المعروفة ، على امتياز عام ١٩٢٦ بمليون آكر وزعت منها اكثر من ٧٠,٠٠٠ حتى عام ١٩٤٠ . وتمثل هذه المساحة احدث مزرعة للمطاط في العالم وتضم مصنعا لاستخراج وتصنيع عصارة الاشجار ومصنعا صغيرا لصناعة نعال الكاوتشوك وانتاج سلع اخرى . وعملت شركة فايرستون منذ عام ١٩٤٥ على تشجيع الفلاحين لزراعة أشجار المطاط وزودتهم بالشتلات اللازمة فضلا عن انها حتى عام ١٩٦٢ كانت تشتري كل المحصول . ولكن مرة اخرى أصبحت القاعدة غلة قليلة ومزارع صغيرة . واذا كان المزارعون من أصحاب المزارع الخاصة ينتجون الان ١٥ بالمائة من اجمالي انتاج البلاد فان اربعة اخماس المزارعين ينتجون عشر هذه الكمية فقط . ويرجع الفضل في ازدهار زراعة وانتاج المطاط في نيجيريا ابتداء من أواخر الاربعينات الى جهد الفلاحين في منطقتـــي بنين Benin ووارى

وتحتكر الشركات الاجنبية تقريبا عملية استخراج الثروات المعدنية في غرب أفريقيا باستثناء النشاط « غير المشروع » الخاص باستخراج الماس في سيراليون . وعلاوة على هذا فان بضع شركات قليلة تهيمن على مجال الانتاج في كل حالة على حدة . مثال ذلك ان انتاج خام الحديد في ليبيريا تستغله اربع شركات فحسب ، اثنتان منهما مرتبطتان ببعضهما ارتباطا وثيقا . وتسيطر حاليا شركة شل على اغلب انتاج الزيت الخام في نيجيريا ـ والمعروف ان شركة شل ب. ب. Shell B.P. قد بدأت عمليات الاستكشاف عام ١٩٣٧ ولم يحالفها النجاح الا في عام ١٩٥٧ * . وحدث في بعض الحالات أن حققت بعض الشركات الصغيرة نشاطا مربحا مثال

---

* يمثل الان البترول الخام ٩٣٪ من جملة الصادرات (المترجم) .

ذلك استخراج خام القصدير من هضبة جوس في نيجيريا وهي المنطقة التي يربطها خط حديدي يصل بينهاوبين لاجوس وميناء بورت هاركور . هذا بينما انفقت شركة شل ب. ب. حتى عام ١٩٦٢ قرابة ٧٠ مليون جنيها استرلينيا فيمحاولاتها لاكتشاف الزيت الخام تم استخراجه تحت اقسى الظروف ـ اذ اضطرت الى الحفر الى عمق عشرة آلاف قدم في باطن الارض في مستنقعات اشجار المنجروف في دلتا نهر النيجر . واستلزم استغلال خام الحديد في جبال نيمبا في ليبيريا انفاق اموال باهظة تعادل ما انفقته شركة شل لاستخراج البترول ، وتبعد تلك المنطقة الجديدة عن البحر بمسافة ١٦٥ ميلا داخل غابات كثيفة فضلا عن ان الشركة المسئولة اضطرت الى بناء خط حديدي وميناء خاص بها لخدمتها .

ويمكن القول بأن غرب افريقيا ظلت حتى عام ١٩٤٥ تفتقر تماما للصناعات الانتاجية . ويستثنى من هذا حالات معدودة مثل أول مصنع للنسيج الذي تأسس خلال العشرينات باقليم بواك Bouake في ساحل العاج ، ومصنع الاحذية الذي أقيم عام ١٩٤٠ في روفيسك Rufisque ولهذا لم يكتسب الافريقيون سوى القليل من المهارات الفنية الصناعية فيما خلا ما تيسر لهم عن طريق الخدمات العامة ـ مثل ورش ادارات الخدمة العامة والسكك الحديدية وشركات الكهرباء .

ويكشف هذا العرض الموجز لاهم صادرات غرب افريقيا عن أوجه اختلاف صارخة تمايز بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة . مثال ذلك أن مجموع صادرات غانا وساحل العاج تعادل عشرين ضعفا لصادرات مالي وفولتا العليا والنيجر مجتمعة ـ علما بأن تعداد سكان هذه الدول الثلاث لا يزيد الا قليلا جدا عن تعداد سكان الدولتين الاوليين . ويقل هذا التباين الى حد ما ، وليس الى درجة كبيرة ،إذاوضعنا فيالاعتبار الانتاج الزراعي والصناعي المخصص للاستهلاك المحلي . ويقدر نصيب الفرد من اجمالي

الانتاج القومي في غانا وساحل العاج بحوالي ٧٠ جنيها استرلينيا بينما يبلغ ١٤ جنيها استرلينيا فقط في كل من داهومي وفولتا العليا والنيجر وهي افقر الدول .

التجـارة :

ليس من العسير ان نتبين لماذا اعتمد نمو الثروة المعدنية في غرب افريقيا على المؤسسات الدولية . ويكفي ان نذكر ان استثمار مناجم خام الحديد في نيمبا يعادل سدس قيمة كل صادرات غـرب افريقيا عام ١٩٦١ ، ولكن ليس من السهولة بنفس القدر ان ندرك لماذا سيطرت قلة من الشركات الاجنبية الكبرى على التجارة في تلك البلاد . فقد كانت لاجوس على سبيل المثال تضم مع مطلع القرن الحالي عددا لا بأس به من رجال الاعمال الناجحين ، بيد ان هؤلاء عجزوا عن الصمود بفعالية في منافستهم للتجار الاجانب نظـرا لافتقارهم الى ثقة الموردين الاجانب فضلا عن رفضهم التضامن والاتحاد فيما بينهم . هذا بينما اتجه التجار البريطانيون مثلا الى الاتحاد عندما اشتدت المنافسة فيما بينهم . وتعتبر شركة افريقيا المتحدة United Africa Campans احدى نتائج هذا الاتحاد ، وكان اجمالي ذروة راسمالها هي والفروع التابعة لها في السنة الواحدة خلال اوائل الخمسينات يتراوح ما بين ٢٠٠ مليون و ٣٠٠ مليـون جنيها استرلينيا . وكانت تتولى وحدها مسئولية ثلث واردات نيجيريا واكثر من خمسي صادراتها المعدنية . وامتد نشاط هذه الشركة الى المشروعات الصناعية والملاحة البحـرية وامتيازات قطع الاخشاب . وتألفت سلسلة متكاملة الحلقات تضم وسطاء ابتداء من المؤسسة الاجنبية حتى اخر مستهلك او منتج ، وتعمـل على توزيع السلع المستوردة بكميات صغيرة وتجميع محاصيـل المزارعين . ويمكن القول بأن مثل هذه المؤسسات افادت بصورة غير مباشرة من حيث أنها وفرت الاعتمادات المالية اللازمة للافريقي بأن دفعت مقدما حسابات تجار ومزارعي الكاكاو او بتزويد التجار

الافريقيين بحاجتهم من السلع مع تأجيل دفع الثمن لشهر او قرابة ذلك . وبدأ الكثيرون من الافريقيين عملهم في صورة وكلاء للشركة الافريقية المتحدة أو لشركة مماثلة لها حتى تيسر لهم رأس المال الكافي للبدء في مشروعات تجارية خاصة بهم . بيد انه لا تزال ثمة عوامل كثيرة من بينها نقص الاعتمادات المالية تعوق نمو هؤلاء الراسماليين الجدد ليصبحوا مستوردين كبارا ، هذا علاوة على أن افتقارهم الى الخبرة وعدم درايتهم بطرق الادارة وتنظيم الاعمال التجارية ، يحول دون دخولهم مجالات الانتاج الصناعي البسيط .

وطبيعي أن نشاط الشركات الاجنبية بالاضافة الى النظام الجمركي الذي يستهدف حمايتها كفل استمرار سيطرة البلدان الاستعمارية على القطاع الاكبر من تجارة مستعمرات غرب افريقيا . مثال ذلك ان فرنسا في منتصف العقد الثالث كانت تستحوذ على ثلاثة ارباع صادرات مستعمراتها ، بينما بلغ نصيب بريطانيا من صادرات مستعمراتها قرابة ثلثي صادرات سيراليون وما يزيد على ثلث صادرات غانا .

التعليم :

انشأت الارساليات التبشيرية خلال القرن التاسع عشر مدارسها الخاصة بهدف التبشير وتخريج جيل من المعلمين يكفل العملية التعليمية التبشيرية ومع نهاية القرن بدأت الحكومات الاستعمارية تقدم المعونات المالية لهذه المدارس ثم دخلت الحكومات بعدها مجال التعليم وطبيعي ان الهدف الرئيسي لهذه الحكومات كان هدفا دنيويا خالصا ــ وهو خلق فئة ادارية تتولى مسئولية الوظائف المكتبية المتزايدة علاوة على خلق جسر ثقافي يصل ما بين الاجانب وجماهير الافريقيين . حقا ان الهوة الفاصلة بين الكنيسة والدولة في فرنسا ادت الى توقف المعونات المالية التي تقدمها الحكومة لمدارس الارساليات في المستعمرات الفرنسية في عام ١٩٠٣ وعلى الرغم من استمرار اكثر هذه المدارس في العمل

وبخاصة في المناطق الساحلية الا انه سرعان ما خضعت غالبيتها لاشراف وادارة الحكومة في المستعمرات الفرنسية ، ولعل هذا هيأ لفرنسا فرصة أكبر من تلك التي تهيات لبريطانيا للتنسيق بين برامج التوسع التعليمي وبين تقديرات السلطة لحاجتها من الايدي العاملة في مستعمرات كل منهما . ونلاحظ هنا ان المنافسة بين الجمعيات التبشيرية وبين طموح الافريقيين المتعلمين لتحصيل قدر اكبر وبلوغ مستوى تعليمي ارفع ادت الى انشاء مدارس للمرحلة الثانوية في المستعمرات الفرنسية تفوق كثيرا من حيث عددها المدارس القائمة في المستعمرات الفرنسية .

ومع هذا فقد ظل الانفاق الحكومي قليلا سواء هنا أم هناك ، حتى أنه في منتصف الثلاثينات لم يتجاوز ٤ بالمائة من اجمالي الدخل في نيجيريا والمستعمرات الفرنسية و ٧ بالمائة في غانا . ولم يتجاوز عدد المدارس الابتدائية في غانا ٢٣٦ مدرسة في منتصف العقد الثاني ، وبلغ جملة التلاميذ المقيدين ٣٥٫٠٠٠ تلميذ . هذا مع العلم بأن الاعداد الاجمالية غالباما تخفي العدد القليل من التلاميذ الذين يحظون باكمال تعليمهم بالمرحلة الابتدائية ـــ ذلك لان اطفالا كثيرين في هذه السن المبكرة يكتفون بالسنوات الاولى من التعليم بالمدرسة . وفي عام ١٩١١ بلغ عدد التلاميذ المقيدين بالمدارس ١٩٠٠٠ من بينهم ١١٠٠٠ بمدارس الاطفال و ٢٠٠٠ بمدارس المرحلة الاولى واقل من ٧٠٠ بالمرحلة الاعدادية (سبع سنوات دراسية) أما التعليم الثانوي فقد دخل غانا في مرحلة متاخرة عن نيجيريا . وأول المدارس التي انشئت هي مدرسة اديزادل واسستها الارساليات الانجليكانية عام ١٩١٠ ، ومدرسة مفانتيسبيم واسستها ارساليات المنهجيين Methodists عام ١٩١٣ وكلاهما بمنطقة كيب كوست Cape Coast وفيعام ١٩٢٤ افتتحت الحكومة الاستعمارية كلية اكيموتا Achimota في اكرا وبدات منذ عام ١٩٣٨ تضم فصولا شاملة من الحضانة حتى الجامعة . وتكشف

هذه الكلية عن ميل الحكومات الاستعمارية الى خلق مؤسسة وحيدة تكون بمثابة تحفة تشد الانظار وتضفي مكانة رفيعة على كل من واتاه الحظ بدخولها . وبلغ جملة ما انفقته الحكومة عام ١٩٣٨ على كلية اكيموتا ربع اجمالي ما انفقته على كل مراحل التعليم الاخرى في المستعمرة .

ولم تمتد المنافسة التبشيرية الى الامارات الاسلامية في شمال نيجيريا ، ومن ثم كان التوسع في مجال التعليم بطيئا جدا هناك . ولعل من الامور ذات الدلالة ان كلية كاتسينا Katsina College التي قصدها كثيرون من الزعماء السياسيين لشمال نيجيريا لتلقي التعليم فيها هي كلية للمعلمين وليست مدرسة ثانوية ، وهي في ذلك تماثل مدرسة وليام بونتي في داكار التي تعلم فيها الزعماء المتحدثون بالفرنسية . وكان المسلمون يلتحقون لسنتين أو ثلاث سنوات بمدارس تحفيظ القرآن مقابل الفترة نفسها التي كان المسيحيون يقضونها بالمدارس التبشيرية في المناطق الساحلية .

ولكن ايا كانت الاهداف التي قصدت اليها الحكومات الاستعمارية من التعليم الا ان التقدم في التعليم كان بطيئا . مثال ذلك أن نسبة الاطفال الذين التحقوا بالمدارس الابتدائية خلال الثلاثينات في مناطق السافانا بالمستعمرات الفرنسية كانت ٢ بالمائة على وجه التقريب . ولم تبدأ المدارس الثانوية في غانا تخريج حملة شهادة مدرسة كيمبريدج الا عام ١٩٢٩ ولم يجتز هذا الامتحان سوى ٨٢ طالبا فقط في عام ١٩٣٨ .

وارتبطت المناهج ارتباطا وثيقا بالمناهج التعليمية في مدارس البلدان الاستعمارية ، حتى وان ادعت هذه الدول ان خطة التعليم موضوعة لتحقيق التلاؤم بين الافريقي ومجتمعه . فلم يكن المعلمون الاجانب يدرون شيئا عن تاريخ افريقيا او جغرافيتها ليعلموه لطلبتهم .

وحين افتتحت الجامعات في اكراوايبادان Ibaden عقب الحرب العالمية سارت هيئة التدريس ومعضديها من الافريقيين في تصورهم للجامعة على نفس نمط جامعة اكسبريدج Oxbridgo .

تقييم للمرحلة الاستعمارية :

من السهل علينا اليوم أن نعترض على معدل النمو البطيء للاقتصاد طوال نصف قرن من الحكم الاستعماري . اذ كان بالامكان أن يتحقق الكثير والكثير جدا لو أن الدول الصناعية أعطت الاعتبار الاول لمسألة تطوير البلدان المتخلفة . بيد أن الفارق مذهل بين ظروف وأوضاع المجتمع الافريقي مع نهاية القرن التاسع عشر وبينها في نهاية الحرب العالمية الثانية . فقد هيأت القوى الاستعمارية الاساس أو البنية التحتية اللازمة للتقدم وقت الاستقلال : ونعني بذلك نظام اداري فعال ، يصل الى القرى في أقصى البلاد ، وشبكة من الطرق البرية والسكك الحديدية ، وخدمات أساسية في مجال الصحة والتعليم . وحققت صادرات غرب افريقيا من المواد الاولية ثروة لا بأس بها لشعوب هذه المنطقة . وتركز الاهتمام عادة على المعادن علما بأن نسبة ضئيلة من قيمتها هي التي وصلت الى يد الانسان الافريقي في صورة اجور ضرائب ، بينما كان ثلث صادرات غرب افريقيا من المحاصيل التي ينتجها مزارعون يحصلون على نسبة كبيرة من اثمان السلع التي يبيعونها فيما وراء البحار .

وانطوت السياسة الفرنسية والسياسة البريطانية على السواء على عدد من المتناقضات . لقد سعى الفرنسيون الى استيعاب الانسان الافريقي داخل ثقافتهم ، ولكنهم ارادوا أن يتحملوا في سبيل ذلك البرنامج اقل تكاليف ممكنة . ودربوا نخبة افريقية لهذا الفرض ولكن هذه النخبة هي التي عارضت بقوة فيما بعد عملية الاستيعاب مؤكدة بدلا من ذلك وضعها وطبيعتها الزنجية ، وسعى البريطانيون الى انشاء مؤسسات افريقية وطنية بحيث تكون النتيجة المنطقية هي تحول السلطة على أساس تشريعي للحكام

التقليديين . ودربوا فئة من التنفيذيين للعمل وفق الاسلوب الغربي البيروقراطي مما أدى الى تشجيع هؤلاء الرجال الى التطلع لشغل وظائف أرقى مما كانت الحكومة الاستعمارية مستعدة لمنحها لهم . وادى الاحباط الناجم عن هذا الى ميلاد الحركات الوطنية .

نحو الاستقلال :

بدات نقطة التحول بالنسبة للتجربة الاستعمارية مع نهاية الحرب العالمية الثانية . فقد ساد أوروبا اتجاه أكثر ليبرالية نحو الاقطار المتخلفة في العالم ، وبدأت تتحدد معالم تصور جديد لحكم ذاتي تتمتع به شعوب افريقيا حتى ولو بعد عشرات السنين . والمعروف أن ابناء غرب افريقيا خاضوا الحرب مع جيوش الحلفاء في الشرق الاوسط وفي بورما ولكن تبددت أوهامهم بعد عودتهم حين وجدوا ثمار عملهم في القطاع الحديث لا تتكافأ مع ما قدموه . الا أن سرعة التقدم السياسي والاجتماعي ـ اذ نالت كل المستعمرات الفرنسية والبريطانية على وجه التقريب استقلالها حتى عام ١٩٦٠ ـ التي تحققت في أواخر الاربعينات أذهلت الاوروبي والافريقي على السواء .

واجريت الانتخابات عام ١٩٤٦ في كل من فرنسا ومستعمراتها التي اصطلح على تسميتها فيما بعد باسم « الاتحاد الفرنسي » French Union وذلك للاقتراع على جمعية تأسيسية تضع الدستور للجمهورية الرابعة . وخصص لاقاليم غرب أفريقيا عشر مقاعد ـ خمسة للمواطنين الفرنسيين (البيض) والافريقيين المتمتعين بنفس المكانة وخمسة لمن كانوا يسمون « رعايا » . وكان من بين المنتخبين وقتذاك ليوبولد سيدار سنجور وفليكس هوفويه بوانيه وأصبح الاول رئيسا لدولة السنغال والثاني رئيسا لدولة ساحل العاج . وتزايد تدريجيا على مدى السنوات التالية الدور الذي ساهم به القادة الافريقيون في الحياة السياسية للعاصمة

الفرنسية . وشهد عام ١٩٤٦ عددا اخر من الاصلاحات منها : منح الافريقيين حق تشكيل احزاب سياسية او نقابات الغاء نظام السخرة والتبعية الاستعمارية ، حق المحاكم الوطنية في نظر دعاوى العقوبات مع اجراء المحاكمات وفق القانون الفرنسي ، منح المواطنة لكل سكان المستعمرات مع حقهم في الاحتفاظ بوضعيتهم الشخصية في ظل القانون العرفي (مثال ذلك السماح لهم بتعدد الزوجات وهو أمر غير مشروع لاي شخص من رعايا القانون الفرنسي) . بيد أن كل هذه الاصلاحات الجذرية أعقبتها فترة هدوء امتدت عشر سنوات تشكلت خلالها جماعات واحزاب سياسية داخل المستعمرات وبدات تتنافس فيما بينها من اجل الحصول على تأييد الجماهير لها .

واقر البرلمان الفرنسي في عام ١٩٥٦ اطار القانون Loi Cadro * والذي يقضي بحق كل اقليم في أن ينشىء في داخل حدوده مجلسا نيابيا خاصا به ولكن ليس مستقلا تمام الاستقلال ويجري تشكيله عن طريق الاقتراع العام بين كل البالغين. وأضحت المجالس التنفيذية تمثل جنين الجهاز الوزاري للمستقبل ، كما هيأت الاصلاحات الحكومية المحلية امكانية استبدال نظام الادارة عن طريق الزعماء والشيوخ بنظام المجالس المنتخبة . واجرى استفتاء عام ١٩٥٨ في كل بلدان غرب افريقيا الخاضعة للسلطة الفرنسية فيما عدا غينيا التي طالبت بالاستقلال ، وصوتت بقية البلدان على البقاء داخل الاتحاد الفرنسي مع التمتع بقدر أكبر من الاستقلال . وما أن حل عام ١٩٦٠ حتى كانت جميع البلدان قد حصلت على استقلالها السياسي الكامل وان ظلت روابطها الاقتصادية بفرنسا رابطة قوية جدا .

---

* اطار تشريعي عام يحدد المبادىء الاساسيه وللحكومة حق تأويل نصوصه وتوضيح مداه في التطبيق [المترجم]

ويبدو ان السياسة البريطانية كانت أكثر اتساقا من السياسة التي انتهجتها الحكومات الفرنسية على تعاقبها والتي اتجهت أول الامر الى استيعاب المستعمرات داخل الاتحاد الفرنسي ثم اخيرا وبعد خبراتها في الهند الصينية وشمال أفريقيا غيرت اتجاهها وسعت الى اسقاط تلك العلاقات السياسية التي تورطت بسببها في مشكلات عديدة واحتفظت فقط بروابط اقتصادية وثيقة . فقد وضعت الحكومة البريطانية ، ربما بناء على خبرتها المستفادة من الهند ، خطة تتسم بالحذر وتستهدف تحقيق الحكم الذاتي . ودعت حكومة العمال عام ١٩٤٧ الى انشاء مجالس للحكم المحلي في المستعمرات ، ولم يكن سبب ذلك فقط أن السلطات المحلية فقيرة جدا من حيث المستوى والثروة ولا تضم غير عدد قليل من الاعضاء المتعلمين القادرين على انجاز خطط الخدمات الاجتماعية المتطورة بل كذلك لان مجالس الحكم المحلي سوف تعتبر ، حسب الاعتقاد السائد ، مجالات تدريب لخلق قيادات سياسية ـ كما كان الحال بالنسبة لعديد من أعضاء البرلمان العماليين . وسرعان ما انشئت بعد ذلك أول مجالس تشريعية منتخبة حتى يمكن الاختيار من بين اعضائها أعضاء لمجالس الحكم المحلي . وكان أول البرلمانيين من المحامين والمعلمين ممن لم يسبق لهم في الغالب الاعم اي خبرة سياسية . وتوالت الدساتير الواحد تلو الاخر بسرعة كبيرة وافاد السياسيون من الثغرات والعيوب التي بها ابتغاء الحصول على قدر اكبر من الاستقلال .

وسارت الدول في سباق من أجل الاستقلال خلال فترة زمنية قصيرة وعبر طريق ممهدة ملتزمة سبيل المفاوضات مع السلطة الاستعمارية .

وفي موازاة منح الحقوق السياسية للمستعمرات بدأ التوسع السريع في المساعدات الاقتصادية . اذ بدأت بريطانيا وفرنسا في تقديم رؤوس أموال للاستثمار في المستعمرات بمعدل اكبر من اي فترة سابقة وانشأت بريطانيا لتحقيق ذلك « صندوق تنمية وانعاش

المستعمرات البريطانية British Colonial Development and Welfare Fund وأنشأت فرنسا صندوق الاستثمار الفرنسي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية .F.I.D.E.S وهكذا بلغت الاستثمارات الفرنسية خلال عشر سنوات من ١٩٤٦ ــ ١٩٥٦ ضعف استثماراتها خلال الاربعين سنة السابقة . وعلاوة على هذا فان اكثر هذه الاستثمارات جاءت في صورة منح للقروض بينما استمرت فرنسا في اوائل الخمسينات في تحمل اكثر من ثلث النفقات المدنية والعسكرية لمستعمراتها في غرب افريقيا . وبلغ اجمالي الانفاق السنوي لصندوق تنمية وانعاش المستعمرات البريطانية بعد الحرب ما يعادل اثنى عشر مثلا لجملة نفقات ما قبل الحرب . ومن ثم فانه مع اتجاه دول غرب افريقيا نحو الاستقلال اصبحت قادرة على اجراء مفاوضات مع منظمات التمويل الدولية مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي .

وحققت الاسعار المرتفعة لبعض حاصلات التصدير ــ وبخاصة الكاكاو في أوائل الخمسينات ــ دفعة انعاش مالي كبيرة للفلاحين . ومع هذا يمكن القول بوجه عام أن شروط التجارة لم تسمح بزيادة كبيرة حقيقية في دخل مزارعي غرب افريقيا خلال العقدين الماضيين . ولعل مظاهر التقدم في حياتهم تتمثل فقط في تحسن المواصلات واقامة المستشفيات وانشاء مدارس جديدة تهيىء الفرصة لنسبة اكبر من السكان للدخول في قطاع الاقتصاد الحديث والتمتع بميزاياه .

التقدم السياسي :

ساومت النخبة ذات الاتجاه الثقافي الغربي الحكومات الاستعمارية على نقل السلطة اليها ، وتعززت محاولاتهم ببعض المظاهرات والاضرابات التي قام بها العمال في المدن والمحاربون القدماء . ولكن ظلت غالبية الجماهير في حالة لامبالاة بسبب الجهل

المتقشي من جانب وبسبب الصعاب التي فرضها الحكم الاستعماري والتي تحول دون الجماهير وادراكها لمصالحها بوضوح من جانب اخر . وقد أدخلت الدول الاستعمارية الى مستعمراتها أشكالا من الحكم النيابي على نمط ما هو مطبق في مؤسساتها والتي ترتكز أيضا على نظام الاقتراع العام بين البالغين (وان كان حق الاقتراع في نيجيريا ظل قاصرا على الذكور البالغين فقط) .

وانخرط السياسيون الافريقيون في نظام أوتوقراطي الطابع ، مهيأ لمعدل توسع محدود ، وأكثر شمولية من حكومة الدولة الاستعمارية الام في ادارتها واشرافها على الخدمات العامة والاجتماعية وتحكمها في تسعير الصادرات وتسويقها . ونتج عن الانتقال الى نظام وزاري يتلقى فيه كبار رجال الدولة المشورة بدلا من التوجيه ظهور حالات توتر بعد أن تعلم الناس أدوارا جديدة (اذ كان على الوزراء أيضا أن يتعلموا كيف يعاملون مستشاريهم باحترام) . وأدى رحيل رجال الادارة المدنية الاجانب والتوسع السريع في الخدمات المدنية لمواجهة اتساع الخدمات الاجتماعية الى ظهور حركة افرقة سريعة للوظائف العليا . وارتفعت نفقات الحكومة في غانا الى اربعة أضعافها خلال الفترة ما بين منتصف الخمسينات حتى منتصف الستينات ، ولوحظ حتى عام ١٩٦٠ أن عدد الغانيين العاملين في المناصب الادارية المدنية العليا قد زاد على عدد الاجانب بنسبة خمسة الى واحد . وامتدت هذه الظاهرة في المناطق المتخلفة نسبيا مثل الاقليم الشمالي في نيجيريا حيث شغل الوطنيون في عام ١٩٥٩ ربع المناصب الادارية .

واذا نظرنا الى غرب افريقيا في ضوء ما توفر لها من مجالس محلية تعكس الوحدات السياسية التقليدية بمستوياتها التنظيمية وكذلك ما توفر لها من مجالس نيابية كبيرة في كل مستعمرة من المستعمرات الفرنسية السابقة أو في كل اقليم من أقاليم نيجيريا ، يمكن القول ان لدى غرب افريقيا أكبر نسبة في العالم من أعضاء الهيئات التشريعية بالقياس الى عدد السكان . واذا كان هذا

الوضع من شأنه أن يخلق عددا كبيرا نسبيا من النخبة السياسية فانه يقضي بنفس القدر الى خلق وحدات سياسية لا يمكنها البقاء اقتصاديا . وسرعان ما اختفت الخدمات والهيئات المشتركة التي وحدت الاقاليم الفرنسية في داكار وكذلك الاقاليم البريطانية وان كانت على مدى اقل . وقد يذهب البعض الى ان فرنسا شجعت على « بلقنة » امبراطوريتها في غرب افريقيا ، على امل الاحتفاظ بولاء كل منها كدولة صغيرة ضعيفة . وثمة اتهام مماثل موجه الى بريطانيا بأنها غذت عملية تقسيم نيجيريا الى اقاليم متباعدة . ونجد من ناحية اخرى أن اكثر الدول الافريقية ثراء ورخاء حرصت على الاحجام عن الدخول في اي صورة من صور الاتحاد اعتقادا منها بأن ثروتها قد تستخدم لتمويل عمليات تنمية المناطق الفقيرة ، وطبيعي أن السلطة السياسية حين تتحقق لدولة ما فليس من اليسير التخلي عنها لاتحادات اكبر تتجاوز حدود القومية الواحدة . ولهذا السبب فان المحاولات التي استهدفت خلق اتحاد وثيق ـ بين السنغال ومالي مثلا او بين غانا وغينيا ومالي ـ اما أنها تحطمت تماما او لم تتجاوز حدود العبارات الشكلية الرسمية تعبيرا عن نوايا القادة السياسيين .

الخدمات الاجتماعية :

« حرية للجميع وحياة أكثر وفرة ورخاء » ـ هذا هو شعار جماعة العمل النيجيري والذي كان يمكن أن يتبناه السياسيون في أي دولة . واتجه السياسيون الى بذل الوعود بتوفير خدمات اجتماعية أفضل وفرص عمل اكثر وذلك لعجزهم عن مكافأة دوائرهم الانتخابية باجراء عملية اعادة توزيع جذرية للثروة عن طريق الغاء التزامات الفلاح المدين أو منح الفلاحين المستأجرين حق ملكية الاراضي المؤجرة لهم . علاوة على هذا فقد دار جدال عنيف يؤكد أن السكان اذا ما حسنت صحتهم وتعلموا تكون قد هيأنا الشرط الاساسي للتنمية الاقتصادية .

ومثل هذه الاتجاهات السياسية تلزم عنها مشكلات خاصة بها ، ذلك ان مستوصفات القرى ومراكز الولادة مهما كانت بدائية فانها قد ادت الى خفض معدلات الوفاة بين الاطفال ، وان كانت لا تزال عالية نسبيا ، اذ ان نصف المواليد في كثيرمن المناطق الريفية لا يبقون على قيد الحياة حتى الخامسة من العمر . ولا ريب في أن زيادة نسبة السكان بمعدل ٢ بالمائة كل عام من شانه ان يجعل نصيب الفرد من الدخل القومي منخفضا حتى وان حدث ارتفاع محدود في الثروة القومية . وطبيعي ايضا ان بلدا ترتفع فيه نسبة الشباب ارتفاعا كبيرا يستلزم نفقات عالية من أجل التعليم ورعاية الاطفال .

وانتشر التعليم بسرعة كبيرة في المناطق الساحلية اذ يتوفر بها اساس راسخ لذلك ، فضلا عن نهم سكانها للتحصيل العلمي . ولهذا انشات غانا والاقاليم الشمالية في نيجيريا مؤسسات للتعليم الابتدائي الشامل خلال منتصف الخمسينات . وطبيعي ان يصاحب هذا التوسع في نفس الوقت توسع في برامج اعداد المعلمين ولهذا ظلت المدارس الابتدائية لبضع سنوات يعمل بها معلمون غير مدربين مما ادى الى خفض كفاءة التعليم وهو ما خلق اعتقادا لدى الناس بأن المدارس الجديدة دون سابقتها من حيث المستوى التعليمي . وادى التوسع في التعليم في مناطق خاصة الى تضخيم الفوارق بين الدول . مثال ذلك أن ١١ بالمائة من اطفال نيجيريا الشمالية التحقوا بالمدارس الابتدائية في اوائل الستينات ، بينما ظلت النسبة في كابا — يوروبا Kaba - yoruba ٨٣ بالمائة بينما هي دون الخمسة بالمائة في أكثر الامارات الاسلامية ولا تتجاوز ٣ بالمائة في سوكوتو . ويبدو أن احدى النتائج المحتملة لموقف كهذا انه بينما تبقى السلطة السياسية في ايدي ارستقراطية شعب الفولاني فان غالبية الموظفين المدنيين سوف يكونون من المناطق غير الاسلامية الواقعة خارج الامارات .

وحدث توسع مماثل فيمجال التعليم الثانوي . اذ زاد عدد المدارس الثانوية في نيجيريا الغربية خلال فترة تقل عن عشر سنوات الى ثلاثة امثال ما كانت عليه فقد زادت من ٥٩ مدرسة في عام ١٩٥٤ الى ١٧٧ مدرسة في عام ١٩٦٠ ، كما سعت كل مدينة صغيرة الى تعزيز مكانتها الاجتماعية عن طريق اقـامة مدرسة ثانوية خاصة بها . بيد أن بنية النظام التعليمي والمناهج التعليمية ظلت كما هي فيما عدا تغيرات طفيفة . فقد حدث تركيز للمواد الاكاديمية وان وجدنا قدرا أكبر من الانحياز الافريقي في محتوى مادتي التاريخ والجغرافيا . وظهرت آراء تدعو الى انشاء مدارس فنية ولكن لم تنشىء الحكومة منها سوى عددا قليلا ويرجع سبب ذلك أساسا الى صعوبة اعداد هيئة التدريس اللازمة لها وتهيئة الاجهزة والمعدات الضرورية . وهكذا فبينما تؤكد اللجـان الخاصة باعداد القوى العاملة على حاجة البلاد الى فنيين تستمر المدارس في اعداد الموظفين الاداريين ، ويحمل الشباب في غـانا وشمال نيجيريا شهادات تخرجهم من المدارس ويقصدون المدن بحثا عن وظائف مكتبية حيث لا يجدون وظيفة شاغرة . ويعترف القادة السياسيون بأن أكثر من نصف شباب البلاد لا بد وأن يجدوا عملا لهم في مجال الزراعة في المستقبل القريب ، ولكنهم عازفون عن الدعوة الى تحويل جزءمن المدارس الابتدائية الى مدارس زراعية وأكاديمية وهو ما من شأنه أن يحدد منذ سنوات العمر الباكرة أي الاطفال سيكون مصيرهم دخول القطاع الحديث ليصبحوا في نهاية المطاف ضمن النخبة المميزة . وقد تتجنب البلدان الاكثر فقرا هذه المشكلة ولسنوات عديدة عن طريق كبح جماح عملية التوسع في التعليم الابتدائي.

مشكلات اقتصـادية :

نادرا ما يوافق الخبراء على ان تتخذ الدول النامية افضل الاجراءات التي تكفل لها نموا مطردا نحو الرخاء ورفع مستوى المعيشة بها على نحو يمكن مقارنته بالوضع في الدول الصناعية . وتفرض مشوراتهم المتناقضة العديد من المشكلات الحادة على رجل السياسة في غرب افريقيا .

ترى ما هي النسبة التي ينبغي ان تحددها الدولة من دخلها العام للانفاق على الخدمات الاجتماعية ؟ نلاحظ أن غرب نيجيريا تخصص أربعين بالمائة من ميزانياتها الخاصة بالانفاق العام لانفاقها على التعليم وحده ، وتتحمل شرق نيجيريا عبئا ماليا مماثلا مما اضطرها الى اعادة فرض مصروفات تعليمية على الصفوف العليا في المدارس الابتدائية . وتكشف ميزانية غانا لاول خطتين خمسيتين بها عن أن الانفاق غير الانتاجي يستهلك اكثر من اربع اخماس اجمالي الميزانية على الرغم من ان المطلب الملح والمتكرر هو التحول الى استثمارات انتاجية تزيد من الدخل . وثمة اتجاه مألوف يستهدف تجاوز الزيادة المخططة للمناصب الادارية وخفض الاستثمار في الصناعة . وطبيعي أن بناء المدارس والمستوصفات يحقق خدمة مباشرة للموظف المدني بينما يتطلب اقامة المصانع توفر مهـــارات واساليب فنية جديدة . وكم من مشروعات قيمة رفضت البنوك والشركات الدولية منح قروض لدعمها بحجة أن حكومات غرب افريقيا تفتقر الى العنصر البشري القادر على اعداد خطط وميزانيات جيدة . ويحاول السياسيون وقف الاندفاع البشري نحو المدن ، ولكن ما جدوى التوسع في مد أنابيب المياه والكهرباء للريف اذا ظلت الصناعة متمركزة وباصرار في الموانىء الهامة ؟ .

وتتطلب التنمية الاقتصادية على المدى اللازم ـ سواء في مجال الزراعة أم الصناعة زادا مكثفا من رأس المال الاجنبي . بيد أن هذا يزيد من اعتماد دول غرب افريقيا على الدول الصناعية خاصة أن

امكانيات زيادة المساهمة المحلية ضئيلة جدا . ترى هل تستطيع شعبية الحكومة أن تتحمل فرض المزيد من الضرائب الباهظة على الفلاحين ؟ ان النظام المصرفي المتقدم وتسهيلات الادخار ليس لها سوى أثر ضعيف حين ينفق الفلاح مدخراته على التعليم وبناء دار كبيرة .

والسؤال ما هو نوع التنمية الانتاجية التي ينبغي ان نوجه اليه اموالنا وننفقها عليها ؟ ان اندفاع حركة خريجي المدارس الى المدن يستوجب على الباقين في الريف انتاج المزيد من الطعام . وترتبط بهذه الظاهرة الرغبة في جعل الزراعة عملا جذابا لمن اوتوا حظا من التعليم ، فالآباء عازفون عن حث اولادهم على العمل في الفلاحة على نحو ما فعل معهم آباؤهم من قبل خاصة بعد أن ضحى الاب وتحمل نفقات تعليم أبنائه على مدى ست سنوات أو اكثر . كذلك فان مخططات استصلاح الاراضي وزراعتها بطرق متقدمة تكاف كثيرا . مثال ذلك أن غرب نيجيريا وضعت خطة لعمليات استيطان تشمل مزارع عديدة مساحة كل منها عشرون آكر بشرط زراعتها محاصيل خاصة للتصدير . ولوحظ أن تكاليف المستوطن الواحد بلغت أكثر من ثلاث آلاف جنيها استرلينيا عليه أن يردها ثانية على مدى عشرين عاما ــ بيد أن هذه المخططات لا تنبيء بزيادة في انتاج المواد الغذائية اللازمة محليا فضلا عن أن مخططات الزراعة الآلية لا تبشر على ما يبدو بما هو أفضل . وثبت أن مزارع الدولة في غانا غير مربحة . أن الاستثمار في مجال توسيع الخدمات الزراعية يستلزم أن نعرف مقدما كيف يتأتى للفلاح أن يزيد انتاجه وهذا أمر لا يزال في الحقيقة مشكوكا فيه .

وقد خصص القسط الاكبر من الاستثمارات الصناعية مؤخرا من اجل استخراج المواد الخام المكتشفة حديثا ــ البترول في نيجيريا والحديد في ليبيريا وسيراليون وموريتانيا . ويبدو أن نمط المرحلة الاستعمارية راسخ على الرغم من انشاء مصانع تكرير جديدة . وتسعى دول غرب افريقيا ذاتها الى اقامة صناعات

انتاجية ، خاصة الصناعات القائمة على السلع الاستهلاكية التي يمكن ان تحل محل عديد من الصناعات المستوردة ومن ثم تقلل من نزيف العملات الاجنبية . ونلاحظ أن صناعة البيرة كانت واحدة من اوائل المشروعات الصناعية الهامة في كثير من البلدان ثم جاءت من بعدها صناعة النسيج والتبغ والدقيق والاسمنت والاحذية . واتجهت مؤسسات عديدة الان الى تجميع منتجاتها في موانيء غرب افريقيا بدلا من تصديرها جاهزة من البلد الاصلي المنتج . بيد أن كل دول غرب افريقيا ، باستثناء نيجيريا لا تمثل سوى سوق صغيرة جدا للانتاج على مستوى الربح الذي تحققه ، وتعتبر غرب افريقيا مجالا غير واعد لا يبشر المستثمر الاجنبي وذلك بسبب التقلبات السياسية التي لا توحي بالثقة في نظره . ولكنه قد يقبل عليها اذا ما ضمنت الحكومة المحلية المساهمة بنصيب كبير من رأس المال ووعدت بفرض حماية جمركية أو منح امتيازات ضريبية. بيد أن هذا من شانه !ن يجمد واردات الحكومة المالية لفترات طويلة .ولكن ايا كانت الاستعدادات التي توفرها الحكومات في خططها الاقتصادية فانها بوجه عام لا يسعها الا أن تقيم فقط الصناعات التي تبدي الشركات الاجنبية استعدادا لكفالتها . وسعت هذه الحكومات الى اقامة الصناعات الجديدة في المناطق الريفية رغبة منها في ايقاف التدفق البشرى نحو المدن بيد أن هذه المحاولات يبددها رجال الصناعة انفسهم الذين ينشدون الخدمات والمهارات حيث تكون ميسورة ومتوفرة ومن ثم تحويلها الى جذر أكبر للتنمية. والمعروف أن أكثر الصناعات تتكلف رؤوس أموال كبيرة جدا مثال ذلك أن مصنعا للنسيج قد يستخدم عاملا واحدا مقابل كل ألف جنيه استرليني من قيمة رأس المال المستثمر، وان مصنع تكرير البترول يستخدم عاملاً واحداً مقابل كل عشرة آلاف جنيه استريني . ومن ثم فان استثمار مليون جنيه استرليني سوف يوفر عمالة لألف شخص أو أقل، بينما غرب نيجيريا وحدها تقدم كل عام أكثر من مائة ألف خريج من مدارسها الابتدائية.

وتنفق حكومات هذه الدول مبالغ طائلة على مشروعات مظهرية تضفي هيبة وابهة وذات عائد اقتصادي ضئيل ولكن ليست ذات نفع اجتماعي واضح . مثال ذلك أن الرئيس توبمان والرئيس هو فويوانيه والرئيس السابق نكروما كان لكل منهم قصر تكلف اكثر من خمسة ملايين جنيها استرلينيا .

واصبح مشروع الفولتا في غانا بؤرة اهتمام قومي . وتشعر نيجيريا ، وهي اكبر دولة في غرب افريقيا ، ان الواجب يقتضيها أن تملك صناعة للحديد والصلب ــ حتى على الرغم من سوء نوع خام الحديد فيها . وضعفت فرصة اقامة المصنع بعد أن تقرر تقسيمه بين الاقليم الشمالي والاقليم الشرقي بناء على عملية المساومة التي دارت بين الاحزاب المسيطرة على الحكومة الفيدرالية .

وطبيعي أن التنمية الصناعية وفق هذه الاتجاهات لا تفيد كثيراً من اجل زيادة التبادل التجاري والعلاقات التجارية داخل افريقيا ، وهو هدف يسعى اليه الداعون الى الوحدة الافريقية ويرون في هذه الوحدة السبيل لتوفير مراكز اقتصادية عديدة ومتباينة في كل انحاء افريقيا وتدعم في الوقت ذاته قضية الوحدة الافريقية . ونذكر هنا على سبيل المثال ان تجارة نيجيريا الان مع كل بلدان افريقيا لا تتجاوز واحدا بالمائة من اجمالي تجارتها الخارجية ، وكذلك الحال بالنسبة لغانا وسيراليون حيث لا تتجاوز نسبة كل منهما ٤ بالمائة واثنين بالمائة على الترتيب . اذ أن كل دولة في سعيها لدعم قدرتها الصناعية الى اقصى حد تقيم صناعات مماثلة لغيرها من الدول هذا علاوة على انه لم يطرأ أي تحسن على الطرق وخطوط السكك الحديدية التي تربط بين الدول وبعضها . واذا تقرر فتح الحدود بين دولة واخرى لحرية مرور الناس والبضائع فاننا نجد في مقابل هذا حدودا اخرى تقرر غلقها .

٣

التحولات الاجتماعية في الريف

ثلثا صادرات غرب افريقيا من انتاج فلاحيها . بيد ان قلة فقط من ابنائها هم الذين يشاركون فيما يقدمونه من وفرة وثراء ، وتبدو الاقاليم الغنية جزر رخاء . وتعتبر المناطق المنتجة للكاكاو والبن في غرب نيجيريا وغانا وساحل العاج اغنى المناطق نظرا لان هذين المحصولين يغلان اسعارا عالية بالقياس الى الجهد المبذول فيهما . وبدأت مجموعات المباني السكنية المبنية وفق الطراز التقليدي تختفي سريعا لتحل محلها مبان حديثة من طابقين وذات أسقف من الحديد المموج . وتطل المنازل الجديدة على الطرق العامة ولهذا بدا من الصعب متابعة الحدود الفاصلة بين المجموعات السكنية المميزة للجماعات السلالية واذا نظرنا الى السوق الصاخبة المكتظة بسيارات النقل ، والمحال التجارية على جانبي الطريق العام ندرك بطبيعة الحال النشاط الاقتصادي الكبير والتحلل السريع للابنية الاجتماعية التقليدية .

ويسكن سدس فلاحي غرب افريقيا في مثل هذه المناطق . والملاحظ ان ربع مزرعة في المناطق الاقل خصوبة ووفرة التي تغل حاصلات مثل الفول السوداني والقطن وزيت النخيل تعطي دخلا اقل بكثير من الدخل الذي يحصل عليه فرد واحد من زراع الكاكاو أو البن . ومن العسير أن نقيم نسبة العاملين منهم الذين يبيعون فائضا من الحاصلات الغذائية للمدن المجاورة أو لمناطق زراعة حاصلات التصدير . وثمة مناطق كثيرة نائية عن الطرق الرئيسية العامة وعن مراكز التجمع السكاني طرا عليها تغير بسيط خلال

الحقبة الاستعمارية بالنسبة لطبيعة النشاط الاقتصادي الخاص بالقرية ، وبدأت تتجه الى تصدير قوة عملها . وتبدو مناطق اخرى محرومة من كل الفرص ، اذ نجد على مرمى البصر من الاحياء السكنية لمنطقة جوس Jos وهي مركز مناجم مزدهر ، الاهالي الاصليين يعيشون في اكواخهم المحاطة بنبات الصبار ولا عمل لهم سوى زراعة ما يقتاتون عليه لانفسهم فقط . ويعمل المهاجرون من أبناء الهاوسا في انتاج الخضروات للاجانب والصفوة من سكان المنطقة . أما شعب الابو Ibo الذي يعيش شرق انيجو Enugo فانهم على استعداد لتأجير الارض وزراعة الارز لبيعه للمهاجرين من مناطق الابو كثيفة السكان الى الجنوب الغربي ، ذلك لانهم لا يزرعونه بأنفسهم .

وجدير بالذكر ان مدى السهولة والسرعة في تقبل الناس أمر زراعة محصول جديد او اتباع طريقة جديدة في الزراعة رهن بعدد من العوامل المتباينة . فهناك عوامل تكنولوجية : هل تتضمن التغيرات المقترحة استعمال ادوات جديدة ؟ وهل تتلاءم متطلبات العمل الجديد مع التقويم الزراعي السائد بحيث لا يأتي الجهد الاكبر خلال ذروة موسم الزراعة او الحصاد ؟ (فقد أوضحت بعض مشروعات الزراعة الآلية أن لا جدوى من استخدام محراث لحرث عشرين آكر لفلاح يمكنه وحده استخدام معزقته لتنقية اربعة آكرات من الاعشاب الضارة) وهناك عوامل تتعلق بالمؤسسات الاجتماعية : هل تؤدي التغيرات المقترحة الى تغيير انماط حيازة الارض التي يرتكز عليها المجتمع ؟ وهناك أخيرا عوامل ايديولوجية : ما هي الحوافز السائدة في المجتمع التي تحفز الى تحقيق الثروة ؟ .

اننا كثيرا ما نقرأ عن الحاجة الى تشجيع الطلب على السلع المستوردة حتى تتولد الحاجة الى المال . بيد أن الثروة في كثير من المجتمعات التقليدية ينشدها الناس كرمز للمكانة والشأن الرفيع وكوسيلة لبلوغ منصب سياسي . وتهيىء حاصلات التصدير هنا

فرصا جديدة لبلوغ اهداف تقليدية . وغالبا ما ينزع المرء الى النظر الى الاقتصاد الغربي كعامل ممزق للبنية الاجتماعية التقليدية . الا أن ثمة امكانية كبيرة لحدوث تطور اقتصادي داخل اطار المؤسسات المحلية التقليدية ، نظرا لامكانية دعم الابنية التقليدية . وهكذا فبينما تؤدي الروابط الاجتماعية الجديدة وما حدث من تطور للشرائح الاجتماعية الى اضعاف تماسك الجماعة السلالية ، فان نقص الارض قد يدعم قبضة الجماعة على اعضائها كافراد .

هجرة اليد العاملة :

يعتبر العمل المأجور المصدر الرئيسي للدخل في المناطق التي لا يزرع فيها الفلاحون محاصيل غذائية تفيض عن حاجتهم الشخصية أو حيث لا توجد محاصيل للتصدير ــ ولكن نظرا للتخلف الاقتصادي الشديد لهذه المناطق فان العمالة المحلية سلعة نادرة فيما عدا على الارجح المناطق التي تقرر الحكومة انشاء وتعبيد الطرق الرئيسية فيها . ويقوم الرجال برحلات موسمية بحثا عن العمل في المناطق الغنية وقد تمتد رحلاتهم الى سنتين أو ثلاث سنوات . مثال ذلك أنهم يسافرون من سوكوتو الى مناجم القصدير في جوس أو الى مزارع الفول السوداني في زامفارا والى ايبادان ولاجوس واكرا . ويرحل رجال منطقة موصي Mossi من الفولتا العليا متجهين جنوبا للعمل في مزارع الكاكاو والبن وفي مدن دولتي غانا وساحل العاج . ولكن ما هو الاثر الذي يتركه هؤلاء الرجال على مواطنهم الريفية بعد عودتهم ؟ .

لقد وسعت هذه الرحلات من آفاقهم ، وادركوا واقع الوفرة والثراء في المناطق المجاورة مع مقارنته بفقر بلادهم . بيد أن المرء الذي يستمرىء العيش في البلدان الغنية فانه على الارجح يؤثر البقاء فيهابدلا من محاولة استثمار الفرص في موطنه الاصلي ، كذلك فان القانع غير الطموح الذي يرضى بما استطاع ادخاره

يعود ادواجه لتمتص اساليب الحياة التقليدية مدخراته . ان المهاجر العادي من منطقة موصي Mossi الى غانا والذي يعمل في مزارع الكاكاو يأمل في ادخار ما يقرب من جنيهين استرليني وعشر شلنات كل شهر أو أن تصل مدخراته على اكثر تقدير الى عشرة جنيهات استرليني طوال موسم العمل . وينفق هذا المبلغ الهزيل في شراء سلع كمالية ليهديها الى أصدقائه واقربائه عند عودته الى وطنه — وهي عبارة عن اقمشة وحلى صناعية صغيرة وربما دراجة وسرعان ما يتبدد القسط الاكبر من المدخرات التي لا تضفي على صاحبها سوى قدر ضئيل من الابهة والمكانة مقابل ما قدمه من هدايا وربما يعجل ببيع الدراجة ليشتري بثمنها بذورا لغرس محصول جديد . وطبيعي أن الهجرة لا تخلق فئة ثرية من ابناء القرية .

وجدير بالذكر أن المهاجر الموسمي من أبناء غرب افريقيا يتعلم القليل اثناء اقامته في الخارج . مثال ذلك ان المهاجر من أبناء موصي حين يرحل الى غانا فانه يعيش تحت ملاحظة واشراف زعيم محلي من أبناء موصي ولا ينشىء سوى علاقات قليلة محدودة مع غير أبناء جلدته فيما عدا المجال التجاري غير الشخصي .

ولعل أهم واوضح اثر للهجرة على المجتمعات الزراعية لا يتمثل في أي تغير جذري للبنية الاجتماعية بل في ذلك التحلل البطيء للضوابط الاجتماعية . مثال ذلك أن زيجات ابناء موصي لا تزال تخضع الى حد كبير لتنظيم الآباء . ولكن اذا حدث وعارض الكبار رغبة امرىء في الزواج بعروس اختارها بنفسه فان العروسين قد يفران سرا الى غانا حيث يستخفيان ليعودا ثانية بعد سنوات قلائل حين يصبح زواجهما امرا واقعا مقبولا .

المحاصيل التجارية والثروة الجديدة :

ان زيادة محاصيل التصدير وما صاحب ذلك بوجه خاص من زيادة سريعة مؤخرا في عدد السكان قد ادى في بعض المناطق

الى مضاعفة الضغط على الارض الى حد انه لا تكاد توجد مساحات كافية لكل انسان . وطبيعي ان رد الفعل الاول هو الاصرار على أن المرء يفلح « حيث كان يفلح ابوه » ، واضحت طلبات الارض الواردة من الجماعات المرتبطة بنسب من ناحية الام لا تجد الان عطفا بنفس القدر الذي كانت تحظى به في الماضي . لقد اضحى المرء اكثر اتكالا على جماعته الخاصة ، واقل قبولا لما يغضب شيوخها . ويوازي هذا التماسك في الجماعة السلالية تماسك مماثل في أرض المدن . وكثيرا ما يحقق هذا قيمة اقتصادية كبيرة ويمكن بيعه كسلعة على نحو ما يحدث في يوروبا على سبيل المثال . وهكذا تصبح الجماعة السلالية وكيلا لادارة الارض ، ويجري تقسيم ما تجنيه من ارباح عن هذه الصفقات بين جميع اعضاء الجماعة . واخيرا فان نقص الارض يؤدي الى زيادة تفتيت حيازة الارض بين الافراد ، فمزرعة الاب يقتسمها ابناؤه اذا لم يكن في مقدورهم الحصول على أرض اضافية . بل ان القطاعات الاصغر من ابناء الجماعة السلالية يكتسبون حق نقل حيازة الارض سواء عن طريق الايجار او البيع . ولعل هذه العملية قد بلغت اقصى مداها بين ابناء شعب الابو في جنوب شرق نيجيريا حيث سجل الاحصاء السكاني أن نسبة الكثافة السكانية في الاحياء الرئيسية بلغت اكثر من الف نسمة في كل ميل مربع .

ولكن زراعة محاصيل للتصدير وكذلك نقص الارض لم يؤد أي منهما الى خلق قوة عمل معدمة في الريف . ويعتمد اكثر مزارعي الكاكاو على الهجرة الموسمية للأيدي العاملة أو على أبناء الاقاليم المحليين وهم أيضا فلاحون ولكنهم فقراء بحاجة الى المال فورا .

ولا يؤدي نقص الارض الى حرمان انسان من حقوقه المشروعة في أرض جماعته السلالية — وكل ما يحرم منه هو فقط الفرص العملية للحصول على ما يزيد عن الحد الادنى من مساحة الارض . وليس من المحتمل في مثل هذه الحالات أن يقدر جيرانه على اطعام افواه اضافية ومن ثم سيكون رد فعله هو الانتقال الى المدن بحثا عن عمل .

ولقد ادى استمرار ملكية الجماعة السلالية للارض الى الحيلولة دون نشوء فئة معدمة في الريف وان اتاحت في الوقت ذاته الفرصة لزراعة محاصيل للتصدير . بيد أن هذا الوضع قد يكون عاملا محددا لطبيعة التطور الاقتصادي مستقبلا . اذ تستطيع الجماعة السلالية حين تحاول تخصيص مساحات متساوية من الارض لكل فئة او حين تحاول الابقاء على مساحة كافية من الارض لزراعة نباتات غذائية لاعضائها ، أن تحول دون أي فرد يملك راس مال كبير من أن يقيم اقطاعية لحسابه . ومثل هذه النظم الزراعية في حيازة الارض لا تفضل تطبيق نظام المزارع المغلقة بل ولا حتى المزارع المختلطة . ومن ناحية أخرى فان الحكومة حين تسعى الى الاستيلاء على أرض للصالح العام فان هذا الوضع ييسر لها كثيرا التفاوض مع عدد قليل من رؤساء الجماعات السلالية بدلا من التفاوض مع مئات الافراد من أعضاء الجماعات . وطبيعي أن عجز المرء كمزارع فرد عن أن ينقل ملكية أرضه الى الغير تحميه من الاستدانة من المرابين ، ولكن هذا أيضا يجعل من العسير عليه أن يضاعف القيمة الائتمانية على ما يدخله من تحسينات على قيمة الارض — مزرعة كاكاو أو مخزن أو بيت كبير .

ولقد كان الناس دائما في غرب افريقيا مزارعين نشطين ، كما وان زراعتهم لمحاصيل التصدير لم تغير كثيرا من علاقاتهم بزوجاتهم . بيد أن ثمة تغيرات أخرى أثرت على وضع الزوجات اجتماعيا . مثال ذلك أن عادة الرجل من شعب الابو ان يتولى بنفسه مهمة قطف ثمار شجر النخيل وتعد زوجته الزيت لتبيعه لحساب زوجها ولكنها تحتفظ بلب الثمار وتشقه وتبيعه لحسابها الخاص . وادى استخدام الآلات الى زيادة كمية ونوع الزيت المستخلص ومن ثم رفع مستوى الدخل بوجه عام . ولكن الآلات الحديثة تعصر اللب ومن ثم تحرم النساء من فرص العمل والدخل أيضا وتجعلهم بالتالي اكثر اتكالا على ازواجهن . حقا لقد ثرن ضد استخدام الآلات الحديثة . وتزايدت زراعة نبات المنيهوت في مناطق أخرى

من اقليم الابو ــ وقد ادى هذا الى توفير فرص عمل للنساء في سوق المدن . واعتقد الرجال ان زراعة مثل هذا المحصول يحط من كرامتهم ، لانهم اهل فقط لزراعة نبات اليام ، وزرعت النساء المنيهوت لحسابهن الخاص لزيادة دخولهن . وهكذا فبينما أدت بعض التغيرات الى اتاحة الفرصة للزوجات الفلاحات لتحقيق قدر أكبر من الاستقلال الاقتصادي عن أزواجهن اذا بأخريات يفقدن عملهن الذي كان تقليديا أساس حريتهن .

وكان بالامكان غالبا زراعة محاصيل التصدير وفق النظم المحلية لحيازة الارض والتي لا تؤدي في ذاتها الى اتساع في التحركات السكانية أو الى صدع في البنية الاجتماعية التقليدية ، ولكن هذه المحاصيل تعطي مباشرة ثروة لا بأس بها للمناطق الريفية مما أدى الى نشوء فئة جديدة من ذوي الثراء كما تشكلت روابط جديدة . وبات تحول المجتمع الى طبقات يوحي بتغيير معالم التقسيم التقليدي الى جماعات سلالية .

وطبيعي أن بعض الاثرياء جدا هم من المزارعين ، بيد انهم قليلون ، ذلك لان محاصيل التصدير يمكن زراعتها في مساحات صغيرة ويقوم على زراعتها عدد كبير من الرجال . واغنى الناس هم التجار عادة ــ الوكلاء التجاريون وتجار السلع المستوردة وأصحاب سيارات النقل ــ ويدخل اكثر هؤلاء في عدد من المشروعات المختلفة . ومع دورة الثروة داخل المجتمع تنشأ فرص كبيرة أمام الحرفي المتخصص ــ الخياطين والحدادين والنجارين والبنائين ــ ومثل هؤلاء (فيما عدا مقاولي البناء) لا يصبحون على الاطلاق من كبار الاثرياء ولكنهم يحققون قدرا من اليسار حسب المعايير المحلية .

والمزارعون الاغنياء كلهم من المواطنين الاصليين في مجتمعهم واكثرهم أميين . وكان هؤلاء منذ عشرات السنين من المزارعين

الاثرياء الذين حققوا ثروةمن زراعة نبات اليام او القمح الغيني . كذلك الحال بالنسبة لاكثر التجار والحرفيين فهم من ابناء المدن والقرى التي يعملون فيها . والقليلون جدا منهم هم الذين اكملوا تعليمهم بالمرحلة الابتدائية . ويسكن اكثرهم في المناطق السكنية الخاصة بجماعاتهم السلالية ، وينفقون ثرواتهم على المظاهر الدالة على المكانة الاجتماعية الحديثة . مثال ذلك ان الرجل من شعب يوروبا ينفق مدخراته لعمل سقف من الحديد المموج يغطي منزله التقليدي ، وبناء بيت من طابقين ، وتعليم أبنائه وشراء سيارة وتأثيث المنزل . ونظرا لان هؤلاء الرجال يعيشون ويعملون بين أبناء بلدتهم ، ويعتمد رخاؤهم الى حد كبير على سمعتهم الشخصية لدى زبائنهم لهذا فانهم يميلون الى الالتزام بالطابع المحافظ والتمسك بقيم مجتمعهم . وعلى الرغم من ان أساليب الحياة قد تحاكي الكثير من الغرب الا ان الاهداف النهائية تظل معبرة عن القيم التقليدية . ويعتقد الناس أن الثروة الناجمة عن التجارة خطوة اساسية نحو منصب سياسي .

ويستخدم القسط الاكبر من الدخل النقدي للريف في تمويل الخدمات الاجتماعية الجديدة ـــ المدارس والمستوصفات ومنافع اخرى متنوعة تتولاها الحكومة المحلية . ويعمل في هذه المؤسسات المتعلمون ممن نتوقع منهم ان يكونوا من عوامل التغير القوية الفعالة في المجتمعات التي يعملون فيها . ولقد ادى التعلم الى اغترابهم عن المجتمع التقليدي . وجدير بالذكر ان احساسهم بالاغتراب يفوق كثيرا احساس الامي فيما عدا التجار الاثرياء . ومع هذا فان غالبيتهم يعملون في مجتمعات غير المجتمعات التي ولدوا فيها . وطبيعي انهم تنقلوا كثيرا من مكان الى اخر بحكم كونهم موظفين لدى هيئة تبشيرية او حكومية . ولهذا لم تتح لهم فرصة كبيرة لانشاء علاقات ثابتة ودائمة مع اهالي المناطق التي تنقلوا بينها أثناء العمل . واعتاد أهالي هذه المناطق أن ينظروا اليهم

باعتبارهم غرباء ، وسعى هؤلاء الى خلق صداقات مع من يناظرونهم علما ومكانة اجتماعية . ولم يتعد اثرهم الاجتماعي كثيرا مجال عملهم .

والملاحظ ان المرا المتعلم لا يتمتع في موطنه الذي يعيش فيه بوضع افضل ومتميز يسمح له بالتأثير على مجتمعه . وتبدو مكانته الاجتماعية غامضة . واذا كان يعمل معلما أو كاتبا فان ولاءه لرب العمل يتصارع بداخله مع ولائه لجماعته السلالية او قريته التي وفد منها . واذا كان مزارعا فان الناس يتساءلون لماذا لم يفد من تعليمه ويستثمره على نحو افضل ؟ واذا كان كاتبا عموميا يكتب الشكاوى والعرائض لاصحاب المظالم امام القضاء فان الناس تنظر اليه كرجل يهوى اثارة الخلافات ويعيش على مظالم الناس وتقاضيهم . وحين يكون المتعلمون قليلين فانهم عادة يخشون التأثير في اتجاه التغيير خوفا من ان يكونوا عرضة للوم مستقبلا بسبب اي نتائج غير مواتية . وبينما يسعد الاميون بمشورة المتعلم لاقامة مدرسة جديدة فان هذا الاخير ، وهو امرؤ في شرخ الشباب عادة ، يفتقر الى السلطة التي تسمح له بأن يوصي بفرض ضرائب لبناء هذه المدرسة . ولعل من اهم نتائج التغير السريع في نطاق الخدمات الاجتماعية في الريف خلال العقد السادس هو تزايد عدد ابناء كل منطقة من المسئولين عن ادارة وتشغيل المؤسسات الجديدة . اذ عندما تنشد مدينة يوروبا اقامة مدرسة ثانوية خاصة بها فانها تضغط لكي يراسها ويعمل بها خريجي الجامعات من ابنائها المحليين . وطبيعي أن مثل هؤلاء الرجال تجذبهم القضايا المحلية ويسهمون بدور فيها ويتجاوزون بذلك المجال الرسمي المحدد لعملهم . ولا ريب في أن أعظم التغيرات الاجتماعية ستاخذ طريقها الى الواقع في حالة واحدة فقط وهي حين يبقى خريجو المدارس الابتدائية في مواطن ولادتهم ليعملوا فيها بالزراعة .

قيم جديدة :

الكنائس : ادخلت الارساليات التبشيرية الى ريف غرب افريقيا عقيدة ذات نظرة كونية جديدة لا مكان فيهـا للاسلاف والآلهة المحليين فضلا عن الكنائس ذات الطابع العالمي لابنائها المنتمين اليها وهو أمر على نقيض الطبيعة المحلية الخالصة للعقائد والعبادات المحلية .

ولقد كان الكثيرون من الشباب الذين ارتدوا عن دينهم في العهود الاولى واعتنقوا المسيحية هم من « الغرباء » عن مجتمعاتهم ـ فهم رجال أو نساء غرباء أو من مراتب اجتماعية منحطة . واعتاد وجهاء القوم أن يرسلوا ابناءهم الى المدرسة لتعلم الفنون الجديدة للقراءة والكتابة ، ولكن يستبد بهم الهلع اذا رأوا الشباب من ابنائهم ، وربما نتيجة تحريض قسيس أو معلم متحمس ، وقد انتهكوا بطريقة فاضحة محارم المجتمع ومقدساته على نحو يهدد بالاخطار رخاء أو خصوبة المجتمع كله . وادى تطبيق عقوبة الطرد من المجتمع الى دفع المؤمنين بالدين الجديد الى تشكيـــل جماعات خاصة بهم تمارس شعائر دينها بحماس كبير . ورفض المسيحيون القاب ومناصب الرئاسة بحجة انها تنطوي على طقوس مرفوضة منهم ، كما رفض الرؤساء الفعليون بدورهم تعديل الطقوس . واستمرت عمليات التحول الى الدين الجديد وتزايدت اذ كانت المدارس بمثابة مراكز رئيسية للتبشير وبات الكافرون بالدين الجديد لا يشعرون فقط بأنهم في وضع غير مريح في المدرســة بل غير مؤهلين للالتحاق بالمدارس التبشيرية للمرحلة التاليـــــة بعد الابتدائية .

ويؤلف الان المسيحيون بالاسم في اكثر المناطق ثلاثة أرباع السكان خاصة في جنوب نيجيريا وغانـــا . واصبحت الكنــائس مؤسسات اجتماعية راسخة . ولكن الكثيرين من وعاظ وقساوســة الكنائس البروتستانتية لم يحصلوا الا علـى الحد الادنـى مـــن

التعليم ـ ربما سنتين دراسيتين في كلية لاهوتية بعد المدرسة الابتدائية وذلك للعمل واعظا أو معلما شفاهيا ، وأربع سنوات للعمل قسيسا .

ويرتكز النظام في الكنيسة على اساس الوضع الاجتماعي المحلي المعترف به ، اذ قد يتم الفصل بين الجنسين في قداس الاحد ، وقد يجلس وجهاء القوم ورؤساؤهم في المقاعد الامامية مع حقهم في الاحتفاظ بغطاء الرأس ، ولقد وافق الرؤساء المحليون والمسيحيون على طقوس معدلة بحيث يصبح هؤلاء خير المرشحين لشغل المناصب السياسية التي تتلاءم مع مؤهلاتهم ـ مثل العرق والثروة وربما التعليم . ولهذا نجد مراسم التنصيب بما في ذلك المراسم التقليدية لتنصيب الاوبا Oba في يوروبا ـ تعقبها اليوم صلاة شكر في الكنيسة وفي المسجد .

واعتنق كثيرون الاسلام أيضا في المناطق الساحلية . ويوجد الان مسلمون كثيرون مثلما هنالك مسيحيون كثيرون بين شعب يوروبا . ويعتبر الاسلام هنا عقيدة شخصية اذ لم تصبح ممالك يوروبا دولا ثيوقراطية مثل الامارات . هذا فضلا عن أن الشريعة الاسلامية كقانون لم تحل محل القانون العرفي لدى شعب يوروبا فيما عدا ما يتعلق بأمور الزواج وحيازة الارض . وبدا الاسلام دائما أكثر تسامحا ازاء البنية الاجتماعية المحلية ـ على الرغم من أن المسلمين اليوم اشد معارضة من المسيحيين للمشاركة في الطقوس والشعائر التقليدية أو في الاتحادات السرية .

السياسة والسلطة :

اذا كانت حقوق الارض تشكل حجر زاوية في البنية التقليدية المجتمع فان انماط السلطة تشكل حجر الزاوية الاخرى . ويمكن القول بأن بقاء المؤسسات الوطنية الاصلية رهن الى حد كبير بمدى احترام الادارة الاستعمارية للحدود بين

المجتمعات ، ودعم دور أصحاب المناصب التقليدية . وكما سبق أن أشرنا فان تطبيق نظام الحكم غير المباشر في المستعمرات البريطانية استهدف الحفاظ على هذه الحدود وعلى دور المناصب التقليدية . أما الفرنسيون فعلى العكس من ذلك اذ اما انهم تجاهلوا حكام الوحدات السياسية الكبرى او استخدموا الحد الادنى لقدراتها . وكثيرا ما عمدت الاقسام الادارية الجديدة الى تحطيم الوحدات العرفية بهدف تفتيت طابع الولاء المحلي ، ولكن على الرغم من هذا كله ظلت أصغر الوحدات ، وهي القرى ، كما هي دون تغيير ، وأصبح رؤساؤها ، الذين يجري تعيينهم وفق القانون العرفي ، عملاء للحكم الفرنسي . وربما ظلت لقاءات القرية تنعقد وفق الطريقة التقليدية طوال حقبة الاستعمار .

ونلحظ ونحن ندرس أثر المرحلة الاستعمارية على الممالك في المستعمرات البريطانية أن أقل التغيرات حدثت في امارات الهاوسا ــ فولاني حيث التزمت السلطات المحلية بالوحدات التقليدية . اذ تم الابقاء على سلطة الامير الاوتوقراطية ولم يطرا سوى تعديل طفيف على سلطته في مراقبة وتوجيه الزعماء التابعين له على الرغم من توليهم رئاسة المقاطعات الادارية بدلا من حيازة اقطاعات متفرقة . وبعد أن كان من حق الامير وسلطته تعيين وعزل الزعماء على اساس الولاء والمصلحة السياسية اصبح له أن يناقش قضيته وشئونه مع الموظفين البريطانيين على اساس المنافسة أو الاهمال الاداري . واستمرت الصراعات التقليدية بين البيوت الملكية المتنافسة ولكن من خلال تبادل الاتهامات بالفساد مثل اختلاس الضرائب وما الى ذلك .

وبعد الاستقلال نشأت في الدولة الحديثة والمناطق الجديدة للحكومة المحلية وحدات سياسية اكبر من تلك التي عرفها المجتمع التقليدي . وأدى التنافس بين الاحزاب السياسية القومية الى خلق تقسيمات جامدة بين القرى والمدن وهي تقسيمات لم تكن قائمة في النظام التقليدي . ولكن على الرغم من الضعف المتزايد

لسلطة الحكام التقليديين الا أن السياسة الحديثة تنزع غالبا في محاولتها استثمار الصراعات التقليدية الى دعم المؤسسات المحلية الاصلية .

وتتبع حدود الدوائر الانتخابية والضواحي حاليا نفس الحدود التي كانت قائمة خلال الحقبة الاستعمارية وفي المجتمعات التقليدية ولهذا تدور المنافسات المحلية في ضوء السياسة المعاصرة. ويزعم المرشحون في المناطق النائية ، أن ناخبيهم لا يعون القضايا الاساسية للانتخاب وان كل ما يعنيهم هو أن يكون ممثلهم في العاصمة البعيدة واحدا من جماعتهم . ولهذا السبب فان انتخابات منتصف الخمسينات التي جرت في القطاع الشمالي من غانا فسرها الكثيرون في ضوء المنافسة بين الزعماء سعيا لدفع واحد من اعضائهم الى المنصب أو في ضوء المنافسة بين فريقين لجماعة حاكمة . ونحن لن نجد غلبة القضايا المحلية قاصرة فقط على اشد المناطق تخلفا . مثال ذلك أن الشرق الكبرى في يوروبا ، وهو اقليم غني ، تشكلت من خلال الصراع على العرش ثم اصبح كل فريق يشكل مؤخرا حزبا سياسيا متميزا . ويمكن ايضا تفسير التعارض بين عاصمة المملكة وبين المدن التابعة لها في ضوء القضايا السياسية، اذ تعكس الصراعات السياسية الراهنة التنافس بين ابادان Ibodan وبين ايجيبو Ijebo الذي نشب في القرن التاسع عشر بشأن السيطرة على طرق التجارة الموصلة الى الساحل ، ثم استمر الصراع خلال القرن العشرين حين انتهز ابناء ايجيبو القيمون في ابادان الفرصة لاستئجار الاراضي وبناء المنازل وتأجيرها للمهاجرين واتحد ابناء ايجيبو مع جماعة العمل Action Group التي جاء معظم قادتها من تلك المنطقة بينما عمد ابناء ابادان الى مساندة الحزب المنافس المعروف باسم المجلس الوطني لنيجيريا والكاميرون

National Councial of Nigeria and Cameroons

والذي اصبح اسمه فيما بعد المؤتمر الوطني لابناء نيجيريا ثم تعدل للمرة الثالثة ليحمل اسم « الحزب الوطني الديمقراطي النيجيري »

Nigerian National Democratic Party N.N.D.P.

والملاحظ أن التقسيمات السياسية في يوروبا ، حيث اقتسم الولاء طوال الخمس عشرة عاما الماضية حزبان او تحالفان سياسيان تكشف عن تباين صارخ ازاء الدعم الساحق الذي منحه الابو للحزب الوطني الديمقراطي النيجيري ، ويرجع السبب في هذا جزئيا الى طبيعة مجتمع الابو المنقسم الى فئات . فالقرى المجاورة يعارض بعضها بعضها ولكنها تتحد ضد جماعات قروية اخرى ، وهذه بدورها تتحد ضد وحدات مناظرة ، واخيرا حين نصل الى ذروة السلم يتحد كل شعب الابو ضد جماعات عرقية اخرى . كذلك فان مجتمع يوروبا مقسم على هذا النحو الى ممالك متعارضة ، ومدن رئيسية ثم مدن فرعية متعارضة . بيد أن الوحدات الاساسية هنا ليست متعادلة كما وان طابع التقسيم ليس متماثلا عند كل مستوى من مستويات المجتمع ككل .

وواقع الامر ان التقسيمات السياسية قائمة بالفعل داخل مجتمعات الابو . واذا كان الحزب الوطني الديمقراطي النيجيري يجد تأييدا اجماعيا وقت الاقتراع الا ان هذا التأييد الاجماعي يخفي غالبا الصراعات الحادة التي وقعت اثناء عملية الترشيح حيث ان كلا من الجماعات القروية التي تتألف منها الدائرة الانتخابية تحاول جاهدة ان تضمن الترشيح لواحد من اعضائها هي وتطمح مثل هذه الجماعات القروية في التغلب على الخلافات بأن يكون الترشيح دوريا وبالتناوب بين الجماعات المتنافسة . ولكن هذه الخطة تتعارض مع آمال اعضاء الهيئة التشريعية الطامعين في البقاء في مناصبهم فضلا عن نظرة قيادات الحزب التي ترى بأن يكون الترشيح جزاء ومكافاة لمظاهر الولاء من جانب العضو في العاصمة . ولقد حدث انقسام خطير بين صفوف الحزب الوطني الديمقراطي النيجيري خلال الخمسينات على أساس عرقي حيث اتحدت الجماعة المنشقة مع شعب الارو Aro ـ الذي يقطن في اقصى الشرق من مجتمع الابو واكنه كانْ يتمتع بسلطة كبيرة خلال الحقبة السابقة على مرحلة الاستعمار اذ كانوا يعملون تجارا ولهم دور اشرافي وتنظيمي في منطقة الابو .

وحدث انقسام اخر في الحزب الوطني الديمقراطي النيجيري عندما عمدت قيادة الحزب الى فرض بعض مرشحيها على عدد من الدوائر الانتخابية ولكنهم هزموا أمام شخصيات محلية بارزة رشحوا انفسهم ضد مرشحي الحزب تحت اسم « الحزب الوطني الديمقراطي النيجيري المستقل » ويعكس هذا الحادث مدى اعتماد الاحزاب القومية الجديدة على النخبة من أبناء كل اقليم . وطبيعي أن الاتصال المباشر بين السياسيين وبين جمهور الناخبين يصبح واهيا مع ضعف مستوى التنظيم الحزبي وانفصال النخبة ذات الثقافة الغربية عن موطن نشأتهم . وهنا تصبح مساندة قادة الفكر المحليين — وهم الزعماء التقليديين والاثرياء — امرا حيويا بالنسبة لهم . ولكن حين يؤيد هؤلاء حزبا ما في صراحة ووضوح فانهم يضعون انفسهم في موقف المعارضة مع انصار الحزب الاخر — وهذا دور لا يعرفه الحكام التقليديون .

استمرار الجماعات العرقية :

ان محاصيل التصدير ، والديانتين العالميتين ، والحكم الاستعماري ، والشعور القومي الحديث ، كل هذا اسهم بدرجات متفاوتة في اخراج مجتمعات غرب افريقيا عن وضع العزلة والشعور بالاكتفاء الذاتي . وعلى الرغم من أن ثلثي سكان الريف لا يزالون فلاحين الا أن الاقتصاد الحديث قد خلق مهاما ووظائف اكثر تخصصا . واتجه الناس الى اقامة علاقات واسعة المدى ، وتشكيل اتحادات جديدة . بيد أن المجتمعات التي تدخل العالم الحديث ليست من النوع الذي انهار فيها البناء الاجتماعي التقليدي واضحى اهلها يبحثون في نهم عن اهتمامات وقيم جديدة . وانما تنزع هذه المجتمعات الى المحافظة على الروابط الاصلية القديمة مع قدر كبير من التماسك . ونحن ما لم نفهم هذا الواقع فاننا لن نستطيع تقدير اتجاهات النخبة ذات الثقافة والتعليم الغربي ، ودورها في العملية السياسية .

حقا ان أكثر الاتحـادات التقليـدية باتـت أمرا عقيمـا . فمجموعات العمر Age Grades أضحت بغير وظيفة بعد تحـريم الحروب المحلية ، واصبحت الخدمة العامـة مسئولية ووظيفـة ادارات الحكم المحلي . وبدات الشعائر الدينية المحلية القديمـة تختفي تدريجيا . بيد أن الجماعات العرقية ظلت أساس التنظيم الاجتماعي .

ان أكثر الناس حريصون على السكنى والبقاء في تجمعاتهم السكنية التقليدية ولو أنهم قد يسكنون منازل على طراز حديث . ولاتزال الارض ملكا جماعيا للجماعة السلالية ، وكلما نقصت أو ارتفعت قيمتها السوقية كلما تدعم تماسك الجماعة . ونلحظ كذلك استمرار الصراعات التقليدية ومظاهر الولاء التقليدي بين الوحدات السياسية الحديثة . ولا يزال المرء يعتمد على جماعته السلالية في أمنه وملاذه الاجتماعي . ولا ريب في ان أولوية الولاء للجماعة العرقية من شأنه أن يعوق نمو وتطور الروابط والوظائف الاخرى التي تظل لهذا السبب محدودة جدا .

واصبح الفرد اليوم يحمل على كاهله مسئولية أكبر ممـا مضى . اذ لم يعد القانون الحديث في هذه الدول يعترف بالمسئولية القانونية الجماعية للجماعات العرقية ، كما وأن أعضاء الجماعة ليس لهم الان سوى حقوق تشريعية قليلة ازاء بعضهم البعض . وطبيعي أن المرء حين يستثمر الفرص التي تهيؤها له انمـاط العمل الجديدة فانه ينتقل خارج نطاق جماعته العرقية . ولكن ثمة علاقات تقليدية كثيرة لا تزال قائمة ضمن العلاقات التـي يقيمها ابتغاء تحقيق اهداف جديدة له . فقد يتحالف ذوو القربى من ناحية الام ورفاق العمر . وربما تنزع الجماعة السلالية الى تعديل بنيتها لتعطي لابنائها من المتعلمين أو الاثرياء فرصا لتولي القيادة ، وقد يقوم الشيوخ بدور أكثر سلبية في الاجتماعات معتمدين على الشباب من أبناء جماعتهم ويسألونهم الراي والمشورة .

ومن العبارات المأثورة في وصف شعب الابو : « الغريب والمتناقض أن شعب الابو هو وحده من بين كل شعوب نيجيريا الذي لم يتغير منه سوى أقل القليل بينما شهد واقعه أعظم التغيرات ... فالكثير من الانماط الاساسية للسلوك الاجتماعي ... بقيت وظلت راسخة تمثل جزءا من الثقافة الجديدة الناشئة » .

ويصدق نفس الشيء على الكثير من المجتمعات الساحلية الغنية الاخرى حيث سارت عملية التطور في اطار البنية المحلية الاصلية . واخيرا فاننا ونحن ندرس المناطق الريفية الغنية يجب الا ننسى أن ثمة مناطق أخرى كثيرة شهدت تحولا اقتصاديا وتبشيرا دينيا ولكن على نطاق اصغر ومن ثم كان التحول عن اسلوب الحياة التقليدي فيها تحولا ضئيلا نسبيا .



٤

حياة المدن

ان التباين بين المدينة والريف الذي نلحظه واضحا في غرب افريقيا لا نجد له نظيرا الا في مناطق قليلة من العالم . والملاحظ أن الدول التي تكون غالبية سكانها من الفلاحين سكان القرى تتحول حواضرها في كثير من الاحوال الى مدن ذات كثافة سكانية تصل الى ربع مليون نسمة أو يزيد ، وتقل نسبيا المناطق الحضرية ذات الحجم المتوسط . وبينما ادى التطور الاقتصادي الى تغيرات محدودة في البنية الاجتماعية للقرى فان المدن الجديدة أضحت آهلة بمهاجرين وفدوا اليها مؤخرا ، وتسبب وجودهم في نشوء أنماط جديدة تماما من العلاقات . مثال ذلك أن بيوت القرى غطيت أسقفها بحديد مموج ، كما وأن القليل من المحال تطل على السوق التقليدية . وأقلع المهندسون المعماريون عن ضرورة مجاراة الطرز القائمة عند تصميم منشآتهم وبداوا يضيفون تصميمات لمبان حديثة دخيلة . وتطلق الحكومات يدها في الانفاق على المنشآت العامة شغفا منها بتوفير مظاهر ملموسة للتقدم تبدو واضحة في نظر كل من شعوبها وزوارها الاجانب .

وتهيىء هذه المدن طائفة من المهن الجديدة تماما للمهاجر الافريقي الوافد من المناطق الريفية . ولم تعد النسوة قادرات على مساعدة ازواجهن على نحو ما كن يفعلن في المزارع ، وانما أصبح في مقدورهن اكتساب دخول خاصة بهن عن طريق التجارة أو العمل المأجور . ويخلق العمل في مجال الوظائف وفي الصناعة أنماطا بيروقراطية من العلاقات لا نجد مثيلا لها في المجتمع التقليدي . وتنشأ اتحادات جديدة لحماية هذه الفئات من العمال . وتوفر دور اللهو مثل السينما والبارات والنوادي الليلية فرصا للتسلية

لم تكن معروفة للقرية من قبل . ونجد التناقض الصارخ بين الوفرة والفاقة جنبا الى جنب في المدينة مع نشوء صور جديدة من التقسيم الطبقي للمجتمع . وتقف على قمة الهرم الاجتماعي الجالية الاجنبية والنخبة الافريقية ، وهم الارستقراطية التي تتطلع اليهم الجماهير ، ويتبنى المتعلمون والنخبة الثرية في هذه المدن قيما وأنماطا جديدة للسلوك .

وسكان المدن الجديدة من أعراق متباينة . وطبيعي حين يتجمع الناس من سلالات مختلفة ليسكنوا جنبا الى جنب ويتزايد عددهم باطراد فاننا نتوقع أن يمارسوا فيما بينهم قدرا اكبر من التسامح ازاء عادات كل فريق ، وان ينشأ بينهم حس قوي من الولاء القومي . بيد انهم متنافسون أيضا فيما بينهم بشأن العمالة . وتؤدي الفوارق في مستوى التعليم وفي دافع التحصيل الى ارتباط الاعمال الوضيعة بجماعات معينة ، وتبرز بعض مظاهر الجمود والنمطية في الفكر وفي السلوك من جانب الجماعات السلالية الاخرى حين يدخل المرء في تنافس معها . وتنمو هنا العداوات العرقية وتصبح « النزعة القبلية » اكثر وضوحا .

وتمثل المدينة بؤرة الحياة السياسية فهي موطن نشأة الاحزاب القومية . ويتأثر قادتها ، أصحاب السلطة اليوم ، بضغوط النخبة سكان الحضر أو باخطار اضرابات العمال اكثر من تأثرهم بمظاهر الاستياء والتذمر من جانب سكان الريف . وواضح أن تجمع النخبة والعمال في عدد قليل من المواطن الحضرية يحفز الى انتظامهم في جماعات تعبر عن مصالح كل فريق .

وتعتبر المدينة كذلك مركز التجديد والابتكار فهنا يمكن للمرء أن يتحرر من قيود عائلته ونسبه ، وينعتق من قيم القبيلة والشيوخ التقليديين . اما كم عدد من يختارون لانفسهم سلوك هذا الطريق فهذه مسألة اخرى ذلك لان الافريقي من سكان المدن ، كما سنرى فيما بعد ، ينزع الى الحفاظ على علاقته الوثيقة بابناء جلدته وجماعته التي نشأ في كنفها .

نشاة ونمو المدن :

يرجع تاريخ نشاة المدن في غرب افريقيا الى قرون بعيدة . ولقد كانت حواضر الامبراطوريات الكبرى في غانا ومالي وسونغاي مراكز مؤثرة تشد الانظار . ولا تزال مدينتي تومبوكتو ودجين اثرين ماثلين كاطلال دارسة وشاهدة على تلك العصور البعيدة . ويقدر عدد سكان كل من عاصمة دولتي الهاوسا ويوروبا خلال الالف عام الماضية ، بما يقرب من خمسين الف نسمة . بيد أن هذه المراكـــز لم تكن مدنا بمعنى الكلمة . مثال ذلك أن مراكز يوروبا على الرغم من أنها كانت مسورة وكثيفة السكان الا أنها كانت حشدا وتمركزا ضخما للتجمعات السكنية القائمة على أساس الجماعات السلالية التي تؤلف في مجموعها المدينة ، والتي يرتكز تنظيمها الاجتماعي على معايير العرق والعمر . وكان اربعة أخماس سكان هذه المدن من الفلاحين ، كما كانت المدن مكتفية بذاتها الى حد كبير سواء من حيث الغذاء أو الحرف . وغلب على مدن الهاوسا طابع مدن أوروبا في العصر الوسيط ـ كحواضر ادارية وتجارية لما يحيط بهـا من مناطق ريفية . ولكن القطاع الاكبر من سكانها ـ قد يزيد على النصف ـ يتألف من الفلاحين . وينزل ابناء الجماعة السلالية الواحدة تجمعا سكنيا مشتركا .

ولقد نمت المدن الجديدة وكبرت سريعـا جدا . اذ نشـأ أقدمها حول القلاع الساحلية للتجار الاوروبيين ـ مثـل كيب كوست أو جوريه . ومع اتساع نطاق التجارة بدأت المستوطنات الجديدة . واستقر حول مدينة لاجوس القديمة ، بمن فيها ابتداء من الاوبا والزعماء ، الاسرى العائدون من سيراليون والبرازيل بالاضافة الى التجار الاوروبيين . وبدأ التجار يتحركون صعودا مع نهر النيجر ، ونشأت مع حركتهم سوق كبـيرة في اونيتشـا Onitsha وهي نواة مدينة جديدة تحيط أحياؤها الحديثة بالقرية القديمة التي يسكنها أهل أونيتشا الاصليين . ووقـع الاختيـار على هذه المدن ابان الحقبة الاستعمارية لتكون مركزا رئيسـيا

للادارة ، وان اختيرت في حالات اخرى قواعد للادارة في منـــاطق سهلة مفتوحة على نحو ما حدث بالنسبة لمدينتي كادونا Kaduna في شمال نيجيريا . ونشأت مستوطنات جديدة في مراكز الصناعات الاستخراجية (المناجم) ــ بلدة جوس على سبيل المثال ــ كما نشأت الموانيء مع نمو وازدهار تجارة التصدير .

بيد ان اهم مظاهر التوسع في حجم هذه المدن بدأ مع الحرب العالمية الثانية وبخاصة مع الاستقلال ، الذي افضى الى اتساع رقعة المدينة وزيادة تمركز النشاط الحكومي . ونشأت صناعات جديدة في المراكز القائمة للاستفادة من الايدي العاملة الماهرة المحلية والمتوفرة واستثمار الطاقة وتسهيلات النقل . وتوسل رجـال السياسة لكي يقيم رجال الصناعة منشآتهم الصناعية في الضواحي الريفية مما يساعد على توفير العمالة لسكانها واثراء هذه المناطق الا أن توسلاتهم ضاعت سدى . والملاحظ أن كل من يكمل تعليمه الابتدائي يعزف عن العمل بالزراعة ويقصد المدينة باحثا عن عمل .

وضمت حواضر الدول المتحدثة بالفرنسية عددا من السكان الاوروبيين اكبر بكثير من عدد سكان مثيلاتها في الدول المتحدثـة بالانجليزية . فقد بلغ عدد السكان الاوروبيين في داكار في منتصف الخمسينات ۳۰۰۰۰ نسمة يمثلون في ذلك الوقت ۱۳ بالمائة من مجموع سكان المدينة . وضمت كوناكري نسبة كبيرة مماثلة مـــن الاوروبيين بينما سكن ابيدجان تسعة آلاف اوروبي يمثلون ۷ بالمائة من سكان المدينة . ونجد في مقابل ذلك ان اقل من ۲ بالمائة من سكان لاجوس واكرا من الاوروبيين .

ومن الواضح ان التطـور السريـع لمدن غرب افريقيا خلال الفترة الاخيرة يعني ان جمهرة سكانها هم من مواليد الريف ثم هاجروا الى المدينة بحثا عن عمل . واعطتنا احصائيات قليلة بيانات تفصيلية عن هذه الهجرة ، الا أن احصاء مدينة لاجوس عام ۱۹٥۰ يستحق التنويه لما تضمنه من ارقام ذات دلالة هامة . لقد كان جملة سكان المدينة في هذا التاريخ ۲۳۰٫۰۰۰ نسمة ، ۷۳ بالمائة

منهم وفدوا من يوروبا و ١٢ بالمائة من ايبو ، كذلك فان ٣٧ بالمائة من مواليد لاجوس (ولا بد وان هذه النسبة تضم الكثيرين من الاطفال الصغار لآباء مهاجرين) ، و ٣٩ بالمائة من مواليد الاقليم الغربي ، و ١١ بالمائة من مواليد الشرق و ٨ بالمائة من الشمال .

وتفيد هذه الارقام وارقام اخرى غيرها مماثلة لها أن قوة جذب المدينة للمهاجرين تكون اشد بالنسبة للمناطق المجاورة لها مباشرة . وكما يشير احصاء مدينة لاجوس فان أكثر ابناء ايبو سوف يبحثون عن عمل لهم في مدن الاقليم الشرقي ، ونلمس نزوعا واضحا بالاتجاه الى اقرب مدينة .

لهذا كله يتعين علينا ونحن ندرس شخصية ساكن المدينة من ابناء غرب افريقيا أن نتذكر انه مهاجر ، واننا نعالج مرحلة ربما تكون مرحلة انتقال عابرة يشكل فيها هؤلاء المهاجرون غالبية السكان ان أطفالهم يولدون ويشبون في المدينة ولم تعد لهم سوى صلات بسيطة بالريف ومن ثم سيتكون لديهم اتجاه مختلف جدا بالنسبة للحياة . ونعود لنؤكدمرةاخرى أن نسبة كبيرة من المهاجرين اليوم الى المدن قد وفدوا من بلدان قريبة نسبيا . وأصبح في استطاعتهم الان بفضل الطرق الحديثة والسيارات وغيرها الانتقال دون مشقة كبيرة والسفر الى موطن نشأتهم في الاجازات السنوية بل وأحيانا خلال اجازات نهاية الاسبوع . ومثل هذا الموقف يختلف بوضوح عن موقف الكثيرين من العمال العاملين في منطقة حزام النحاس في زامبيا أو في جوهانسبرج الذين قطعوا آلاف الاميال بحثا عن عمل .

ونذكر انه خلال القرن التاسع عشر تجاورت بيوت التجار الاوروبيين وموظفي الحكومة في مدينتي لاجوس وفرى تاون مع بيوت أبناء البلدة المحليين . واعتاد الاوروبيون في الغالب الاعم الحياة في بيوت شيدها واجرها لهم التجار المحليون . ولكن الحكومة انشأت ابان المرحلة الاستعمارية مناطق معزولة للسكان الاوروبيين ـ وان اختلف أسلوب البريطانيين عن الفرنسيين ـ وذلك بهدف اقامة مدن ذات طابع متميز . فقد انشأ البريطانيون مناطق

سكنية نائية عن مراكز التجمع السكاني القائمة ـ مثال ذلك المنطقة السكنية في جزيرة ايكويو في لاجوس . واقيمت بيوت ضخمة في المساحات الفضاء ، وبجوارها مبان خاصـة بموظفي الحكومـة الكتابيين . وحيثما اقيمت مدينة جديدة يلتقي فيها الحي الاوروبي بالحي الافريقي عند مركز تجاري مشترك يتوسطهما وتوجد به محطة السكك الحديدية والبنوك ومكتب البريد ومخازن الشركات التجارية الكبرى . وقد انشأت كل المناطق السكنية الجديدة في شمال نيجيريا خارج أسوار المدن القديمة وقد شيدت كما هو الحال في زاريا وكانو Kano على شكل تجمعات سكنية منفصلة للغرباء من أبناء الشمال واخرى للمهاجرين من ابناء جنوب نيجيريا وثالث للاوروبيين . ونلاحظ في ايبادان ، وهي اكبر المدن الافريقية قبل الاستعمار ، أن المناطق السكنية تحيط بالمدينة القديمة . وعلى النقيض من ذلك انشئت العواصم في الدول المتحدثة بالفرنسية وكلها مدن حديثة بحيث توجد المنطقة السكنية الفرنسية في قلب المدينة ، وتتميز بكثافة سكانية اكبر من نظيرتها البريطانية مع خدمات تموينية أفضل ـ محال بقالة خاصة وجراجات ومقاهي . ومشترك في هذه المنطقة الرئيسية مكاتب الحكومة والسوق الكبيرة. أما المناطق السكنية الخاصة بالافريقيين فتقع وراء حدود تلك المدينـة .

وكانت الحكومات وأصحاب الاعمال ممن يوظفون طاقما كبيرا من الاجانب يعدون منازل لسكنى كبار الموظفين . واذا انتقلت هذه الوظائف الى الافريقيين تنتقل اليهم معها المساكن التابعة لها . ولهذا أصبحنا نجد الان جاليات متعددة الجنسية في مناطق السكنى التابعة للحكومة والجامعة وما الى ذلك . ولكن لم يكن من المألوف أن يبني أصحاب الاعمال مساكن لصغار الموظفين ، فيما عدا مناطق صناعة استخراج المعادن أو القواعد الصناعية البعيدة عن المدن ، وانما يتولى توفير المساكن لهم مقاولون افريقيون محليون . ومن ثم اتجه بعض الناس الى استثمار مدخراتهم في بناء مساكن

وتأجيرها على اساس نظام الغرفة الواحدة للمهاجرين ، مما ساعد على ظهور فئة من الملاك العقاريين الاثرياء في المدن الجديدة . كذلك الموظفون المدنيون اصحاب الحظوة الذين منحتهم الحكومة مساكن فاخرة شرعوا في بناء مساكن لتأجيرها للعاملين الاجانب او المؤسسات التجارية . وارتفعت ايجارات المنشآت العقارية . ولكن بدأ مؤخرا أثرياء المهاجرين الى المدن من العاملين الدائمين شرعوا مؤخرا في بناء او شراء مساكن خاصة بهم . الا ان جمهرتهم لا ينزعون الى شراء ممتلكات عقارية في المدينة أو في العاصمة . وتجد حكومات غرب افريقيا انها ملزمة بالعمل على استخدام اساليب تكنيكية حديثة على نطاق واسع لتوفير المسكن الرخيص للصناع وصغار الموظفين .

وادى تطور مناطق السكان الافريقيين الى التخفيف من مظاهر العزلة والانفصال بين المهاجرين من أبناء الجماعات العرقية المختلفة أو ممن هم من أصول اقتصادية واجتماعية متباينة . فقد اصبح المهاجرون من ابناء شعب ابو نزلاء ومستأجرين في بيوت اسر شعب يوروبا الذين استوطنوا وسط لاجوس منذ منتصف القرن التاسع عشر . وبات نادرا ان تجد كل سكان البيت الواحد الكبير ، ناهيك عن الغرف المؤجرة على اساس الواحدة ، من أبناء جماعة عرقية واحدة أو من موطن واحد . حتا أن ابناء الجماعة العرقية ينزعون الى الاستيطان معا في حي واحد الا انهم غير ملزمين بهذا دائما . وهكذا نجد أبناءتوكولور وهم اكثر المهاجرين عددا في داكار (بعد أبناء ليبو Lebou وشعب ولوف wolof) منتشرين بأعداد كبيرة في اكثر أحياء المدينة . وحين ينشىء المقاولون المحليون بيوتا للايجار على اساس نظام الغرفة الواحدة فاننا نتوقع انتفاء التجانس في الاحياء الجديدة .

ويشتري المتعلم أو يستأجر قطعة أرض ليبني مسكنا انيقا تشغله أسرته فقط ، بينما يقيم على ارض مجاورة منزل مصمم خصيصا ليلائم سكنى أربعين اسرة في غرف منفصلة ويشتركون

معا في مرافق الطهي ودورات المياه . وانشأت « شركة الاقليم الغربي للاسكان » في نيجيريا منطقة سكنية في ابادان تطل فيها المنازل الفخمة على الطريق العام التي يتكلف المسكن الواحد منها قرابة أربعة آلاف جنيها استرلينيا . أما ما دون ذلك وهي منازل يتكلف الواحد منها ما بين ١٥٠٠ الى ٢٠٠٠ جنيها استرلينيا فتقع في المنطقة الخلفية وتتناسب قيمتها مع الموظفين المدنيين الاداريين . معنى هذا أن النخبة الافريقية تعيش وحدها مع شاكلتها في المناطق السكنية التي كانت مخصصة سابقا للاجانب . بيد أن الجوار السكني لا يفيد ضمنا قيام علاقات اجتماعية ودية . فالنخبة يحظرون على أطفالهم اللعب مع اطفال جيرانهم الفقراء ، ومن ثم يصحبهم آباؤهم بدلا من ذلك في سياراتهم الى اقرانهم ممن يرضى عنهم الآباء ليلعبوا معا .

المهاجرون :

ان من يطالع الدراسات الحديثة طوال العقود الثلاثة الماضية والتي تعالج حياة المدن الافريقية تصادفه كثيرا عبارتا « التحلل القبلي » و « التحضر » وقد جرى استعمالهما على عواهنهما .

فالافريقي حين يترك مجتمعه القروي يكون قد « تحلل من عصبيته القبلية » Detribalized ويتحضر حين يتعلم المعايير والقيم الجديدة لحياة المدينة . بيد ان هذين المفهومين يخفيان درجة اتساق العلاقات القائمة في المدينة مع نمط المعايير التقليدية . ان المهاجر حين يشغل وظيفة عامل في شركة كبرى أو في ادارة حكومية يتعين عليه أن يتعلم السلوك الملائم للبناء البيروقراطي . ولكن المؤكد ايضا انه حين يصل الى المدينة سيقيم في الغالب الاعم مع أقارب له من ذوي القرابة البعيدة او مع اخرين من بني بلدته وسوف يلتزم في سلوكه معهم هنا سلوك القرية . وسوف يجد المهاجر نفسه مع كل اتصال يجريه امام خيارين احدهما انماط سلوك القرية والاخر نمط سلوكي جديد تماما عليه .

وتنزع التعميمات عن الحياة في مجتمع المدن الى التاكيد على أن العلاقات الشخصية هنا علاقات سطحية وعابرة وغفل من اي خصائص راسخة ، على النقيض من العلاقات الشخصية الكثيفة الوثيقة التي نجدها في مجتمع القرية الصغير المكتفي بذاته . ويبدو لي أن التعميمات الاولى اصدق بالنسبة لاحياء الطبقة المتوسطة في المدن الصناعية في بلاد الغرب وخاصة تلك التي نمت مؤخرا نموا سريعا . وتضم ضواحي الفقراء في المدن القديمة أحياء تشبه القرى الافريقية من حيث البنية الاجتماعية . وليس من السهل تقسيم مدن غرب افريقيا الى وحدات ثانوية متلاصقة تضم كل واحدة منها أشخاصا ذوي وضعية اجتماعية واقتصاديـة محددة . حقا ان المدينة تقدم للمهاجر مدى واسعا من الفرص . ويمكنه ، شأنه شأن كثيرين من العمال الاميين غير المهرة ، أن ينشيء علاقات اجتماعية فيما خلا العلاقات الخاصة بالسوق ومكان العمل ومن ثم تكون قاصرة على أعضاء من بني جماعته العرقية أو وطنه . ويمكنه من ناحية اخرى أن يستثمر بوعي والى اقصى حد الفرص التي تتيحها له حياة المدينة فيرفض العلاقة مع ابناء جلدته واصدقاء الماضي حين تكون مثل هذه العلاقة عقبة على الطريق نحو تحصيل مكاسب جديدة .

ومن ثم فان القرية والمدينة لا يرفض أحدهما حياة الاخر ، بل على العكس يعمل سكان كل منهما على ملاءمة سلوكهم مع كل موقف جديد .

والملاحظ أن الموقف من حياة المدينة رهن الى حد كبير بالدوافع التي حفزت المهاجر الى ترك قريته وطول المدة التي يتوقع بقاءها في المدينة . فالمهاجر الوافد من المناطق المتخلفة اقتصاديا والتي تفتقر الى زراعة محاصيل تجارية يسافر ابتغاء المال حتى يتمكن من سداد الضرائب التي أوجبت الحكومة الاستعمارية ضرورة سدادها نقدا لا عينا . ويهاجر الشباب ليحصل على ما يكفيه من مال لدفع صداق أول عروس يتزوجها ، أو لشراء دراجة أو ما

شابه ذلك او بعض الكماليات التي يخطب بها ود عروسه . وبدات تتزايد الكثافة السكانية في عدد قليل من المناطق الريفية بحيث لم تعد بها أراض كافية تغل ما يفي بحاجة العاملين عليها . ولهذا السبب نجد أن اكثف الهجرات وافدة من ريف اقليم ابو ، ويصل عدد الغائبين من اهالي بعض القرى الى النصف تقريبا في وقت واحد . ونظرا لان من يكملون تعليمهم بالمدرسة يعزفون عن العمل بالفلاحة اسوة بآبائهم فانهم يقصدون المدن بحثا عن عمل مأجور . وكثيرا ما تحدد العوامل الشخصية اي الرجال والنساء اكثر دأبا على الهجرة او اقدر على البقاء في الخارج اطول فترة ممكنة . ويجد المرء فيما يعانيه في قريته من شجار واتهامات حافزا له على مغادرة القرية ، وبات الاحتمال القائم اليوم هو ان يتركها قاصدا المدينة بعد أن كان في الماضي يلتمس الاقامة مع أسرة أمه . كذلك الحال بالنسبة للمرأة في هذه المجتمعات التي يعتبر فيها الطلاق حدثا نادرا ووصمة عار تلحق بالمرأة ويحول دون زواجها ، لذا تقصد المرأة المطلقة اليوم المدينة لتكسب رزقها ربما عن طريق التجارة وربما عن طريق الدعارة .

وتتطور تقاليد الهجرة وترتقي بما من شأنه ان يدعم الانماط الراسخة . فقد حلت الهجرة شرقا في كثير من مجتمعات السافانا مع موسم الجفاف محل الاغارات التي كانت تقع قبل الاستعمار ، ولم يعد الشاب يوصف بالنضج والرجولة الكاملة الا بعد أن يقوم برحلته الى لاجوس أو أكرا مرة او مرتين . ويعود المهاجرون ليرووا قصصا باهرة عن مظاهر الترف والنعيم والمتع في المدن القاصية — والتي احسوا معها بفقرهم الشديد الذي حال دون مشاركتهم فيها بنصيب .

وقد يكون من الملائم تقسيم المهاجرين الى ثلاث مجموعات : الموسميون ، وأصحاب الاقامة القصيرة واصحاب الاقامة الطويلة . ويفد المهاجرون الموسميون اساسا من السافانا حيث موسم الجفاف الذي تقل وربما تنعدم فيه فرص العمل في المزارع وتتهيأ الفرصة

امام الشباب للسفر الى مسافات بعيدة بحثا عن عمل . ويسافر كل عام قرابة ربع مليون نسمة من مقاطعة سوكوتو والاقاليم المجاورة متجهين شرقا . ويعمل قرابة ثلث مليون نسمة من أبناء الفولتا العليا (وهم تقريبا كل المهاجرين الموسميين) في مزارع البن والكاكاو في ساحل العاج .

ولا يزال المئات من الرجال والنساء يعملون بمعاولهم في هضبة جوس الغنية بالقصدير لاستخراج الخام من بعض المناجم ، ويفد اليها عمال كثيرون للعمل أسبوعين أو ثلاثة فقط ويكفيهم أجرهم ، وهو أمر غريب ، للحياة طوال عام بأكمله . وطبيعي ان هؤلاء المهاجرون الموسميون لا يصطحبون زوجاتهم في رحلاتهم ، ويميلون الى الحياة في المدينة جماعات من الرجال في غرفة واحدة وربما اعتادوا قضاء لياليهم نياما في احدى الشرفات . ومثل هؤلاء لا يمكنهم العمل الا في المهن الحقيرة ، ذلك لانهم لا يتعلمون أي مهارات خلال فترة عملهم القصيرة . ولا يعمل هؤلاء العمال عادة في مزارع الكاكاو في يوروبا وانما يعملون عمال بناء منازل من الطين لا يبدأ بناؤها الا في موسم الجفاف . وتنشأ سوق عمالة غير رسمية يقصدها المقاولون كل صباح لاستئجار حاجتهم من الايدي العاملة يوما بيوم .

وتطلق عبارة « العمال أصحاب الهدف المحدود » على الكثيرين من المهاجرين الذين يقيمون لفترة قصيرة ، كأن يبقوا في المدينة عاما أو عامين قبل العودة الى القرية ربما للبقاء فيها فترة مماثلة . ويأتي هؤلاء الى المدينة لتحقيق هدف محدد يعودون بعده الى وطنهم . ويؤثرون الحياة الفقيرة اثناء وجودهم في المدينة بهدف زيادة مدخراتهم الى اقصى طاقتهم كما انهم بدورهم لا يتعلمون مهارات جديدة .

وثمة من يفدون الى المدينة قصد الاقامة الدائمة ، فيما عدا المتعلمين من الشباب . ولكن من يحالفهم التوفيق هنا كان يصيبوا نجاحا في التجارة أو يكتسبون مهارة فنية تضمن لهم عمالة دائمة

واجرا افضل ، فانهم يؤثرون البقاء في المدينة . وطبيعي ان تتضاءل هنا فرص الحصول على دخل مماثل في القرية ، بينما يتعزز مركزهم في القرية بفضل ما اصابوه في حياتهم من وفرة وثراء تؤكده مظاهر الكرم والسخاء عند زيارتهم لاوطانهم . اما من يجانبهم التوفيق ويخفقون في حياتهم في المدينة فانهم يحجمون عن العودة الى قراهم صفر اليدين ، ولهذايؤثرون البقاء آملين في حظ اوفر حتى يفقد اقاربهم صبرهم بسبب ما يعانونه من عوز ويجبرونهم على العودة .

العمالة في المدن :

يتميز العمل في غرب افريقيا بثلاث قسمات واضحة : قلة عدد العاملين ، وغلبة العمالة في قطاعات التشييد والبناء والنقل والتجارة على حساب الصناعة ، والنسبة العالية للعاملين في القطاع العام .

بيد أن هذه الانماط المتباينة للعمالة ليست موزعة بالتساوي بين الجماعات العرقية لكل دولة . فالعمل المأجور اكثر ذيوعا بين الجماعات التي تعيش اقرب من غيرها الى مراكز العمالة ، وتعطى هذه الجماعات ذاتها اعلى نسبة من العمال المهرة ونصف المهرة ، واعلى نسبة من المهاجرين المقيمين لاطول فترة ممكنة . والملاحظ ان التعليم بدأ مبكرا في مناطق معينة أكثر من غيرها ، وربما بسبب النشاط التبشيري ، ولذا تحتفظ المناطق المتقدمة بميزتها على سواها . وهذا هو السبب في أن داهومي قدمت الكثيرين من الكتبة للمناطق المجاورة المتحدثة بالفرنسية ، نظرا لانها قدمت من أبنائها متعلمين يفوقون حاجتها لتوظيفهم . وشغل أبناء نيجيريا الجنوبية اكثر الوظائف التى تتطلب مهارة وتعلما في شمال نيجيريا ، حتى بالنسبة للسلطات المحلية (حيث يؤلف الجنوبيون سدس العاملين لدى السلطة المحلية في زاريا عام ١٩٥٠) . حقا لقد بدأ السكان المحليون مؤخرا يستاءون من احتكار « الغرباء » لاكثر الوظائف ذات المكانة الاجتماعية وطالبوا باستبدالهم بغيرهم من ابناء المنطقة

المحليين ويلاحظ أن بعض الجماعات العرقية تؤثر انماطا بذاتها من الاعمال دون غيرها . مثال ذلك انه في عام ١٩٥٠ تعادلت نسبة العاملين في لاجوس من ابناء شعب يوروبا وشعب ابو ولكن نسبة العاملين في مجال الشرطة من ابناء ابو فاقت نسبة العاملين من ابناء يوروبا في نفس المجال بما يعادل ثماني مرات ، وكان اغلب العاملين في مجال الخدمات المدنية من ابناء شعبي ابو وايدو . وقد يحتكر أعضاء منطقة بذاتها أوجه نشاط تجاري خاص : على نحو ما نجد في اونيتشا مثلا العاملين في السوق من ابناء جماعة قروية واحدة يكادون يحتكرون سلعة بذاتها ، وفي داكار أيضا نجد أن باعة الصحف من ابناء جماعة محلية في توكولور .

وتتسم معدلات الاجور في غرب افريقيا بالانخفاض . فبينما ترتبط رواتب الاجانب العاملين في الحكومة والمؤسسات التجارية برواتبهم التي كانوا يتقاضونها في بلادهم الام ـ مع علاوات اضافية تعويضا لهم عما يتجشمونه من متاعب بسبب الحياة في المنطقة الاستوائية فضلا عن الحاجة الى اعاشة بيتين ـ ترتبط رواتب العمال الافريقيين بمعدل الدخل الذي يحتاج اليه الفلاح ليقيم اوده ، هذا فضلا عن الاعتقاد السائد بأن العمال مهاجرون ولا يتحملون مسئولية اعالة أسرهم في بلدتهم .

واذا عمل خريج المدرسة الابتدائية ساعيا فقد يتقاضى مائة جنيه استرليني في العام . أما معلم المدرسة الابتدائية الذي قضى ثلاثة اعوام في التدريب على التدريس بعد اتمام الدراسة الابتدائية فانه يبدأ تعيينه بمائة وعشرين جنيها استرلينيا في العام . وحين يكمل شاب تعليمه الثانوي ويحمل مؤهلات تسوغ له دخول الجامعة فانه يتوقع أجرا زهاء مائتين واربعين جنيها استرلينيا في العام عند العمل كاتبا في الحكومة أو معلما . وتتكرر هذه الارقام بشكل عام في كل دول غرب افريقيا .

وجدير بالذكر انه مع تطبيق نظام الرواتب الاستعماري كان من العسير على الافريقي أن يرتقي من صفوف الوظائف الدنيا الى

درجات رواتب معادلة للاجانب أو خريجي الجامعة . ولقد تغير كل هذا اليوم في عديد من الدول بعد توسيع مجال التوظيف وفتح مجال الترقي للوظائف العليا .

ويكشف لنا تقرير « اللجنة النيجيرية لنقص الاجور » المشكلة عام ١٩٦٤ بعض دلالات هذه الاجور في ضوء مستوى المعيشة . لقد بنى أعضاء اللجنة دراستهم على أساس تقديرات الحد الادنى الذي وضعه اتحاد النقابات فضلا عن دراساتهم الخاصة بشأن الاحتياجات الغذائية . وانتهت اللجنة الى ان ست عشرة جنيها استرلينيا هي الحد الادنى اللازم كأجر شهري في لاجوس (باستثناء المدخرات) للوفاء باحتياجات عامل شاب غير ماهر يعول زوجة وطفلا عند مستوى خط الفقر ـ وهو الخط الذي لا يتيح لصاحبه الحصول على اي شيء اخر سوى ضروريات البقاء » . وقدرت اللجنة أيضا ان عشرة جنيهات وعشرة شلنات هي الحد الادنى كدخل شهري للمناطق الريفية النائية في نيجيريا . وتعتبر هذه الارقام تقريبا ضعف سلم الاجور القائم فعلا . الا أن اللجنة لحظت أن محاولة رفع الاجور تعني احداث خلل للاقتصاد القومي . وانتهى التقرير بأن دعا الى سلم من الاجور ادنى من هذا وهو ما فعلته الحكومة النيجيرية . وتشير الارقام في جملتها الى ان أكثر من نصف ، وربما ثلاث ارباع ، عمال المدن في غرب افريقيا يعيشون في فقر مدقع . ولكن هؤلاء الرجال هم الذين أدخلوا نيجيريا ميدان الاقتصاد الحديث ، وتراودهم ارقى الطموحات نظرا لانهم يعيشون ملاصقين للترف والوفرة الباديين في حياة المدينة .

واذا ترجمنا هذه الاجور المنخفضة الى مستوى المعيشة فانها تعني مساكن مكتظة وغذاء فقيرا . لقد بلغ ايجار الغرفة الواحدة اليوم في لاجوس في مبنى جيد البناء (بمعنى أن به كهرباء ومياه ومطبخ وحمام كمرافق مشتركة) جنيهان وعشر شلنات في الشهر . ولكن يدفع اكثر المستأجرين اقل من ذلك اذا ما اقاموا في المبنى ذاته سنوات طويلة ، كما وأن كثيرين من المستأجرين يجدون خدمات

اقل . وتتألف الاحياء الخارجية في داكار من صفوف متراصة لاكواخ مبنية من القش والطين . ويستطيع قليل من العمال المتزوجين ان يوفروا لانفسهم أكثر من حجرة واحدة . ويتعاون العزاب في دفع القيمة الايجارية . ويفيد تقرير اعد في اكرا في منتصف الخمسينات ان ثلثي الاسر يشغلون غرفا مشتركة ، وأن نصف هؤلاء يتكونون من ثلاث الى ست أشخاص وأن السدس يزيد على سبعة أشخاص . ويتسم غذاء المدينة بأنه غذاء فقير حيث يشتري العمال فقط الطعام النشوي الاساسي دون اضافة فاكهة او خضروات وهما العنصران اللذان يثريان القيمة الغذائية لوجبات الفلاح . كذلك فان تكاليف الانتقال داخل المدينة مرتفعة ، مع ملاحظة أن المناطق السكنية التي يسكنها الاجانب ونخبة المجتمع الافريقي ملاصقة لاماكن عملهم بينما أقل العمال اجرا هم ابعد الناس شقة .

ان الهجرة والفقر يسهمان معا في ارتفاع نسبة الرجال العاملين الى النساء من ذوي العمر المتساوي في المدن .

وكان ستون بالمائة من ابناء ابو في لاجوس يتراوح عمرهم ما بين ١٥ و ٣٤ عاما ، أكثرهم من الشباب الراغب في ادخار صداق عروسه في مسقط رأسه . كذلك في تيما Tema كان ٥٧ بالمائة من السكان يتراوح عمرهم ما بين ١٥ و ٤٤ عاما ـ بينما كان المعدل القومي لابناء غانا من هذه الفئة ٤٣ بالمائة . ووجد « العمال أصحاب الهدف المحدود » العاملين في جنوب شرق نيجيريا أن من المفيد لهم ترك زوجاتهم في القرية حين يرحلون الى المدينة . وهنا تستطيع النساء بمساعدة أقربائهن من الذكور أن يزرعن في مزارعهن ما يكفيهن واطفالهن من طعام وربما يفيض بعضه فيرسلونه الى ازواجهن بالبريد . ويعيش الرجال في غرف مشتركة ويزيدون مدخراتهم الى أقصى طاقتهم لشراء دراجة أو ماكينة خياطة او ما شابه ذلك من السلع الراسمالية وكثيرا ما يثير هذا الانفصال بين أفراد الاسرة قلق المشاهدين الغربيين . بيد أن المراة من ابناء

شعب ابو ، شانها شان المراة في اكثر مجتمعات غرب افريقية تكف عن ممارسة الجنس عامين متصلين عقب ميلاد طفل من اطفالها ، وتعيش في حماية أبوي زوجها واخوته ، ولا يفتقد أطفال الآباء المتغيبين رقابة الذكر البالغ في المجمعات السكنية التقليدية .

ولكن المهاجر الذي يستقر فترة طويلة في المدينة يحاول عادة أن يصطحب زوجته معه ، واذا لم تكن متعلمة لكي تعمل مدرسة أو كاتبة فانها قد تستطيع العمل بالتجارة . والملاحظ أن ما يقرب من ٩٠ بالمائة من النساء العاملات في اكرا كن يعملن بالتجارة ، حيث يعمل أكثرهن تاجرات صغيرات أو بائعات طعام مطهى . بيد أنهن يحققن دخلا منخفضا .



٥

النخبة ذات الثقافة الغربية

كان زعماء المجتمعات الافريقية قبل الاستعمار هم شيوخها وقساوستها ، فهم اصحاب النفوذ والسلطان ، وهم تجارها الاغنياء ، ومع هؤلاء ـ ويمكن ان ندعوهم النخبة التقليدية ـ تفاوض الاوروبيون الاوائل . وكثيرا ما استخدمت السلطات الاستعمارية خلال مرحلة الاستعمار هؤلاء الناس انفسهم في أجهزة الادارة المحلية كأدوات للحكم الاستعماري . وكان من المألوف في ساحل الذهب وفي نيجيريا ان يجلس هؤلاء الحكام التقليديون المتعلمون في مجالس الشيوخ أو في المجالس التشريعية لحكام الاقاليم ويرون في انفسهم ورثة السلطة البريطانية . ولكن مع الاستقلال انتقلت السلطة في كل اقليم من اقاليم غرب افريقيا الى النخبة المتعلمة ذات الثقافة الغربية ، وقاد بعضهم الحركات الوطنية في مختلف البلدان . واضحت اللغة الرسمية في دواوين الحكومة اليوم في كل دولة من هذه الدول هي اللغة الانجليزية او الفرنسية (فيما عدا شمال نيجيريا حيث تسود لغة الهاوسا) .

وطبيعي ان السلطات الاستعمارية اعترفت بأعضاء النخبة التقليدية من حيث وضعهم كذلك في ممالكهم ومجتمعاتهم . ولكنهم لم يحظوا بالاعتراف على نطاق الاقاليم الاستعمارية المنشأة حديثا . وافضى النفوذ الغربي والحكم الاستعماري الى اقامة مدارس اخرجت الكتبة للاعمال الادارية المدنية كما تخرج منها وعاظ ومعلمون ، وقليلون فقط عملوا في مجال المهن الحرة . واعتاد أكثر هؤلاء ، وبخاصة اوفرهم حظا في التعليم ، الحياة في عواصم المستعمرات . وبحثوا لانفسهم من خلال الحركات الوطنية عن سبيل لانتزاع السلطة من أيدي الحكام الاجانب واذا بهم وهم على

طريقهم لتحقيق هذا الهدف يتوحدون اكثر فأكثر مع الوطن المستعمر على اتساعه متجاوزين حدود جماعاتهم العرقية أو مجتمعاتهم المحلية .

ويمكن القول بأن مستقبل دول غرب افريقيا يرتكز الى حد كبير على هذه النخبة القليلة العدد نسبيا ذات الثقافة الغربية ، ذلك لانها الان قابضة على السلطة السياسية وهي أيضا الجماعة المجددة المسئولة عن خلق حلقة اتصال تتوسط ما بين القيم الاوروبية والقيم الافريقية التقليدية . ولا ريب في أن معدل التنمية الاقتصادية سوف يعتمد الى حد كبير على قدرة الزعماء الجدد على امتلاك الفرص المتاحة امامهم والافادة منها . لهذا فمن الاهمية بمكان أن ندرس السمات الشخصية المميزة لهذه النخبة وطبيعة بنيتها الاجتماعية ، والآثار المحتملة لكل هذا على أصحابها وعلى اتجاهاتهم سواء نحو العالم الغربي أم نحو مجتمعاتهم التقليدية .

وثمة صعوبة تواجهنا عندما نريد أن نحدد بدقة ممثلي النخبة ذات الثقافة الغربية . اذ يمكننا أن نبني تصنيفنا على أساس مستوى التعليم والثروة ، الا ان حجم ونوع المتعلمين يختلف من دولة الى أخرى : ففي احدى الدول يبدو معلم المرحلة الابتدائية وكأنه بلغ شأواً كبيرا نسبيا في مجال التعليم ، بينما في دولة مجاورة يبدو طالب الجامعة ومن في مستواه اقل شأنا نسبيا . كذلك فان مثل هذا التصنيف لا يضمن لنا أن الفئات التي تشكلت على هذه النحو هي فئات اجتماعية . ان لفظ النخبة يستحيل استخدامه بدقة . فمنذ عشر سنوات أو أكثر خلت كانت عبارة « الطبقة المتوسطة » تستخدم مرارا للدلالة على الافريقيين المتعلمين . وكان مثل هذا الاستعمال مقبولا طالما وأن هؤلاء الافريقيين يشغلون وضعا وسطا بين الجماعة الاوروبية الحاكمة وبين جماهير السكان على الرغم من أن لفظ طبقة هنا ليس مستخدما استخداما دقيقا . ولقد شاع لفظ « النخبة » كثيرا هذه الايام ، وهو لفظ ملائم لانه يدل على رفعة مكانة أصحابه ، ويفيد أيضا أن أصحابه من ذوي النفوذ

وهو ما يصدق على الانسان الافريقي المتعلم لانه يقينا قادر على اعادة صوغ القيم التقليدية . وزيادة على هذا فان الاعتقاد السائد يقضي بأن النخبة فئة مفتوحة يمكن الانضواء تحتها بحكم الميلاد أو الوضع الاسري ـ والمعروف أن النخبة من ابناء غرب افريقيا اليوم ضمت عناصر من مجالات اجتماعية واسعة .

ومن الشائع الاشارة الى النخبة في كل دولة من دول غرب افريقيا بصيغة المفرد باعتبارها فئة واحدة . هذا بينما في المجتمعات الغربية ندرج عادة أعدادا متباينة من فئات النخبة حسب مجالات كل منها ـ السياسية والتجارية او الاقتصادية والدينية والفنية ـ على الرغم من أن كثيرين من هؤلاء قد يكونون وثيقي الصلة ببعضهم بحيث يشكلون معا « مؤسسة » . ونحن لن نجد في بعض المجالات مثل هذا التباين بين عناصر النخبة في غرب افريقيا ، فهم أعضاء يعيشون في جالية واحدة صغيرة وسط عاصمة بلادهم ، واكثرهم متساوون من حيث الخبرة التعليمية . ولكن ثمة فوارق واضحة وذات دلالة داخل صفوف النخبة من ابناء غرب افريقية . وقد اثرت هذه النخبة تأثيرا واضحا على التاريخ السياسي لدولها وسوف تحدد يقينا وعلى نطاق واسع مستقبلها السياسي والاقتصادي .

ونجد تباينا واضحا بين فئات النخبة الاولى في مختلف المستعمرات . فهناك الكريوليون (المولدون) في سيراليون والليبيريون الامريكيون Americo-Liberians في مونروفيا ومهاجري سيراليون الى لاجوس وهؤلاء جميعا يختلفون عن نخبة ساحل الذهب الذين احتفظوا ، رغم اقامتهم حول القلاع الاوروبية ، بصلات وثيقة باقاربهم في الممالك الساحلية . وهناك الذين تلقوا تعليمهم في امارات شمال نيجيريا اثناء الحروب الداخلية وقد احتفظوا برابطة وثيقة بالحكام التقليديين وهؤلاء ايضا يختلفون عن نظرائهم من المعلمين في المستعمرات الفرنسية . وقد اثرت هذه الفوارق علي العلاقات بين الزعماء الوطنيين .

ونشأ جيل جديد من النخبة مع اتساع فرص التعليم واحتدام الصراع الوطني . وابدى جيل الشباب وصاحب الحظ الاوفر من التعليم استياءه من سيطرة اولئك المتربعين والمتسلطين عليهم ، واتهم الوطنيون من الشباب شيوخهم بمهادنة الحكم الاوروبي وأنهم اصبحوا « العم توم » .

وبزغ جيل ثالث من النخبة في بعض الدول بسبب تباين سبل تحقيق مكانة اجتماعية للنخبة . فلم يعد التعلم وحده المعيار المحدد لذلك ، وانما اصبح في امكان اعضاء الحزب السياسي الحاكم (أولئك الذين نالوا حظا ضئيلا من التعليم بسبب سوء الحظ أو نقص القدرة) الارتقاء الى مراكز هامة في مجال السلطة السياسية بفضل ما يبدونه من ولاء لقادة الحزب وبفضل نفوذهم وتأثيرهم على الجماهير . وهكذا أضحى من تعلم تعليما راقيا ويعمل في مجال الخدمة المدنية يشعر بالاستياء والامتعاض حين يعارض رجال الحزب الرسميين مشورته وقراراته .

واضح مما سبق ان سرعة التحول الاجتماعي في غرب افريقيا ادت الى ظهور اجيال متعاقبة من النخبة لكل منها معاييره الخاصة للانجاز ، وقيمه المتميزة ، وواضح ايضا أنه كان بين هذه الفئات تنافس حول السيطرة على الجهاز السياسي للدولة المستقلة الجديدة .

ظهور النخبة :

من ابرز فئات النخبة ذلك الطراز المسمى الكريوليون او المولدون في سيراليون وليبيريا وايضا لاجوس خلال القرن التاسع عشر ومطلع العشرين . وكلمة كريولي تطلق فقط على نخبة سيراليون الا ان الفئتين الاخريين سالفتي الذكر لهما ذات الخصائص المشتقة من نشأتهم الاجنبية . وتنبع الفوارق بين الفئات الثلاث من واقع أن الليبيريين الامريكيين Americo-Liberians في

مونروفيا كانوا منذ البداية أصحاب السلطة السياسية على البلاد ، بينما سلم الكثيرون من مهاجري سيراليون الى لاجوس بأصولهم في يوروبا ، واحتفظوا بعلاقات واهية مع ما هو مفترض انه موطن نشأتهم واحسوا بتوحد وثيق مع المجتمعات التقليدية .

نشأت النخبة المخلطة (الكريوليون) حول هذه المستوطنات التي أصبحت فيما بعد عواصم المستعمرات والدول الحديثة . ولقد كانوا عند وصولهم فقراء قليلي الخبرة والمهارة ولكنهم قادرون على امتلاك الفرص الجديدة المتاحة فيمجال التجارة والسياسة والتي تحددت وتطورت خلال القرن التاسع عشر . واسهمت الارساليات المسيحية في هذا ، اذ انها لم تيسر فقط التعليم الذي كان وسيلة لتحقق الكثير من هذه الفرص بل وفرت ايضا القاعدة الضرورية لحياة مجتمع يتألف من عبيد تحرروا ولهم اصول عرقية متنافرة . ونجح الكثيرون من المخلطين في مجال التجارة واصبحوا اثرياء ولكن بدأ وضعهم التجاري يهتز وينحدر مع نهاية القرن التاسع عشر . وتزايدت المنافسة من جانب شركات التجارة الاجنبية الكبرى والتجار اللبنانيين بينما نزع التجار الكريوليون انفسهم الى استثمار مدخراتهم في العقارات ، واستخدموا دخلهم المنتظم من استثماراتهم الجديدة لتعليم ذرياتهم وبذا هيأوا لهم الفرصة لشغل وظائف مهنية توفر لهم إمانا اقتصاديا أفضل من التجارة . ولقي هذا التحول من جانب الكريوليين الى المهن الحرة تشجيعا وتعضيدا عندما اصبحت الوظائف الحكومية والكنسية الكبيرة امرا عسيرا على الكثيرين بعد فرض الحكم الاستعماري .

واتجه الكريوليون الى التوحد مع الجاليات الاوروبية وتمثل قيمها رغبة منهم في تمييز انفسهم عن السكان المحليين . وحاكوا في منازلهم الطراز المعماري لبيوت التجار والمبشرين البيض أو الطراز المعماري الذي عاينوه عبر الاطلنطي . والتزموا علاوة على هذا بتأثيث بيوتهم وفق الانماط الاوروبية حيث الارائك الوثيرة التنجيد والثريات من احدث طراز . أما اللباس الاوروبي فكان امرا

مالوفا ، الباقات البيضاء المجنحة والمقساة بحشو الكرينولين علامة على علو المكانة . وباءت بالفشل كل المحاولات التي استهدفت ادخال الاساليب الافريقية في اللباس الى جماعات الكريوليين . واختلفت ايضا عاداتهم في الاكل عن عادات شعوب البلاد الاصليين ، اذ اعتادوا تناول الطعام المحلي مطهوا على الطريقة الانجليزية او العـــالم الجديد . وشاعت بينهم عادة تبادل الزيارات الاجتماعية ودعوات الغداء .

وساهمت كنائس التبشير الى حد كبير في دعم عملية تبني اساليب الحياة الاوروبية .

وتأكدت الانماط المميزة للحياة الاجتماعية للكريوليين بفضل ما تم من تزاوج بين افراد الجماعة ، ونظرا لقلة عددهم كان مـــن السـهل نشوء روابط قرابة وثيقة تجمع بين ثلاث او اربعة اجيال .

ولقد كان من السـهل نسبيا خلال القرن التاسع عشر التوحد مع اسلوب الحياة الاوروبية وقيمها . وعلى الـرغم من الاعتقاد الشائع وقتذاك بين الاوروبيين بأن الافريقي انسان منحط بفطرتـــه الا أن جاليات البيض من التجار والقناصلة عاشوا وسط نخبة الكريوليين في فري تاون ولاجوس . وشاركوهم الصلاة في كنائســهم وسعوا الى الترويح عن انفسهم في النوادي التي يؤمها الافريقيون نظرا لان القليلين منهم يصطحبون معهم اسرهم . وتبادل الاوروبيون والافريقيون الزيارات لبيوت بعضهم البعض بل وكانت زياراتهـــم خلال القرن التاسع عشر اكثر منها خلال القرن العشرين .

بيد أن مجتمع الكريوليين لم يكن مجتمعا مغلقا تماما . ذلك أن الشباب من ابناء الوطن الاصليين قد يعملون في بادىء الامر موظفين مدنيين صغار ثم قد يشغلون وظائف ارقى وهنا يمكن قبولهم في دوائر الكريوليين كأنداد اجتماعيين لهم . ثم هناك اخرون مـــن الجماعات العرقية الداخلية ، والذين استقروا في العاصمة وعملوا تجارا او كتبة ، كان باستطاعتهم أن يتمثلوا في دأب انماط سلوك

الكريوليين حتى يتسنى الاعتراف بهم ضمن النخبة . ولكن اتجاه الكريوليين بوجه عام نحو السكان الاصليين هو مزاج من شعور الاحتقار والعداوة . لقد سعى الكريوليون جهدهم الى اكتساب وتمثل الكثير من انماط السلوك الاوروبي ازاء « ابن البلد فاسد الخلق » — ولا ريب أن مثل هذا الشعور يعوق تمثل ثقافة وقيم أبناء البلد الاصليين — كما عاق تقدم التعليم في الاقاليم النائية لان مثل هذا العمل لن يؤدي الا الى مزيد من الاخطار التي تهدد احتكارهم للمنزلة الاجتماعية الرفيعة في العاصمة .

وعملت هذه الجماعة المخلطة على دعم وضعها المهيمن في ليبيريا المتخلفة اقتصاديا وقد اكتسبت هذا الوضع دون ريب بسبب سيطرتها على الحكومة منذ تأسيس الدولة . بيد أن هيمنة الكريوليين في سيراليون ونيجيريا دالت لان التوسع الاقتصادي في هذين القطرين أتاح فرصا كثيرة جدا امام المتعلمين تفوق طاقة أسر الكريوليين المحدودة العدد والقائمة على الزواج الاحادي . فضلا عن انه في الوقت الذي عمد فيه الحكام الاستعماريون الى اختيار مستشاريهم الافريقيين من بين المقيمين في العاصمة فان المجالس النيابية الحديثة نشرت مقاعدها في مختلف أنحاء القطر . واضطر كثير من السياسيين في لاجوس الذين عاشوا طوال حياتهم في العاصمة الى البحث في الخمسينات عن مكان لهم في دوائرهم التي هاجر منها اجدادهم يوما ما والتي يمكن أن يركنوا اليها زاعمين أنهم ابناء بلد اصليين .

وتتمايز النخبة الباكرة في ساحل العاج عن جماعات الكريوليين من نواح عدة . فقد نشأت حول المستوطنات المحيطة بالقلاع الساحلية ، عائلات اتجه أفرادها الى احتكار الوظائف التجارية والسياسية خلال القرن التاسع عشر . وحذا هؤلاء حذو الكريوليين حين اتخذوا لانفسهم أسماء انجليزية . وتبنوا مثلهم الاسلوب الفيكتوري في الحياة . بيد ان هؤلاء ، رجالا ونساء ، ليسوا من سلالة عبيد الاجانب فقد وفد أكثرهم من جماعات محلية على

الرغم من ان بعض العائلات سليلة تزاوج بين تاجر اوروبي وامرأة محلية في اواخر القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر . وفي مثل هذه الحالات كان التاجر في غالب الامر مسئول عن تعليم ذريته المولدة وان شب الطفل بعد ان يكبر في كنف اقارب أمه .

ومن المرجح ان هذه الاسر نشأت قبل الفترات التي اخذ فيها النشاط التبشيري عنفوانه ، وكان نفوذ المسيحية عليهم ظاهرة وفدت متأخرة نسبيا . ونزع الرجال منهم الى التزوج بنساء محليات واقاموا بذلك شبكة واسعة من علاقات القرابة في ممالك فانتي Fanti الساحلية وهي العلاقات التي استثمروها جيدا للحصول على مزايا تجارية او نفوذ سياسي في هذه الممالك . ولم تتخذ نخبة ساحل الذهب موقف المناوأة والتعارض ضد المجتمع المحلي على نحو ما فعل المخلطون (الكريبوليون) بل اعتبروا انفسهم جماعة وسطا بين الاوروبيين والمجتمعات التقليدية . ولكن بدأ التزاوج فيما بينهم يزداد كثيرا بعد ان اعتنقت هذه الاسر الديانة المسيحية بمعدل أسرع من سواها ، وبعد ان اتجه ابناؤها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الى احتكار اهم المناصب واكثرها مكانة في المجتمعات المحلية . وبدأت هذه النخبة المتعلمة في تكوين شخصية متمايزة عن شخصية النخبة التقليدية المؤلفة من الملوك والشيوخ . وبينما عمدوا أحيانا الى معارضة الحكومة الاستعمارية ، فان الجماعتين الاخريين كانوا يرون في انفسهم ورثة السلطة المنافسين لهم وان على كل منهم ان يبذل اقصى طاقته لمعارضة اي صورة من صور التوسع في نفوذ الطرف الاخر .

ولم تلق هذه النخبة مصير نظيرتها المخلطة من اندثار ، ذلك لان جذورها لم تكن ممتدة في نطاق صغير داخل العاصمة بل منتشرة على مدى الممالك الساحلية . ومع هذا فان التوسع السريع للبيروقراطية في غانا كان يعني ان النخبة القديمة قادرة على توفير عدد صغير من بينها لملء نسبة صغيرة من المناصب .

والملاحظ ان نشوء نخبة متعلمة في الاقاليم الساحلية اختلف اختلافا واضحا عن نشوء النخبة في امـارات شمال نيجـيريا . فالمعروف ان السيطرة البريطانية لم تمتد على هذه المنطقة الا بعد عام ۱۹۰۱ ونظرا لرغبة هؤلاء في الحفاظ على تكامل البنية السياسية المحلية وعلى العقيدة الاسلامية التي تدعم ذلك فقد حظرت الادارة الاستعمارية على الجماعات التبشيرية مزاولة نشاطهـا التبشـيري فيها . وتميز انتشار الحركة التعليمية بالبطء النسبي وقد كانت في نيجيريا الى حد كبير ثمرة من ثمار محاولات التبشير . واقترن النشاط الدراسي وتخريج المتعلمين ، وبخاصة معاهد اعداد المعلمين بحاجات الحكومة ، وقد ظل هذا النوع من النشاط التعليمي الخاص باعداد المعلمين هو الصورة الوحيدة للتعليم بعد المرحلة الابتدائية المتاحة لشباب الهاوسا على مدى عشرات السنين . وكان المتعلمون يختارون من بين اسر شعب الفولاني الحاكم او من بـين عائـلات اخرى حتى ولو كانوا من اصول العبيد ولكن بشرط ان يكونوا وثيقي الصلة بالقصور . ووجدوا وظائف لهم لدى السلطات المحلية ذلك لان حجم وثراء هذه الوظائف وما تحققه من رواتب وسلطان لا يدانيها شيء في الحكومات المحلية في اي مكان اخر في نيجيريا . علاوة على هذا فقد داب الموظف المتعلم العامل لدى السلطات المحلية على استغلال كل الفرص المتاحة له كموظف مدني ابتغاء الوصول الى منصب تقليدي رفيع .

وافضت عوامل تاريخية وعرقية الى تباين واسع في طبيعة وشخصية فئات النخبة الاولى في الدول المتحدثة بالفرنسية شأنها شأن جيرانها المتحـدثة بالانجليزية . بيد ان النخبـة المتحدثة بالفرنسـية نشأت بوجه عام خلال فترة متأخرة ، ونحن نجد في السـنغال فقط ثلاثة اجيال من اصحاب الثقافة الغربية . ونظرا لان النظام التعليمي قائم على فكرة التمثل والاستيعاب فقد اثار في الوقت ذاته لدى الطلبة الافريقيين شعورا بالاستيـاء نظرا لان المقررات الدراسية لم تتضمن سوى النزر اليسير عن بلادهم .

كذلك فان وجود حاجز واه من التمييز اللوني ، قائم عمليا ، وان لم يكن كذلك قانونا ، بين الافريقيين والاوروبيين قد دعم المشاعر الوطنية لدى الافريقيين . ولم نجد شعورا بالتطابق مع الفرنسيين سوى في السنغال فقط حيث كان اغلب المتعلمين في السنوات الاولى مواطنين من أهل البلد وحريصين على الامتيازات التي منحتها لهم الادارة الفرنسية .

ونشأ في كل مستعمرة من المستعمرات الفرنسية فيما عدا السنغال بعد عام ١٩٤٥ حزب سياسي دعامته الشيوخ المعينون من قبل المديرين الفرنسيين أملا في أن يصلوا الى السلطة اذ كانوا في نظر الادارة الفرنسية افضل من العناصر الراديكالية . ونادرا ما كنا نجد بين هؤلاء الرؤساء من اوتي حظا وافرا من التعليم ، ولكن نظرا لندرة غيرهم ممن اتموا دراستهم الثانوية أو الجامعية فقد بات ميسورا أن يؤلفوا فيما بينهم نخبة متميزة . وواجه حزب الشيوخ في غينيا معارضة من جانب قادة النقابات بزعامة سيكوتوري .

لقد كانت غينيا من بين أكثر المستعمرات الفرنسية في غرب افريقيا تخلفا من الناحية الاقتصادية قبل عام ١٩٤٥ ولكنها بعد اكتشاف واستخراج الحديد والبوكسيت قدمت قوة عمالية صناعية كبيرة بات من اليسير نسبيا تنظيمها ولهذا توفر لديها في منتصف الخمسينات اكبر عدد من النقابيين يفوق عددهم في أي مستعمرة فرنسية أخرى فيما عدا السنغال ، ونلاحظ ان الكثيرين من اعضاء النخبة الاولى في كل من غينيا ومالي ، سواء من الشيوخ أو المتعلمين كانوا من ابناء عائلات الفولاني ، ونزعت ثقافتهم الى ابراز بعض العناصر البيوريتانية في الاسلام . بينما عمد تاريخ الفولاني الى تغذية روح الكبرياء القومي وبخاصة تاريخ اقامة امبراطورية ساموري والحاج عمر في القرن التاسع عشر . وقد أدى كل من الاسلام بنزعته التطهرية وكذلك اتحاد النقابات في

غينيا ركيزة القادة السياسيين الحاليين الى ظهور نخبة في باماكو وكوناكري لها اسلوب حياة أكثر بساطة من اي عاصمة أخرى مجاورة .

وشجعت الادارة الفرنسية في ساحل العاج الاوروبيين على زراعة البن بينما كان من بين المزارعين الافريقيين موظفون مدنيون وشيوخ . ونظرا لسياسة التمايز خلال سنوات الحروب وما بينها وهو تمايز لصالح الاوروبيين فقد اتخذت الحركة الوطنية الهجوم هدفا أوليا لها ، مما أدى الى تحالف الشيوخ مع الافريقيين ذوي الثقافة الغربية على نحو يميزهم بصورة واضحة وحادة عــن منافسيهم في المستعمرات الاخرى . ولقد كان شيوخ ساحل العاج في ضوء مصالحهم الاقتصادية اكثر استقلالا عن الادارة الفرنسية بالقياس الى غيرهم في المستعمرات الفرنسية . ونذكر ان الرئيس هوفو ــ بوانيه نفسه كان رئيس مقاطعة ومزارعا ثريا في آن واحد .

النخبــة الاوروبيــة :

لعل الاوفق والادق أن نطلق كلمة النخبــة على الاوروبيين المقيمين في المستعمرات طوال الحقبة الاستعمارية . فقد كانت في أيديهم السلطة السياسية والاقتصادية . وكانوا هم الواسطة التي لجأ اليها القادة الافريقيون الوطنيون أصحاب الثقافة الغربية لكي يقبضوا على السلطة في البلاد . بيد أن السكان الاوروبيين كانوا بمثابة المرجع والنموذج الذي ترجع اليه النخبة الافريقية وتحاكيه بما في ذلك سلوكهم الذي يحدد جزئيا رد الفعل الافريقي ازاء محاولات صبغ البلاد بالصبغة الغربية .

لقد اتجه التجار وموظفو الحكومــة الاوروبيون في القــرن التاسع عشر الى السكنى والحياة ملاصقين للافريقيين المتعلمين . ولكن بعد ان تكاثر عدد الاوروبيين سريعا ابان القرن العشرين فصلوا انفسهم في مناطق اسكان منعزلة غير مسموح للمواطن الافريقي العادي بزيارتها الا لمهمة خاصة . وظل اسلوب الحياة الاوروبيــة

سرا لا يتكشف للافريقيين الا من خلال تقارير يكتبها المستخدمون المدنيون . وكانت لمناطقهم السكنية نواديها الخاصة التي يحظر على الافريقيين دخولها صراحة أو تلميحا . ومع تزايد نسبة الزوجات والاطفال الاوروبيين المقيمين مع أزواجهم اضحت سبل الترويح تتمركز حول تبادل الزيارة بين الأسر واصدقائها، وأصبح الضابط الادارى العامل في مركز قائم في أجمه منعزله أقل ميلا الى لعب التنس مع الكتبه الاقدم منه أو أن يناقش معهم تاريخ وثقافة جماعاتهم العرقية.

ولقد كان كل الاوروبيين العاملين في الحكومة او في المؤسسات التجارية الكبرى يتمتعون بمستوى معيشة أعلى من أي مستوى كان يمكنهم الحصول عليه في بلدهم الام . وذاع الاعتقاد بأن مظاهر الابهة الاجتماعية ــ وهي البيت الكبير الفخم والسيارة ووقت الفراغ الكافي ــ التي يتمتع بها ابناء الشرائح العليا من الطبقة المتوسطة الاوروبية ــ انما تمثل عناصر جوهرية لاداء العمل بنجاح وفعالية في الاقطار الاستوائية . واعطت هذه الامتيازات صبغة التماسك والتلاحم للجماعة الاجنبية مهما كانت طبيعة الوضع البيروقراطي لاعضائها .

وكانت صورة الاوروبي عند الافريقي هي تلك الصورة التي اختارها الاوروبي لنفسه لكي يقدمها للافريقيين في المناسبات العامة ــ الصورة العامة الواعية عن المجتمع الاوروبي للطبقة الوسطى الذي يؤثر التحفظ والاحتشام والاستقامة والتلاحم الجماعي . ولم يدر الافريقي الذي لم يغادر بلاده قط ان هذه السمات ليست هي السمات النمطية المميزة للمجتمع الابيض بعامة . وتعزز وهمه هذا بفضل مختاراته من الروايات الخيالية للقراءة .

وحدث خلال العقدين الماضيين تحول هام في بنية السكان الاوروبيين في دول غرب افريقيا . اذ زاد عدد السكان زيادة كبيرة وسريعة في كل هذه الدول . وبدا أن الوافدين الجدد اكثر ارتباطا بالصناعة والتجارة عن ارتباطهم بالحكومة . وجاءوا جميعا الى

افريقيا بناء على عقود عمل لفترات قصـيرة وليس لديهم اي التزام وربما ليس لديهم الاهتمام بالاقامة في البلـد الجديد . وتزايـد عدد المهام التي تعوز الافريقيين المؤهلات اللازمة التـي تخولهم صلاحية ادائها بكفاءة وبدا ذلك واضحا بوجه خاص فـي المستعمرات الفرنسية حيث ادى تخلف التعليم هناك الى نقص في عدد الافريقيين اللازمين لشغل المناصب التنفيذية والفنيـة اللازمة . هذا على عكس المستعمرات الانجليزية حيث بدا أن عدد خريجي الجامعات يفي بالعدد اللازم لأفرقـة كل الوظائف ذات الطبيعة الادارية . وهكذا فبينما كان الوافدون الاوروبيون الجدد اقل تشبعا بالعواطف الابوية التي كانت لدى سابقيهم اذا بهـم يستشعرون تهديدا اقتصاديا متزايدا ذلك لانهم هم واسرهم كانوا لا يزالون يتمتعون بالامتيازات كفئة متميزة ، فضلا عن ميزة مستوى المعيشة المرتفع نسبيا .

التعليـم والحركية الاجتماعية :

على الرغم من تعريف الفئات الاولى للنخبة في غرب افريقيا بأنهم من تلقوا قسطا من التعليم الغربي الا انهـم تباينـوا تباينا واسعا من حيث مستويات التعليم الذي تم تحصيله والمهنة التي شغلوها . فمع نمو الجهاز الحكومي والخدمات التي يقدمها وما ترتب على ذلك من اتسـاع نطـاق عناصر النخبـة زادت اهمية التأهيل التعليمي كمدخل للنخبة . وتوجد اليوم مناصب قليلة نسبية لا يشترط أصحاب الاعمال لشغلهـا مستويات محددة للتحصيل التعليمي — شهادة اتمام الدراسة الابتدائية وشهـادة اتمام مدرسة غرب افريقيا والتخرج في الجامعة . ونحن نلمس ذيوع مثل هذا الوضع في اكثر البلدان الصناعية ، الا ان غرب افريقيا على خلاف هذه البلدان تفتقر الى صناعة خاصة واسعـة وتجارة نشطة ولهذا فان مثل هذه المعايير ليس لها نفس الثقل . ومن ثم فان النظام التعليمي هو الذي يحدد الانخراط في النخبة وما يستتبع ذلك من تحديد لخصائص وشخصية هذه الجماعة .

ولا ريب في ان نسب التلاميذ الذين يتمون المرحلة الابتدائية وينتقلون منها الى المدارس الثانوية ومن بعدها الى المعاهد العليا كانت نسبا ضئيلة . ولا ننسى ان اعداد الاطفال االمقيدين بالمدارس الابتدائية تعطي انطباعا زائفا ، لأن أكثرهم في الصفوف الدنيا وقليلون منهم يكمل التعليم حتى يصل الى الصفوف النهائية . مثال ذلك ان عدد التلاميذ المقيدين بالمدارس الابتدائية في غينيا عام ١٩٥٧ بلغ ٣٧٠٠٠ تلميذا ، وبلغ عدد الناجحين في الصفين الاول والثاني للبكالوريا خمس عشرة فقط في كل صف . ويقدر عدد تلاميذ المرحلة الابتدائية في ساحل العاج الغني بما يعادل خمس عشر مثلا لعدد تلاميذ كل انواع المعاهد التالية للمرحلة الابتدائية . واذا كان اقليم غرب نيجيريا يضم اعلى نسبة من التلاميذ المقيدين بالمرحلة الابتدائية عام ١٩٦٠ هم الذين التحقوا مع مطلع عام ١٩٦١ بالصف الاول بمدارس اللغات الثانوية . واصبح بهذا السبب من اليسير على من يكمل تعليمه بالثانوي ان يلتحق بأحد المعاهد العليا .

ويتم الالتحاق بالمدارس الثانوية ، وكذلك الالتحاق باحدى الجامعات الافريقية المحلية بناء على امتحان مسابقة . ومن العسير تماما على التلميذ شديد الغباء ، مهما كانت درجة ثراء أبويه أو نفوذهما أن يستمر طويلا في مثل هذا النظام على الرغم من توفر قدر من المحسوبية والفساد ، ولكن ما هو اكبر هو العقبات المالية في طريق التلميذ النابه سليل أبوين فقيرين .

واصبح التعليم الابتدائي الان في بعض الدول المتحدثة بالانجليزية تعليما مجانيا او هو كذلك على وجه التقريب . والغت جنوب نيجيريا مصروفات المدارس الابتدائية وهيأت مدارس لكل الاطفال من سن السادسة حتى الثانية عشرة (وان لم تجعله اجباريا) ولكن لا يزال على الاباء توفير بعض الادوات الدراسية لابنائهم مثل الكتب والريشة والحبر والملابس المدرسية وقد تعوقهم تكاليفها عن الاستمرار في ارسال ابنائهم الى المدارس .

كذلك تقدم الحكومات اعانات ضخمة مساهمة منها في تحمل تكاليف التعليم الجامعي . والمعروف ان مصروفات الجامعة في نيجيريا تتراوح ما بين ١٥٠ و ٢٠٠ جنيها استرلينيا للتعليم والداخلية في العام الواحد (وهو ما يعادل ثمن التكلفة الاجمالية) ولكن من يتعلمون في جامعات انجليزية يتحملون ضعف هذا المبلغ . وكثيرا ما نادى المتخصصون بضرورة جعل التعليم الثانوي والجامعي مجانا . ولكن الرد عادة بحجج مضادة تقول ان من يتم تعليمه بنجاح بالمرحلة الثانوية أو الجامعية يتقاضى راتبا كبيرا يستوجب أن تسهم عائلته (التي سيرد لها فيما بعد جزاء جهودها معه) ولو بجزء يسير من تكاليف التعليم .

ولقد استطاع كثير من التلاميذ الفقراء ان يحصلوا على قسط وافر من التعليم بفضل التعليم الرسمي وموقف مديري المدارس الذين يتساهلون ويتغاضون عن دفع المصروفات اذا كان التلميذ ذكيا نابها ولكنه فقير معوز . بيد أن برامج المساعدة على هذا النحو لا تتزايد بمعدل سرعة انتشار التعليم . ففي خلال اعوام قليلة جدا خلال الخمسينات انخفضت نسبة طلاب جامعة ايبادان الذين يتلقون منحا دراسية من ثمانين بالمائة الى أربعين بالمائة أو بعبارة اخرى ان اكثر من نصف اماكن الجامعة ذهبت مع نهاية العقد الى القادرين على سداد المصروفات .

معنى هذا ان اعانة التعليم لا تيسر لابناء الفقراء تلقي تعليما عاليا ، بينما تعفي في الوقت ذاته ابناء المدرسين من دفع كل تكلفة التعليم . علاوة على هذا فان القسط الاكبر من الفوائد والمغانم التي يحصل عليها هؤلاء في شكل رواتب انما يعود ثانية الى ذويهم وهو ما يزيد على ما تتلقاه الحكومة كضريبة لتمويل مشروعات تعليمية جديدة .

اننا لن نجد نظاما تعليميا قائما على المساواة بحيث يتغلب على مظاهر التفاوت في البيئة المحلية ويوفر فرصا متكافئة لكل الطبقات الاجتماعية . ويبدو من المحتمل ان قانون التعليم في

بريطانيا الصادر عام ١٩٤٤ والذي نص على مجانية التعليم الثانوي لم يؤد الى ارتفاع كبير في نسبة ابناء الطبقة العاملة الذين التحقوا بالمدارس الثانوية على الرغم من ان عددا اكبر من المعتاد تمكنوا من الالتحاق بالجامعات . وطبيعـي ان الفـوارق في بيئات اسر اطفال المدارس الابتدائية في غرب افريقيا فوارق كبيرة ومتباينة جدا . هذا فضلا عن ان كـل مزايا التفـوق ميسرة لسليل بيت النخبة عند دخوله امتحان المدرسة الثانوية ذلك لانه شب في كنف ابوين يجيدان الانجليزية ولديه الكثير من الكتب للقراءة واللعب للتسلية ، ناهيك عن تلقي دروسا خاصة يحشو بها رأسه استعدادا للامتحان . اما الطفل سليل الاحياء الفقيرة المكتظة والمحرومة من النور الكهربائي ويقضي لياليه في اداء اعمال منزلية خفيفة او في اللعب ، مثل هذا الطفل يجد في حياته الكثير من المعوقات .

ويمكن توضيح الاراء التي اسلفناهـا عن طريق عدد مـن البيانات المستقاة من امثلة لتلاميذ بعض المدارس الثانوية في غانا وساحل العاج . واذا اخذنا نسبة آباء تلاميذ المدارس الثانوية في فئات تعليمية ومهنية مختلفة ثم قارناها بنسب هذه الفئات ذاتها في مجموع السكان فاننا نستطيع أن نستخرج مؤشرا او دليـل الاختيار . ويبين لنا هذا الدليل الفرص المتاحة لابناء الاباء مـن هذه الفئات للالتحاق بالتعليم الثانوي*.

المستوى التعليمي للاباء	دليل الاختيار : غانا
لا شـيء	٤ر.
ابتدائـي ١ ـ ٦	٥ر١
ثانـوي ١ ـ ٦	٩ر٦
معهد اعداد معلمين	٤ر١٠
الجامعة وما في مستواها	٠ر١٣

* دليل الاختيار = النسبة المئوية لتلاميذ يتصف آباؤهم بسمات محددة / النسبة المئوية لكل البالغين ممن لهم هذه السمات

مهن الاباء	دليل الاختيار غانا	ساحل العاج
اعمال مهنية وفني عالي واداري	٩ر٤	٧ر٢٥
كتبة ومعلمون		٩ر٥
تجار ورجال اعمال	٩ر٢	١ر٢
عمال فنيين وحرفيين	١ر١	٤ر٣
عمال نصف مهرة	١ر٠	٢ر٠
فلاحون	٦ر٠	٨ر٠

وهكذا فان ابن خريج الجامعة في غانا تفوق فرصته للالتحاق بالمدرسة الثانوية ثماني مرات فرصة ابن من اكمل تعليمه الابتدائي فحسب . وتكشف الارقام الخاصة بالتحاق الفتيات بالتعليم الثانوي عن قدر اكبر من الانحياز لصالح الاباء المتعلمين . وتبين ارقام ساحل العاج ان الانحياز فيها لصالح الفئات المهنية يفوق نظيره في غانا .

وتؤكد الارقام السالفة على المزايا التي يتمتع بها الاباء في اسر النخبة من حيث حصولهم على مستوى تعليمي جيد لابنائهم، ولكنها تحاول اخفاء حقيقة واقعة وهي أن نسبة عالية من تلاميذ المدارس الثانوية وطلاب الجامعة اليوم هم ابناء بيوت متواضعة . لقد انتشر التعليم بسرعة كبيرة بحيث ان مئات النخبة الباكرة عجزت عن شغل كل الاماكن الجديدة المتاحة . وهذا هو السبب في ان اكثر من ثلث عينة تلاميذ الثانوي في غانا التي اسلفنا ذكرها هم ابناء فلاحين ، والثلث الثاني يعمل آباؤهم بمهن خاصة وما شابه ذلك ، والربع يعمل آباؤهم بالتجارة أو عمالا فنيين (هذا على الرغم من أن ما يقرب من ثلثي البالغين من ابناء غينيا يعملون فلاحين ، و ١٦

بالمائة تجارا او عمالا فنيين و ٧ بالمائة فقط مهنيين) . واوضحت دراسة احصائية عن غانا في اوائل الخمسينات ان ٢٦ بالمائة من طلبة الجامعة آباؤهم اما اميون أو على حظ يسير جدا من التعليم مقابل ٣٠ بالمائة اتم آباؤهم المرحلة الثانوية أو التعليم العالي ، كذلك ٢٦ بالمائة ابناء فلاحين او صيادين و ٢٣ بالمائة ابناء مهنيين وبالمثل فان ثلثي تلاميذ الثانوي في عينة ساحل العاج آباؤهم أميون.

نخلص من هذا الى أن ابناء النخبة الحالية في غرب افريقيا وكذلك من سيصبحون من ابنائها خلال السنوات العشر القادمة لا يزالون في الاساس من ابناء البيوت المتواضعة . وعلى الرغم من أن ابناء النخبة في المراحل الباكرة كانوا قادرين على أن يكفلوا لاطفالهم وضعا اجتماعيا متميزا بالمقارنة بغيرهم الا انهم اضحوا اقلية بعد الوافدين الجدد من ابناء عامة الجماهير .

واذا كان التعليم غير موزع بالتساوي بين ابناء الفئات الاجتماعية ـ الاقتصادية المتباينة كذلك تتفاوت نسب المتعلمين من ابناء الجماعات العرقية ونجد جماعات حظها دون سواها ، مثال ذلك ان الجماعات التي تعيش قرب الساحل والتي ارتضت المدارس التبشيرية وما تقدمه لهم من تعليم في المرحلة الباكرة للاستعمار قد عمدوا الى ضمان استمرار تفوقهم في هذا المجال . ونظرا لازدياد عدد المتعلمين من ابنائهم فقد أصبحوا في وضع يسمح لهم بما يشبه احتكار ارفع الوظائف مكانة على حساب الجماعات العرقية الاخرى التي تطور التعليم ببطء بين ابنائها . وطبيعي ان مثل هذه الفوارق تعمل على تفاقم الغيرة والمنافسة بين الجماعات العرقية .

النخبة اليوم :

اذا كان لزاما علينا ان نؤكد الزيادة السريعة في حجم النخبة المتعلمة ذات الثقافة الغربية وظهورها من بين كل قطاعات السكان المختلفة الا أن الحقيقة التي يجب الا تغيب عن بالنا هي أن عددها

لا يزال صغيرا جدا . وتقدم دول غرب افريقيا العديد من الاحصائيات المتباينة ، ولا يمكن للاسف مقارنتها ببعضها ، ولكنها تصور لنا حجم هذه الفئة وتكوينها .

يبين احصاء غانا عام ١٩٦٠ ان اجمالي عدد العاملين من النساء والرجال في الوظائف المهنية والفنية وما شابهها ستين الفا - من بينهم ٢٧٠٠٠ معام ، وخمسة الاف ممرضة وقابلة . ولكن ليس كل الستين الفا من المتعلمين ذوي الثقافة الغربية ذلك لان هذه الفئة تضم خمسة الاف طبيب محلي (متخصص في الطب الافريقي التقليدي) و ٢٧٠٠ قسيسا للديانات التقليدية . وليسوا كلهم افريقيين ذلك لان هذه الارقام تتضمن غير الافريقيين العاملين في المجالات الادارية والتنفيذية وما الى ذلك (ويبلغ عددهم حوالي ١٢٠٠٠) . ويعمل ١٣٠٠٠ شخص فقط في الوظائف الادارية والتنفيذية من بينهم ٥٠٠٠ مدير - وهي فئة تضم قرابة ٣٠٠ ممثل و ٨٠٠ شيخ و ٩٠٠ موظف اداري حكومي و ٣٠٠٠ موظف تنفيذي . وتمثل هاتان الفئتان - المهنية ... الخ والادارية ... الخ - ٤ بالمائة فقط من جملة السكان الذكور .

ويبين لنا الاحصاء ذاته ايضا الخلفية التعليمية لسكان غانا : ٢٨٠٠٠ نسمة (من جملة السكان وعددهم ٦٧٠٠٠٠٠) اكملوا المدرسة المتوسطة ، ٢٥٠٠٠ اتموا التعليم الثانوي ، و ١٦٥٠٠٠ درسوا مقررات تجارية او تكنيكية او اعداد معلمين و ٣٧٦٠ حصلوا على درجات جامعية*.

وليس من الميسور الحصول على ارقام احصائية مماثلة من الدول الاخرى ولكن يمكن تكوين انطباع عام عن حجم النخبة من حاصل نشاط المؤسسات التعليمية . فقد بلغ عدد خريجي

---

* أنظر هامش احصائيات التعليم في غانا ونيجريا [المترجم]

الجامعة في نيجيريا في مطلع العشرينات ثلاثين خريجا فحسب ـ من بينهم خمس عشرة محاميا واثنى عشرة طبيبا وجلهم من الكريوليين في لاجوس . وزاد العدد في اوائل الخمسينات الى ١٥٠ محاميا و ١٦٠ طبيبا . واصبح عدد المحامين في أوائل الستينات ٢٠٠٠ محام أو يزيد . وفي عام ١٩٤٥ كان لنيجيريا قرابة ١٦٠ طالبا يدرسون في بريطانيا ، ثلثاهم في الجامعات . وتجاوز هذا الرقم في مطلع الستينات ٥٠٠٠ طالبا من بينهم ما يقرب من ١٠٠٠ جامعي (وينبغي أن نضيف الى هذا الرقم ٥٠٠٠ طالبا بجامعات نيجيريا وجامعات الولايات المتحدة الامريكية) . وفي عام ١٩٣٣ بلغ عدد الحاصلين على شهادة اتمام الدراسة بمدرسة كيمبريدج العليا Senior Cambridge School تسعة عشر فقط ، زاد في اواخر الخمسينات الى ٢٥٠٠ ، ونلاحظ مرة اخرى أن اكثرهم من أبناء الاقاليم الجنوبية . وجدير بالذكر ان نسبة عدد الناجحين بالقياس الى عدد سكان الاقاليم الجنوبية في نيجيريا يعادل عشرين مثلا لعدد الناجحين في غينيا خلال الفترة ذاتها ، ولكنها ايضا اقل بعشرين مرة من انجلترا وويلز . ويقدر عدد الطلاب من أبناء ساحل العاج الذين كانوا عام ١٩٥٧ يدرسون في فرنسا بحوالي ٥٠٠ طالبا وزاد الى ثلاثة امثاله عام ١٩٦٠ بيد ان خريجي مدارسها الثانوية ظل عددهم قليلا ، ففي عام ١٩٥٧ لم ينجح في القسم الاول من شهادة البكالوريا سوى ٦٣ طالبا وفي القسم الثاني ٤٥ طالبا وكان اكثرهم من الفرنسيين المقيمين في البلاد *. والتحق جل الناجحين من ابناء ساحل العاج بالجامعة . ونظرا للتوسع في التعليم الابتدائي والثانوي والجامعة في كل الدول ـ والذي تم في آن واحد خلال الخمسينات فقد ادى هذا الى ارتفاع نسبة الطلاب المنقولين من مستوى الى المستوى التالي ، ثم ادى اخيرا الى التنافس على دخول الجامعة والذي ينبىء بأن يكون تنافسا قاسيا .

* ساحل العاج (١٩٦٥)، ابتدائى: ٤٢٥٢٥١، ثانوى ٢٨٥٤١، فنى: ٢٧٠٤، جامعة: ١٩٣٨ (المترجم) (Statesman's Year Book, 1975)

وتشير كل هذه الاحصائيات الى اتجاه واحد وهو ان النخبة ذات التعليم الغربي لا تزال صغيرة الى اقصى حد (وسوف يتضح لنا فيما بعد أن هذا عامل هام جدا في تحديد خصائصها الاجتماعية) وتشير ايضا الى ان النخبة كلها من الشباب . وعلى الرغم مما تثيره هذه الارقام من دهشة الا ان ثمة حقيقة تخففها وهي أن الثقل الاكبر للشباب في تعداد السكان حيث اغلب السكان في سن الشباب نتيجة انخفاض نسبة الوفيات بين الاطفال خلال العقدين او الثلاثة الاخيرة . ومع هذا فان النخبة تتألف اساسا من الشباب ولا يزالون في مقتبل حياتهم العملية تحدوهم الامال العريضة ويخططون للتقدم مستقبلا .

وسبق ان راينا أن نصف الاجراء في دول غرب افريقيا يعملون في القطاع العام وان هيمنة القطاع العام تبدو اكثر وضوحا في توظيف النخبة . مثال ذلك ان من بين الستين الف مهني في غانا يعمل ١٠٥٠٠ شخص فقط في اعمال حرة ويضم هذا العدد قرابة ٨٠٠٠ طبيب من ابناء البلد المحليين ورجال الدين حيث لا يبقى من هذه الفئة سوى الفي شخص من ذوي الثقافة الغربية ، ويعمل ٤٠٠٠ ـ أي ثلثي اجمالي العدد في القطاع العام والثمانية آلاف الباقية في القطاع الخاص . ونجد من بين ١٣٠٠٠ شخص يعملون بالادارة وما شابهها ٣٢٠٠ شخص فقط يعملون اعمالا حرة ، و ٦١٠٠ في القطاع العام و ٣٧٠٠ في القطاع الخاص . بعبارة اخرى فان الغالبية العظمى من خيرة ابناء غانا المتعلمين ومن نتوقع ان يكون لهم تأثير قوي على سياسة الحكومة ، يعملون هم انفسهم موظفين لدى الحكومة ذاتها . وحين تبدو بنية الدولة الحديثة في غرب افريقيا بنية هشة فان هؤلاء الموظفين المدنيين بالقطاع العام هم اول من يفزعون خوفا على مراكزهم الحكومية .

وتعتبر النخبة العسكرية ـ ضباط الفرق في الجيوش الناشئة احدث فئات النخبة ونذكر على سبيل المثال ان كلا من نيجيريا وغانا جندت عام ١٩٦٦ جيشا قوامه ٨٠٠٠ رجل يضم

قرابة ٣٠٠ ضابطا . وتم تشكيل هذين الجيشين الوطنيين من الكتائب العسكرية المحلية لقوات الحدود الملكية لغرب افريقيا ، ثم بدأت افرقتهما مؤخرا . وتشكل الجيش الغيني اثناء الحرب العالمية الثانية ثم انضم الى القوات المسلحة الاجنبية ، وبدأ الضباط الحاليون بالجيش الغيني تقلد سلطاتهم العسكرية ابتداء من عام ١٩٥٠ وما بعدها ، وتوقف الضباط البريطانيون ابتداء من عام ١٩٦١ عن تولي مناصب تنفيذية . وكان أقل من ثلث ضباط جيش نيجيريا حتى هذا التاريخ من ابناء البلد الاصليين (وثلاثة ارباع هؤلاء من شعب الابو) ولكن ما أن حل عام ١٩٦٦ حتى تمت افرقة جيش نيجيريا كاملا .

وخدمت اعداد كبيرة من الافريقيين سكان المستعمرات الفرنسية في وحدات الجيش الفرنسي ـ اذ قدمت غينيا وحدها ٢٢٠٠٠ رجلا عام ١٩٥٨ ـ كما تمركزت في غرب افريقيا وحدات من الجيش الفرنسي تضم نسبا كبيرة من الاوروبيين وتشكلت الجيوش القومية بعد عام ١٩٥٨ ولكن دون أن تفيد كثيرا من الجنود المسرحين من الوحدات الفرنسية . وتزايد عدد جيش غينيا الذي تكون داخل الحزب الغيني الديمقراطي ، وبلغ ٤٨٠٠ رجلا عام ١٩٦٤ . وكان جيش السنغال اصغر حجما اذ لم يتجاوز ٢٥٠٠ رجلا ولكن ظل خمسة آلاف جندي من القوات الفرنسية متمركزين في داكار عام ١٩٦٤ (وانخفض هذا العدد الى ٢٥٠٠ رجل عام ١٩٦٥) *

---

* احصاءات عام ١٩٧٤ عن القوات الحربية في دول غرب افريقيا المذكورة هي كالآتي

	قوات بريه	قوات بحريه	قوات جوية
غانا	١٨٫٠٠٠	١٫٣٠٠	١٦٠٠
نيجريا	٢٠٠٫٠٠٠	٢٫٨٦٠	لم يذكر المرجع عدد القوات الجوية واكتفي بعدد طائرات السلاح الجوي
غينيا	٥٫٠٠٠	ـ	٨٠٠
سنغال	٥٫٥٠٠	ـ	٢٠٠

ويشكل المحامون ، من بين النخبة ذات المهن الحرة ، اكبر فئة . ويدخل عدد قليل من المهندسين والمحاسبين وما شابه ذلك من المهن ضمن المهن الحرة ، ولكن الاغلبية حتى في هذه المهن ، يعملون لدى المؤسسات الخاصة . وجدير بالذكر ان الروائيين النيجيريين لا يعيشون على الكتابة وحدها — فأكثرهم موظفون مدنيون كبار . ويمثل الطب بالنسبة لابناء النخبة في اوائل القرن الحالي مهنة تضفى على صاحبها في هذه البلاد مكانة كبيرة واستقلالا ذاتيا عن الحكومة الاستعمارية . ولكن اكثر الاطباء يعملون اليوم في مستشفيات حكومية او معانة من قبل الحكومة .

وتتجه القلة من خريجي المدارس والجامعات الى العمل في التجارة والصناعة . ذلك ان جلهم تلقوا تعليما اكاديميا خالصا وليست لديهم سوى خبرة او مهارة تكنولوجية ضئيلة جدا . هذا فضلا عن انهم لا يملكون راس مال خاص بهم يستثمرونه ، وعائلاتهم لا تملك المزيد لتنفقه عليهم حيث لديهم اطفال آخرون بحاجة الى الرعاية . هذا فضلا عن ان الجزاء المادي المباشر المتمثل في راتب فوري للوظيفة يعتبر عامل اغراء اقوى من اي ارباح تعود ببطء على المرء . ولا ريب في ان الكثيرين من الافريقيين المتعلمين يملكون مهارات محلية خاصة باعمال المقاولات ولكن الشروع في اعمال مثل التجارة والنقل وما شابه ذلك ينطوي على مخاطر اكبر ومنافسة اشد واقسى . وترفض البنوك منح قروض لمثل هذه المشروعات خاصة اذا كان المقترض لا يملك الضمانات الكافية ، ولكن من ناحية اخرى فان ابناء العائلات الكبرى القادرين على توفير راس المال الكافي يمكنهم التطلع الى نصيب كبير من الارباح مقابل حصتهم ومن ثم لا يبقى غير قسط صغير من راس المال لاستثماره من جديد وهو امر يعوق نمو المشروع .

ولكن دخل افريقيون كثيرون عالم التجارة كموظفين لدى الشركات التجارية الاجنبية الكبرى . وقد يترقى بعضهم ليصبح مدير مقاطعة لتجارة الجملة الخارجية ، او مديرا لشئون العاملين

او الاستعلامات والاعلان والدعاية . ونادرا ما يشغلون وظائف مسئولة عن رسم السياسة الاقتصادية للمؤسسة . وثمة انجاهات في المؤسسات الصناعية الحديثة لخلق منافسة شديدة من اجل الحصول على الفنيين الممتازين والصالحين لايفادهم في بعثات الى المصانع فيما وراء البحار لتدريبهم على الوظائف الاشرافية .

ونلاحظ ان عددا قليلا من ابناء غرب افريقيا ذوي الثقافة الغربية قد تولوا مناصب في القطاع التقليدي دون القطاع الحديث وبخاصة في المستعمرات البريطانية السابقة حيث يشغلون مراكز سياسية تقليدية . ويوجد لكل من نيجيريا وغانا محام يشغل منصب الاوبا والاوهن فيهما ، كما وإن الكثيرين من الحكام التقليديين الاخرين كانوا يعملون قبلا كتبة أو معلمين . بل ان عدد المثقفين يتزايد الان اكثر فأكثر بين امراء نيجيريا الشمالية ونخطىء اذا تخيلنا ان هذه الوظائف التقليدية التي يشغلها شيوخ اميون تشكل حاجزا صلدا أو معاديا للكفر الغربي الاوروبي ذلك أن المتعلمين منهم يشكلون جسرا له شأن كبير يصل ما بين المجتمعات المحلية وبين الدولة الحديثة .

وكما أسلفنا فان هناك سلمين للرواتب في المستعمرات السابقة ــ سلم وضع خصيصا للموظفين الافريقيين على اساس دخل الفلاح ، وسلم للموظفين الاجانب ويوازي رواتب الدولة الاستعمارية . حقا لقد كان التمايز في جزاء العمل احد المصادر الاساسية للشكوى من جانب ابناء النخبة الافريقية الجديدة المتعلمة ، ومن ثم كان حتما ان يدخل هؤلاء الذين شغلوا فيما بعد مناصب رفيعة في الدولة سلم رواتب الموظفين الاجانب ويتمتعون بنفس مزاياهم . ولهذا يبدأ خريج الجامعة في نيجيريا براتب سنوي يزيد على ٧٠٠ جنيها استرلينيا واذا شغل وظيفة سكرتير دائم في احدى الوزارات فانه يحصل على راتب يتراوح ما بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ جنيها استرلينيا . وخصصت حكومة

نيجيريا علاوة غربة ـ سميت فيما بعد حافز غربة ـ تمنحه للعاملين الاجانب وتصل هذه العلاوة الى ثلث الراتب الاساسي . ولكن جامعة غانا طبقت سلم رواتب متمايزة،كذلك في نيجيريا هبط سلم رواتب الاجانب دون نظيره في بريطانيا وتعوض الحكومة البريطانية فارق الراتب لمواطنيها .

وورث كبار الموظفين الافريقيين عن اسلافهم الاجانب امتيازات وظائفهم ، فانتقل ارفعهم منصبا الى القصور الفارهة في مساكن الحكومة مقابل ايجار لا يتجاوز ٨ر٥ بالمائة من الراتب الشهري (وشيد اكثرهم مساكن خاصة بقروض من مؤسسات الحكومة وينتفعون بها تجاريا اذ يتقاضون عنها قيمة ايجارية تفوق النسبة المحددة مرات ومرات) . وبدا تطبيق شروط المعاش الخاصة بالاجانب على الافريقيين ايضا .

وتشعر الحكومات المعنية وكذلك المواطنون بعامة ان هذه العلاوات الممنوحة للوظيفة العامة (والتي يشارك فيها كذلك العاملون في القطاع الخاص نظرا لان الشركات تنافس بشدة الحكومات بغية الاستئثار بالموظفين الفنيين المهرة) ينبغي خفضها بنسبة كبيرة جدا . وتمت خلال السنوات القليلة الماضية محاولات استهدفت خفضها نسبيا . ولكن التحليل النهائي يكشف عن ضيق اصحاب الامتيازات بمثل هذه المحاولات وسعيهم لاجهاضها ؛ كذلك فان الوافدين الجدد الى ميدان الخدمة العامة لا يرغبون في حرمان انفسهم من حق الاستمتاع بالامتيازات التي يتمتع بها رؤساؤهم .

وانتهجت كل المستعمرات السابقة في غرب افريقيا سياسة افرقة الوظائف العامة ولكن بدرجات متفاوتة من حيث الحماس لها . ولم يقتصر الامر على احلال الافريقيين محل الاجانب في الوظائف القائمة بل اتجهت الحكومات الى قصر الكثير من المناصب الجديدة على الرجال والنساء المحليين . واستطاعت المؤسسات

التعليميــة في غانــا ونيجيريا فقط دون سواهما أن تفي بحاجة حكومتيهما في هذا الشأن بأي مقياس من مقاييس النجاح .

والملاحظ في الدول المتحدثة باللغة الفرنسية ان الجهــود التي استهدفت سحب المتعلمين لشغل الوظائف الحكومية لــم تَفِ بتهيئة الاعداد الكافية والمؤهلة لهذه الوظــائف ـ فلا يـــزال الفرنسيون يشغلون الكثير من المناصب الرئيسية ـ بل انها ادت الى استنزاف المدارس الثانوية وتفريغها من معلميها الافريقيين .

وحققت سياسة افرقة الوظائف ترقيا سريعا لكل من واتتهم الظروف فكانوا من أوائل من وضعوا اقدامهم على السلم . وكان أول الوزراء في نيجيريا الغربية الذين عينوا في مناصبهم عام ١٩٥٩ لم تمض عليهم في الخدمة سوى عشر سنوات هي أقدميتهم فــي سام الادارة . كذلك فان الرعيل الاول من الاساتذة النيجيريين في جامعة ابادان شغلوا منصب استاذ مادة بكرسي بينما لم يمض على حصولهم على درجة الدكتوراه او تعيينهم سوى فترة وجيزة ما بين خمس وعشر سنوات وكان التعيين في هذه المراتب العليــا يرتكز فيما يبدو على السن اساسا . وطبيعي أن فرص الترقي بالنسبة لمن جاءوا الى الخدمة المدنية بعدهم ستكون اقل سرعة . ويشعر الجدد اليوم بمخاطر ركود حركة الترقي خاصة بعد اتساع الخدمات المدنية الى اقصى القــدرات الاقتصادية للحكومات . ولهذا فان الاقتراحات التي تنادي في نيجيريا بضرورة رفع ســن الاحالة الجبرية الى المعاش في مجال الخدمات المدنية مــن ٥٥ (وهو السن المطبق على الموظفين الاجانب العاملين في مجال الخدمة الاستعمارية) الى سن الستين تواجه معارضة من جانب شباب الموظفين لان هذا من شأنه ان يعرض طموحاتهم في الترقي لخطر شديد . ويزعم خبراء القوى أن نيجيريا لا تزال تعاني عجزا شديدا في الايدي العاملة الماهرة ، هذا بينما تجد من ناحية اخرى ان خريجي الجامعات من دارسي الاداب والفنون والعلوم الاجتماعية يزيدون عن الحاجة حتى انهم يواجهون مشقة في الحصول علــى

وظيفة وهو امر يتفاقم باطراد . وبعد ان كانت الحكومات من قبل توفر وظيفة لكل خريجي الجامعة تلقائيا ، اصبحت تعقد لهم امتحانات مسابقة لاختيار القلة المتميزة .

ولا ريب في ان التطلع الى الترقي السريع مع الندرة المتزايدة في الوظائف سيخلقان معا لدى النخبة درجة عالية من التنافس وعدم الاحساس بالامن . فقد يشعر من بلغوا القمة بقصورهم عن الوفاء بمهام مناصبهم وتهديد من دونهم لانهم اكفأ منهم وافضل تأهيلا . وهؤلاء بدورهم سوف يزداد شعورهم بالسخط للحواجز التي تحول دون ترقيهم والمتمثلة في كبار السن « من ساعدهم الزمن » وباتت لهم الاقدمية في الوظيفة بفضل زيادة عمرهم عاما أو عامين او دخولهم الخدمة مبكرا .

اساليب الحياة :

ان الفوارق الضخمة في الرواتب بين الشاب خريج الجامعة الذي يتقاضى ٧٥٠ جنيها استرلينيا في السنة وخريج المدارس الثانوية الذي يتقاضى ٢٥٠ جنيها استرلينيا والعامل غير الماهر الذي يتقاضى راتبا سنويا ٧٥ جنيها ، هذه الفوارق تنعكس دون شك في اسلوب الحياة المتميز جدا والذي تتمتع به النخبة . ويعتبر هذا الاسلوب غريبا في جوهره .

لقد انتقل كثيرون من ابناء النخبة الى بيوت حكومية كان يشغلها الاجانب المدنيون قبلهم وقد صممت خصيصا لهم . وتضم بعض هذه البيوت حجرتين فقط للنوم اعتقادا من مصمميها أن شاغلها قد يصحب معه زوجته لبعض الوقت خلال جولته وربما لا يصحب اطفاله او نادرا ما يحضرون معه ، وطبيعي ان مثل هذا الطراز من المباني لا يلائم الافريقيين المكثرين في انجابهم للاطفال . وتفرض هذه المباني على شاغليها أن يظلوا في حدود الاسرة الصغيرة النواة . ولكن الكثيرين في واقع الامر يحلو لهم استخدام هذه المنازل ذريعة للابتعاد عن المتطفلين من اقاربهم . بيد ان هذه الاسر

تميل الى استخدام عدد كبير من الخدم وقد يكون بعضهم من الاقارب صغار السن الذين يقبلون العمل في خدمتهم مقابل الطعام المجاني ودفع مصروفات الدراسة ، واذا كانت الزوجة موظفة فانه يصبح من الضروري استخدام مربية للاطفال ، واذا كان كلا الزوجين بحاجة الى السيارة الوحيدة لنقلهم الى مراكز عملهم فانه يتعين عليهم حينئذ استخدام سائق للسيارة . وتحتاج الاسرة الى بستاني لرعاية الارض الفضاء المحيطة بالمنزل ـ اذ ان عددا قليلا جدا من الافريقيين تعلم منذ صباه الاهتمام بزراعة الازهار ، وايثار الراحة على العمل اليدوي ، وهي نظرة تقليدية ، ليكون شأنه شأن كبار القوم ممن يأنفون العمل بأيديهم .

وتتماثل بيوت النخبة من حيث طراز التأثيث . فالبيوت المملوكة للحكومة والمؤسسات العامة مجهزة بأثاث محدود الانماط فضلا عن ان مجال الاثاث بالمدينة لا تملك غير انواع قليلة . وفي مثل هذه الحالة تعكس فوارق الاسلوب الثراء اكثر مما تعكس ذوق صاحبها . وتملك العائلات الثرية عادة سيارة كبيرة وجهاز راديو او جهاز تلفزيون ضخم . وتساعد مثل هذه الممتلكات على تقدير دخل صاحبها . ونلاحظ بين النخبة الافريقية اهتماما كبيرا ببعض المظاهر الصغيرة الدالة على سلم الرواتب والامتيازات اكثر مما هو حادث في المجتمعات التي يكون فيها الاصدقاء المقربين والجيران ليسوا من العاملين في المؤسسة ذاتها حيث يتنافسون فيما بينهم من اجل الترقي في سلم الوظائف .

ونلاحظ ايضا ان التماثل في الوظيفة والمدى المحدود لاساليب المعيشة يسهمان معا في التلاحم بين ابناء النخبة . وقد تدعم هذا التلاحم اكثر واكثر بفضل انماط الصداقة الوثيقة التي تجمع بين اعضاء النخبة في شبكة واحدة . واجريت في غرب افريقيا دراسة بسيطة ومحددة عن شبكات العلاقات الاجتماعية ولكن ثمة مشروع دراسي محدد المدى تم في ابادان عام ١٩٦٣ يعطينا مؤشرات ربما تكون صحيحة بالنسبة للمناطق الاخرى ايضا .

طلب المشروع الدراسي من اعضاء النخبة ذكر عشرة اسماء هم افضل الاصدقاء، واختاروا جميعا على وجه التقريب اشخاصا يماثلونهم من حيث المنزلة في مجال النخبة ومن نفس الجنس وان لم يكونوا بالضرورة من نفس المهنة . وهكذا نجد فئة من افضل الاصدقاء تضم فيما بينها موظفين مدنيين ومحامين ومدرسين بالجامعة . وتبين أن ما يقرب من نصف الاصدقاء هم من نفس الجماعة العرقية للشخص المجيب على الاسئلة . ويغلب على الظن أن نصف الاصدقاء المذكورين هم أصدقاء حميمون لبعضهم البعض . ويبدو ان ثلثي الصداقات نشأت اصلا أيام المدرسة او الجامعة ، وهذا ما يمكن ان نتوقعه بين جماعة من الشباب ، الا أن النسبة لم تنخفض بين كبار السن الذين اجابوا على اسئلة الاستبيان . ولم يكن غريبا أن يعود خريج الجامعة من خارج البلاد ويشغل منصبا في ابادان ليجد نفسه محاطا بمجتمع افراده ليسوا غرباء عليه بل كلهم من أبناء بلدته ورفاق مدرسته القدامى وهكذا تتدعم من جديد صداقة الامس .

عامل اخر ساعد على المزيد من دعم شبكة علاقات الصداقة بين أبناء النخبة ونعني به صغر حجم النخبة وتمركز اعضائها في العواصم القومية او الاقليمية . وحتى لو لم يتجمعوا في الاحياء الفنية فان امتلاك سيارة وحرية استخدامها يجعل التفاعل الاجتماعي بينهم امرا ميسورا . واذا كانت الولائم المشتركة الرسمية والدعوات الاجتماعية اقل حدوثا بينهم بالقياس الى ما يحدث بين المستوطنين الاوروبيين الا ان لديهم البديل عن ذلك ونعني به حفلات الزواج الضخمة او حفلات التعميد وهي أمور شائعة بينهم يشتركون فيها جميعا . ويتم الزواج عادة بين اشخاص من أبناء العائلات التي تضم عديدا من المتعلمين وهو ما من شأنه ان يخلق علاقات جديدة بين اعضاء النخبة .

وتعتبر درجة التلاحم بين ابناء النخبة الافريقية امرا له دلالته الاجتماعية العلمية لاسباب عدة . اولها ان اعضاء هذه

الفئات يخلقون انماطا جديدة من القيم لتحديث المجتمعات الافريقية . وطبيعي ان هذه القيم الجديدة ستلقى قبولا ودعما سريعا بين جماعات تربطها علاقات اجتماعية مفتوحة ، وسوف تتوحد القيم بمجموع النخبة وتصبح تعبيرا مطابقا لها في نظر جماهير الناس ، كما تعتبر مرجعا دالا على سلوكها . ومن ناحية اخرى فان قوى التحكم الاجتماعي تكون اقوى داخل الجماعات ذات الصلات الاجتماعية الوثيقة . وكل من ينحرف عن انماط السلوك المقبولة تعزله الجماعة عنها ويشعر هو بوطأة هذه العزلة ويصبح الابتكار او التجديد بين اعضاء النخبة الموجودين امرا اكثر صعوبة ويتأكد طابع التماثل والاتساق بينهم .

نخبة الدرجة الثانية :

نركز انتباهنا في هذا الباب على الحديث عن اكثر ابناء النخبة ثراء واوفرهم تعليما بينما نركز حديثنا في الباب السابق على العمال اليدويين في المدن . ولكن توجد بين الفئتين فئة ثالثة هي فئة الكتبة ومعلمو الابتدائي . وتتراوح مرتبات هؤلاء السنوية فيما بين ١٥٠ و ٥٠٠ جنيها استرلينيا ، وهو دخل اقرب الى دخل الفلاح والحرفي منه الى النخبة خريجي الجامعة . ويحول الفقر دون محاولاتهم لصبغ اسلوب حياتهم بالصبغة الغربية .

ولا يزال هؤلاء الكتبة والمعلمون من الشباب ، ويوضح احصاء غانا عام ١٩٦٠ ان ما يقرب من اربعة اخماس الكتبة دون الخامسة والثلاثين من العمر . ولا يقنع اكثرهم بواقعهم اذ لا يرون فيه نهاية المطاف لمستقبلهم العملي .

وايا كان نوع التدريب المهني الذي تدربوا عليه الا انهم لا يزالون يأملون في الدراسة من جديد للحصول على المؤهل اللازم لدخول الجامعة او ان يواتيهم الحظ السعيد ويقع عليهم الاختيار

ضمن بعثة دراسية فيما وراء البحار فينعمون بمكانة اجتماعيه تماثل مكانة خريج الجامعة . وتقف ثلاث سنوات دراسية فقط فاصلا بين وظائفهم الراهنة وبين آمالهم التي يطمحون اليها وينعم بها ابناء النخبة . وتبين لنا ان الكثيرين من الافريقيين المنتسبين الى الجامعة قضوا ما يقرب من عشر سنوات يعملون في وظائف تخرجهم من المدرسة ، ويمثل نجاحهم هذا مثالا لمن دونهم اذ يؤكد أن على المرء الا يفقد الامل ابدا .

ويشغل اعضاء نخبة الدرجة الثانية موضعا هاما في تلك الدول التي بها نخبة ثرية واسعة الحجم نسبيا . اذ يتطلع اولئك دوما الى الانخراط في صفوف النخبة ومشاركتها ثراءها وامتيازاتها ، ويعرضون انفسهم لكثير من مخاطر الفشل ومشاعر المرارة ثم اخيرا يسقط عنهم قناع الوهم ويكون هذا هو حصادهم .





الباب الثالث

تحول المؤسسات



٦

عمليات التحول

حددت الفصول السابقة الخطوط العريضة لحجم التحولات التي طرأت على غرب افريقيا خلال القرن الحالي . وتبين لنا انه مع تصدير المحاصيل الزراعية التجارية والمواد الخام الصناعية ثم أخيرا اقامة صناعات تحويلية محلية دخلت الدول الافريقية مجال اقتصاد السوق العالمي وظهرت المدن الحديثة على مرمى البصر من القرى التقليدية . وتحولت المستعمرات التي رسم الاوروبيون حدودها الى دول مستقلة ونشأت لهذه المستعمرات حكومات قومية تسيطر على مناطق اوسع مساحة من الوحدات السياسية التقليدية وأكثر منها ازدحاما بالسكان بالقياس الى كل الوحدات السياسية التقليدية منذ عهد امبراطوريات السافانا في العصور الوسطى . وفرضت نظم قانونية موحدة وأصبحت الى حد ما بديلا للعديد المتباين من النظم التشريعية العرفية . وسادت المبادىء والاسس البيروقراطية لتنظيم الاعمال في القطاع الحديث اي في مجال الاعمال والخدمات المدنية وفي المؤسسات الاقتصادية الكبرى . وكانت هذه النظم في تناقض حاد مع طبيعة العلاقات السائدة بين الجماعات العرقية في المجتمعات التقليدية . وأمسكت بزمام السلطة في نهاية المطاف جماعات صغيرة من النخبة ذات الثقافة الغربية ، بيد أن اعضاء هذه الجماعات صاحبة الامتيازات الجديدة هي في الغالب الاعم سليلة بيوت متواضعة فقيرة لفلاحين اميين .

ويمكن القول ان دول غرب افريقيا تهيأت لها الى حد كبير كل متطلبات المجتمعات الحديثة والصناعية . ولكن الدولة الاستعمارية فرضت في كل حالة نظمها ومؤسساتها على

مستعمراتها . فقد فرضت الدول الاستعمارية الاشكال الاولى للحكومة المركزيــة والنظم التعليميــة والتشريعية على جميــع المجتمعات الافريقية الخاضعة لسيطرتها بمعنى أن كل تلك النظم والمؤسسات لم تولد ولادة طبيعية . ان اي انسان يستطيع ان يخمن ما كان عساه ان يحدث لو ان الدول الاوروبية اكتفت بدعم علاقاتها التجارية مع الشعوب الافريقية دون فرض حكومة عليها . حقا ان ليبيريا لم تكن مستعمرة الا انهــا لا تعطينا مثــالا عن التطور الطبيعي المحلي ، ذلك ان الفئات الحاكمة فيها جاءت كلها من بين صفوف الليبيريين ــ الامريكيين الغرباء . وهكذا خلقت الحقبة الاستعمارية القاعدة السياسية للدول الحديثة وهيأت لها الاساس اللازم للتطور الاقتصادي والاجتماعي مستقبلا . وتزايدت سرعة معدلات النمو فيما بعد كلما دنت هذه الدول من الاستقلال وبعده . وعكست خططها الاقتصادية تطلعاتها التي كان بالامكان تحقيقها مع استمرار استيراد راس المال والمهارات الفنية من الخارج .

ولكن من المسلم به ان انجاز هــذه المخططات رهن بتعبئة موارد كل دولة . ويستلزم النجاح هنا ملاءمة المجتمع التقليدي للوفاء بالاحتياجات الحديثة . ولهذا فان اهتمامنا لن يتركز على الدرجة التي يمكن أن تصل اليها الدول الافريقيــة فيما تقتبسه أو تأخذه من الغرب بل على سرعــة ومرونة هــذه الدول في تعديل المؤسسات المحلية الاهلية وتغييرها . ومن ثم فان التأكيد علــى التحولات الداخلية التي تجري بفعل مؤثرات من داخل المجتمعات ستحجب اهتمامنا بالتحولات التي تجــري بفعــــل المؤثــرات الخارجية ويلجأ علماء الاجتماع لهذا السبب للنظريات التطورية في محاولاتهم فهم عمليات التغير هذه ونعرف أن هذه النظريـات كانت سائدة في القرن التاســع عشر ثم سقطت عندمــا افترض دعاتها وجود مراحل متعاقبة تسير على خط واحد مستقيم وتمر بها كل المجتمعات (واستخلصوا من هذا ان الشعــوب المتخلفــة لا يزال امامها طريق طويل عليها ان تقطعــه قبــل ان تلحق بالامم

الصناعية الغربية ـ هذا ان كان بامكانها ان تلحق بها اصلا) او لانهم كانوا فيما يبدو اكثر اهتماما بالاصول التي نشأت عنها المؤسسات الانسانية وبنوا محاولاتهم لاعادة صوغ النظريات التاريخية على شواهد مشكوك في قيمتها . واغفل هؤلاء انتشار الاساليب التكنيكية والافكار ، ولكنهم حين فعلوا هذا اكدوا وقوع عملية التحول من داخل المجتمعات ، وكانوا على صواب فيما ذهبوا اليه على الرغم من ان تفسيراتهم لهذه العملية تبدو لنا اليوم تفسيرات ساذجة وغير مقبولة . واليوم وعلى الرغم من الاتساع المطرد للهوة التكنولوجية الفاصلة بين احدث المكتشفات في الشعوب الصناعية وبين الادوات والطرق التي يستعين بها الفلاح والحرفي في البلدان المتخلفة الا ان الاعتقاد السائد ان دول العالم الفقيرة قادرة على تطوير ذاتها سريعا لتلحق بمستوى معيشة المجتمعات الصناعية . بيد ان التطور والنمو لن يتحققا لمجرد التعبئة العامة لكل الجهود الخيرة حتى وان افترضنا ان هذا امرا ميسورا ، وانما يتعين على الامم الغنية مساعدة الامم الفقيرة للافادة على نحو امثل بكل مصادر ثروتها ومواردها الذاتية . وهذا هو السبب في ان العلماء يسعون لاكتشاف الميكانيزمات الضرورية لتحقيق التحولات الاجتماعية السريعة بينما يسعى رجال الاعمال الى توجيه مساعداتهم العملية الى حيث تحقق لهم نموا اقتصاديا اكبر ومستمرا .

ولقد عمدنا طوال صفحات هذا الكتاب الى التاكيد على التحولات التي تحدث من داخل المجتمع في افريقيا الغربية وعلى ملاءمة المؤسسات المحلية التقليدية . ولم يتجه علماء الاجتماع دائما الى دراسة التحولات وفق هذا المنهج . وعلى الرغم من أن اكثر نظريات الامس اصبحت نظريات بالية الا انها لا تزال باقية وماثلة في كثير من الاتجاهات الشائعة اليوم . فقد كانوا في الماضي يأخذون « الثقافة » مقياسا ومرجعا دون « المجتمع » ، وتحدد معنى « الثقافة » بانها مجموعة من السمات المتباينة والمستقرة والتي تتضمن كلا من الموضوعات الماديه. والانماط

السلوكية . وبدهي ان التمايز بين الثقافة الافريقية و الثقافة الاوروبية في ضوء السياق الافريقي هو تمايز واضح وصارخ . وفسر العلماء التحول الاجتماعي بأنه عمليات تراكم او اقتباس ثقافي حيث يقتبس أبناء ثقافة ما ـ وهم الافريقيون عادة ـ عناصر من الثقافة الاخرى نظرا لعجز ثقافتهم عن توفير السمة الملائمة للمرحلة . ويصبح بالامكان في أسوأ الاحوال حساب عدد السمات المقتبسة كمؤشر للتراكم او الاقتباس الثقافي . ويرفض علماء الاجتماع اليوم مثل هذا المنهج . بيد ان ما يثير الدهشة اننا لا نزال نراه ماثلا لدى بعض الاوروبيين حين يكتشفون فجأة احد معارفهم الافريقيين ـ انيقا في ملابسه الغربية ، طليق اللسان في حديثه بالانجليزية او الفرنسية ، بادى التشبع بالثقافة الغربية ولكنه متمسك بآراء عن علاقات الاسرة مناقضة تماما لما هو متعارف عليه في المجتمع الاوروبي ، او انه يشارك في شعائر وطقوس دينية تقليدية . وينتاب الاوروبيون نفس الشعور القلق حين يرون شكل الحكومة النيابي القائم في الدول الجديدة يعمل بأسلوب مختلف عما هو سائد في الدولة الاستعمارية الام ومغايرا لما قصد اليه رواده الذين ادخلوه الى بلادهم .

ان عالم الاجتماع لا يهتم بالدرجة الاولى بعناصر السلوك غير المترابطة والتي يمكن وصفها بالعرف السائد بين الناس ، ولا بمظاهرها المادية التي لا تعدو كونها رموزا ، ولكنه يركز اهتمامه على العلاقات القائمة بين الناس والتي تحدد الانماط العامة لسلوكهم . والتحول الاجتماعي تحول في هذه العلاقات ـ تحول في شكل العلاقة بين الناس وفي عدد ونمط العلاقات المشتركة بين الافراد . ولهذا فاننا حين ننظر الى المجتمع الافريقي المعاصر نجد أن العلاقة بين الاب وبين والابن في مناطق الحضر ، او بين النخبة ، كثيرا ما تتباين بوضوح وتختلف عن العلاقة القائمة في المجتمع التقليدي . ان ساكن الحضر يصوغ علاقات جديدة ـ مع صاحب العمل ومع النقابيين وكلها علاقات لم تكن موجودة في افريقيا قبل مرحلة الاستعمار وهذه هي التحولات التي تعنينا هنا .

نعرف ان كل فرد من افراد المجتمع له اهتمامات او حاجات اساسية مادية ووجدانية معا . فلا بد من ان يرتزق ليعول نفسه وعائلته ، وينشد ايضا الامن ـ بمعنييه الاقتصادي والنفسي . وفي سبيل دعم هذه الاهتمامات يحدد لنفسه عددا من الاهداف التي تحددها بشكل واسع فضفاض تكنولوجيا المجتمع وقيم ابنائه وشخصيته هو . بيد ان هذه الاهداف نادرا ما يتسنى تحقيقها بمعزل تام عن بقية المجتمع ومن ثم يتعين عليه التعاون مع الاخرين في روابط واتحادات اجتماعية متباينة . وتعتبر الاسرة والجماعة العرقية وجماعة العمر الروابط النمطية في المجتمعات الافريقية التقليدية ، وتعتبر النقابة الحرفية والنقابة المهنية والحزب السياسي الروابط النمطية في المجتمعات الحديثة . ويصبح التفاعل القوي بين اعضاء مثل هذه الروابط ممكنا في حالة واحدة فقط ، وذلك حين يسلك كل منهم وفق ما يتوقعه الاخرون ، ويسمى مثل هذا السلوك المعيار أو الدور للشخص المعني .

ويمكن القول أن القدرة على التنبؤ بالسلوك رهن بطائفة مشتركة من القيم التي يؤمن بها اعضاء الرابطة وبالخبرة المتراكمة عن السلوك في الماضي . وهكذا فقد يؤمن بأن السرقة جزاؤها العقاب اما لانه يشارك بقية ابناء المجتمع في اعتقادهم بأن السرقة خطأ ، أو لانه بحكم خبرته الذاتية يؤمن بأنها تفضي الى العقاب عادة . واذا كان سلوك المرء قريباً من المعايير المتوقعة فانه يلقى المديح والجزاء ، واذا انحرف عما يتوقعه رفاقه فانهم سيوقعون عليه الجزاء ضمانا لتماثل المجتمع واتساقه . ولكن اعضاء الرابطة نادرا ما يكونون متكافئين من حيث السلطة التي تمكنهم من ارغام رفاقهم ، فالبعض قادر على توقيع الجزاء الذي يكفل التوافق مع توقعاته ، بينما يشعر الضعيف بعجزه وأنه مكره على العمل لا وفق اهدافه هو بل لارضاء توقعات الاخرين ـ ولا يرى عالم الاجتماع في الرابطة الاجتماعية مجرد تجمع لافراد بل يراها ممثلة لنمط العلاقة القائمة بينهم حيث يقوم كل عضو بدور يتلاءم مع مكانته

الاجتماعية او مع وضعه في الرابطة . ويطلق عادة على مثل هذا النمط من العلاقات بنية الرابطة . وقد يفيد مصطلح البنية ضمنا نمطا ثباتيا (استاتيكيا) وقد يحسن وصفه بعبارات استاتيكية الا انه ليس ثابتا بالضرورة .

ويتألف المجتمع من عدد من الروابط التي تشكل فيما بينها بنيته الكلية . ويستطيع المرء اداء عدد من الادوار داخل الرابطة الواحدة ، فهو في الاسرة زوج واب في آن واحد . ولكنه كعضو في روابط مختلفة يجد امامه مدى واسعا ومتباينا من الادوار . وينبغي ان تكون كل هذه الادوار متسقة مع بعضها ، ذلك لان التنافر يفضي الى حالة من التوتر الوجداني حيث ينشد المرء وسيلة لارضاء توقعات الاخرين ، كما يفضي الى الاحباط حيث يفرض الاخرون العقوبة عليه بسبب فشله في التوافق مع توقعاتهم. وقد ينزع المرء الى اعتبار هذه الادوار انماطا سلوكية محددة . ولكن ثمة فسحة او درجة من الانفراج امام الفرد في كل الادوار — وهي غالبا الفجوة الفاصلة بين اسمى التوقعات المتمثلة في القيم الخلقية وبين مستوى اخر ادنى يقنع به المرء دون خوف من عقاب يأتيه على يد رفاقه . ولكن بعض الادوار تكون غير محددة بوضوح في مواقف التحول . اذ يشعر الاب من النخبة ان الواجب يقتضيه بأن يكون ازاء ابنائه أقل تسلطا مما كان عليه ابوه معه . ولكن اقل الى أي درجة ؟ ليس ثمة معيار متفق عليه . فبعض الادوار تجري محددة داخل سياق متميز فقط ، وبعضها الاخر أكثر انتشارا . ولهذا يميل المرء نحو توقع معايير معينة للسلوك تأتيه من شيخه التقليدي لتحكم كل نشاطاته ، حيث نرى الكاهن في المجتمع الحديث لا يمكنه ابدا الفكاك من وضعه الكهنوتي . ولكن يمكن القول بوجه عام ان الادوار المنتشرة أكثر شيوعا في المجتمع التقليدي عنها في المجتمع الحديث . وهذه المرونة في تحديد الادوار تعطي الفرد حرية للمناورة في محاولاته من أجل بلوغ أهدافه .

وهكذا يمكننا النظر الى بنية المجتمع من منظورين مختلفين . فنحن من ناحية نلحظ العلاقات بين اعضـاء روابط اجتماعية معينة ، والجهد لتحقيق الاتساق بين هذه العلاقات والتعديل والملاءمة في العلاقات كلما كان الافراد مجبرين على تعديل توقعاتهم عن ادوار الاعضاء الاخرين . ونلحظ من ناحية اخرى الفرد عضوا في عديد من الروابط ويحاول بلوغ اهدافه التي حددها لنفسه وفي الوقت ذاته يسعى لاشباع التوقعات الملائمة لادواره المتباينة . ولعل دراسة الطريقة التي يحل بها المرء التضارب بين ادواره هي مهمة عالم النفس ، ولكن يمكن القول ايضا بأنها مهمة عالم الاجتماع بالمثل نظرا لان الكثيرين تجمعهم ظروف واحدة فضلا عن ان الحل الذي ينتهون اليه لمشكلاتهم هو محصلة جهودهم لتحديد ادوارهم من جديد .

المدرسة الوظيفية .
ومدرسة الصراع .

اغفل هذا المخطط العام لمفهوم البنيـة الاجتماعية طابـع التنافس بين النظريات المتباينة السائدة عن طبيعة المجتمع . ونجد هنا وجهتي نظر متباينتين احداهما للمدرسة « الوظيفية » او « التكاملية Functional or Integrational » والثانية لمدرسة « الصراع Conflict » حيث تطرح كل منهما طرازا للمجتمع يتسم بأنه صواب من حيث الاتساق المنطقي . بيد أن جدوى اي منهما رهن بالاسئلة التي يطرحها المرء فلو سألنا « ما الذي يحافظ على بقاء هذا المجتمع ؟ » فان الطراز الوظيفي اهل بأن يقدم لنـا الاجابة . واذا سألنا « كيف تتغير المجتمعات ؟ » فان طراز الصراع قد يكون اكثر ملاءمة للاجابة على هذا السؤال . ولكـن اختيـار الطراز من قبل انسان يجري تحليلا لمجتمعه انما يعكس ادراكه لوضعه في المجتمع . فأصحاب الاوضاع الاجتماعية المتميزة يرون ادوارهم ذات طبيعة وظيفية داخل مجتمع متكامل ، اما المحرومون

من الامتيازات فانهم يؤكدون تناقضهم وصراعهم مع أصحاب الامتيازات (كثيرا ما نرى هذا التمايز واضحا تماما في عديد من النظريات المتباينة عن بنية المجتمع التي يؤمن بها ابناء الطبقات المختلفة ، اذ يؤكد ابناء الطبقات العليا طابع التكامل بينما يؤكد ابناء الطبقات الدنيا طابع الصراع) . وجدير بالذكر ان القسط الاكبر من نظرية الصراع الحديثة مأخوذ من كارل ماركس . ولقد سادت النظريات الوظيفية علم الاجتماع الغربي خلال العقود الاخيرة ، ويرجع ذلك الى رد الفعل ضد اندفاعة النظريات الثورية والى عزوف البعض عن الماركسية كما يرجع كذلك الى تاكيد علماء الانثروبولوجيا على التكامل الوظيفي للمجتمعات الصغيرة ذات البنية البسيطة التي كانت موضوع دراستهم .

ان الطراز الوظيفي او التكاملي للمجتمع يؤكد على اتساق القيم التي يؤمن بها ابناء المجتمع . وتتم صياغة ادوار الافراد وفق هذه القيم ومن ثم تصبح توقعاتنا عن الدور مسألة تكميلية . ونجد معايير المجتمع مقبولة ومسلم بها من قبل كل ابناء المجتمع ويدافعون عنها ويلقن المجتمع الشبيبة هذه القيم والمعايير خلال عملية التنشئة الاجتماعية . ويوصف كل امرىء بالانحراف اذا ما سلك سلوكا منافيا لما هو متوقع منه (اذ يقال عنه انه منحرف وليس مجددا او صاحب بدعة نظرا لما ينطوي عليه اللفظ الاول من معنى استهجاني) ويحاول الاخرون من ابناء المجتمع تقويمه قسرا عن طريق ما يفرضونه عليه من جزاءات ابتغاء الحفاظ على قيم المجتمع ومعاييره . وهكذا يستعيد المجتمع وضعه القائم مسبقا ، ويتحدث المرء عن المجتمع باعتباره كيان في حالة اتزان — اما بمعنى ان نمط العلاقات نمط ثباتي (استاتيكي) غير متغير او بمعنى ان كل تغير تعقبه عودة الى الوضع السابق .

وبدهي ان هذا الطراز لا يتصور حدوث تغير داخل البنية ، ولكن دعاة النظرية الوظيفية لا يسعهم انكار ان التغير حقيقة واقعة . وينزعون الى تفسير التغير حسب طرق ثلاثة : — اولا :

عدم التصدي لانحراف المرء او عدم احتوائه عن طريق توقيع العقوبة عليه من جانب الاخرين ، مما قد يؤدي اخيرا الى قبول بدعة ومن ثم اعادة بناء الادوار في صيغة جديدة . ثانيا : ـ بينما يبدو الطراز الوظيفي مناسبا لتفسير المؤسسات كأجزاء مفردة او المجتمعات الصغيرة ذات البنية البسيطة الا ان مظاهر التعقد في المجتمعات الحديثة لا تسمح بامكانية التجانس والتوافق بين قيم ومعايير كل مؤسسة او جماعة . ومن ثم فان الافراد سيتوقعون دورا مناقضا مما يدفعهم الى حسم هذا التناقض عن طريق تغيير ادوارهم . ولكن يظل المصدر الاساسي للتغير كامنا خارج المؤسسة او المجتمع . ثالثا : يبدو التغير بناء على هذا وكأنه نتاج مواءمة للعلاقات بحيث تواجه القوى الخارجية . ولهذا فاننا حين ذهبنا من قبل الى وصف الدور المتغير للحكام التقليديين سلمنا مقدما بوجود اتساق كامل في توقعات الناس بالنسبة لدور الحاكم وشيوخه وشعبه . ويعتلي الضابط الاداري المسرح مطالبا الحاكم بأن يأخذ اوامره منه دون شيوخه (ومهدوابعزل « الحاكم غير الصالح ») . ويتحول الحاكم الى حاكم مطلق « اوتوقراطي » او ربما يحاول اللجوء مباشرة الى شعبه متجاوزا شيوخه . وينشأ هنا نمط جديد من العلاقات وان ظل الممثلون هم انفسهم .

ويرتكز طراز الصراع على مقدمة اساسية هي عدم تنافر المصالح الفردية الناتج عن التوزيع غير المتكافيء للثروة او السلطة أو الامن في المجتمع ، فالناس في جهادهم من أجل الاهداف المشتركة قد يتفقون او لا يتفقون على الوسائل التي ينبغي اتباعها . ان فريقا من المرشحين لمنصب كبير قد يلتزمون نهجا واحدا في صراعهم على المنصب ، ولكن العمال الذين يعملون في مجال واحد قد يؤكدون ويدعمون مطالبهم عن طريق اضراب عام بينما يطالب صاحب العمل بالتحكيم . ويركز طراز الصراع على السلطة ـ قدرة كل حزب على تحقيق مراميه من خلال تحديه لمعارضة الاخرين . ويغفل الطراز الوظيفي هذا العنصر ، بينما ينطلق طراز الصراع من

الاعتقاد بأن كل حزب داخل حلبة الصراع يصوغ نسقه الخاص من القيم التي تتلاءم مع مصالحه ، ويعمل جاهدا على الفوز بموافقة اعضاء الحزب المعارض وقبولهم لهذه القيم . وهذا هو السبب في ان سيطرة الفولاني على ولايات الهاوسا في شمال نيجيريا لم تصادف نفورا من العامة اذ أمكن بنجاح تبرير السيطرة على أساس من العقيدة الاسلامية . وتنظر نظرية الصراع الى المجتمع باعتباره في حالة تفاعل مستمر نظرا لان كل فرد وكل جماعة يجدون بحثا عن النجاح الامثل .

نعود لنؤكد من جديد ان هذين الطرازين المتعارضين تماما من حيث منطلقات كل منهما ، هما وسيلتان لتفسير المجتمع . واستخدام ايهما من شانه ان يحدد اختيارنا للمادة والمعلومات التي نفسر بها المجتمع ونمط التغير الاجتماعي موضوع الدراسة وحري بنا الا نغفل جانب التلاقي بين الطرازين . فالطراز الوظيفي يقبل بفكرة التغير الاجتماعي لدرجة كبيرة . كما ان طراز الصراع لا يذهب الى القول باستحالة تصالح العناصر المتصارعة وتوافق مصالحها حينا . ولعل الارجح هو القول بأن الطرازين قد يصلان الى نقطة يشعران فيها أن مواصلة السعي لبلوغ أهدافها لن يحقق لهما مزيدا من النجاح ومن ثم ينهيان الصراع ويقبلان كشيء حتمي لا مفر منه طابع عدم التكافوء بين الجانبين ، وبهذا يظل ثمة مصدر كامن للصراع .

وقد يبدو متناقضا القول بأن الصراع يسهم في تلاحم المجتمع ، وان له جوانبه « الوظيفية » ولكن الصراع بين الافراد قد يدعم المعايير التي يرتكز عليها المجتمع .

ويفسر الطراز الوظيفي التغير باعتباره نتيجة قوى خارجية عن النظام ، بينما يذهب طراز الصراع الى ان التغير كامن في باطن عملية التفاعل المستمرة بين اصحاب المصالح المتضاربة وبين الاهداف المنشودة . وجدير بالذكر ان القسط الاكبر من التحولات التي نشهدها اليوم في غرب افريقيا هي على ما يبدو

ـة تأثير الغرب على المجتمعات القبلية وهو ما يدعونا الى النظر
وفق الطراز الوظيفي وحده ولكننا حين نفعل ذلك فاننا نغفل
ب الصراع الكامنة في المجتمع التقليدي والتي تأخذ صورا
كالا جديدة في الحياة المعاصرة .

لهذا فاننا سنعمد من ناحية الى وصف الاساليب التكنيكية
يثة التي ادخلها الغرب وارغمت الناس على خلق علاقات
ـدة . فالصناعة التحويلية لا يمكن انشاؤها ودعمها في
معات قائمة على اساس الجماعات العرقية ، ذلك لان المدن
ضمنا توفر قدر كبير من الحركية الجغرافية للناس . وهنا
ـ ممثلون جدد في مؤسسات تقليدية ـ على نحو ما يدخل
بط الاستعماري الاداري في حكومة المجتمع المحلي ـ وهو
ـتلزم بالضرورة اعادة صوغ العلاقات صياغة جديدة . ونرى
احية اخرى أن الادوار الجديدة المتاحة والاشكال الجديدة
ة القائمة الان في غرب افريقيا يمكن ان يفيد بها الافريقي
يق اهداف يتصورها بداية في ضوء القيم التقليدية . ونحن
الى الاعتقاد بأن دخول كل تكنيك غربي أو قيمة اخلاقية
انما يفضي الى حدوث تغير في الانماط المحلية الاهلية
ـة . ويتعين علينا كذلك أن ندرس درجة امتصاص الانماط
ماعية المحلية لتلك العناصر الغربية ، الوافدة دون أن يؤثر
عليها تأثيرا خطيرا . وهذا هو السبب في اننا في باب التحولات
ماعية في مناطق الريف اكدنا على قدرة المجتمع على تجسيد
ـور في بنيته دون النتائج المعطلة للمؤسسات والاساليب
كية الجديدة .

مظاهر التضارب :

ان كلا من نظرية الصراع والنظرية الوظيفية تصوران التغير
ماعي ، أو التغير في العلاقات الاجتماعية ، على انه نتاج حسم
ر والمصالح المتضاربة . ولنحاول معا اكتشاف هذه العملية
يل اكثر .

قد يجد المرء نفسه في موقف يطرح عليه فيه الاخرون مطالب تتضارب مع مصالحه . مثال ذلك : أن رؤساء الموظف المدني الافريقي يتوقعون منه ان يكون منصفا تماما وغير منحاز على الاطلاق في تعامله مع الجمهور ، بينما يتوقع منه أبناء عشيرته ان يجد لهم وظائف يعملون بها او أن يسدى اليهم جميلا ويفضلهم على سواهم ، وطبيعي أن قيم البيروقراطية تنسجم مع اولئك المنحدرين من جماعتهم العرقية . مرة اخرى فان توقعات الاخرين قد تتضارب مع اهداف المرء الذاتية ذلك ان تطلعاته لبلوغ مستوى وظيفي رفيع في القطاع الحديث تصطدم برغبة احد اقاربه الذي يتعين عليه العودة الى قريته ليشغل منصبا رئاسيا يسبغ عليه في بلدته مكانة رفيعة مرموقة . ولا ريب في أن مظاهر التضارب هذه تخلق لدى المرء مشاعر بالذنب والقلق كلما حاول تدبر مساره لبلوغ اهدافه . ومثل هذا المسار ينبع في نهاية الامر من تقييمه لاهدافه الشخصية وقيمه من الجزاءات التي سيحاول الاخرون توقيعها عليه بحيث ان محصلة كل هذا تحدد سلوكه المرتقب .

وقد يكون نتاج هذا كله نمطا من انماط ثلاثة :

أولا : قد ينجح المرء في تحديد دور لنفسه يختلف عما كان متوقعا منه بداية ولكنه مقبول من الاخرين نتيجة مشاورة أو مساومة . معنى هذا بعبارة اخرى نشوء نمط جديد من العلاقة .

ثانيا : ثمة طرق متباينة لتجنب مشكلة التضارب . اذ يمكن تقسيم الادوار فقد يختلف سلوك المرء مع اقرانه من ابناء النخبة عما هو متوقع منه في القرية اختلافا جذريا ولكن طالما وأن أبناء عشيرته الاقربون لا يلحظونه في حياته وسط ابناء النخبة وكذلك لا يلحظه اقرانه خلال زيارته لقريته فانه يستطيع أن يتصرف في كل من الموقفين حسب ما هو متوقع منه وفق سياق الموقف دون خوف من عقاب سوى ضميره هو . كذلك بامكان المرء أن ينيب عنه من

يقوم بدوره ، كأن يسأل الزعيم المسيحي شخصا اخر لينوب عنه في حضور شعائر دينية ينفر من مشاهدتها ، ومن ثم فانه يرضي كلا من الجالية المسيحية المحلية وكذلك غير المسيحيين الذين يشعرون بأن اداء الطقوس عمل يؤثر مباشرة على رخاء المجتمع أو ما شابه ذلك . ويمكن ايضا الغاء الادوار التي تبدو شديدة العسر أو قطع العلاقات مع خلق مبررات لهذا السلوك مثل الزعم بأن مشاغل المرء تحول دون الوفاء بكل الالتزامات . وطبيعي ان مثل هذا التصرف هو الاسهل في المجتمع الحديث الشديد التعقيد ، اذ نجد الادوار متمايزة ومتخصصة جدا اكثر مما هو عليه الحال في المجتمع القبلي الذي تكثر فيه الادوار وتنتشر .

واخيرا فان المرء حين يعجز عن حسم هذه التوقعات او المسارات السلوكية المتضاربة فان حالة القلق والاحباط تتفاقم عنده وتكشف عن نفسها في صورة مظاهر سلوكية منحرفة ــ عدوانا أو تخييلات مرضية .

ونلاحظ في المجتمعات التي يطرأ عليها تغير طفيف على مدى فترات زمنية طويلة انها تخلق لنفسها عادة الوسائل التي تمكنها من التحكم في هذه التوترات ومعالجتها حتى لا تثير اضطرابا في المجتمع او تصيب افراده بالعجز والشلل ، هذا بينما تغدو الوسائل التقليدية عديمة الجدوى في حالة التغير السريع ، وتصبح هنا التفسيرات في ضوء العرافة والسحر أو المعتقدات الدينية القبلية امرا غير مقبول . ولا بد وان يمضي وقت طويل عادة حتى ترسخ السبل الجديدة وتصبح جزءا من بنية المجتمع .

وبدأ علماء الاجتماع في الوقت الراهن يدرسون عمليات المساومة التي تجري بين شخصين او جماعتين حين تتضارب اهدافهما ، ويدرس العلماء هذه العمليات في اطار نظرية اللعب ــ طائفة من الاجراءات الاحصائية ناتجة عن العاب المهارة (مثل

البريدج) والتي يتحرك من خلالها المستقبل امام اللاعبين ويصبح بالامكان التنبؤ بحصيلة اللعبة . ويبدو هنا أن أكثر الصراعات التي تنشب بين الافراد أو الجماعات تدخل ضمن مجموعة العاب « لا صفر ـ الكل » بمعنى انها العاب لا تتسم نتيجتها بالربح البسيط أو الخسارة البسيطة للاعبين المعنيين ، وانما هي العاب تتميز بأن درجات النجاح أو الفشل فيها لا نهائية وانها لا تتوازن مع بعضها بالضرورة .

وهكذا يثابر كل لاعب على المناورة حتى يتوفر لديه اعظم قدر من فرص النجاح وتقل مخاطر الخسارة التي يهدده بها الاخرون الى اقل حد ممكن . واذا كانت نظرية الالعاب تعتبر اداة نافعة في فهم المواقف الاجتماعية للصراع ، الا أن قدرتها على التنبؤ بالنتائج ضعيفة جدا بسبب تعقد المواقف وما تنطوي عليه من عديد من المتغيرات المستقلة عن بعضها .

ان سبل حسم المصالح والاهداف المتضاربة قد تتنوع ابتداء من الكفاح المطلق غير المحدود بقيود وانتهاء بالحديث الودي الشديد الذي يدور بين المتصارعين وقد جلسوا الى مائدة حيث يحاول كل انسان يستبد به القلق ان يفهم وجهة نظر الطرف الاخر . وتنشأ في اكثر المجتمعات عديد من العمليات المتوسطة بين هذين القطبين المتناقضين . (ويذهب بعض علماء الاجتماع الى أن المجتمع اشبه « بنظام تحكم في التوترات ») وقد تحدد هذه العمليات السلوك المنتظر من الافراد المتنافسين وربما تحدد كذلك دور المحكمين . بيد أن الكثير من هذه العمليات والتي تتفق مع المجتمع الافريقي التقليدي باتت قاصرة وغير ملائمة بالنسبة للظروف الحضرية الحديثة مثال ذلك : ان الزوج اذا ما تشاجر مع زوجته في القرية فان اقرب الناس الى كل منهما يحاول حسم الخلاف بينهما بأن يدعو كلا منهما الى اعتبار المعايير المحلية والالتزام بها . ولكن اصبح هذا القريب بعيدا جدا اليوم عن المدينة مما يجعل مهمته هذه مستحيلة فضلا عن أن معايير

العلاقات الزوجية لم تتحدد بعد بوضوح في المواقف الاجتماعية الجديدة . ونلمس محاولة لخلق عملية اجتماعية بديلة فيما تلجا اليه نساء النخبة خلال لقاءاتهم في نواديهم وجمعياتهم . فقد يحدث ان تلجأ امراة اثقلتها مشكلاتها الى مناقشة هذه المشكلات في النادي مع غيرها من الزوجات آملة بأن تحث كل واحدة منهن زوجها للضغط على الزوج المعني حتى يلبي طلباتها ، وهكذا تستبدل عون اعضاء النادي بعون الجماعة العرقية الذي فقدته .

ولكن على أي نحو يمكن ان يؤدي حسم تضارب المصالح الى تحولات في البنية الاجتماعية ؟ ان مدى النتائج المتوقعة من لعبة « لا صفر ــ الكل » مدى لا نهائي . واذا عبرنا عن ذلك بلغة المواقف الاجتماعية فان المدى يقع ما بين الرفض الكامل لاهداف الخصم الضعيف ابتغاء اهداف الطرف الاقوى . وبين المصالحة والتوفيق بين الاثنين على نحو يؤدي الى تحديد جديد للعلاقات بينهما . واذا تحدثنا عن ذلك في ضوء الجماعات دون الافراد فسوف تبدو لنا نتائج اخرى واضحة للعيان .

فقد تتبنى الجماعة السائدة قدرا من مزاعم الجماعة الاضعف دون ان تغير شيئا من تكوينها . مثال ذلك : ان يوافق مجلس الشيوخ والزعماء التقليديين على مطالب الشباب المتعلمين في دعوتهم الى بناء مدرسة في القرية . وقد يحدث ايضا ان يكون الرد على مطالب الجماعة الاضعف هو تغيير تشكيل الجماعة السائدة ، كأن يخصص لعدد قليل من شباب المتعلمين مقاعد في مجلس القرية ومن ثم يؤلفون جزءا من صانعي القرار ولا يسعهم بعد ذلك القيام بأي معارضة مفتوحة . وقد يحدث اخيرا ان يشعر الشباب بأن الاجراء الذي تم داخل جماعتهم العرقية اجراء عديم الجدوى ومن ثم يتعين عليهم تشكيل رابطة جديدة تكرس جهدها لتطوير القرية وتدعو الى ضرورة ابدال مجلس الشيوخ التقليدي بهيئة حاكمة اقدر على ادخال التحسينات اللازمة ــ مجلس حكومي محلي يجدون فيه لانفسهم

تمثيلا قويا وفعالا . ويتحدد نتاج اي صراع بين المصالح بناء على عدد من العوامل ، ولا يمكن التنبؤ به الا بقدر علمنا بها وقدرتنا على تقييمها .

ونحن نعتزم في الفصول التالية اختيار عدد قليل من المجالات التي يمكن ان ندرس من خلالها عملية ملاءمة الروابط التقليدية ومعاييرها وقيمها ، وكذلك قيام روابط جديدة قد تكون مدينة ، اكثر مما هو ظاهر ، للبنية الاجتماعية الاصلية في غرب افريقيا .



٧

الاسـرة

ترتبط التغيرات في بنية الاسرة ارتباطا وثيقا بعمليات التحديث والتصنيع . حقا ، كثيرا ما يدفع علماء الاجتماع بأن الاسرة النواة شيء ملازم بالضرورة للمجتمع الصناعي . ويسود الاعتقاد بأن عزل الاسرة النواة عن التجمعات الواسعة من الاقارب وأبناء العرق هو شرط ضروري لتوفر الحركة الجغرافية اللازمة اذا شاء الناس حرية التنقل من وظيفة الى اخرى سعيا للاستفادة من مواهبهم الى الحد الاقصى . فالمرء لا يسعه الكد لبلوغ مراميه المهنية الا في الاسرة النواة حيث يتحرر من دعاوى ابناء عشيرته . ومن المعروف ان القيم السائدة في الاسرة النواة تختلف عادة عن قيم الجماعة العرقية . اذ بدلا من التسلسل الهرمي هنا ، واقتران السلطة بالعمر تنشأ في الاسرة النواة علاقات اكثر انتشارا ووجدانية ويظهر في الاسرة النواة ايضا اهتمام اكثر بالفرد والمبادرة الفردية والتحصيل ويكون لهذا الغلبة على احساس النسب الذي يشيع في الجماعات العرقية . ونلاحظ ان من ولدوا في كنف اسر تقليدية ولكنهم يعيشون اليوم بين ابناء النخبة ذوي الثقافة الغربية قد يكشفون عن هذه السمات المتباينة في شخصياتهم ، ولعل ما هو اهم يتمثل في اثر قيمهم الجديدة ووضعهم الاجتماعي الراهن على شخصية اطفالهم مستقبلا . ونحن نقرن ما بين النزعة الفردية والتحصيل الفردي بعملية الابتكار والتقدم في المجتمعات التي تمر بتحولات سريعة . الا ان البيروقراطية قادرة على ترسيخ علاقة النسب باعتبارها صفة اساسية في ابنائها ، بينما نتوقع ان يعمل الناس كفريق . ويميل علماء الاجتماع الامريكيون الى الاعتقاد بأن اسرة الطبقة المتوسطة

في بلادهم تشكل عنصرا ضروريا وحيويا للمجتمع الصناعي . هذا بينما يكشف مثال اليابان عن ان البلد قد يصبح بلدا صناعيا راقيا ويظل محافظا على تجمعات اسرية واسعة وقوية . لذا فانه من العسير علينا ان نقيم نمط بنية الاسرة الذي تحتاج اليه غرب افريقيا في الوقت الراهن .

ولكن حتى لو لم نستطع دائما تقييم اثر التغيرات في بنية الاسرة فاننا لا نستطيع تجاهل حدوثها . اذ ما دام الناس رجالا ونساء ، ينزحون الى المدن الحديثة فان علاقاتهم بجماعاتهم العرقية ستضعف حتما الى درجة ما ـ اما كيف والى اي حد فهذا ما سوف نناقشه فيما بعد في هذا الباب .

وثمة عامل هام في غرب افريقيا وهو ان الهجرة الى المدينة تمت على نطاق صغير نسبيا ، ولا تزال الغالبية من الناس باقية في الخلف ، اي في تجمعاتهم التقليدية ، ولا تزال الجماعات العرقية باقية كوحدات قادرة على الحياة . ولو لم تكن كذلك لفقدت وبمعدل سريع ولاء اعضائها الغائبين . وينعكس واقع البنية الاجتماعية المتغيرة في الحجج الملحة الدائمة ـ هل الاسرة الواسعة عقبة في طريق التطور ؟

ولا ريب في أن انماط التغير في بنية الاسرة في ولايات غرب افريقيا ستتباين وتتنوع بالضرورة . فثمة فوارق واضحة تحدث في الانماط التقليدية للعلاقات كما وان اثر الهجرة الى المدينة على سبيل المثال لن يكون واحدا في كل الاحوال . مثال ذلك : ان المرأة من شعب الابو التي اعتادت العمل دائما مع زوجها في مزرعته مكونة معه مشروعا اقتصاديا مشتركا ، ستدرك حالة التغير عندما تسعى في المدينة بحثا عن مهنة منفصلة عن عمل زوجها ، وكذلك المرأة من شعب يوروبا التي اعتادت العمل مستقلة دائما عن زوجها لن تجد حياة المدينة شيئا غير مألوف بالنسبة لها من هذه الزاوية . وسوف تؤثر حياة المدينة ايضا ، وبسبل جد

متباينة ، على العلاقات الاسرية لاصحاب المكانـات الاجتماعية المختلفة ـ عضو النخبة أو الكاتب البسيط أو الحرفي أو العامل غير الماهـر .

ومع هذا فان كل من ينزح للحياة في القطاع الحديث في غرب افريقيا لا بد وان يعدل بدرجة ما مـن البنية الاسرية وتصبـح التوترات امرا حتميا في هذا الموقف مـن التغير الاجتماعي . ونلاحظ ان الكثيرين من الرجال والنساء ليسوا على يقين من نمط العلاقات الزوجية التي يريدونها ، ويجدون صعوبة في مواءمـة قيمهم التقليدية مع القيم المكتسبة حديثا من خلال دراساتهـم الغربية ومـن خـلال السينما والصحف والمجـلات ومن خلال مشاهداتهم (التي يسيئون تفسيرها عادة) لانماط السلوك فـي البيوت الاوروبية . ولكن ما ان تتم صياغتها حتى تختلف توقعاتنا لانماط سلوك الرجال والنسـاء المتعلمين عن توقعاتنا لانماط سلوك آبائهم . ونلاحظ كذلك انه على الرغم من أن الزوج والزوجة قد تلقيا قدرا متساويا من التعليـم الغربي وعلـى الرغم من انهمـا يعترفان صراحة بنفس القيم الا ان ما يتوقعه كل منهم من زواجه او من الدور الاجتماعي لزواجه قد يختلف اختلافا بينا ممـا يسبب العديد من الضغوط والتوترات التي قد تفضى الى الطلاق . وقد تؤدي المواقف الحديثة الى تفاقم الصراعات الشائعـة فـي المجتمع التقليدي ـ مثل المنافسة بين الاخوة غير الاشقاء او رغبة الزوجة من ابناء شعب يوروبا في أن تصبح اكثر استقلالا مـن الناحية الاقتصادية عن زوجها وهو ما يتعارض مع حاجته الـى خدماتهـا .

الدور الاجتماعي في الحياة الزوجية :

لم يكـن اختيار المرء لزوجـه امرا معـدوما في المجتمعات التقليدية على الرغم من ان جل اجراءات الزواج كانت تتم علـى يد آباء واخوة العروسين بل لقد كانت الخطبة أثناء الطفولة امرا

شائعا احيانا بين عديد من الجماعات العرقية . وكثيرا ما تسمع اليوم عن العامل غير الماهر الذي يعيش في الحضر وقد ادخر قدرا كافيا من المال ليكمل به قسطا من صداق الزواج ويرسله الى ابويه سائلا اياهما ان يبحثا له في القرية عن فتاة ملائمة ليتزوج بها عند عودته من المدينة . بيد ان جمهرة المتعلمين من ابناء غرب افريقيا التقوا بزوجاتهم ايام الدراسة بالمدرسة او الجامعة ــ وربما كانت بعض النساء اخوة لزملائهم في الدراسة ــ وسألوا آباءهم أن يباركوا اختيارهم ويوافقوا على زواجهم .

ولقد كان الاهتمام في المجتمعات التقليدية لا يتركز عند اختيار الزوجة على صحة المراة وشخصيتها فحسب بل يتركز ايضا على كل ابناء جماعتها العرقية . اذ كان الاتجاه أن الروابط الناشئة عن الزواج سوف توثق عرى الجماعات العرقية والتي كانت تتنافس فيما بينها في مجالات اخرى داخل مجتمع القرية الصغير . واصبح الزواج اليوم بين ابناء الاسر التي تضم عددا من الشخصيات المتعلمة يستهدف بنفس الطريقة دعم التلاحم بين ابناء النخبة الجديدة . ويتوقع الشاب المتعلم الان ان يتودد الى زوجته ويغازلها وان يقيم معها قبل الزواج روابط وجدانية قوية . وقد تأثر الكثير من اتجاهاتهم بالسينما والصحافةالشعبية لبلاد ماوراءالبحار . ويأمل كذلك في أن تكون زوجته متعلمة ايضا. وينشد الرجل أن توفر له زوجته علاقة صداقة فتكون رفيقته في المدينة التي ينفصل فيها عن اقرب آقربائه من ابناء اسرته . واذا شئنا التعبير عن ذلك حسب المزاج العملي نجد انه ينشد زوجة تحسن تأثيث بيته وقادرة على أن تكرم وفادة ضيوفه بطريقة تتلاءم مع مكانته الاجتماعية .

وقد يصادف المرء رجلا تزوج في مقتبل عمره وهو في العشرينات ، وقتما كان معلما بالمدرسة الابتدائية مثلا ، فتاة لم تتجاوز المرحلة الابتدائية في تعليمها . ولكنه تمكن فيما بعد ، عقب دراسة وكد ، من السفر الى خارج البلاد للدراسة باحدى

الجامعات مخلفا وراءه زوجته واطفاله ــ ويصبح بعد عودته واحدا من النخبة ــ اما زوجته فلا تزال معتادة على طهي طعامها فوق التنور ، وتتحدث الانجليزية بلكنة غير مستقيمة ، وتستشعر الخجل حين تقابل أصدقاء زوجها الذين تلقوا تعليما عاليا . ويشعر الزوج بأنه ممزق بين الولاء لزوجته وبين حرجه من عجزها عن مواكبة اسلوبه الجديد في الحياة . ونلاحظ ان مثل هؤلاء ، وكذلك السياسيين الذين تدرجوا سريعا في مناصبهم ، كثيرا ما يبعثون بزوجاتهم للدراسة في معاهد التدبير المنزلي لاستكمال تعليمهم .

وتكشف عينة من خريجي جامعة يوروبا الذين يعيشون في ابادان أن اكثر من الثلثين لهم زوجات اكملن تعليمهن الثانوي على الاقل أو تعليما فنيا مناظرا للمرحلة الثانوية ، بينما العشر لهم زوجات لم يزد تعليمهن عن المرحلة الابتدائية . ويميل الرجال الى اختيار زوجات اقل منهم تعليما . ونلاحظ ان عشرين بالمائة فقط من خريجي جامعة يوروبا لهم زوجات يماثلنهم من حيث المستوى والمكانة . ومثل هذا الوضع يعتبر امرا حتميا الى حد كبير ذلك لان تعليم المرأة متخلف كثيرا عن الرجال . ويمكن القول ان هذا النقص في عدد النساء المتعلمات أمكن معالجته عن طريق التسهيلات الخاصة بالتدريب المهني للفتاة او الخبرة التي تحصل عليها عند السفر الى الخارج . وبينما يتوقع الاب انفاق خمسمائة جنيه استرليني على مدى ثلاث سنوات لارسال ابنه الى جامعة بريطانية فانه لن يتحمل اكثر من تكاليف السفينة ومبلغا اضافيا ضئيلا لايفاد ابنته الى الخارج ــ اذ تتحمل المستشفى نفقات الاقامة كاملة بما في ذلك احتياجاتها الشخصية طوال فترة تدريبها في الخارج . ولكن الملاحظ في كل الاحوال أن الرجال يفضلون ان تكون زوجاتهم دونهم تعليما . ويستطيع الرجل والمرأة في قطاع الاقتصاد الحديث أن يشغلا وظائف متماثلة في مجال التعليم او الادارة ، وقد تؤدي ندرة المرأة

المتعلمة الى فرص ترقي افضل واسرع من زوجها . ومثل هذا الوضع قد يكون غير مريح للرجال في اكثر المجتمعات ، وهو كذلك يقينا في المجتمعات التي تسودها ، تقاليد سيطرة الرجل ، ونلاحظ في جامعات غرب افريقيا أن طلاب الجامعة الشباب لا يقبلون على مغازلة الطالبات في الجامعة ، وانما يغازلهن عادة موظفون اكبر سنا . وينتقد طلاب الجامعة الشباب الطالبات لما يتسمن به من هوائية وكبرياء وتدلل بزينتهن . ومثل هذا العامل يكشف عن أن غالبية الاناث هن سليلات بيوت متميزة حيث الاب متعلم تعليما عاليا وربما الأم أيضا ، بينما غالبية الذكور من بيوت متواضعة .

وجدير بالذكر ان درجة تبني الاتجاهات التقليدية وتمثل القيم الغربية تختلف بين الجنسين ، ولعل هذا الفارق قد نشأ ابان السنوات الباكرة في المدرسة . وكشفت احدى الدراسات في غانا عن أن الصبية في المدارس الثانوية حين نعرض عليهم رسوم نساء في لباس تقليدي ولباس غربي فانهم اميل الى اختيار الاوليات تعبيرا عمن يفضلونهن زوجات لهم في المستقبل ، بينما رأت فتيات المدارس الثانوية مستقبلهن في أن يكن مثل النساء اللائي يرتدين زيا غربيا . علاوة على هذا فان تعليم المرأة وتدريبها مهنيا يؤكد عندها الرغبة في مواصلة التعلم أو التدريب أثناء الحياة الزوجية ، ومثل هذا الميل يعتبر عاملا هاما جدا لفهم علاقاتهن الزوجية .

وحين يكون عدد النساء المتعلمات تعليما جيدا قليلا فان البحث عن زوجة ملائمة كثيرا ما يفضي الى أن يختار الرجل امرأة من جماعة عرقية غير جماعته . وهذا من شأنه ان يثير ثائرة الأبوين اللذين يفضلان ان يكون الزواج وسيلة لدعم الروابط مع اسرة مجاورة . ويؤدي ايضا الى الحيلولة دون كل من الزوجين والتفاعل القوي مع اقاربه ، أو المشاركة في الشئون الداخلية لجماعة كل منهما .

وكشفت دراسة عن الرجال المتعلمين في عاصمة داهومي عن ان واحدا بالمائة فقط منهم تزوج دون الحصول علي موافقـــة صريحة من اسرته وان ثلاثة ارباعهم دفعوا على الاقل قسطا من الصداق التقليدي . ونلاحظ اليوم ان الابوين المتعلمين أقل ميلا الى المطالبة بدفع مهر لابنتهما المتعلمة ، ولعلهما يتوقعان مــن ابنتهما ان تعوض ما انفقاه على تعليمها بمساعدة الاسرة لتعليم اخواتها الصغار . وعلى الرغم مــن ان العروسين قــد لا يبديان اهتماما مذكورا بحفلات ومراسم الزواج التقليدية الا انهما يذعنان لها عادة . وهكذا فبينما يؤثران اقامة حفل الزواج في الكنيسة مع مراسم الاستقبال الا انهما لا يمانعان في الوقت ذاته من اقامة الحفل التقليدي لاسرتيهما في ضاحية سكنهما .

وتعمل اكثر النســاء المتعلمات اليوم خارج بيوتهن . ويعتبــر هذا امرا تقليديا وطبيعيا بالنسبة لبعضهن مثل نساء يوروبا . ولكن الكثير من اسر النخبة الاولى والتي تسودها قيم الارساليـــات التبشيرية تؤمن بان مكان المراة في البيت حيث يعولها زوجها . وادت الحاجة اليوم الى توفير متطلبات وخدمات اجتماعية افضل للاسرة بعد ان أضحت كل امراة تشعر ان من واجبها الافادة من مواهبها وامكانياتها . وتتميــز بعض هذه المهــارات بالنــدرة ، وتمارسها النســاء على نحو لا يتوقعه المشاهد الغربي .

ويؤدي تصرف المراة في دخلها الــى اثارة بعض المشكلات احيانا . اذ يفضل الرجال عادة ان تسلمهــم زوجاتهم كل مــا يحصلن عليه من دخل ، على الرغم من انهم يسعدون اذ يتركون لزوجاتهم قسطا من المال لاشباع اهوائهن المأمونة . ولكن الزوجة تعزف عن اعطاء زوجها كل دخلها نظرا للشكوك التي تساورهـــا خوفا من ميل الرجل الى الزواج بأكثر من واحدة او خوفا مــن وفاته فتكون آخر من يرثه (وهو غير مألوف حسب القانون العرفي) وظهرت هنا فكرة جديدة وهي انشاء حساب مشترك في البنــك وان لم تحظ هذه الفكرة بقبول على نطاق واسع ـ نظرا لانها تعطي

للمرأة حق مراقبة النفقات الخاصة بزوجها . ونجد كثيرا من الاسر تتبع نظاما خاصا حيث يتولى الرجل مسئولية نفقات منزلية معينة مثل ايجار البيت ومصروفات المدرسة والطعام بينما تتولى الزوجة مسؤولية ملابسها وملابس الاطفال واثاث البيت مثل الستائر وما شابه ذلك . وتكشف الدراسة التي اسلفنا ذكرها عن عاصمة داهومي أن أكثر من ثلث نساء اسر النخبة يتولين مسئولية شراء الملابس الخاصة بهن وباطفالهن ونفس النسبة من النساء يحتفظن بدخلهن .

ويتمسك الازواج المتعلمون داخل بيوتهم بالاتجاه التقليدي الذي ينفر من العمل اليدوي ، وان كان المألوف عادة ان يقوم الخدم بهذا العمل دون الزوجات ـ خاصة اذا كانت الزوجة تعمل طوال النهار خارج البيت . ، وتحصل على راتب كبير كامرأة متعلمة فضلا عن الاجور المنخفضة التي يتقاضاها خدم المنازل (وهي عادة اقل من رواتب العمال غير المهرة ولو ان الخدم يحصلون أيضا على المسكن المجاني وبعض المتطلبات الاخرى) بيد ان الرجال المتعلمين يشاركون بدور نشط في تنشئة الاطفال ، وربما نتيجة اهتمامهم بمظاهر الابوة ودورها . وبدات عادة اجتماع شمل الاسرة عند تناول الطعام تحل محل الاتجاه التقليدي الذي يقضي بأن يأكل الرجال وحدهم وكذلك النساء ، هذا على الرغم من أن عمل الزوج والزوجة والتحاق الابناء بالمدارس يجعل من الصعب التوفيق بين اوقات الجميع ليجتمعوا معا على المائدة .

وبدأت تختفي كذلك بعض الاتجاهات التقليدية نحو الجنس. اذ على الرغم من ان الرجل المتعلم يعلن عدم ايمانه بمثل تلك الخرافات التقليدية الشائعة التي تزعم ان الاتصال الجنسي يفسد لبن الام ، وعلى الرغم من زيادة استعمال الرجال لموانع الحمل ، الا ان الكثيرين منهم لا يزالون يمتنعون عن ممارسة الجنس مع زوجاتهم لمدة عامين عقب كل ولادة .

وينظر الناس الى التعليم غالبا كوسيلة للعيش والارتزاق بينما لا يعبأ الزوجان بالاهتمامات الثقافية التي يمكن ان يشتركا معا فيها،ولا تتوفر في مدن غرب افريقيا سوى فرص ضئيلة لعشاق الموسيقى او المسرح . ويصحب الازواج زوجاتهم الى حفلات الرقص الرسمية ولكنهم لا يصحبنهم لحفلات الرقص في النوادي الليلية وقليلا ما يخرج الزوجان معا مساء على الرغم من أن بالامكان أن يرعى الخدم الاطفال اثناء غيابهما . وكشفت دراسة عن النخبة في ابادان ان لكل من الزوج والزوجة حلقة خاصة به من الاصدقاء اكثرهم أصدقاء الدراسة بالمدارس او الجامعة وأقلهم تم التعرف عليهم أيام الزواج . والمألوف ان تتخذ النساء لانفسهن في الحفلات مكانا مشتركا يجلسن فيه عند احد طرفي الحجرة بينما يتجمع عند الطرف الاخر ، ولا يتبادل الجمعان الحديث الا نادرا . وينشأ عن هذا الوضع نمط عام اذ تتمايز الادوار الاجتماعية داخل البيت لكل من الزوجين ، ويصبح لكل منهما مجاله الخاص ونشاطه ومسئولياته المتميزة عن الاخر ، وتضيق الى حد كبير الادوار التي يشتركان معا فيها .

ويمكن القول ان نمط الادوار المتمايزة والمنفصلة عن بعضها نابع جزئيا من العلاقات التقليدية في المجتمعات الافريقية ، التي تتعدل قيمها بفعل الادوار المهنية المعاصرة وشبكات الاصدقاء الوثيقة الصلة ببعضها التي يكتسبها الزوجان من ابناء النخبة . ولكن بقاءها المستمر يرجع ايضا الى الروابط الوثيقة التي يبقى عليها الناس مع آبائهم واقاربهم المقربين . ولا يزال الكثيرون من الازواج المتعلمين يقولون ان امهاتهم اهم لهم في حياتهم من زوجاتهم ، فالمرء يستطيع دائما ان يبدل زوجة باخرى ولكنه لا يستطيع ان يبدل امه . وقد يناقش المرء مع ابويه أو اخوته بعض الامور مثل بناء بيت جديد او تغيير وظيفة . ونلاحظ ان التوتر بين ام الزوج وبين زوجته ، اذا ما كانت الزوجة تعيش مع حماتها ، اشد حدة مما هو في انجلترا كما تصوره الدعابات المشهورة .

وتستجيب الزوجات عادة باحدى طريقتين في مثل هـذه المواقف فقد تنشد الزوجة علاقة زوجية يتوفر فيها قدر أكبر من المساواة ، او تطالب بحقها في التحـرر مؤكدة بذلك تمايـز دور الزوجين بدلا من المساواة بينهما . ان الحقوق التقليدية التي تتمتع بها نساء يوروبا ـ مثل حقهن في التعاقد ، وسهولة الطلاق ـ تفوق الحقوق التي كانت تتمتع بها المرأة في أكثر المجتمعات الغربية حتى عهد قريب . ولقد كانت ثورتهن ضـد الخضوع الصريح المطلوب منهن ، وهو عامل يوازن استقلالهن الاقتصادي في المجتمع التقليدي ، ولكنهن حين يطالبن بالمساواة مع ازواجهن في البيت فانهن لا ينشدن بالضرورة المساهمة بنصيب أكبر في دورهن داخل البيت او قدرا أكبر من الاحترام المتبادل او عنصرا أكبر مـن الحب الرومانسي وكثيرا ما ينظر الناس الى هذه القسمة الاخيرة باعتبارها غريبة على القيم الافريقية وانها قسمة مكروهة واردة من المجتمعات الغربية .

ولكن على الرغم من كل هذا فان الزوجة من عائلات النخبة الافريقية تحتل بوجه عام مكانة المطالبة بقدر من العلاقات الزوجية المتكافئة ، وتتجاوز مطالبها هنا الحدود التي يرغب الزوج منحها لها . وهي غير أكثر الزوجات في المجتمعات التقليدية من حيث انها تحمل اسم زوجها دون أبيها ، فهي سيدة س نسبة الى زوجهـا . واذا حضرت تجمعا نسائيا فانها تحتـل مكانا يتفق مـع مرتبة زوجها في المجتمع بغض النظر عن مكانتها هي العلمية أو غيرها . وحيث ان الزوج عادة افضل تعليما فان زوجته ترقى الى مستواه. ويستطيع الزوج ان يوفر لزوجته مستوى معيشة افضل ممـا تستطيع ان توفره هي لنفسها ـ وهو يقينا افضل مما يمكن ان يوفره لها أبواها لو قررت ترك زوجها . وتدفـع كل هذه العوامـل النساء الى المطالبة بتطبيق نظام الزواج بواحدة ويتحمسن له اكثر من الازواج ، وينشدن المساواة في الارث بدلا مـن حصولهن على نصيب اقل من الرجل .

ويعمد الازواج من ناحية اخرى الى دعم روابطهم باقاربهم والتي تتضارب عادة مع اخلاصهم لزوجاتهم . ويتلهف الزوج على انجاب أبناء ذكور ، ويعزز الآباء هذه الاماني عند الزوج نظرا لايمانهم بأهمية استمرار الذرية واتصال الجماعة العرقية . واذا انجبت الزوجة اناثا فقط او كانت عاقرا فان الزوج يتجه الى عقد « زواج آخر » وطبيعي ان هذا من شأنه ان يهدد وضع الزوجة ، التي ترى زوجها وقد بدد دخله وانفقه على امراة اخرى ، وعلى اطفال ليسوا اطفالها . ونلاحظ هنا ان رغبتها في الاستمرار في وظيفتها انما هي محاولة منها لتأمين وضعها ضد خيانة زوجها . ولكنها قد تعمل في الوقت ذاته على دعم العلاقات الزوجية أكثر واكثر .

وقد يذهب البعض الى الظن بأن الاسرة في افريقيا الحديثة تفتقر الى السعادة الزوجية بسبب الحديث عن التوترات التي قد تنشأ بين الزوج وزوجته في مواقف التحول الاجتماعي السريع . ولكن ليس ثمة بينة تؤكد مثل هذه الرؤية المتشائمة وليس من الميسور الان الحصول على احصاءات عن معدلات الطلاق في المجتمعات التقليدية للمقارنة بينها وبين معدلات الطلاق لدى المتعلمين من سكان المدن في هذه المجتمعات . وواقع الامر ان معدلات الطلاق بين المتعلمين اقل من غيرها في حالات كثيرة ، وليس السبب فقط ما يقتضيه الطلاق من تكاليف باهظة واجراءات معقدة لدى المحاكم العليا على غير المعتاد لدى المحاكم الجزئية التي تطبق القانون العرفي على الاحوال الشخصية ، بل وبسبب النظرة التي خلقتها الارساليات التبشيرية اذ اعتبرت الطلاق كبيرة من الكبائر . وتنبع السعادة الزوجية من التجانس والتوافق بين توقعات كل من الزوجين عن ادوار كل منهما . وثمة نساء كثيرات اقل من أزواجهن ويخضعن في سعادة لسلطة الازواج بينما نجد أزواجا اخرين يتمتعون بعلاقات متبادلة اكثر تكافؤا .

لسنا ونحن نحاول عرض صورة عامة للعلاقات الزوجية بين النخبة في غرب افريقيا ان ثمة عديد من الانماط المتباينة موجودة ويمكن أن يوجد غيرها . وهذا من شأنه ان يغرينا بالنظر اليهـا كامتداد متصل ابتداء من الانماط الاكثر تقليدية حتى الانماط الاكثر تكافؤا ، كما تغرينا بالاعتقاد بأن وضع أي زوجين يحـدده درجة تعلمهما وهو ما قد يتفق مع قدر من القيم الغربية . بيد أننا لا نجد بينة على صدق هذا الفرض . ان درجة تعلم ابوي كل من الزوجين تعتبر عاملا متغيرا له اهمية كبرى . ترى هل لنـا حينئذ أن نقسم الموضوع الى الجيل الاول والجيـل الثانـي مـن الشعب المتعلم ؟ ولكن هذا يغفل الفوارق التـي تطرأ علـى مدى عشرات السنين وتؤثر على شخصيـة النخبة مـن ابناء الجيـل الاول . لقد كان هؤلاء منذ ثلاثين عاما خلت ــ وهم آباء جيـل اليوم ، وهو الجيل الثاني من الرجال والنساء المتعلمين ــ اقرب الى كونهم أقلية ضئيلة من المسيحيين الجـدد ، المعادين للقيـم التقليدية ، بينما فكرهم وقلبهـم مفتوحان لتعاليم الارساليات التبشيرية . أما اولئك الذين يعتبرون اليـوم اول المتعلمين في اسرهم فانهم نتاج تعلم علمانـي ، وفكرهم وقلبهـم مفتوحـان للايديولوجيات القومية مع التاكيد على قيم المجتمع التقليدي . وهكذا لا يمكن أن نقول ان ثمة فوارق فحسـب بـين القيـم التي يؤمن بها هذان الفريقان من المتعلمين ، بل قد نتوقع أن يختلف بالتالي اسلوبهم في تنشئة اطفالهم .

وتضـم نخبة اليوم نسبة كبيرة من الاعضاء الذين ولدوا لابوين أميين ، والكثيرين منهم ولدوا لابوين متعلمين ــ وهم النخبـة القومية او المحلية من ذوي الثقافة الغربية منذ جيل مضى ، والقلة من اسر ذات خبرة علمية أطول . وثمة دراسة عن المتعلمين من ابناء شعب يوروبا في اباذان تشير الى وجود علاقة زوجية أكثر تكافؤا بين الاباء المتعلمين . واتجـه هؤلاء الى التـزواج فيمـا بينهم مما يوحي بأن الامر لم يحدث لمجرد ان الآباء يرحبون بمثل

هذه الروابط بل لان الشباب نفسه تجمعه اهتمامات متماثلة . ويميل الزوجان من هذا الطراز الى التقليل قدر المستطاع من مظاهر التباين بينهما من حيث مستوى التعليم أو العمر . ولكن لا العمر وحده ولا مستوى التعليم المتكافيء بين الزوجين من ابناء النخبة هما العاملان الهامان بالمثل فيما يبدو ، اذ قد نجد علاقة زوجية تقليدية قوية قائمة بالمثل بين زوجين كل منهما حاصل على درجة الدكتوراة وقضى فترة طويلة في انجلترا ، هذا بينما نجد عديدا من الازواج تجمعهما روابط متكافئة ولم يحصل اي منهما على درجة جامعية او خبرة فيما وراء البحار . وتبدو علاقة التكافؤ ذاتها اكثر وضوحا في صورة تنظيم شئون البيت المالية في تعاون وثيق متكافيء ، وفي صورة عدد كبير من الاصدقاء المشتركين للزوجين ، وفي بيت مؤثث وفق طراز عصري ـ حيث تحل لوحات فان جوخ محل صور الزوج وهو في ردائه الجامعي .

الاباء والابناء :

توجد بعض أوجه الاختلاف الواضحة بين الطفولة في المستوطنات التقليدية لابناء غرب افريقيا وبينها في بيت النخبة . اذ ينشأ الطفل في بيت النخبة وسط الاسرة النواة وبمساعدة عدد قليل من خدم المنازل ، بينما يكون في البيئة التقليدية محاطا بعدد من الاقارب الكبار حيث يسهم اكثرهم بدور في تدبير شئون حياته فضلا عن اعداد كبيرة من لداته الذين يشاركونه اللعب . بيد أن اسرة النخبة ليست دائما صغيرة العدد جدا . فأكثر نساء يوروبا المتعلمات في ابادان لهن خمسة أو ستة اطفال في اسرة كاملة ولقد أجل تدريبهن زواجهن حتى بلغن منتصف العشرينات من عمرهن ولكنهن ينجبن بعد الزواج على فترات متقاربة اذ لا يفصل بين الطفل ومن يليه اكثر من عامين او ثلاثة اعوام . ولا تعتبر العوامل الاقتصادية ذات اثر خطير على الاسرة الكبيرة . ذلك أن الدولة تسهم بقسط كبير وأساسي في اعانة التعليم فضلا عن رخص الملابس . ويملك الاباء من النخبة عددا قليلا نسبيا من الاطفال

حسب معايير مجتمعاتهم التقليدية التي تؤمن بتعدد الزوجات . اما الامهات من النخبة فهن على العكس من ذلك فانهن يرغبن في انجاب اطفال (أو لنكون اكثر دقة ان يبقى لها على الحياة اطفال) اكثر مما لدى نساء المجتمعات التقليدية .

ويتوق الاباء المتعلمون الى الغاء الدور السلطوي الشائع ليس فقط في المجتمعات التقليدية ، بل وأيضا في الكثير من أسر النخبة الاولى التي التزمت بالاخلاق الفيكتورية . ويؤمن هؤلاء بأن مستقبل اطفالهم ليس رهنا « بالقدر » او « ارادة غيبية » بل رهن بما نمنحه من تشجيع وتأييد لتطوير عنصر المبادرة عندهم والتعبير عن اهتماماتهم وشخصياتهم . ولهذا تبذل الامهات نشاطا كبيرا لتدريب اطفالهن على المشي والحديث مبكرا بدلا من الانتظار حتى يجيد الطفل هذه الاساليب في المرحلة المعتادة من عمره . ويساعد الاب في رعاية اطفاله في وقت فراغه . وعلى الرغم من ان الأب المتعلم ينفق كل ساعات عمله بالنهار في مكتبه الا انه يقضي وقتا مماثلا على الاقل مع اطفاله مثلما يفعل الاب التقليدي . ويحدث احيانا ان لا تتوازن اتجاهات الاب ، المفرطة في تسامحها مع دور الام الذي يتسم بطابع السلطة القاهرة . اذ تواصل « افساد » اطفالها حسب الطريقة التقليدية .

ولا يتمنى اباء النخبة لاطفالهم نجاحا ارفع مما يتمناه الاباء التقليديون لاطفالهم . والاختلاف فقط في اسلوب كل من الفريقين في بلوغ اهدافه . ويطمع الاباء التقليديون في ان يشغل ابناؤهم مهنا بذاتها — وبخاصة الطب او المحاماة أو ما شابه ذلك من مهن تتميز بمكانة رفيعة بين العامة . ولكنهم من ناحية اخرى لا يعرفون غير النزر القليل عن هذه المهن وكيفية بلوغها ، ومن ثم فقد يقنعون بالدعاء الى الله ان ينعم على ابنائهم بالنجاح ويشكرونه حين يجتاز الامتحانات .

وهذا على عكس الاب المتعلم فانه لا يدرك فقط الاثر الحاسم للمؤهلات التربوية بل ويعرف ايضا كيف يتعامل مع النظام

التعليمي . ويتفق مع معلم خاص ليحشو راس ابنه بالمعلومات تمهيدا للامتحان وحتى يمكنه الالتحاق بمدرسة ثانوية افضل ، ويمارس نفوذه مع ناظر المدرسة حتى يتجاوز عن ضعف ابنه في اداء اختبار الالتحاق . وتتميز بيئة بيت طفل النخبة بأن الابويين متعلمان فضلا عن توفر الكتب واللعب وهذه كلها عوامل توفر له ميزة على اقرانه من الاطفال ابناء البيوت المتواضعة (هذا على الرغم من ان طفل النخبة اذا كان ابواه يعملان فانه يقضي جل وقته وهو في سنه الباكرة في ظل رعاية مربيات على حظ سيء من التعليم) وينزع الاباء من النخبة الى الثناء على اطفالهم ومنحهم الهدايا عند النجاح لتشجيعهم على المزيد . ويجد الطفل من النخبة كل الحوافز متوفرة تدفعه الى الكشف عن كل طاقاته ، بينما الطفل سليل البيت التقليدي يكابد من أجل تحقيق آمال أبويه .

ويدرك اطفال النخبة عادة وضعهم المتميز في المجتمع اذ على الرغم من انهم قد يلتحقون بمدارس ابتدائية يذهب اليها غالبية من تلاميذ البيوت المتواضعة الا انهم يذهبون الى المدرسة في سيارات آبائهم بينما يرون غيرهم يصلون الى المدارس سيرا على الاقدام لمسافة ميلين او ثلاثة . واكثر هؤلاء هم ابناء لاباء ولدوا في بيوت متواضعة وينكرون الفوارق « الطبقية » في مجتمعهم ولكنهم يميلون الى الحذر الشديد في اختيار اصدقاء أطفالهم ، وغالبا ما يرفضون الاطفال من ابناء البيوت الفقيرة بحجة انهم غلاظ أو اقذار . ويميل الاباء من النخبة الى ان يكونوا اكثر تسامحا ازاء سلوك أطفالهم العدواني اثناء اللعب ، ونلاحظ في المستوطنات التقليدية أن الصراع بين الاطفال قد يفضي الى شجار بين زوجات الاب فيضيف الى ما في نفوسهم من غيرة توترا آخر ، وربما يثير مخاوف زائدة من السحر ، ولهذا يؤكد الاباء على ضرورة التعاون بين الاطفال .

العشيرة والمجتمع الصغير :

ان الرجال والنساء من ابناء النخبة وعمال المصانع الفنيين المهرة وغير المهرة والكتبة والمعلمين يعيشون عادة في المدينة الحديثة بعيدا عن التجمعات السكنية التقليدية لابائهم واخواتهم . ولن نجد غير امثلة قليلة لمستوطنات تقليدية ـ مثل ابادان او بورتو نوفو ـ وقد اصبحت مركزا اداريا او تجاريا مما اتاح لابنائها فرصة العمل في القطاع الاقتصادي الحديث بها ويواصلون في الوقت نفسه الحياة في المستوطنة التي ولدوا فيها . وتختلف الادوار المهنية في القطاع الحديث عنها في الاقتصاد التقليدي . ولكن على الرغم من اختلاف الادوار والمسافات التي تفصل بين أبناء العشيرة فان ساكن المدينة من ابناء غرب افريقيا يحرص على العلاقة الوثيقة جدا التي تربطه ببقية ابناء اسرته في الريف .

والملاحظ ان اكثر ابناء النخبة ، وغالبية سكان الحضر لا يزالون في سن الشباب نسبيا ، فلا يزال اباؤهم على قيد الحياة، ولا تزال الروابط القوية تربط الاباء بالابناء ، والرجال والنساء يزورون بيوتهم قدر المستطاع . ويستطيع الثري منهم أن يستقل سيارته ليزور موطنه الاصلي مرات كثيرة كل عام وقد يزورها العامل غير الماهر مرة كل عامين . وتعتبر المسافة القصيرة للهجرة الحضرية عاملا هاما هنا ، فالمسافات بين المدينة والريف تقاس بعشرات ومئات الاميال وليس بالالاف .

ولنا ان نتوقع على الرغم من الروابط العاطفية ، وجود فوارق كبيرة من حيث اسلوب الحياة والقيم بين نخبة الحضر وبين ابائهم واكثر هؤلاء اميين لا يزالون يعملون بالزراعة ليقيموا بها أودهم ، ومن ثم فان اسلوب التفاهم بين الفريقين سيصبح عسيرا جدا . ذلك لانه كما رأينا من قبل ليس من غير المألوف أن يكون الجراح الماهر او المدرس بالجامعة سليل بيت متواضع . ويبدو وكأن الاباء والابناء ينتمون الى عالمين مختلفين . واذا حدث وأمكن تفادي مثل

هذه الصعاب فالفضل في ذلك الى الاعتراف من جانب اصحابها .
والاباء من اصحاب الاسر المتواضعة لا يطمحون في هجر اسلوب الحياة التقليدية التي الفوها . الا انهم يدركون أن مستقبل بلدهم يتمثل في قطاعه الحديث ، وان المنزلة الاجتماعية الكبرى ستكون للبيروقراطيات الجديدة وفي العمل السياسي والمصانع وليس في اطار التجارة المحلية او رئاسة العشيرة . وبقدر ما يتمنون لابنائهم النجاح ـ وهذا هو حال اكثر شعوب غرب افريقيا المنظمة على اساس قبلي ـ بقدر ما يرون هذا النجاح متمثل في القطاع الحديث ، وان التعليم من اهم شروط بلوغه ـ ويبدو هذا واضحا من خلال ما ادخرته المجتمعات الريفية لتنفقه بسخاء على تعليم بعض ابنائها في المدارس الثانوية او في الجامعة . وكثيرا ما يقصر العامة في اقليمهم عن تقدير الامكانيات اللازمة للنجاح الدراسي أو طبيعة المهن التي تعتبر في نهاية الامر جزاء الدراسة الاوفى . بيد انهم تعلموا فهم رموز مثل هذا النجاح من سيارة فارهة ، دليل على الثراء وسترة انيقة محكمة ورباط عنق جميل وغير ذلك من رموز تدل على ان المرء حظي بالقبول في عالم الاوروبيين . ويؤثر اكثر الشباب العائدين من الخارج حاملين درجة جامعية الاسترخاء في البيت مرتدين زيا تقليديا او على الاقل قميصا غير رسمي أو سروالا طويلا فضفاضا ، بينما يطالبهم الاباء بالظهور في القرية بملابسهم الانجليزية الشتوية . وتعتمد مكانة الابوين في مجتمعهما الصغير على نجاح أبنائهم . وتعي ذاكرة الانساب اسماء الكثيرين من الاسلاف لانهم كانوا اباء لاشخاص ذوي أهمية وشأن كبير على الرغم من ان الاسلاف انفسهم كانوا عاطلين من اي قدرة شخصية . ولهذا فان القرية التي يندر فيها خريجو الجامعات تستقبل عادة خريجها الجديد بمواكب حافلة وقد تتبع هذا بقداس كنسي يؤدي فيه الناس صلاة شكر لله على نجاحه وسلامته .

ويبدي احيانا شباب المتعلمين من الرجال والنساء بدورهم تبرما وضيقا بقيم واساليب الحياة التقليدية ويشعر البعض بالخجل من ذويهم . ونادرا ما يعود الرجل من الخارج حاملا معه طاقما كاملا من الثياب الغربية هدية لامه حتى تبدو امرأة « متحضرة وليست مصدر حرج له » . بيد ان هذا الرفض للمجتمع الاصلي كان اكثر شيوعا في مطلع القرن الحالي ثم حل محله نبذ وانكار للاتجاهات التي تستهدف تمثل التقاليد الغربية. وبات الافريقي يبحث عن ثقافته الاصيلة ، محاولا جهده الحفاظ على عناصرها الافريقية . ويمثل اباؤه في كثير من الاحوال هذه الثقافة التقليدية ، ومن ثم يحترم اسلوبهم في الحياة . واصبحنا نشاهد الكثيرين الذين يسألون ذويهم من كبار السن ان ينظروا باكبار وتقدير الى تراثهم ، الذي حرموا من تعلمه ايام الدراسة ونتيجة غيابهم زمنا طويلا عن وطنهم .

وقد يتوفر الاحترام المتبادل بين الجيلين . ولكن الصعاب التي تظهر غالبا ما تتعلق بالمسائل العملية . فالأم تخاف جهاز الطبخ الكهربائي الذي اشترته زوجة ابنها ـ وربما يكون مثارا للسخرية عندما تعجز عن طهي حساء شهي المذاق مثل الذي كانت تطهوه الحماة على التنور . وتعتبر اسرة النخبة زيارتها لموطن نشأتها رحلة تحتاج الى ان تجهز لها العديد من المهام مثل الاسرة والطعام المعلب والماء المغلي وغير ذلك من وسائل الراحة غير الميسورة في القرية . ويعامل الابناء اباءهم المسنين بنفس الاسلوب الذي اعتادوا عليه ولا يحاولون دفعهم الى تغيير عاداتهم . بيد انهم يتجشمون كل الصعاب من اجل توفير الرعاية الطبية اللازمة اذا ما اصاب المسنين مرض . واذا احتاجت الاسرة مساعدة مالية فانها تتجه اساسا الى الشباب من ابنائها .

ويوجد بين اخوة واخوات ابناء الجيل الاول من النخبة التي تعلمت تعليما غربيا ، رجال ونساء يشغلون العديد من المهن المتباينة . اذ من المألوف ان يذهب ابن واحد فقط الى المدرسة

الثانوية او الجامعة بعد توفير الفائض من الامكانيات المالية لابيه وربما لكل عشيرته لاستثمارها في تعليمه اذا وفق في الالتحاق بالمدارس . ولهذا فليس غريبا ان نرى واحدا من كبار موظفي الدولة في عاصمة من عواصم غرب افريقيا يذكر بين اخوته من يعمل مدرسا بالتعليم الابتدائي او نجارا ، او مزارعا في ارض ابيه . وتظل الروابط العاطفية هنا قوية بين الاشقاء حتى وان لم يتزاوروا الا قليلا .

ويشعر المرء المتعلم من ابناء غرب افريقيا بالتزام قوى ،سواء انفقت اسرته على تعليمه ام لم تنفق ، للعمل على رفع مستوى افراد اسرته والعمل اولا على مساعدتهم للتعليم وثانيا لشغل افضل الوظائف الملائمة لتخصصهم . ويعتبر هذا الشعور بالالتزام الادبي المقابل لما تتوقعه الاسرة من ابنها النابه الناجح بان لا يقدم لها مكانة ادبية فحسب بل وجزاء ماديا لكل الجماعة.

واول الواجبات الملقاة على المرء الخير هو تعليم اخوته واخواته الصغار . والملاحظ في المجتمعات التي تظل فيها المراة تحمل طوال فترة اخصابها أن الفاصل العمري بين الابن الاكبر وبين الابن الاصغر يصل الى عشرين عاما تقريبا . معنى هذا ان الابن الاكبر اذا تخرج في الجامعة وبدأ يتكسب رزقه بعمله ويحصل على دخل خاص به فان بعض اخوته الصغار يكونون عند اول عتبة للالتحاق بالمدارس الثانوية ، ومن ثم يكون واجب الابن سداد مصروفات التعليم الخاصة بهم .

ونلاحظ ان الكثيرين من ابناء جنوب نيجيريا ممن يكسبون الفي جنيه استرليني في العام ينفقون قرابة ربع هذا المبلغ على تعليم ابناء عشيرتهم ، وقد ينفق صغار الكتبة نسبة اكبر . ومن المعروف أن طلاب الجامعة يقتطعون جزءا من منحهم الدراسية المالية ليدفعوا مصروفاتهم هم ، علما بأنهم يخاطرون باحتمال طردهم من الجامعة (ولو انهم ينجحون في تفادي هذه العاقبة) .

وجدير بالذكر ايضا ان استثمار المال في التعليم لا يجلب الابهة الاجتماعية فحسب للاسرة بل يجلب جزاء ماديا كبيرا . اذ يحصل خريج المدرسة الثانوية على دخل يتراوح ما بين ٢٥٠ ــ ٧٥٠ جنيها استرلينيا في العام ويصل الى الفي جنيها استرلينيا اي بمتوسط قدرة ١٥٠٠ جنيها استرلينيا في العام ــ او انه يحصل على الف جنيه في السنة زيادة على دخل خريج المدرسة الثانوية. معنى هذا ان استثمار خمسمائة جنيه استرليني في التعليم باحدى الجامعات الافريقية (والتي تقدم لها الحكومات اعانات كبيرة) يغل عائدا سنويا يصل الى اكثر من ٢٠٠ بالمائة في المتوسط خلال الثلاثين عاما التالية .

ويوجه العاملون مدخراتهم الى الاسر مباشرة ذلك لان طرق الاستثمار الاخرى ــ مثل التأمين على الحياة او التعليم ــ لا تزال امورا غير شائعة . وطبيعي ان يلزم عن هذا الوضع أن يركن الرجل بدوره الى اسرته اذا ما أصابه عجز نتيجة فقد الوظيفة او المرض او الموت المبكر لكي تتولى الاسرة رعاية اطفاله لتكملة تعليمهم .

وتتزايد نفقات أبناء النخبة على ابنائهم نظرا لانهم يتطلعون الى تعليمهم جميعا ، او اكثرهم ، تعليما جامعيا ، ويبعثون بهم الى مدارس باهظة التكاليف ليؤمنوا لهم اجتياز امتحانات الالتحاق بالمراحل الاعلى ، هذا فضلا عن أن التوسع في التعليم العالي يؤدي الى نقص مطرد في اماكن المنح الدراسية . وقد يكون من الصعب ان يعلم المرء ابناءه ليصلوا الى المستوى المرموق وأن يحقق في الوقت ذاته تطلعات الاسرة . ولهذا لم يعد غريبا ان نرى شيوخ الاسرة يحاجون قائلين انه لا ينبغي على المرء ان ييسر لابنائه جميعا تعليما جامعيا بينما ابناء اخوته عاجزين بسبب الفقر عن الالتحاق بالمدارس الثانوية . كذلك فقد تلح الزوجة وتبذل طاقتها للضغط من اجل تعليم ابناءها هي ، ولا يعنيها كثيرا ابناء اخوة زوجها . ولا ريب في ان الاثرياء من الرجال يميلون حتما الى اعطاء

الاولوية لاهتمامات اسرهم الصغيرة وتفضيلها على مصالح الابعدين من أبناء العشيرة وهو ما من شأنه ان يؤدي بالضرورة الى اضعاف تلاحم الجماعـات العرقية التقليدية . بيد ان هـذا الصـراع لا يزال ضعيفا غير واضح في المرحلة الانتقالية الراهنة . ونلحظ من اعراضه تأكيد بعض شباب غرب افريقيا على ان المسئوليـة والولاء للعشيرة تسمة اصيلة في الثقافة الافريقيـة يستحيـل استئصالها ، ويمايزون بينها وبين النزعة الفردية في اسر الطبقة المتوسطـة الغربية .

ولقد اكدنا فيما سبق القوة المطردة للعلاقات بين ابناء المـدن وابناء عشيرتهم في الريف . ولكن الى اي مدى تؤثر هذه الروابـط على مجموع المجتمع المحلي ؟ اننا حين تحدثنا عن المساعدة المالية للاسرة تبين لنا ان اقرب الاقربين هم اكثر المستفيدين . ان المـرء لا يسعه تعليم كل شباب جماعته العرقية . ولهذا فانه حين يمد يد العون الى اقرب أقربائه فان الهوة بين هذا القطاع من الجماعة وبين غيرها تتسع تدريجيا . وحدث في الماضي ايضا ان حـاول الرجل الثري او صاحب النفوذ السياسي ان يفيد كثيرا اقرباءه المقربين ، ولكن ثراءه كان يتجلى في الزواج بأكثر من واحدة ومـن ثم في انجاب الكثير من الاطفال مما يؤدي الى ان يصبح قطاع اسرته من جماعته العرقية اكبر حجما واقوى نفـوذا بالقيـاس الى القطاعات الاخرى . ولكن ستظل ذرية عضو النخبة الحديثة مـن الجماعة قليلة العـدد .

واذا كانت الروابط التي يخلقها الرجل بمساعداته الماليـة توثق علاقته بأقربائه المقربين فقط فان ثمة عوامل اخرى تجذبه الى حياة جماعته الواسعة . فاباء الرجل الناجح يسعون ، فـي محاولتهم دعم مركزهم الى جـذب ابنهـم للمشاركـة في شئون جماعته ، مؤكدين الحاجة الى مشورتـه أو الاستفادة من نفـوذه في العاصمة . ولـن تتوانـى الجماعة في السعي مـن اجل دعمه

وتأييده . وتبذل الجماعة جهدها للحصول على قدر اكبر من الخدمات لقراها (على حساب جيرانها عادة) ويعتمدون في سعيهم هذا على خبرة ابنائهم المتعلمين ، سواء في داخل البلاد أم خارجها. وتصادف توقعات الجماعة عادة قبولا من النخبة التي تتحمل مسئولياتها راضية .

ونلاحظ ان سلالة المهاجرين الذين استوطنوا مدينة لاجوس القديمة منذ منتصف القرن التاسع عشر يصفون انفسهم باللاجوسيين ولا يذكرون اسم البلد التي انحدروا منها مثل اجبا او اجيبو الا اذا الححت عليهم . ويبدو أن المدن الحديثة ستطور « مواطنيها » الحاليين ولكن اكثر سكانها الحاليين الوافدين اصلا من الريف يعربون عن رغبتهم في العودة الى موطن نشأتهم عند الاحالة الى التقاعد . ويقبل هؤلاء عادة على بناء بيت لهم في موطن نشأتهم خلال فترة عملهم وذلك من باب الاستثمار وتعبيرا عن طيب نواياهم . ولكننا لا نعدم العثور بين هؤلاء الناس ، مثل ابناء شعب الابو المشهود لهم بالحنين الشديد الى مسقط رأسهم، رجلا ثريا ولكنه لا يبني لنفسه بيتا بل وربما يتنكر لمنشئه .

ويعتبر مجتمع القرية بالنسبة للعامل الفقير في الحضر مصدر امنه وملاذه الوحيد عند الاحالة الى التقاعد والشيخوخة . ويستطيع باعتباره عضوا في الجماعة العرقية ان يؤكد حقوقه في الزراعة اثر عودته الى بلده ويحتل في مجالس الجماعة العرقية والقرية المكان اللائق بسنه . وقد يتطلع الرجل الثري الى المجتمع الذي نشأ فيه لكي يشغل منصبا سياسيا في سلم المراتب التقليدي او في الحكومة المحلية او ليكون نائبا عنه في الجمعية الوطنية .

وتتدعم روابط المدينة الحديثة بموطن النشأة عن طريق الجمعيات والاتحادات العرقية (التي سنعرض لها في الباب التالي) . وطبيعي انه حين تلتقي هذه الاتحادات فان من لم يزوروا مسقط رأسهم منذ شهور عديدة سوف يلمون بكل شاردة

وواردة تتعلق ببلدهم عن طريق العائدين منها مؤخرا . كذلك فان كل مسافر سيحكي لاهل قريته عن امور ابنائها في المدينة وعن كرم بعضهم وتبرم البعض الاخر ومتاعبهم . وحين يعود المهاجر الى قريته فانه لا يشعر فقط انه لم يفقد البتة روابطه الوجدانية بها بل يعود اليها وفي جعبته امال ومشاريع لخدمة مجتمعه .

النزعة الفردية والاسرة الحديثة :

اننا في معرض مناقشتنا لتحول علاقات الاسرة في غرب افريقيا اكدنا على الانجاز بمعنيين اثنين .

اولا : العلاقة بين الزوج والزوجة ، وبين الابوين وابنائهما في البيت المتعلم ، وكيف انها قد تغرس في شخصية الابناء حافز الانجاز الفردي ــ الرغبة في ان يستشعر احساسا باطنيا بالتفوق والرفعة دون اعتبار لاراء الاخرين . ورأينا ايضا الضغط الذي تمارسه الاسرة التقليدية ، بالاضافة الى ضغط كثير من شعوب غرب افريقيا ، على ابنائها لشغل مناصب ذات جاه وهيبة . وقد نتوقع في مجتمع لا يمر بتحولات سريعة أن تتسق قيم الاسرة الى حد ما مع عمليات التنشئة الاجتماعية للطفل . ولكن من الممكن في المجتمعات التي تمر بتحولات اجتماعية ان يؤول الشيوخ قيم الانجاز التقليدية في سياق عصري متوقعين النجاح في المهن الجديدة ، بينما تقصر انماط تنشئة الطفل عن تأهيل الفتى للمهام اللازمة .

ويقال عادة ان اطراد الروابط القوية بالاسرة الكبيرة من شانه أن يعوق عملية التحديث والتنمية الاقتصادية . ويحتاج مثل هذا الرأي بالنسبة لغرب افريقيا الى قدر من التوضيح . اذ يقال ان الاسرة الكبيرة تؤدي الى تبديد المدخرات التي كان بالامكان استثمارها على نحو انتاجي . فثمة هدايا كثيرة لا فائدة منها يقدمها الناس لذويهم . ويعيش العاطل عالة على أقربائه الاثرياء ، ويحتقرون الوظائف التي تبدو في نظرهم دون مرتبتهم الاجتماعية .

وهذا كله نقد صحيح الا ان قدرا من المساعدات المالية يقدمها المرء الثري للفقراء حقا وصدقا ممن لا تقدم لهم الحكومة عونا او مساعدة . وكما سبق أن راينا فان مدخرات الاسرة تتجمع عادة لاستثمارها في التعليم . وهو ما من شأنه ان يعود بالفائدة على المجتمع ككل . ويقال علاوة على هذا ان الرجل الثري حين يجد المساعدات تستنزف دخله فانه يعزف عن الجد من اجل الثروة (تماما مثلما يحدث في المجتمع الصناعي حين يكف الناس عن بذل الجهد والمبادرة بسبب الضرائب العالية) . بيد ان ابناء غرب افريقيا لا ينظرون الى الامر من هذه الزاوية . ذلك ان ما تعقده عليه اسرته من امال قد يكون حافزا لبذل المزيد من الجهد ، فضلا عن ان ما يقدمه المنتفعون بالمساعدة من توفير وولاء يعتبر جزاء في نظر الكثيرين ممن يلتزمون بالقيم التقليدية .

وثمة راي بأن الاسرة الكبيرة تدعم احيانا التجانس والتماثل بين اعضائها ، ولا تحث على التغيير . ولعل هذا يتجلى بوضوح كبير في المجتمعات الزراعية حيث يؤدي الابناء نفس مهن الاباء ، ويبدو ان التقسيم الاجتماعي ثابت . ولكننا راينا فيما سبق كيف وأن الكثيرين في المجتمعات القبلية في غرب افريقيا ممن ولدوا في بيوت متواضعة لاباء فلاحين فقراء قد اصبحوا اثرياء ذوي نفوذ قوي شأنهم شان التجار وشيوخ القرى . بل واكثر من هذا ان ابناءهم لم يرثوا عنهم مركزهم ووضعهم الاجتماعي وانما كان عليهم ان يشقوا طريقهم بأنفسهم في الحياة .

ان كل ما فعله المجتمع الحديث ان قدم ادوارا جديدة يمكن ان يتجلى من خلالها الكد التقليدي بحثا عن الثراء والسلطة . ويسعى شباب غرب افريقيا المتعلم جاهدا من أجل بلوغ اهدافه وهو في هذا قد يتصرف وكأنه يخشى لوم الشيوخ تماما مثلما يتصرف لو انه في الريف . ولكن نظرا لانهم يحيون في المدينة فان باستطاعتهم تحاشي الكثير من النقد ويكون الحكم عليهم في بلدتهم على اساس ما حققوه من نجاح وليس على اساس ما اتخذوه من سبل للنجاح .

٨

الروابط الاجتماعية في الحضر

عندما يترك الرجال والنساء الريف مهاجرين الى المدن الحديثة فانهم يفقدون الى حد ما الفوائد التي تعود عليهم مقابل عضويتهم في الروابط التقليدية ـ جماعة العرق وجماعة العمر . حقا انهم في غيابهم لا يفقدون حقوقهم في هذه الروابط اذ بالامكان استعادتها فور رجوعهم ، ولكن هذه الروابط الريفية لا تستطيع ان تكفل لهم اثناء حياتهم في المدينة الامن الاجتماعي او وسائل الترويح التي يتمتع بها المقيمون في بلدتهم . بيد ان سكان المدن لا يعيشون فرادى كذرات متناثرة ، وانما يشكلون لانفسهم عديدا من الروابط الجديدة ، يعبرون من خلالها ليس فقط عن اهتماماتهم ومصالحهم الجديدة التي تمليها حياة المدينة والعمل في القطاع الحديث بل ويعبرون ايضا عن مصالحهم في قطاع الريف والذي ترعاه روابط الريف في مسقط راسهم . ومما يثير الحيرة ذلك التباين المطبق بين روابط الحضر : روابط عرقية او قبلية ، وروابط لخدمة مصالح اقتصادية جديدة ـ اتحادات حرفية ونقابات وغرف التجارة ونوادي للترويح ، ومنظمات وجمعيات للشباب ـ الكشافة وما شابهها ـ والصليب الاحمر والشبان المسيحيين ، جماعات قدامى خريجي المدارس الثانوية والجامعات ومحافل ماسونية ، واحزاب واتحادات سياسية ، والكنائس والفئات والطوائف الانجيلية المختلفة وجمعيات النشاط الاجتماعي .

ويمكن القول دون تجاوز كبير ان كلا من هذه الروابط تساعد اعضاءها على التأقلم مع حياة المدينة ، فالقيم الرائجة هي القيم الملائمة لظروف المدينة . ويتعلم المهاجر الجديد من خلال عضويته

في الرابطة القيم الجديدة وانماط السلوك المألوفة في المدن . ويستطيع الاعضاء القدامى ان يحولوا دون انحراف الوافد الجديد بفضل ما يفرضونه من جزاءات ثوابا او عقابا . وتختلف طرق تنظيم الكثير من روابط الحضر اختلافا جذريا عنها في الريف حيث تلتزم روابط المدينة بقواعد شكلية للحوار وتسجيل دقائق الامور فضلا عن خلق ادوار او وظائف جديدة للسكرتارية وامانة الصندوق . وطبيعي انه من خلال تطبيق هذه الطرق حتى ولو في مرقص يصبح العضو معتادا عليها ويألف امثالها في المؤسسات الكبرى الحكومية والتجارية او في البرلمان . ولكن لا نزعم ان كل الروابط الحضرية تفيد في دعم القيم الملائمة للاقتصاد الحديث ، ذلك ان بعضها يعزز في المدينة قيم الريف التي حملها معهم الوافدون من بلادهم . وبينما توفر هذه الروابط الامن الاجتماعي لاعضائها فانها قد لا تؤثر كثيرا لحفزهم على تبني انماط السلوك الخاصة بالمدن . وتطرح روابط المدن على المهاجر ضروبا متباينة من الاوضاع الجديدة ليختار منها ما يروقه ، فقد يختار بين القاء نفسه كاملا في خضم حياة المدينة او ان يحد من علاقاته قدر الامكان ويجعلها قاصرة فقط على ابناء جماعته العرقية . بيد ان الاختيار المتاح للمهاجر تحكمه غالبا معايير الثراء والتعليم .

ولكن تباين وتعدد روابط المدينة يجعل تصنيفها امرا عسيرا. واحد المعايير هو الاصل او المنشأ . فالكثير من الروابط جاءت عن طريق الاجانب ولا يزال بعضها يمثل فرعا من هيئات دولية جرى تنظيمه على نفس النسق المألوف في كل البلدان . مثال ذلك : كنائس غرب افريقيا ، والمدارس وفرق الكشافة والمرشدات والمؤسسات الخيرية ونوادي الروتاري والماسونيين وكلها تنتمي الى هيئاتها الأم . وشجعت الجماعات النقابية في البلدان الاستعمارية تاسيس نقابات في المستعمرات . وانشئت روابط كثيرة وبخاصة المؤسسات الخيرية على يد زوجات موظفين اجانب وجذبوا لعضويتها النساء الافريقيات المتعلمات ثم سلموهن ادارتها من بعدهن .

وثمة روابط اخرى محلية النشأة غير موسومة باي اثـــر أجنبي ولا تحاكي اي مثال غريب . ونذكـر مـن بينها الروابط العرقية والكثير من فرق الرقص وجمعيات المساعدات المتبادلة . وتتحدد مسوغـات العضويـة في ضـوء معايير تقليدية للجماعة العرقيةوجماعة العمر ، كما تتوزع الوظائف حسب مكانة المرء ــ من حيث العمر او طول الاقامة في المدن ــ اكثر منها بالنسبة للثروة أو التعلم او القدرة . ويبـدو أن الكثير مـن الروابط الحضرية ليست سوى صور معدلة لروابط تقليدية ــ والفارق بينهما هو ما أملته فقط ظروف المدينة .

ولعل من المفيد ان تلقى نظرة فاحصة علـى ما تؤديه هـذه الروابط من اعمال لاعضائها . اول شيء هو الضمان الاجتماعي ، ان يوفر اعضاء الرابطة فرصة عمل لكل منهم ، ومساعدة العاطل والمريض ، والمساهمة في تنظيم ودفع نفقات تشييع الموتى ودفنهم واعادة ذويه الى مسقط راسهم . ويعتبر الترويح والترفيه مـن أهم الخدمات التي تقدمها الرابطة لاعضائها . وتعمل الروابط بدرجات متفاوتة على توفير وظائف لكل القادرين على المنافسة والطامحين الى القيادة ، فضلا عن ان بعض هذه الوظائف قـد تفيد فقط بما تضفيه من مهابة داخل الرابطة . ولكن بعض هذه الوظائف لها احترامها وتقديرها لدى الكافة ويستفيد بها أصحابها كوسيلة لشغل مناصب ارقى . وأخيرا فان هذه الروابط تكيف اعضاءها ، كما اسلفنا ، مع معايير الحياة المدنية اذ تمارس عليهم درجة من التوجيه والتحكم الاجتماعي فتغرس فيهم هذه المعايير. ولكننا لا نزعم ان كل الروابط تفي بهذا الغرض فأكثر النوادي الرياضية تقصر نشاطها علـى الجانـب الترفيهي ولا تقوم بدور روابط العون المتبادل بـل ولا تسأل العضو عـن سلوكه خـارج النادي . اما الروابط العرقية فهي على العكس اذ تفي بكل مـن الوظائف سالفة الذكر الى حد كبير على الرغم من تباين احتياجات الاعضاء لتباين فئاتهم الاجتماعية .

وكم هو مستحيل علينا ان نناقش كل الروابط القائمة اليوم في مدن غرب افريقيا الحديثة . بيد أن بالامكــــان أن نلقي نظــرة فاحصة على بضع امثلة مختارة من بين ثلاث فئات عامة :

الروابط التقليدية وهي عـــادة ذات اصل محلي وتتطلـــــع دائمـــا الى الريف ، والروابط التي تخدم مصالح عمـــال المدن ــ مثـــل النقابات وروابط النخبة ــ وعضويتها قاصرة اساسا على الاثرياء وخريجي الجامعات ، وتقدم لاعضائها العديد من الخدمات الخيرية والترفيهية فضلا عن انها تخلق انماطا سلوكية جديدة بين النخبة، وتساعد على تحديد المراكز الاجتماعية الجديدة وتوفير سبــــل جديدة للتقدم لكل الطامحين من اعضائها .

الــروابط التقليدية :

لنعرض اولا الروابط العرقية من الطراز الذي اقامه كثيرون من ابناء ساحل غينيا والتي تمثلها روابط الشعوب المتحدثة لغـــــة الابو Ebo والادو Edo في شرق ووسط غرب نيجيريا .

ان المهاجر من الريف الى المدينة الحديثة يراوده الامل عادة في الالتقاء ببعض ابناء قريته هناك . وواقع الامر ان اختيار المدينـــة التي يهاجر اليها المرء تحدده عوامل اساسية منها وضع وسكنـــى المهاجرين السابقين ونجاحهم هناك . وينزل المسافر على اقــرب أبناء عشيرته وهو على ثقة من انهم سيرعونه الى أن يجد عملا فـــي مهجره . ويشعر مضيفه بالتزام ادبي ازاء الوافد الجديد بــأن يقدمه الى أصحاب الاعمال المعروفين لديه ، وربما يقرضه المـــال اللازم ليرشو صغار الموظفين . وتقتصر اتصالات المهاجر أول الامر على أبناء جماعته العرقية من سكان المدينة .

وينخرط الوافد الجديد في اقرب فرصـــة ضمن صفوف الرابطة العرقية الخاصة به . وتتشكل هذه الروابط على اساس القرية الواحدة او مجموعة قرى اذا كان عدد المهاجرين من القرية الى المدينة قليلا .

ونلاحظ في الدول المتحدثة بالفرنسية ان الوحدة الاساسية هي الكانتون او الضاحية عادة ـ وهي وحدة لا تقوم على اساس الانتماء السلفي بل الانتماء السكني . وانه لامر مألوف ان ينتمي الى الرابطة كل ابناء القرية او القرى المعنيين من سكان المدينة ، وهذا هو ما يفعله الفقراء نظرا لان الفوائد التي تعود عليهم من الانضمام الى الرابطة اكبر من اي فائدة تعود عليهم من مصادر اخرى . ومن اليسير على ابناء النخبة ان يرفضوا الالتزامات المعقودة عليهم ، ولكنهم لا يفعلون ذلك الا اذا لم تكن لديهم نية العودة الى الحياة في القرية . ويجري عقد الاجتماعات بصورة دورية ، ويعقد ابناء كل قرية احيانا اجتماعا منفصلا في يوم من ايام الآحاد ايضا ، بينما يلتئم شمل ابناء مجموعة القرى في اجتماع شامل في يوم الاحد التالي . والملاحظ أن الاقبال على هذه الاجتماعات طيب عادة ، كما يستخدم المسئول عن الرابطة الاساليب التقليدية لمحاسبة الغائبين والمتخلفين . وتعقد الاجتماعات عادة اما في بيوت الرؤساء او في بيوت اعضاء اخرين بصفة دورية . ومن المألوف أن يقدم المضيف في يومه طعاما وشرابا للمجتمعين .

وتضم المكاتب القيادية للجماعات العرقية أكبر الاعضاء سنا او اقدمهم مقاما في المدينة . ويجري الحديث في الغالب الاعم اثناء الاجتماعات باللغة العامية حتى يتسنى لكل الاعضاء المساهمة مساهمة كاملة مهما كانت درجة تعلم العضو ، ولكن يتم تسجيل دقائق الامور ومحاضر الجلسات باحدى اللغتين الانجليزية او الفرنسية ذلك لان خريج المدرسة يجد الكتابة باحدى هاتين اللغتين أيسر عليه من الكتابة باحدى اللغات العامية . وتضم مكاتب السكرتارية وامانة الصندوق خيرة المتعلمون من الاعضاء ويكونون من الشباب عادة ، أما الاثرياء والمتعلمين فتخصهم الجماعة بقدر من التبجيل والشرف ـ وربما تخصص لهم مكانا افضل مما يتناسب مع سنهم ـ دون تحديد وظيفة خاصة بالضرورة .

ويستهل الاعضاء اجتماعاتهم بصلوات تماثل صلواتهم في الروابط التقليدية في الريف ، كما يتبعون « بروتوكولا » يحاكي نهجا تقليديا محليا . وتتناول الموضوعات المطروحة للمناقشة مشكلات الحياة في المدن . وبعد استكمال كل الاجراءات الشكلية والرسمية للاجتماع يشرع الاعضاء في الاسترخاء ويروحون عن انفسهم بالرقص وغناء بعض من اغاني قريتهم . ويعتبر هذا الضرب من الترفيه اهم شيء بالنسبة لعمال المدن غير المهرة . ويقيم هؤلاء خلال حياتهم اليومية العديد من العلاقات مع اصحاب الاعمال وزملائهم من العمال ومع التجار في السوق وجيرانهم . ويختارون اصدقاءهم الشخصيين دائما من بين أبناء جماعتهم العرقية الصغيرة أو من بين من تربطهم بهم علاقات وثيقة اثناء العمل . وقد لا ينتمي احدهم الى رابطة اخرى في المدينة ذلك لان اميتهم او ضعف مستوى تعليمهم يحول دون انضمامهم الى النوادي الرياضية او جماعات دراسة الانجيل .

ويبذل اعضاء الروابط العرقية جهودا نشطة للبحث عن وظائف للوافدين الجدد الى المدينة او لمن تعطلوا من عملهم . ويساند ابناء العشيرة قريبهم المتعطل . واذا اصاب احدهم عجز بسبب الشيخوخة أو ضعف بدني او عدم كفاءة او تعطل لفترة طويلة جدا فانهم يلحون عليه للعودة الى القرية ولكنه يأبى خجلا من أن يعود الى قريته بغير ثروة وهنا قد تضطر الرابطة الى دفعه الى العودة قسرا .

واذا توفي واحد من سكان المدينة فان اعضاء رابطته العرقية يتكفلون باعداد مراسم جنازته . ويتولى المسئولان عن الرابطة دور منفذي الوصية للشخص المتوفى ، فيسجلون املاكه ويرسلون بيانا بها الى شيوخ جماعته السلالية في القرية حتى يتسنى توزيع ممتلكاته وفق العرف السائد . وتشمل الرابطة ارملة المتوفي برعايتها وقد تعيدها الى القرية ان كان ذلك ملائما . ونلاحظ عدم وجود روابط عرقية في شرق وجنوب ووسط افريقيا ، ويرجع

سبب ذلك جزئيا الى ان العمال الصناعيين في هذه الاقاليم يعيشون في مستوطنات مملوكة للشركات الصناعية ، كما تتولى ادارات هذه الشركات مهمة تنظيم الجنازات واعادة ذرية المتوفي الى قريته .

ونذكر من أهم وظائف الرابطة العرقية حسم الخلافات التي قد تثور بين اعضائها . وليس الدافع الى ذلك مجرد حرص الاعضاء على ان ينأوا بخلافاتهم بعيدا عن ساحات المحاكم والشرطة في المدينة (والتي تستخدم عادة قوانين ذات مفاهيم غريبة عليهم) بل لان الشرطة تحجم بدورها عادة عن التدخل في الامور التي لا تشكل مشكلة خطيرة تهدد الامن . وتطبق الروابط العرقية في حسمها للخلافات القانون العرفي السائد في موطن اعضائها . وتحرص الروابط ايضا على صون سمعتها والحفاظ على سمعة جماعاتها العرقية ، ولهذا فقد تلجأ الى اجراءات صارمة للحيلولة دون وقوع اي عضو في اخطاء كبيرة تهددها مثل السرقة او ادمان الخمر .

عرضنا بايجاز الفوائد التي تعود على الاعضاء من جماعتهم العرقية ، والتزامات الاعضاء تجاه بعضهم البعض . وثمة جانب اخر وهام من نشاط هذه الروابط ونعني به علاقتها بالبلدة او مسقط راس الاعضاء . وينعكس هذا في الاسماء التي تتخذها لنفسها.رابطة التقدم او رابطة الاصلاح .

ويقضي اعضاء الرابطة جل وقتهم اثناء الاجتماعات في مناقشة اخبار وشئون بلدتهم . وكشفت دراسة اجريت في عدد من قرى الابو عام ١٩٦١ عن ان ثلاثة ارباع المهاجرين قد عادوا الى وطنهم خلال الاثنى عشرة شهرا الماضية . وتنظم بعض القرى موسما لاحتفالات عيد الميلاد « الكريسماس » ويجري الاحتفال كل عام او كل عامين ، وتنتظر القرية حضور كل ابنائها هذا الإحتفال الموسمي ، وتضم قرى كثيرة أسواقا هامة تزورها

بانتظام شاحنات من المدينـة الحديثة فتيسر تدفق السلع والزائرين . ونظرا لان سكان المدن افضل تعليما من سكـان الريف فانهم يشعرون بالتزام نحو قراهم بأن يوفروا لها خدمات اجتماعية متقدمة فضلا عن التدخل والمشاركة في الامور التقليدية ، مثل حسم الصراع على الرئاسة خاصة اذا كان الصراع من شأنه ان يعوق تقدم القرية . ويرتكز نشاطهم على تقديم المشورة لشيوخ القرية وزيادة اعانات المدارس او المنح الدراسية والتأثير على الوزراء وكبار الموظفين المعنيين .

ولعل الارجح ان تاريخ انشاء الروابط العرقية في مدن غرب افريقيا يرجع الى فترة مبكرة ـ ويرجع في الحقيقة الى الوقت الذي تجمع فيه عدد كاف من المهاجرين لتشكيل رابطة في منطقة واحدة . وتزايد بعد ذلك عدد المتعلمين الذين يعيشون في قراهم، وشكل هؤلاء فروعا محلية او اقليمية للروابط العرقية . ولكـن العضوية كانت قاصرة عمليا على المتعلمين والاثرياء . وقصرت هذه الفروع نشاطها على القضايـا السياسية المحليـة وتوفير الخدمات الاجتماعية ، ولم تستهدف توفير الضمان الاجتماعي لاعضائها ما دام ذلك يتحقق للعضو بالطريقة التقليدية من خلال عضويته في الجماعة السلالية وجماعة العمر . واستهدفت الفروع المحلية الجديدة القيام بدور العامل المساعد في تجميع ودمـج الروابط القائمة في المدن الحديثة للدولة . وادى دمـج الروابـط العرقية في المناطق الواسعة الى تشكيل جماعات ضغط سياسي قوية ، بلغت ذروتها بالنسبة لشعوب الابو في شكل اتحاد دولـة الابو . ويوجد في هذه الحالة طراز هرمي محدد يرتفع صاعدا من الروابط العرقية في القرية الى اتحاد الدولة . ولا نجـد لدى الشعوب الاخرى جماعات كبيرة من هذا الطراز . وبينما تضفي رئاسة الرابطة العرقية في القرية قليلا من المهابة على صاحبهـا خارج مجتمعه فان النشاط داخل الجماعات الكبرى قد اصبح سلما لتحقيق مستقبل سياسي . ومن ثم ليس لنا ان ندهش حين نجد ان هذه الروابط كانت تجذب اليها نخبة غرب افريقيا .

والملاحظ ان الروابط العرقية من نوع الطراز الذي اسلفناه قد تطورت تطورا كبيرا في غرب افريقيا دون بقية اجزاء القارة . وذكرنا ضمنا احد اسباب ذلك هو أن جهات العمل في المناطق الاخرى توفر الضمان الاجتماعي للعاملين فيها .

(ويرى الافريقيون المتعلمون من أعضاء النخبة في جنوب افريقيا ان الروابط العرقية التي اقامتها الحكومة في بلادهم هي تعبير أخر عن التمييز العنصري هناك وان هدفها ليس فقط عزل البيض عن غير البيض بل وغرس الفرقة بين غير البيض وبعضهم البعض) وثمة تفسير اخر وهو الثراء الفاحش للكثير من المناطق الريفيــة في غرب افريقيــا ، وان سكان المدن يعمدون الى تطويــر مواطنهم الريفية لانهم يشعرون ان ذلك أمرا ممكنا ـ فالمال متاح ، ومجالس الحكم المحلي توفر الاطار اللازم للعمل . بيد ان هــذه الروابط غير موجودة لدى كل شعوب غرب افريقيا ـ ولكننا نرأها واضحة لدى الشعوب الساحلية وبخاصة ذات البنية الاجتماعية القبلية . وهناك عامل اخر يساعد على اقامة الروابط العرقيــة لعله الشعور بالدونية الذي يشعر به الشعب الذي يتألف تقليديا من مستوطنات متناثرة وله تنظيم سياسي صغير . ويتدعم هـــذا الاحساس عندما يختلط هذا الشعب بمهاجرين اخرين وافدين من الخارج . فقد يشعر الفريق الاول بحاجة ملحة الى التضامن كجماعة ، والى العمل على استئصال « التخلف » في وطنهم .

ونلاحظ ان اكثر الروابط العرقية القوية والمتطورة علــى النحو الذي اسلفناه موجودة في جنوب نيجيريا . اما الروابط الموجودة في المناطق الاخرى فان خدماتها للافراد اقــل شمولا ، وربما تركز فقط علــى المساعدات المالية علــى حساب خدمات اخرى .

ويرى المهاجرون من بعض الجماعات العرقية ان التنظيمات العرقية الرسمية من الطراز سالف الذكر ليست ضرورية تماما لهم مثال ذلك المهاجرون الموسميون من زابراما

الى غانا فانهم في الغالب يفدون من اقاليم محدودة ويستاجرون مساكن جماعية في المدينة الحديثة ويرفضون الاتصال بابناء الجماعات العرقية الاخرى ويقضون كل اوقات فراغهم يثرثرون مع بعضهم البعض حول اوطانهم .

ويعتبر مجتمع سابون جاري (Sabon Gari) في ابادان نموذج لتنظيم الهاوسا في مدن جنوب نيجيريا . والهاوسا ، على خلاف كثير من المهاجرين في جنوب نيجيريا ، يحصرون انفسهم في نطاق محدود من النشاط الاقتصادي ــ شراء ونقل ثمار الكولا من الشمال ، وبيع الابقار للقصابين المحليين في يوروبا ، ويختلفون ايضا عن غيرهم من المهاجرين من حيث طبيعة سكناهم ، فهم يقيمون وحدهم بمعزل عن سواهم . ويوجد بين شيوخ المقيمين في سابون جاري حوالي ثلاثين من « ملاك الارض » يمتلكون الجزء الاكبر من المساكن المؤجرة للمهاجرين العابرين ، ويعملون ايضا كوسطاء بين ملاك الماشية من شعب الفولاني وبين القصابين المحليين في يوروبا . وهكذا يترأس كل « مالك » مشروعا تجاريا صغيرا ويكون كل طرف مرتبط به ارتباط العميل . وتعول الجماعة ايضا عددا كبيرا نسبيا من المستشارين او الائمة (Malem) (رجال درسوا القرآن وعلومه) ــ ويمثلون اكثر من خمسة بالمائة من الذكور العاملين ويتخذ كل مالك معلما او اماما Malem ليكون مستشارا خاصا له يستفتيه في الامور الدينية والدنيوية . وحج اكثر الملاك مؤخرا الى مكة (واصبح كل منهم يسمى الحاج) وعلى الرغم من ان ثلاث ارباع السكان الاصليين في ابادان هم من المسلمين ، الا ان ابناء الهاوسا لا يشاركونهم الصلاة ، ويحتقرون ترانيمهم في طقوس الدين وشعائره . ويتم اختيار واحد من الملاك « ليكون رئيسا لجماعة سابون جاري » ويتعامل مجلس المدينة من خلاله لمعالجة امور الجماعة . ويتلقى الشيخ نصيحة ومشورة بقية الحجاج الملاك ويكون هو المسئول عن ادارة الجماعة .

ويحرص ابناء الهاوسا من بين جماعة سابون جاري في ابادان على روابط القرابة باقاربهم في الامارات بموطن نشاتهم على الرغم من ان كثيرين منهم له روابط قرابة عديدة بمدن اخرى نتيجة تعدد التزواج المتبادل بين الجماعات التجارية . بيد ان تلاحمهم لا ينبع من انتمائهم الى الامارات كلا على حدة بل ينبع من انتمائهم الى عقيدة وشعائر دينية خاصة بهم وحدهم كما يرتكز على طبيعة التخصص الاقتصادي .

النقابات : :

ليس لنا ان ندهش اذا عرفنا ان نقابات غرب افريقيا كانت طليعة حركات الاستقلال . فقد كانت هذه هي فرصتهم لتعبئة سكان المدن المتعلمين الذين يتزايدون زيادة سريعة ـ وهم اولئك الذين نبذوا الى حد ما الريف والقيم التقليدية ولكن واقع الامر يؤكد ان التأثير الشامل للنقابات كان طفيفا في كل الاقاليم تقريبا ، على عكس غينيا فقد كانت الاستثناء الواضح . ولنا ان نتوقع كذلك ان يكون للنقابات دور أساسي في التنشئة الاجتماعية للمهاجرين وتأقلمهم مع أساليب حياة المدينة وحثهم على تقبل سكنى المدن . ولكننا نعود لنقول لقد كان اثرها هنا أيضا طفيفا .

والاحتجاجات العمالية لها تاريخ طويل في غرب افريقيا اذ يسجل لنا التاريخ اضرابا وقع عام ١٨٧٤ في بلدة فري تاون (Free town) واعقبته اضرابات اخرى في المدن الساحلية التي شهدت اتساعا سريعا . ولكن الحكومات الاستعمارية كانت تنظر الى هذه الاضرابات باعتبارها اعمالا غير مشروعة ، فتقمعها وتستخدم في ذلك القوة احيانا . ولم يكن العامل الافريقي آنذاك يفهم جيدا اهداف وسبل المفاوضات الجماعية . لذا كان انسحابه من عمله هو اقوى اساليبه في الاحتجاج . ولم تأخذ النقابات ذاتها وضعا مشروعا في المستعمرات الفرنسية الا في عام ١٩٣٧ — وهو الحق الذي سحبته منهم ثانية حكومة فيشي (Vichy) ثم

استردوه من جديد عام ١٩٤٦ ، وصدر قانون النقابات الخاص بمنطقة ساحل الذهب عام ١٩٤١ فقط ، على الرغم من ان الروابط المهنية كانت موجودة قبل ذلك بعشرات السنين في صورة جماعات صداقة . ويرجع تاريخ نشاة احدى النقابات النيجيرية للعاملين المدنيين بالحكومة الى عام ١٩١٢ ، وانتظم عمال السكة الحديد في نقابة لهم عام ١٩٢١ ، وتاسست نقابة المعلمين في نيجيريا عام ١٩٣١ . ولكن لم يبدا النشاط الفعلي والحقيقي للنقابات الا في الاربعينيات والخمسينيات .

وفي اوائل الخمسينيات كانت نقابات غرب افريقيا تضم ما بين ١٠ و ٢٠ بالمائة من العاملين في الاقاليم المختلفة . ولكن كانت اكثر النقابات لا تزال صغيرة ، اذ كان ثلثا نقابات غانا ونصف نقابات نيجيريا تضم اقل من ٣٥٠ عضوا . وثبت فيما بعد ان بعضها لم تكن نقابات بالمعنى المفهوم وانما روابط لحرفيين مستقلين مثال ذلك أن قائمة نقابات نيجيريا تضم اسم اتحاد الحدادين في ايجيشا واتحاد الغسالين في انيجو . ولا تمثل النقابات عادة فئات مميزة من العمال العاملين لدى عدد من المؤسسات بل تمثل العاملين جميعا لدى شركة او ادارة حكومية او مؤسسة خدمة عامة . وهكذا نجد نقابة باسم نقابة عمال الشركة الافريقية المتحدة ونقابة العمال الافريقيين بشركة خطوط الدر دمبستر ، ونقابة عمال البريد والبرق وهكذا ... ونلاحظ ان النقابات الممثلة لمؤسسات الخدمات العامة والمهن اضخم حجما واكثر تنظيما من سواها ، وكلها ذات طابع قومي . ولكننا نجد في غينيا ان العمال الاجراء انتسبوا مباشرة لرابطة مركزية بينما اغفلوا تنظيم انفسهم على مستوى الشركات كلا على حدة . ولعل هذا الوضع ناجم عن حركة التصنيع السريعة للغاية في البلاد عند الشروع في استغلال مناجم البوكسيت . والشيء المؤكد انه وجدت حركة نقابية قوية وفعالة سياسيا .

واتخذت غينيا سيكوتوري رئيسا لها وهو الذي تصدر الصفوف من خلال الحركة النقابية . فقد كان حزبه في مطلع الخمسينات (الحزب الديمقراطي الغيني) متداخلا تداخلا وثيقا مع الحركة النقابية . ولكن القادة النقابيين كانوا قلة بين القادة القوميين في البلدان الاخرى ، كما كانوا قلة بين اعضاء المجالس البرلمانية المنتخبة . مثال ذلك : ان من بين ٨٧٣ عضوا بالمجالس النيابية في الدول الافريقية المتحدثة بالفرنسية كان هناك اربعة نقابيون فقط عام ١٩٥٨ ، وثلاثة فقط لهم خبرة نقابية من بين ٨٤ عضوا في مجلس النواب الاتحادي في نيجيريا من الاقليمين الشرقي والغربي .

ونلاحظ ان الاحزاب السياسية لجماعات النخبة الاولى ، مثل حزب المؤتمر المتحد لساحل الذهب ، عمدت الى تجاهل النقابات . فقد كان اعضاء هذه الاحزاب ومصالحهم تعبر عن « الطبقة المتوسطة » المهنية . ولكن الاحزاب المنشقة عن روابط النخبة كانت تسعى لتعطي بمساندة النقابات . وفي اواخر الاربعينات انضمت نقابات نيجيريا الى المجلس القومي لنيجيريا والكاميرون . وبدأ هذا الحزب او بدقة اكثر ، جناحه الراديكالي الزيكيست (Zikist) في العمل بنشاط لاستثمار مشكلات مناجم فحم انيجو (Enugu) لعام ١٩٤٩ (التي قتل فيها العديدون من العمال رميا بالرصاص) واستغلوا ايضا اضراب العمال عام ١٩٥٠ . ودعا زعماء النقابات في ساحل الذهب الى اضراب عام تأييدا لحزب المؤتمر الشعبي لمساندته في حملته وقتذاك . وادى قمع الاضراب في كل من البلدين الى تفكك التنظيم العمالي الاساسي . وعمد القادة القوميون بعد عام ١٩٥٠ الى تجاهل النقابات ولكن باستثناء غينيا بطبيعة الحال وغانا حيث استطاع حزب المؤتمر الشعبي C.P.P. أن يجذب اليه قطاعا من الحركة النقابية ثم استوعبها جميعها فيما بعد .

واتخذت النقابات في كل بلد اتجاها راديكاليا . لهذا كانت اذا تحالفت مع حزب سياسي فانها تتحالف مع اليسار ـ الحزب الديمقراطي الغيني في غينيا ـ وحزب المؤتمر في غانا والمجلس القومي لنيجيريا والكاميرون في نيجيريا في أول عهده . واسس ندوكا ازى Ndukaeze اتحاد العمال U.A.C. وتنظيما عماليا مركزيا قويا ثم انشق عن المجلس القومي لنيجيريا والكاميرون منتقدا سياسة قادته « البرجوازية » ، وحثت النقابات اعضاءها في المستعمرات الفرنسية على المعارضة وذلك خلال الاقتراع العام سنة ١٩٥٨ بشأن الاتحاد الفرنسي . ولكن باستثناء غينيا يمكن القول بأن عدد الذين عارضوا وقالوا لا كانوا يمثلون جانبا كبيرا وان ظلوا اقلية . ويبدو ان النزعة الراديكالية لزعماء النقابات العمالية جعلتهم شركاء غير مقبولين في نظر غالبية القادة القوميين الحاليين في غرب افريقيا .

ويتجلى ضعف النقابات في عدم فعاليتها السياسية وهو ما لا يمكن ان نعزوه الى القادة السياسيين واحزابهم . ويكمن السبب أساسا في بنية العمالة الصناعية .

فاكثر عمال غرب افريقيا عمال غير مهرة ، والقليل منهم متعلمون . وتعتبر العمالة الدائمة قاصرة فقط على العمال المهرة ونصف المهرة ، اما الباقون فهم اجراء بالمياومة . علاوة على هذا فان اكثر هؤلاء العمال هاجروا مؤخرا من الريف الى المدن ويعتزمون العودة ثانية الى قراهم وربما يعودون بعد فترة وجيزة جدا . وطبيعي ان مثل هؤلاء لا يشعرون بالتزام او انتماء كامل ازاء عمالة المدن ، ولا يعنيهم كثيرا تحسن ظروف العمل . وتتركز شكاواهم على الاحداث اليومية ـ الفصل التعسفي لاحد العمال او اهانته . ويشكل هؤلاء القطاع الاكبر غير المنضم الى النقابات ، ولكنهم يفسرون لنا السبب في ان الكثيرين ـ اعضاء بالاسم .

وبدأت تتزايد فرص انضمام العمال غير المهرة مع تزايد تدفق المهاجرين الى المدينة . واصبح من السهل علي أصحاب الاعمال

فصل العمال الساخطين وتشغيل غيرهم . وهكذا بدات الاحتجاجات العمالية تفقد فعاليتها . كذلك فان نقص التعليم الفني « التكنولوجي » ادى من ناحية اخرى الى نقص شديد في العمال المهرة وخاصة في المدن مثل لاجوس حيث تزدهر الصناعة وتتوسع بمعدلات تتراوح ما بين خمسة عشر الى خمسة وعشرين بالمائة سنويا . وبدات المؤسسات الجديدة تحاول اجتذاب طاقم العاملين من المصانع القائمة مع اغرائهم بتدريبهم في المصانع الاوروبية وساهمت خبرة ما وراء البحار في رفع مستوى اصحاب الحظ الى مكانة أصحاب الامتيازات وهي المكانة التي لم يكن يشغلها سوى ذوي المؤهلات العليا .

وعلى الرغم من انخفاض مستوى اجور العمل غير الماهر فقد كان اصحاب الاعمال ينظرون اليه باعتباره عملا باهظ التكاليف نسبيا ولهذا أصبحت غالبية المصانع الجديدة مصانع آلية . ويعتبر مصنع الخشب الرقائقي (الابلكاج) في بلدة سابل في دلتا النيجر واحدا من اكثر المصانع تقدما في العالم . وتعطى هذه المؤسسات وأمثالها معدلات اجور عالية بالقياس الى معدلات الاجور في المصانع البديلة المحلية ، فضلا عما توفره من فرص طيبة للترقي سواء داخل الورش او المكاتب . واضطرت المصانع اول الامر الى توظيف عمال قليلي الخبرة والتعليم ثم اعدت لهم الادارة برامج تدريب متنوعة ومكثفة . ووضعت نظاما للمعاشات فضلا عن اجازة مدفوعة الاجر لمدة اسبوعين او ثلاثة اسابيع سنويا لاصحاب الحق في المعاش ، وستة ايام لغيرهم . وتحسنت ظروف العمل نسبيا في مثل هذه الشركات بأن اضافت الى ما سبق خدمات اجتماعية مثل انشاء مستشفى خاص للشركة .

وتعمل لدى الحكومة نسبة كبيرة من القوى العاملة في كل دولة من دول غرب افريقيا ، كما وان ظروف العمل في القطاع

العام ظروف حسنة في مجملها . وكان قد صدر في المستعمرات الفرنسية قانون عمل يحدد الحد الادنى للاجور ومعدلات اجور كل فئات العمل غير الماهر .

ولكن الواقع ليس دائما مطابقا للقانون ، فقد ادى القانون الى صراعات بين النقابات وبين الحكومة . ولم يوضع حد ادنى للاجور في المستعمرات البريطانية ، ولكن كانت تجري مراجعة مستمرة للاجور وظروف العمل بالنسبة لعمال الحكومة ، وكان لهذا اثره الكبير على القطاع الاقتصادي الخاص ، الذي كان ينافس الحكومة ، باستثناء الشركات الكبرى ، من أجل العمال المهرة ويعاني من المنزلة الزائدة عن الحد التي يتمتع بها موظفو الحكومة . علاوة على هذا فان قوانين العمل قد فرضت على كل أصحاب الاعمال مستويات عالية ، نسبيا في علاقاتهم بعمالهم .

واذا كانت النقابات قد اعتمدت في تطورها الى حد كبير على مبادرات قادتها من ابناء غرب افريقيا فان جانبا كبيرا من الحافز الى النمو في اعوام ما بعد الحرب العالمية الثانية جاءها من الحكومات الاستعمارية . فقد تم تشييد المراكز الرئيسية للنقابات في المستعمرات الفرنسية من الميزانية العامة ، كما كان أكثر موظفيها من موظفي الدولة ويتقاضون رواتب منتظمة ، واختارت السلطات البريطانية في مستعمراتها الرجال الذين عهدت اليهم بمهمة تطوير النقابات ، وانشأت جامعة شعبية او ادارات خولت لها مهمة تدريس برامج تدريبية عديدة . وكان الهدف المباشر لهذا النشاط هو قصر النشاط النقابي على المجال الاقتصادي ونبذ التدخل في الشئون السياسية . ولكن شركات خاصة كثيرة استمرت في معارضتها لانتظام موظفيها ضمن النقابات ، ودافعوا عن موقفهم بما حققته اللجان الاستشارية من نجاح .

بيد ان التشجيع الرسمي بوضعه هذا لم يكن كافيا ليضمن حركة نقابية قوية . فقد كانت أكثر النقابات ضعيفة ماليا بسبب

قلة عدد المواظبين على حضورها والفشل في تحصيل الاشتراكات بصورة منتظمة . واعتمدت نقابات كثيرة على ما تتلقاه من اعانات مالية من الحركة النقابية الدولية . وهكذا اضحت النقابات عاجزة عن أن تقدم خدمات كثيرة لاعضائها ، الذين يتطلعون الى روابطهم العرقية لتكفل لهم الضمان الاجتماعي بدلا من النقابة . وكانت النقابات ايضا في وضع يرثى له قياديا . اذ كان العمال المهرة قليلين وهم القادرون على تشكيل قيادة ناجحة ، كما وان اكثرهم حريصون على ضمان فرص ترقيهم داخل مؤسساتهم . اما من حصل على تعليم عال فانه يجد السبيل امامه ميسرا لشغل منصب حكومي . ومن ثم بدات مكاتب النقابات الفقيرة ماليا تجتذب اليها الغوغائيين والفاشلين في دراستهم . وكان لعدم فعاليتهم بل وفسادهم في احيان كثيرة أثره الكبير على ولاء الاعضاء للنقابة . واذا اوفدت النقابة احد اعضائها ممن تتوسم فيهم مستقبلا نقابيا جيدا للدراسة عبر البحار فانه عادة ينتقل الى مهنة اخرى تدر عليه راتبا أعلى وتضفي مكانة ارفع بعد عودته .

وادى قصور وفساد الكثير من النقابات الصغرى الى الحيلولة دون قيام الاتحادات النقابية . اما النقابات الكبرى والافضل تنظيما فقد كانت اقل عزوفا عن التورط في القضايا السياسية . ترى لماذا يضرب العمال الاقوى تنظيما — وربما الافضل اجورا — تعاطفا مع من هم دونهم بكثير ويطالبون برفع مستوى الاجور لهم وتحسين ظروفهم ؟ انهم بذلك يعرضون امنهم هم للخطر . ونذكر انه بالاضافة الى الصراع بين القادة النقابيين المحليين والصراع احيانا بين الجماعات العرقية كان هناك علاوة على هذا التنافس بين الاتحادين العالميين المتصارعين — الاتحاد العالمي للنقابات ، والاتحاد الحر للنقابات — سعيا وراء كسب ولاء النقابات الافريقية . وعجزت النقابات الافريقية بسبب تفككها عن تشكيل احزابها السياسية الخاصة بها . ويشهد واقع الامور بأن الاحزاب الوطنية كانت تنافس النقابات سعيا لكسب تأييد

الجماهير . واضافت هذه الاحزاب ضمن الاطار العام لمطالبها السياسية الخاصة العمل على رفع مستوى معيشة العمال ، واتجهت الاحزاب في اكثر الاحيان الى مخاطبة الجماهير مباشرة رافضة مساعدة النقابات . ونجح القادة السياسيون في تحقيق الاستقلال السياسي وفي توسيع القطاعات الحديثة للاقتصاد ، واخرس هذا النجاح كل مزاعم النقابيين .

روابط النخبة :

كانت روابط النخبة ، التي تحظى برعاية الاثرياء والمتعلمين ، متنوعة ومتباينة مما يجعلها تختلف اختلافا واضحا عما تتسم به الروابط العرقية من تجانس . وعمدت روابط النخبة صراحة الى ان تكون اكثر تخصصا وتميزا من الاخرين . ورصدت جهدها لخدمة المصالح والاهتمامات المهنية ــ اتحادات العاملين المدنيين او رابطة بار Bar Association والصليب الاحمر ــ للخدمات الخيرية ، ونوادي التنس للترفيه ، وجماعات المسرح للخدمات والاهتمامات الثقافية . وكم هو عسير على المرء أن يقيم الاسهامات التي تقدمها من اجل تحقيق وعي النخبة بذاتها .

وقد دخلت نسبة كبيرة من روابط النخبة الى غرب افريقيا عن طريق الموظفين المدنيين الاجانب والجماعات التجارية ، ولا تزال تتبع في تنظيمها نمطا غربيا ، بل وثمة روابط كثيرة هي فروع لهيئة عالمية . واحس الافريقيون بعد السماح لهم بالعضوية ، بأن اشتراكهم يعني ضمنا الموافقة على انهم متساوون اجتماعيا مع الاوربيين . وبلغت بعض هذه الروابط ارفع مرتبة اجتماعية . وكانت العضوية تحكمها في كثير من الاحيان قيود محددة ــ مثلما كان الحال في الروابط المهنية او جماعات خريجي المدارس الثانوية الرائدة . وعلى الرغم من ان قيود العضوية كانت ممقوتة صراحة الا انه حدثت انقسامات عديدة داخل روابط النخبة عندما كان الاعضاء من اصحاب المقامات الرفيعة يشكون من سيطرة من هم اقل ثراء او ثقافة ثم ينسحبون لتأسيس رابطة جديدة .

ويشعر المرء ان الكثير من الرجال والنساء ممن التحقوا بروابط خيرية لم يفعلوا ذلك بدافع حب الخير للانسانية ، بل لان هذا هو الشيء المتوقع حدوثه منهم بحكم مكانتهم . ومن المألوف في مثل هذه الظروف أن تخضع العضوية لقيود تحكمها وتكون قاصرة على من يتمتعون بنفس اساليب الحياة .

وقد يجد المرء في المجتمعات الغربية روابط للنخبة من نفس طراز روابط النخبة في غرب افريقيا . ولكن توجد ايضا روابط تتسع العضوية فيها لتشمل مختلف الطبقات الاجتماعية بدءا من العليا ومرورا بالوسطى وانتهاء بالدنيا . ويشغل المراكز القيادية فيها اعضاء من الطبقتين العليا والوسطى ، كما ترتكز مثل هذه الروابط عادة على مجتمعات محلية ـ التجاور للكنيسة ، او فريق لعبة رياضية في القرية . ويبدو لي أن مثل هذا النوع من الروابط اقل شيوعا في غرب افريقيا . وبدأت احياء وضواحي المدن الحديثة تشيع فيها روح المجتمعات المحلية ، واصبح لدى الناس رغبة في السفر بعيدا لمقابلة اصدقائهم بدلا من اقامة علاقات وثيقة مع جيرانهم . وتجتذب الكنائس اعضاء لها من كل الفئات الاجتماعية ، ولكن النخبة في كثير من المدن يشكلون محافل متميزة خاصة بهم ، مفضلين الذهاب الى الكنائس الصغرى التي بنيت اولا للجاليات الاجنبية ، أو الذهاب الى كنائس الجامعة بدلا من الكنائس الكبرى . وتتباين الالعاب الرياضية في غرب افريقيا ، شأنها في ذلك شأن الوضع في البلدان الاخرى ، حسب الوضع الاجتماعي التنس والجولف للنخبة وكرة القدم لجماهير المتعلمين وانصاف المتعامين . وواقع الامر أن ابناء النخبة لا يختلطون اجتماعيا مع العامة والبسطاء الا داخل الروابط العرقية .

وبينما ينزع العامل الامي غير الماهر الى الانتماء الى رابطة واحدة ـ وهي رابطته العرقية ـ والى اشباع كل حاجاته الامنية والترفيهية من خلالها ، فان عضو النخبة ينتمي الى عدد كبير من الجماعات . وقد يلتئم شمل اعضاء جمعيات الخريجين مرة

واحدة كل عام حول حفل غداء ، الا ان هذا قد يكون كافيا لدعم اواصر العلاقة بينهم ، وللحفاظ على قبس الشعور بالالتزام في نفوس الاعضاء تجاه رفاق الدراسة القدامى . وتساعد الرابطة العرقية المهاجر للحصول على صيغة سلوكية ملائمة توفق بين قيم بلدته وبين ما هو مطالب به في حياة المدينة . كذلك فان تعدد العضوية في جماعات مختلفة للنخبة من شأنه ان يشجع على خلق قيم جديدة تتسق مع بعضها داخليا ومقطوعة الصلة بسواها من قيم اي جماعة عرقية اخرى . وتحتفظ الروابط بطابعها القومي بما تفرضه من حدود على العضوية ، ويمثل هذا حسا بالهوية القومية التي تعمد الروابط الى غرسها في نفوس اعضائها . ولكن بعض الروابط تتجاوز في واقع الامور الحدود القومية .

وكما لاحظنا سابقا فأن اغلب ابناء النخبة الحالية هم من بيوت متواضعة ، فضلا عن انه ما ان يحصل المرء منهم على المؤهلات التربوية التي تؤهله ليكون في منزلة النخبة حتى يشق طريقه سريعا في سلم الترقي الوظيفي ويلتمس هؤلاء من روابط النخبة تأكيدا بأنهم حقا قبلوا ضمن ارقى مستويات مجتمعهم . وينشدون من خلال الروابط وكذلك من خلال شبكات الصداقات غير الرسمية تضافر جهود كل اصحاب المكانة المتماثلة لوضع ودعم المعايير الملائمة للسلوك . ويؤمنون في « سباق الجرذان » من اجل الترقي أن المؤهلات الاكاديمية غير كافية ، ولكن المرء بحاجة الى رعاية اصحاب المراكز الارقى . ولكن كل هذه الاتجاهات ليست شيئا خاصا بغرب افريقيا ــ فنحن نقرأ عن كثير منها في المجتمع الامريكي بيد ان سرعة الحركية الاجتماعية في افريقيا تزيد من وضوحها . ولعل الموظف في غرب افريقيا اميل الى قضاء القسط الاكبر من امسياته خارج البيت اما في اجتماعات رسمية للروابط او في حفلات شراب غير رسمية ، ويفوق في عادته هذه نظيره الانجليزي او الامريكي . ويمكن أن نعزو هذا جزئيا الى نقص الاهتمامات المشتركة بينه وبين زوجته . ولكن بقدر ما يجد نفسه

مضطرا الى قضاء وقت طويل مع رجال اخرين مؤكدا سمعته بانه « طراز جيد » بقدر ما يعوق هذا السلوك قيام علاقة زوجية متكافئة . ولعل الولاء للحزب السياسي وقادته ، او استثمار الروابط العرقية قد يكون في كثير من الاحوال وسيلة اكثر فعالية لبلوغ المرء مكانة ارقى .

ويتجلى بعض هذه الوظائف لروابط النخبة بوضوح اكثر في روابط النساء . فنساء اعضاء النخبة يكنّ عادة اقل تعلما من ازواجهن . ولكن مكانتهن في المجتمع لا تحددها مؤهلاتهن الشخصية بل مؤهلات ازواجهن . ولهذا فمن المألوف ان نرى ارقى المناصب في المنظمات الخيرية تشغلها زوجات الوزراء والقضاة وكبار الموظفين . وتعهد المنظمات عادة هذه المناصب لمثل هؤلاء ايمانا منها مسبقا بأنهن قادرات على اسداء النفع للمنظمة نظرا لمكانة ازواجهن . وتأسست بعض الروابط بهدف محدد عمدا وهو على سبيل المثال تعليم اعضائها الفنون المنزلية الجديدة، وثمة جمعيات اخرى تقيم مباراة في تنسيق الزهور او الطهي وراء قناع اعمال انسانية خيرية.

الدور الحضري للروابط الاختيارية :

ليس من اليسير في دراسة عامة عن التغير الاجتماعي أن نناقش كل طراز من الروابط الحديثة الاختيارية في المدن ولهذا فقد اخترنا عينات هنا لتوضيح الانماط الشديدة التباين . فالروابط العرقية أميل الى ان تكون قاصرة على ابناء العرق وحدهم . ومن ثم لا يمكن لامرىء أن ينضم اليها الا اذا كان من ابناء القرية او منتميا اليها بحكم ولادته او الامرين معا .

وتتميز هذه الروابط بتعدد وظائفها ، ولهذا يمكن للعضو ان يشبع حاجاته الاجتماعية في المدينة من خلال رابطة واحدة . وهي كذلك تقليدية بمعنى انها تتطلع الى الوراء حيث الريف ، وتوفر للمهاجر سكنا اثناء غربته عن مسقط راسه . وقد تشجع على

تحقيق الحد الادنى من التكيف بين انماط السلوك الريفي وبين حياة المدينة . ونجد على الطرف الاخر روابط النخبة التي تتميز بأمرين اولهما القيام بوظائف محددة ومتمايزة وثانيهما تعدد العضوية وتباينها . ولكنها ايضا مغلقة بالنسبة لاصحاب الدخول ومستويات التعليم الدنيا وان لم ينص قانونها صراحة على هذا . وتستهدف خلق قيم جديدة ، قد تكون افريقية الى حد ما ،ولكنها ليست مطابقة لقيم اي جماعة عرقية بذاتها .

ويحدث احيانا ان يشارك بعض اعضاء النخبة في روابط يتراسها اشخاص متوسطون من حيث الثروة والتعليم ـ مثل معلمي المدارس الابتدائية والكتبة والعمال اليدويين المهرة . بيد انهم قد يشاركون في روابط جماعاتهم العرقية ، ويدفعهم الى هذا ان البسطاء من اعضاء هذه الجماعات ينتظرون مثل هذا الموقف منهم ، وكذلك نظرائهم من النخبة الذين يؤمنون بأن تنكر المرء لاصله سلوك مشين . ولهذا نجد كثيرين من ابناء يوروبا مثلا ممن بلغوا شأوا رفيعا في تعليمهم يشغلون مناصب رئاسية في مدن بلادهم ، فيكسبون بهذا رضى وتقدير شيوخ بلادهم الذين يسرهم هذا القبول الظاهري للقيم التقليدية ، كما يكسبون ايضا مكانة اجتماعية وهيبة بين النخبة من ابناء شعب يوروبا .

ومن الامور ذات الدلالة ان الاتصال بين النخبة وبين الجماهير في كثير من ارجاء غرب افريقيا انما يتحقق عن طريق العلاقات العرقية اكثر مما يتحقق عن طريق الانتماء الى الروابط التي تتباين عن بعضها في سلم هرمي على اساس الوضع الاقتصادي الاجتماعي لاعضائها .

ويرجع الجانب الاكبر من قوة الروابط العرقية في مدن غرب افريقيا الى ضعف النقابات نظرا لان الناس تشعر بأن الاولى توفر لهم القدر الاكبر من الامان اللازم . وينزع العامل غير الماهر في المدينة الى ان تكون مشاركته هامشية ، وهذا اذا حدث وشارك ، في الروابط التي تعمد مباشرة الى تعزيز الارتباط بحياة المدينة ونبذ القيم التقليدية للريف .

٩

الاحزاب السياسية

لم تنتقل السلطة السياسية في دول غرب افريقيا المستقلة حديثا الى اتحاد فدرالي من النخبة التقليدية او النخبة اصحاب الاتجاه التقليدي بل الى مجموعات جديدة من النخبة الوطنية التي تتميز بأنها ذات ثقافة غربية وتجد في نفسها ايضا تعبيرا عن الدول الحديثة وممثلة لها اكثر مما تمثل الجماعات العرقية او ممالك ما قبل الحقبة الاستعمارية . وافضي نشوء هذه النخبة الى ظهور انماط جديدة في التقسيم الاجتماعي حيث جرى توزيع الثروة والسلطة على نحو مغاير لما كان عليه سواء في المجتمعات القديمة التقليدية او في مجتمعات الحقبة الاستعمارية . وينعكس هذا التقسيم الاجتماعي الجديد في نمو وتكوين وبنية الاحزاب السياسية التي بدأت تسود في كل دولة .

ولا تزال دراسة التحولات في مجتمع غرب افريقيا محصورة في ضوء امثلة — عن العلاقات الاسرية والروابط العرقية مثلا — ومستقاة من اقاليم بذاتها . ولا نملك سوى التخمين بمدى شيوع هذه الظواهر في كل انحاء غرب افريقيا وذلك بسبب قصور البحوث التي تمت في هذا الصدد . ولكن الامر على العكس من ذلك في مجال السياسة حيث جمع الباحثون كما هائلا من المعلومات المتوفرة لدينا . فثمة العديد من الدراسات المطولة والتفصيلية التي تصف لنا التطور السياسي لدول كثيرة والتي شملتها ايضا هي وغيرها من الدول بحوث ومقالات كثيرة موجزة . وتمثل هذه الاكتشافات هاديا لنا يهدينا الى نمط التغيرات في الاحزاب مثلا وكيف ولدت من خلال عمليات الانقسام والانشقاق عن الجماعات القائمة ثم تحالف واتحاد كل المتنافسين سابقا .

فقد كانت دول غرب افريقيا الخمس عشرة تضم خلال العقدين الماضيين اكثر من ستين حزبا كبيرا ومثل هذا العدد على الاقل من احزاب هشة عابرة . وليس هدفنا هنا سرد اسماء هذه الاحزاب ولا تاريخ نشأتها وسقوطها . وانما يتعين ان نكشف عن العلاقة بين نشوء ونمو الاحزاب الناجحة وبين البنية الاجتماعية الراهنة لكل دولة على حدة وان ندرس تأثير سيطرتها على بنية الدولة . وان النخبة التي تمسك بزمام السلطة الان هي كلها ودون استثناء ذات ثقافة غربية . ولكن وكما أوضحنا سابقا ، فان ابناء النخبة الحاليين لا يمثلون دائما وابدا جماعة متجانسة. لقد تولد الصراع بين الاحزاب السياسية في الغالب الاعم عن صدامات بين رجال يتمتعون بشخصية قوية او عن الولاء العرقي، ولكن ظلت جذوره نابعة اساسا من التنافس على السلطة بين فرق مختلفة من ابناء النخبة . وقدم الزعماء المتنافسون خلال هذا التنافس ايديولوجيات متباينة وسعى كل منهم بوسيلته الخاصة المختلفة عن سواه لكسب تأييد الجماهير .

وها قد بلغت اليوم كل دول غرب افريقيا تقريبا مرحلةالحزب الواحد الحاكم — سواء كأمر واقع او فرضه بتشريع تسنه السلطة . ويبدو في كل الحالات ان المستويات التعليمية ومهن القادة السياسيين الحاليين تطابق نمطا متماثلا بوجه عام . ولكن ثمة فوارق اساسية بين الاحزاب السائدة نجدها ماثلة في البنية الداخلية والعضوية وفي الايديولوجية وطراز البنية الاجتماعية التي ينشد كل حزب فرضها او دعمها في بلده . ويزعم كل حزب على الرغم من هذا انه ممثل التحديث والنظام العصري في مجتمعه .

الاحتجاجات الاولى والحركات الوطنية :

يميل ابناء غرب افريقيا اليوم الى تمجيد مآثر اجدادهم الذين قاوموا بعناد التدخل الاوروبي ويسمونهم رواد الوطنية .

بيد ان التسمية غير صحيحة تماما . فقد كان بعض هؤلاء — من امثال الحاج عمر وساموري وبيهانزين مالك داهومي ، وحكام الفولاني لامارات الهاوسا — مجرد مدافعين عن وحدة ممالكهم هم وعن سلطاتهم فيها ، ولم يكن انهيارهم دائما عملا يثير استياء الشعوب المجاورة لهم الذين اعتادوا الاغارة عليهم للحصول على العبيد . وثمة اثنان اخران قاوما التدخل وهما جاجا حاكم ابوبو Opaba ونانا حاكم وارى Warri وكلاهما فرض سيطرة احتكارية على تجارة النخيل بين التجار الانجليز وبين المنتجين المحليين في الداخل . ولكن عجزهما عن زيادة واردات الزيت دفعت التجار الى تجاهلهما وتوغلوا بأنفسهم الى داخل البلاد ومن ثم حطموا هاتين الامبراطوريتين التجاريتين . وادت سياسة فرض الضرائب خلال الحقبة الاستعمارية الى اثارة حالات التمرد في كثير من الاحيان ، وكانت هذه تتفاقم ويشتد خطرها عادة نتيجة فشل ضباط السلطة الاستعمارية في فهم دور الرؤساء المحليين حيث كانوا يتوقعون منهم ان يمارسوا سلطة في مجالات غريبة عنهم او بين شعوب لا سلطان لهم تقليديا عليهم . كذلك أخذت بعض اشكال المقاومة صورة دينية .

بيد اننا لا نستطيع ان نسمي عن صواب ايا من هذه الاحتجاجات حركة قومية ، فقد كانت كل منها خاصة باقليم محلي او قضية محلية ، وسعت كلها الى الابقاء على الوضع القائم قبل التدخل او الحكم الاوروبي . والقومية تعني الوعي بالانتماء الى وطن بذاته ، مع الاعتزاز بتراثه الثقافي (وليس بتراث اي جماعة عرقية بذاتها) فضلا عن المطالبة الصريحة بالحكم الذاتي لهذا الوطن بدلا من السيطرة الاستعمارية الاجنبية . ولعل اول « قوميين » حقيقيين هم الذين ظهروا من بين صفوف النخبة الاولى ذات الثقافة الغربية . وكما سبق ان لاحظنا فان اكثر هؤلاء كانوا غرباء عن البلدان التي اتخذوها مقاما لهم . مثال ذلك : الكريوليون في فرى تاون ، والليبريون الامريكيون في

مونروفيا ، والسيراليون والبرازيليون في لاجوس . ولهذا فاننا نرى أن نشوء وتطور الوعي القومي عززه ودعمه واقع أن هؤلاء الرجال لم تكن لهم روابط تربطهم بجماعات محلية .

وتباينت داخل صفوف هذه النخبة الاولى المواقف من السلطة الاستعمارية تباينا واضحا وكبيرا . فكنا نجد من ناحية اولئك الذين قبلوا راضين نظام الحكم ولكن بحثوا لانفسهم عن قدر اكبر من المشاركة بنصيب ويشكون من سياسة التمييز ضد الافريقيين اذا ما شغل اوروبيون لا يحملون مؤهلات تعليمية عالية المناصب الشاغرة في الحكومة . ويعرف هؤلاء باسم « الانجليز السود » أو « الفرنسيون السود » اذ كانوا ينشدون من الجاليات الاوروبية قبولهم اجتماعيا ، وذلك عن طريق محاكاة عاداتهم في الملبس والترفيه . ولكن على الرغم من هذا فانهم لم يتخلوا بالضرورة عن تراثهم الثقافي ، ذلك لان بعضهم الف دراسات تاريخية قيمة عن شعب كل منهم ، وجمعها عن طريق الرواية الشفاهية او دراسات اكاديمية عن النظم الشرعية المحلية . ونجد على الطرف الاخر المقابل لهؤلاء ابناء مثقفين من الهند الغربية او مثقفين امريكيين وفدوا الى البلاد بغية اثارة حركة بين ابناء غرب افريقيا تدعو الى تحرير الزنوج معلنين رفضهم الكامل للحكم الاستعماري والدعوة الى حكم ذاتي افريقي . وترددت في مطلع هذا القرن اصداء هذه المشاعر مدوية في المستعمرات البريطانية اكثر منها في المستعمرات الفرنسية . وافادت فرنسا من اتجاهها الرسمي الذي استهدف الاستيعاب اذ ساعدها على أن تخرس اصوات المعارضة المتطرفة التي تعارض الحكم الاستعماري ، ولكن هاتين النظرتين المتنافستين لا تعنيان وجود حركتين قوميتين متمايزتين أو أكثر ، بقدر ما تعنيان ضعف كل حركة على حدة كلما حاولت اتخاذ موقف ضد الحكم الاستعماري .

وشهدت الحقبة الاستعمارية في منتصفها الدعوة الى مؤتمرات الوحدة الافريقية ـ وجامعة غرب افريقيا ـ والتي حفز

اليها جزئيا الزعماء الامريكيون الزنوج . وتشير هذه المؤتمرات الى الدرجة التي وصل اليها ابناء النخبة الاولى القوميون في دعوتهم لانهاء السيطرة الاستعمارية عن طريق تكاتفهم معا اكثر من اعتمادهم على تنظيم قوات للمقاومة داخل اراضيهم . وهكذا عرض القوميون انفسهم للنقد من جانب الحكومات الاستعمارية بأنهم لا يمثلون جماهير بلادهم وليس لهم ان يستولوا على السلطة باسمهم .

واعتادت هذه الحركات القومية ان تعبر عن اهدافها بعبارات عامة جدا ، وذلك في محاولة منها جزئيا الى احتواء مختلف الاراء على تباينها داخل اطار النخبة . ونذكر فيما يلي على سبيل المثال اهداف الحزب الديمقراطي القومي النيجيري في لاجوس بزعامة هربرت ماكولاي اب النزعة القومية النيجيرية :

(١) بالنسبة الى لاجوس :

أ ـ تعيين وانتخاب اعضاء المجلس التشريعي في لاجوس .

ب ـ تحقيق الاستقلال الذاتي المحلي واستكمال الحكم الذاتي في لاجوس .

(٢) بالنسبة الى نيجيريا :

أ ـ انشاء فروع وشعب للحزب في كل انحاء نيجيريا .

ب ـ انشاء مؤسسة للتعليم العالي وادخال نظام التعليم الالزامي في كل انحاء نيجيريا .

جـ ـ التنمية الاقتصادية للثروات الطبيعية في نيجيريا تحت اشراف المشروعات الخاصة .

د ـ التجارة الحرة النزيهة في نيجيريا والمساواة في المعاملة بين كل التجار والمنتجين الوطنيين في نيجيريا .

هـ ـ افرقة الوظائف المدنية .

و ـ الاعتراف بالمؤتمر القومي لغرب افريقيا البريطانية والتعهد بالتكاتف مع هذه الهيئة دعما لبرنامجها الشامل .

ولكن على الرغم من الهدف المعلن باقامة فروع للحركات القومية في طول البلاد وعرضها الا انه لم يتم انجاز سوى عدد قليل جدا ، وظلت قاصرة على لاجوس وكيب كوست ، وما شابههما من مدن ، وعنيت في اغلب الاحيان بالقضايا المحلية لكل بلد وبالقضايا ذات الطابع القومي .

وشرع القوميون في المستعمرات البريطانية في طباعة صحف خاصة بهم غلب عليها طابع الهجوم العنيف على الادارات الاستعمارية . الا ان هذه الصحف لم تنتشر على نطاق واسع خارج المدن الساحلية الكبرى . واثمرت بذور الفكر القومي بصورة أوضح بين التجار الذين اعتادوا السفر بين المدن الكبرى والى الداخل اكثر مما اثمرت في اي قطاع اخر استهدفه القادة السياسيون انفسهم عامدين .

وفي ساحل الذهب حيث كانت النخبة الاولى تنتمي الى الجماعات العرقية المحلية ، جذبت الحركة القومية الحكام التقليديين الى مدارها اكثر مما استطاعت في اي منطقة اخرى . وتحالف الزعماء القوميون مع الشيوخ رؤساء القبائل وتحدثوا باسمهم وكأنهم ممثلين لهم ، وكافحوا باسلوبهم هذا خطر نقل السلطة في البلاد الى الحكومة الاستعمارية . ولكن بعد ان استطاعت الحكومة ان تجذب اليها الحكام التقليديين وتربطهم بها عن طريق تشكيل مجالس استشارية من الشيوخ وضم حكام متعلمين لكل المجالس بما في ذلك مجلس الحاكم التنفيذي ، بدا شيوخ القبائل ينظرون الى انفسهم باعتبارهم ورثة السلطة الاستعمارية . وتبدل الموقف واضحى التحالف تنافسا وصراعا اذ سعت النخبة الى كبح النفوذ المتعاظم للشيوخ ، في مجال السياسة وايد الشيوخ الزعماء السياسيين لضمان نجاح مقاطعة

الكاكاو عام ١٩٣٦ ، ولكن رجال السياسة كانوا قد عارضوا عام ١٩٢٧ ادخال نظام سلطة محلية (على نحو النظام الذي اقيم في نيجيريا) بحجة انه سيدعم سلطة الشيوخ .

ولقد كان تنظيم هذه الحركات الوطنية الباكرة تنظيما نجا الى اقصى حد . اذ كانت تتألف من حلقات تحيط بعدد قليل من الزعماء النشطين البارزين ، كما وان وحدتهم كانت راجعة الى الولاء الشخصي اكثر منه الى الالتزام العميق باهداف مميزة . ولم يكن ثمة ، الا في النادر ، نظاما رسميا للعضوية او فروعا للتنظيم السياسي .

وزادت النضالية اثناء سني الحرب والسنوات التي اعقبتها مباشرة على الرغم من ان هذا لم ينعكس الا قليلا في رفع درجة التنظيم . وعاد ازيكيوي Azikiwi ونكروما الى وطنيهما من الولايات المتحدة التي تأثرا فيها تأثرا كبيرا بحركات تحرر الزنوج. وانشق الرجلان عن الحركات القومية القائمة لينشئا حزبيهما ببرنامج اكثر راديكالية . وشدت الحياة السياسية في باريس اليها الزعماء السياسيين الافريقيين في المستعمرات الفرنسية ، فانخرطوا او انتسبوا الى الاحزاب اليسارية اساسا واضحوا ضالعين في ايديولوجيتها ومتمكنين من اساليبهاالتنظيمية . كذلك فان ابناء المستعمرات البريطانية والفرنسية المسرحين من خدمة الجيش بعد الحرب عادوا الى اوطانهم وشكلوا جماعة ساخطة بعد أن ضاقت امامهم سبل الحصول على وظائف تناسب خبرتهم وتعليمهم . وتملكهم شعور اليأس وخيبة الامل اذ وجدوا انفسهم لا يزالون في موقع التابعين لاسيادهم المستعمرين بعد ان كانوا اندادا لهم في معارك الحرب . وحملوا سخطهم الى اقاليمهم ومواطن نشأتهم على الرغم من انهم اصبحوا عاجزين عن التكيف مع مجتمعاتهم الريفية المحافظة على طابعها التقليدي ومن ثم كان نفوذهم عليها محدودا . ولكن مع انتشار التعليم تزايد عدد المتعلمين في المدن الداخلية وحققت هذه المناطق ثروات كبيرة عن

طريق زراعة المحاصيل التجارية للتصدير ولم يعد مكان المحامين في العواصم فحسب ــ فبعد ان عاد اوولووا Awolowo من انجلترا استقر ومارس عمله في ابادان بينما ظل زعيما بارزا ضمن الحركات الوطنيــة . واعلــن حــزب المجلس الوطني لنيجيريا والكاميرون N.C.N.C. بزعامة ازيكيوى Azikiwi في اواخر الاربعينات ضم النقابات والروابط العرقية ، على الرغم من ان هذه الحلقات ليس لها فيما يبدو اثرا سياسيا مباشرا ، الا انهــا شجعت عمال المدن على الاندماج في الحركة الوطنية .

الحكومة النيابيــة :

لم تفترض نظم الحكم الاستعماري مقدما احتمال حصــول ابناء غرب افريقيا على الاستقلال وامتلاك سلطانهم بيدهم . وأدى غياب الاحزاب السياسية المنظمــة الــى ان اصبح الافريقيــون القادرون على انتخاب ممثليهم محصورون في عدد قليل من المدن فحسب . ومن ثم كانت نقلة مفاجئة مقطوعة الصلة تماما بالماضي ان نالت البلاد تشريعاتها النيابية التي تقضي بتقسيم كل البــلاد الى دوائر انتخابية متساوية تقريبا مع منح ابناء الشعوب حــق الانتخاب بطريق غير مباشر اول الامر وبالاقتراع العام والسري . ونال الزعماء الوطنيون الموافقة على مطالبهم الدستورية بسرعــة كبيرة تزايدت باطراد . ولكن الاحزاب السياسية ظلت في اكثــر الاحيان متخلفة عن امكانية استثمار المواقف الجديدة . ولقد واجه الزعماء الوطنيون بحلقاتهم الصغيرة في العاصمة ، خلال المراحل الاولى ،مهام دعوة الجماهير لمنحهم تأييدا شعبيا واسعا ، والدعوة في الوقت ذاته الــى توحيد النــواب المنتخبــين في حزب واحد متجانس ــ ذلك لان اعضاء البرلمان الريفيين كانوا في الغالب الاعم بدون خبرة ــ عن السياسة الوطنية وانما تم اختيارهم لقدرتهم على تحقيق خدمات اجتماعية لمواطنهــم الاصليــة ، كما ظن ابنــاء دوائرهم الانتخابية انهم سيضعون ولاءهم المحلي في مرتبة اعلــى من المصالح القومية .

وثمة خصائص تميز العملية السياسية في غرب افريقيا مثلما هو الحال في غالبية بلدان العالم المتخلفة . اذ تنزع الجماهير الى اللامبالاة ازاء الحكومات الوطنية الجديدة . كذلك فان افتقارهم الى التعليم والخبرة بالعالم خارج حدود مجتمعاتهم الصغيرة جعل من العسير عليهم تقييم الانماط الجديدة للبنية السياسية والايديولوجيات التي تمثلها . ويغلب عليهم موقف مفاده ــ ما اثر هذا عليّ ؟ ونلاحظ في كثير من المجتمعات ان انهاء الحكم الاستعماري لم يعد سوى بفوائد قليلة على الفلاحين . لقد حظى الغاء السخرة والتبعية للادارة الاستعمارية في المستعمرات الفرنسية بتقدير واكبار . وترجع شهرة بعض القادة السياسيين الى دورهم في هذا الاصلاح .

ومع سرعة تسرب غير السياسيين الى الاحزاب السياسية الناشئة ، وما استتبع ذلك من صراعات بين الولاء للجماعة المحلية ام للحزب افتقرت الاحزاب ذاتها بل والجماهير الى راي واحد مشترك بشأن السبل والاهداف المشروعة للنشاط السياسي . وفي مثل هذه المواقف حيث تبدو المعايير غير واضحة المعالم يصبح من السهل ظهور الزعيم الكاريزي معبود الجماهير ، ويتيح مثل هذا الوضع للزعيم حرية كبيرة لصوغ سياسة حزبه نظرا لانها غير مرتبطة كما هو متوقع ، بأي جماعة صاحبة مصلحة . ويتميز الولاء للزعيم الاوحد بأنه ولاء انفعالي وله محتوى ذاتي لدرجة عالية . ويدعم هذا الولاء مظاهر الابهة ومراسم التشريف التي تميز حكام كثير من المجتمعات الافريقية التقليدية .

وعلى عتبة التقدم الدستوري في اتجاه الحكم الذاتي والاستقلال الوطني كانت الحركة الوطنية في عديد من بلدان غرب افريقيا منقسمة على نفسها الى فرق وتكتلات عديدة وتنتظم احيانا بسبب الصراعات الشخصية من أجل الزعامة داخل

الحركات الوطنية وتقع احيانا اخرى بسبب الخلافات العرقية (فيما خلا اقاليم نيجيريا لم تكن الجماعة العرقية من القوة لتشكل الاساس لقيام حزب سياسي وطني) .

بيد ان اهم الانقسامات تلك التي كشفت عن فوارق ايديولوجية . ولقد كانت هذه الفوارق كامنة في المراحل الاولى ثم ظهرت للعيان عندما بدات التكتلات تنظم نفسها في أحزاب وتتوجه الى الجماهير . ونجد ثلاثة انماط متباينة تميز احزاب غرب افريقيا في هذه المرحلة :

الطراز الاول : ـ

حزب النخبة التقليدية وقاده رجال تلقوا تعليما غريبا ولكنهم على الرغم من هذا يمثلون النخبة الحاكمة في فترة ما قبل الاستعمار . ومثل هذه النخبة اذا لم يكن الحكم الاستعماري قد دمرها فانها تواصل السعي من أجل استمرار سيطرتها وتقبل تحديث الاقتصاد والنظام الاداري ولكن فقط في الحدود التي لا تهدد سلطانها ومكانتها . ويعتبر حزب مؤتمر شعب الشمال في شمال نيجيريا مثالا لهذا الطراز ، وثمة مثال اخر وان اختلف عنه وهو حزب الاصلاح « الهويجي » الليبيري True Whig Party

الطراز الثاني : ـ

قاده اعضاء النخبة ذات الثقافة الغربية وكان العنصر الغالب بينهم المحامين والمعلمين وبعض التجار الاثرياء ـ ويسمى هذا الائتلاف اليوم ولكن مع بعض التجاوز ، البرجوازية الوطنية . وبينما ينشد هؤلاء السيطرة على ادارة القطاع الحديث الا انهم لا يملكون خططا لاصلاح المجتمع التقليدي . ويعتمد القادة السياسيون اعتمادا اساسيا على تأييد أبناء النخبة المحلية ـ وربما كلا من الشيوخ التقليديين والتجار الاثرياء ـ ولا يعنيهم كثيرا السيطرة على الجماعات المتباينة في المجتمع القومي بقدر ما يعنيهم تهيئة الساحة للتوفيق بين الاختلافات القائمة بينهم .

الطــراز الثالث : ـ

وهو الطراز الراديكالي الذي يوجه دعوته اولا الى اولئك الذين انفصلوا عن مجتمعاتهم التقليدية ويبشرهم بمجتمع جديد تماما ، وان ظل افريقيا ، ويؤكد ان اقامة هذا المجتمع هو المهمة الاولى والاساسية للحزب . ووصولا الى هذا الهـدف يسعى الحزب الى السيطرة على كل مجالات النشـاط ، ويمكن التعبير عن ذلك في ضوء واقع غرب افريقيا من خلال دمج النقابات وروابط الشباب والاتحادات النائية داخل الحزب ، وانشاء مجالس قرية ومجالس احياء والتي هي في الوقت ذاته فروع الحزب وادواته للحكم المحلي والقضاء .

هذه الطرز الثلاثة للاحزاب السياسية والتي سنوضحها في الحالات الدراسية فيما يلي ، لا تتباين فقط من حيث ايديولوجيتها بل وكذلك من حيث وسائلها في الدعوة الـى التأييد الشعبي . وينزع حزب النخبة التقليدية الى استخدام الجهاز الاداري القائم ليكون وسيلته للاتصال بالجماهير .اما حزب البرجوازية الوطنية فانه يتوجه بدعوته بصورة غير مباشرة الى النخبة المحلية . ويقيم الحزب الراديكالي شبكة من الفروع المحلية ليوجه دعوته مباشرة الى الجماهير مستثمرا هالة التأليه التي تحيط بقائده . ونعرض فيما يلي عددا من حالات الدراسة لتصور لنا الصراع بين الجماعات السياسية مع مطلع حركة المستعمرات نحو الاستقلال التام .

بعض حالات الدراسة

نيجيريا الشمالية :

كانت امارات نيجيريا الشمالية أروع نمـوذج لسياســة الادارة الاستعماريــة البريطانية « الحكم غــير المباشر » وابقت السلطات الجديدة علــى حكام هذه الممالك شبــه الاقطاعيــة في مراكزهم ، وظل دورهم التقليدي كما هو الى حد كبير داخل نظام

السلطة المحلية الذي اقيم هناك . واذا كـــان الامراء قــد فقدوا استقلالهم مع الاستعمار فقد استبدلوا به شعورا أكبر بالامن في مناصبهم . واحتفظوا بوصايتهم الواسعة التى تكفل لهـم ولاء الشيوخ والعامة . كما احتفظوا بأبهة المنصب ــ القصور الفارهة المكتظة بالخدم والحشـم بسلوكهم العبودي ، والحفـلات شبه السياسية التي يعبر اثناءها الناس عن ولائهم والتي تقام ايام عيد الفطر وعيد الاضحى للمسلمين . ولم تحقق زراعة القطن والفول السوداني للتصدير سوى اثر ضعيف نسبيا على الاقتصاد الذي اخذ صبغة تجارية . ودخل التجار الاثرياء في زمرة العامة الذين لا ينشدون منصبا سياسيا وان حافظوا على امتيازاتهم بالهدايا التي يقدمونها للحكام . وحظر التبشـير المسيحي داخـل المدن المسورة ، كما قيدت التسهيلات الممنوحة للتعليم . ولكن نظرا لان مدارس الحكومة والسلطة المحلية كانت بحاجة الى معلمين فقــد بدأ تدريب هؤلاء في كلية كاتسينا Katsina College

ويعكس تقسيم الامارات بدقـة غريبة الاصـول الاجتماعيـة للزعماء السياسيين في الاقليم الشمالي .

ولد ابو بكر تافاوا باليوا Abu Baker Tafawa Balewa لاب عبد رقيق الحال يعمل موظفا صغيرا (سائس خيول) لــدى شيخ من شعب الفولاني في بواتشي Bauchi وارسله ابــوه كما كانت العادة دائما ، الى المدرسة نظرا لان الطبقة الرا قيـة « ارستقراطية » شعب الفولاني كانت تحجم عن ارسال ابنائهــا . وبعد ان تخرج من كلية كاتسينا عمل ناظرا لمدرسـة بواتشــي الابتدائية . ودرس بعد ذلك في لندن خلال الفترة من ١٩٤٥ ــ ١٩٤٦ وحصل على دبلوم في التربية ، وعين بعد عودته في مجلـس الامير ثم بعد ذلك عضوا في الجمعية العمومية (برلمان) الشمالية. وبدا هنا شديد النقد لمظاهر القصور والفساد التــي تعاني منهــا

السلطات المحلية ، كما كان حادا في نقده للادارة البريطانية التي تتستر على هذه المساوىء . ولكنه دعا الى اصلاح النظام وليس الى القضاء عليه .

وولد امينو كانو Amino Kano في عشيرة نبيلة من شعب الفولاني في كانو اشتهرت بتفقهها في الاسلام ولم يعتد ابناؤها تولي مناصب سياسية ولكنها قدمت كثيرين من الفقهاء والقضاة . وجاء على لسان هؤلاء نقد السلوك السياسي للامراء تحت عنوان « الانحراف عن حدود الاسلام » ، وعقد ضحايا القهر آمالهم على هؤلاء لخلاصهم من مآسيهم . وولد امينو لام متعلمة عربية من شعب الهاوسا وتلقى تعليمه الاولي عن تعاليم الاسلام . وكان بيته موطنا لعديد من امثلة الصراع ـ اذ كان أبوه نائب شيخ العشيرة في خلاف دائم حول قضايا العدالة مع امير كانو الحاكم . ولكن امينو ذهب الى كلية كادونا وبعدها الى لندن ليقع تحت سحر لاسكي من الجناح اليساري لحزب العمال الانجليزي كما سحرته أيضا كتابات ماركس .

وبرزت في السنوات الاولى لقيام حزب مؤتمر الشعب الشمالي الافكار الراديكالية والاصلاحية وغلبت على ثقافته . ولكن ما ان اصبحت البلاد على عتبة الاستقلال واصبح الحزب صاحب السلطات على التشريعات الجديدة والحكومة الاقليمية حتى غدا حزب مؤتمر الشعب الشمالي ساحة للقابضين على المناصب التقليدية في الامارات . وانتقلت الزعامة الى احمدو بيللو Ahmadu Bello وهو من ابناء كلية كاتسينا وسليل احد البيوت الحاكمة في سوكوتو . ولم يوفق في صراعه من اجل لقب سلطان ـ وهو الحاكم سليل اسرة دان فوديو Dan Fodio زعيم الجهاد الذي حكم امارته ودانت له الامارات الاخرى واعترف له بالسلطان امراؤها ورعاياها . ودخل ابو بكر تافاوا باليوا نائب رئيس الحزب ساحة السياسة الفيدرالية ليقوم بدوره كرئيس للوزراء ابتداء من عام ١٩٥٩ حتى وفاته في الانقلاب العسكري عام ١٩٦٦ .

وقام هنا بدور الوسيط بين الاقليم الشمالي والاقليم الجنوبي وطرد مؤتمر الشعب الشمالي امينو كانو من بين صفوفه فأسس هذا حزبه تحت اسم الاتحاد التقدمي لابناء الشمال Northern Elements Progressive Union .

وسعى الامراء باعتبارهم قادة لحكومة مؤتمر الشعب الشمالي في الاقليم الشمالي الى تحديث ادوارهم ومجتمعاتهم ولكن فقط بالقدر الذي لا يهدد وضعهم السيادي . وتم ادخال نظام الحكومة المحلية في الاقاليم التي لا يسكنها شعب الهاوسا مع اعطاء شعوبها حق التعبير المباشر عن قضاياهم المحلية . ولكن ظل نظام السلطة المحلي قائما في الامارات ويختار الامراء أعضاءه، واصبح كثير من الامراء اليوم على حظ من التعليم كما اصبحوا هم ومن دونهم تعليما تواقين الى تعليم ابنائهم . وسعى الموظفون المحليون من مؤتمر شعب الشمال الى أن يكونوا هم اصحاب المناصب الكبيرة وعلى حظ من التعليم ويسيطرون على الادارات المحلية وضمنت لهم سيطرتهم على الانتخابات النيابية (التي ظلت غير مباشرة حتى عام ١٩٥٩) انتصار مؤتمر الشعب الشمالي . وكان المنصب الانتخابي يضاف الى المناصب الاخرى منحة من الامير . واستقال كثيرون من مناصب هامة منها مناصب وزارية لكي يشغلوا مناصب رفيعة في الامارات .

وتزايدت مع هذا المعارضة السياسية لمؤتمر شعب الشمال. ووجد الاتحاد التقدمي لابناء الشمال تأيدا اساسيا من عمال المدن غير الآمنين على وظائفهم . واستثمر الحزب في الريف الشكاوى المحلية من الارستقراطية الحاكمة . وزعم الحزب انه لسان حال العامة واداتها لانهاء الحكم الاقطاعي ، ودافع اعضاؤه عن ضحايا القهر السياسي . وتكاتفت جهود الاتحاد التقدمي لابناء الشمال من جهود جماعة العمل Action Group بالاضافة الى تزايد الافكار الجديدة الوافدة على الامارات . وافضى كل هذا الى ارتفاع نسبة الاصوات المؤيدة للاتحاد التقدمي لابناء الشمال في

أول انتخابات مباشرة عام ١٩٥٩ ولو ان تلك النسبة لم تكن كافية لتشكل الغالبية الانتخابية .

ويمكن القول بأن الحكومة الاقليمية لمؤتمر شعب الشمال استطاعت والى حد كبير الحفاظ على البنية الاجتماعية التقليدية للامارات . بيد ان الصراعات كانت كامنة . وضمت الحكومة وزراء من اقاليم غير الهاوسا ، تدين بالولاء للحزب وليس للامراء. وبدأ الموظفون المدنيون يفدون من مناطق شعوب غير شعب الهاوسا نظرا لان التعليم في بعضها ، مثل مقاطعة يوروبا كابا Yoruba Kabba كان متقدما الى حد كبير . وتنافست الحكومة الاقليمية مع السلطات المحلية للامراء وهي سلطات كبيرة وقوية ، ودار التنافس من أجل السيطرة على الخدمات العامة ــ مثل المستشفيات او المياه ، وقد كان المعتاد ان تجرى هذه الاعمال تحت رعاية الامراء. واستطاعت ساردوانا Sardauna التوسط بين هذين الفريقين مع الحفاظ على القضايا المثارة بعيدة عن الحوار العلني . وفي عام ١٩٦٣ اجبر الامير كانو على التخلي عن العرش ــ وكان مثالا لاخرين ممن اخفقوا في تحديث ادوارهم ، وكان ما حدث تهديدا لامن الجميع . ولكن ظل التقرير الخاص بادارته سرا غير معلن .

نيجيريا الجنوبية وغانا :

الاحزاب السياسية في نيجيريا الجنوبية وغانا هي وليدة الحركات الوطنية التي قادها وسيطر عليها المهنيون ابناء الطبقة المتوسطة والمجلس القومي لنيجيريا والكاميرون بقيادة ازيكيوى ــ ويعتبر حزب المؤتمر بزعامة نكروما فرعا او سلالة لهذين التنظيمين وأن حمل ايديولوجيات اكثر راديكالية .

ولنبدأ بالحديث عن المجلس القومي لنيجيريا والكاميرون الذي وجه دعوته مباشرة الى المهاجرين سكان المدن وفاز بانضمام النقابات اليه فضلا عن الروابط العرقية وبخاصة الابو Ibo . حقا لقد وصف نفسه في مطلع الخمسينات اثناء انتخابات لاجوس

بانه حزب البروليتاريا . بيد انه في المجالس النيابية الاولى تحول الى حزب الابو Ibo اساسا . بل ان ازيكيوى نفسه وهو مواطن من ابناءاونيتشا (مستوطنة لمهاجرين من الابو) وترعرع في شمال نيجيرياواصبح الزعيم المؤله لشعب الابو والمنقذ الذي سيضع نهاية لدونية الابو ـ ذلك لانه في هذه الفترة كان التعليم العالي في الشرق متخلف عنه في الغرب كما كانت النخبة الوطنية من يوروبا اساسا . ولم تكن ثمة احزابا منافسة في شرق نيجيريا سابقة على حزب المجلس القومي مما مكنه من الفوز بتأييد أجماعي تقريبا . بيد ان المعلمين والتجار المحليين الذين انتخبتهم دوائر الريف الانتخابية كانت لهم الغالبية الساحقة على الجناح الزيكي Zikist وهو الجناح الراديكالي في الحزب وكذلك على المثقفين اصحاب الاتجاهات الاكثر استقلالية . وفقد الحزب صورته الراديكالية . واعتمدت دعوته الى ريف الابو على عبودية الزعيم ازيكيوى ومناصرة ابناء النخبة المحلية . وصادف الزعماء السياسيون تأييدا شعبيا في كل القرى ولكنهم بذلوا جهدا قليلا من اجل اقامة فروع دائمة للحزب . واختفت في الاقليم الغربي ايضا الصورة الراديكالية لحزب المجلس القومي . واستثمر التنافس بين مدن يوروبا وبين الجماعات العرقية وان ظل يناصر عادة الفريق الاضعف او الافقر . واعترضته عقبة اساسية دائمة تمثلت في مزاعم خصومه بأن فوز حزب المجلس القومي لنيجيريا والكاميرون في الانتخابات معناه سيطرة الابو على يوروبا . وصادف حزب المجلس القومي معارضة في الاقليم الشرقي ، والتي ارتكزت على تقسيمات عرقية ، وروجت الاحزاب الصغيرة ذات الركائز المحلية المخاوف بين ابناء الشعوب الاخرى غير شعب الابو من وقوعهم تحت سيطرة واستغلال الجماعة العرقية الاكبر ، ولهذا تحالفوا مع حزب جماعة العمل . ووقعت انقسامات داخل حزب المجلس القومي ، فقد انشق عن الحزب لعدة اعوام دكتور ك.أ. مباديوى K.O. Mbadiwo وهو من اعضاء الحزب البارزين . وكان اتباعه من شعب الارو Aro وهو شعب يتحدث لغة

الابو وسيطر على الابو خلال القرن التاسع عشر عن طريق التجارة واحد الكهنة اصحاب النفوذ القوي . وتكرر سقوط مرشح حـزب المجلس القومي الذي ترشحه قيادة الحزب وتجيء هزيمته امام رجل عادي اكثر شعبية يقدم نفسه باعتباره رئيس المجلس القومي لنيجيريا والكاميرون المستقل . وحدث ان لقي حزب شيكي اوبي Chike Obi's Dynamic Party تأييدا كبيرا في اقليم اونيتشا وهو الحزب الذي دعا الى نظام ديكتاتوري يحاكي دكتاتورية كمال اتاتورك (وربما كانت الدعوة شيئا غريبا لا يفهمه الناخب) كما ندد بالفساد المستشري بين رجال السياسة (وهي النغمة المحببة لدى الناس) .

ونظرا لان رجال لاجوس السياسيين كانوا غير مشهورين لدى جماهير المدينة وعاجزين عن اثبات نسب كريم لهم في الريف فقد أفل نجمهم في غرب نيجيريا عقب صدور التشريعات البرلمانية وحل مكانهم حزب جماعة العمل ـ الجناح السياسي لجماعة اجبى امو ادودوا Egbe Amo Dduduwa وهي رابطة ثقافية من شعب يوروبا يقودها اوبافيمي اولووو Obafemi Awolowo وناصرها اساسا المهنيون من ابناء شعب يوروبا والتجار الاثرياء المتعلمين . ولقد كان تنظيمها عام ١٩٥٠ صغيرا جدا داتخذت في السنوات الاولى تاكتيكات تستهدف الحصول على ولاء ابناء الدوائر الانتخابية ممن يتوسمون تأييدهم لهم مستقبلا . واهتم قادة الحزب اثناء الحملات الانتخابية بالحصول على تأييد النخبة المحلية على امل ان يحث هؤلاء اتباعهم على التصويت في صف الحزب . واعتمد الحزب ككل اعتمادا اساسيا على ولاء الكثيرين من الاوبا Oba وجرى تعديل الاجراءات التي حدت من سلطانهم كثيرا ، هذا على الرغم من ان الاثر بعيد المدى لعملية التحديث السياسية كان يبشر بالزوال الحتمي للنظام الملكي التقليدي . واستمر قادة الحزب في تأييد وضع الحكام التقليديين ، ورأى عديد من مثقفيهم في النظام الملكي عنصرا هاما ومميزا لتراث يوروبا جديرا بالحفاظ عليه اذا شاؤا الحفاظ على صلتهم بالماضي .

واعتاد المجلس القومي استغلال المعارضة لجماعة العمل ونجح ايما نجاح عام ١٩٥٤ عندما قررت جماعة العمل الحاكمة زيادة الضرائب زيادة كبيرة دون ان تترجم هذه الزيادة الى زيادة في الخدمات الاجتماعية . بيد ان الخلافات في ايديولوجية الحزبين ومناهجهما التنظيمية كانت طفيفة على الرغم من كل هذا . اذ القى كل من الحزبين بثقله من أجل توفير مستوى إفضل للمعيشة، وتقديم خدمات اجتماعية احسن وزيادة العمالة بين الشباب المتعلم ، هذا بينما سعى كل نائب في البرلمان الى تأكيد مساندة الناخبين له عن طريق النجاح في تقديم مكاسب لدائرته الانتخابية او عن طريق الالحاح على اصحاب النفوذ من الناخبين لتيسير هذه المكاسب .

ويمكن ان نعقد مقارنة ذات دلالة هامة بين نيجيريا الشمالية وغانا من حيث التطور السياسي ، فقد تميزت البنية السياسية والاجتماعية الاصلية بالتشابه الشديد في كليهما . واستمر الحكام التقليديون في الاقليمين في العمل على بذل كل نفوذهما من اجل تدبير الشئون المحلية ، كما وان تصدير الكاكاو حقق ثروة كبيرة لشعوب كل من اكان ويوروبا . وتبوأ الحزبان السلطة على الرغم من انهما طرازين مختلفين .

ولد حزب المؤتمر الغاني كوليد راديكالي عن الحركة الوطنية التي تسيطر عليها النخبة المهنية . ووجهت نداءها اساسا الى الشباب من الرجال والنساء ممن قطعوا كل صلة لهم بالمجتمع التقليدي ويشبه في هذا المجلس القومي لنيجيريا والكاميرون في اول أيامه . ولكنه يختلف عن المجلس القومي من حيث انه استطاع الاحتفاظ بجاذبيته وهو ينشد مساندة جماهير الريف . ولقد كانت نسبة كبيرة من سكان مناطق زراعة الكاكاو مهاجرين لا يدينون بالولاء للشيوخ المحليين . علاوة على هذا فان هيبة هؤلاء الشيوخ كانت في نظر شعوبهم ادنى مما هي عليه لدى شعب يوروبا . ولم تحرص الادارة الاستعمارية عليهم في مناصبهم

نظرا لانهم لم يدخلوا ضمن نظام السلطة المحلية . هذا فضلا عن ان دخولهم المالية من الارض والاخشاب وحقوقهم في المناجم اثارت معارضة كبيرة من جانب ابناء الاقليم والتي تحمل تهم الافساد والاسراف والبذخ الاناني . وسعى الشيوخ والنخبة المهنية الى التكاتف في مؤتمر ساحل الذهب المتحد United Gold Coast Convention وهاجمهما حزب المؤتمر الشعبي متهما اياهما بأنهما يمثلان العناصر الاصلاحية فضلا عن تراخيهما في تأييد معركة التحرر من الحكم الاستعماري . وبدأ حزب مؤتمر ساحل الذهب المتحد يفقد الارض التي يقف عليها تدريجيا في هجومه ضد نكروما والمزايا التي يحققها الحزب القائم على السلطة عند اجرائه الانتخابات وتوجيهها لمصلحته . واصبح ملاذه الاخير سعيا الى السلطة هو مناصرة حركة ترتكز على دعوى عرقية بين الاشانتي تدعو الى لا مركزية السلطة والثروة لتخف قبضة اكرا عن طريق منح البلاد دستورا فيدراليا . ودعا حزب المؤتمر صراحة الى تأييد الوضع التقليدي للشيوخ ورحب باولئك الحكام الذين تحالفوا مع الحزب ، بيد ان تشريعاته حدت كثيرا من سلطاتهم . وحين اتخذ نكروما لقب اوزاجييفو Osagyefo وشرع في استبدال الرموز والطقوس البريطانية في البرلمان بأخرى غانية (واساسا من اكان) التزم نكروما هنا بدور شبه تقليدي لحاكم يبسط سلطانه على كل غانا .

وعلى الرغم من ان نكروما اعترف زمنا طويلا بايمانه بالمعتقدات الماركسية ، الا ان مفهوم حزب المؤتمر كطراز لحزب راديكالي يسعى الى تعبئة الجماهير لتأييده في بناء مجتمع جديد ، تطور فيما يبدو في ضوء الصراع الذي خاضه حزب المؤتمر ضد مؤتمر ساحل الذهب المتحد من أجل ضمان التأييد الشعبي في الانتخابات .

بعض الاقاليم المتحدثة بالفرنسية :

ثمة اوجه تشابه كثيرة تجمع بين الاقاليم المتحدثة بالفرنسية من حيث تطورها السياسي وتميزها عن اقاليم غرب افريقيا البريطانية . فالنخبة من ابنائها تخرجوا جميعا من نفس المدارس القليلة الموجودة بالبلاد وبخاصة مدرسة وليم بونتي في داكار . والفوا روابط ثقافية حينما كانت الاحزاب السياسية غير مشروعة ، وسعوا بادىء ذي بدء الى ايجاد موقع لهم داخل النظام السياسي الفرنسي بدلا من الاستقلال عنه . وحينما كانوا نوابا لشعوبهم في باريس ارتبطوا باحزاب اليسار واستوعبوا اللغة الماركسية . وامتدت احزابهم في افريقيا الى كل انحاء البلاد .

وادى الفقر الى الحد كثيرا من نشوء تجارة غنية او طبقة زراعية ثرية فيما عدا اقليم ساحل العاج ، كما ادى تخلف التعليم الى قيام نخبة صغيرة الحجم جدا . وعمدت السياسة الادارية الفرنسية اما الى الغاء الحكام التقليديين او جعلهم مجرد شخوص ودمى ، كما اقامت نظام الادارة المحلية على اساس « الادارة المباشرة » من خلال رؤساء او شيوخ معينين،وكان هؤلاء الشيوخ في الغالب متعلمين واثرياء وحققوا ثرواتهم عن طريق استغلال سلطاتهم ، والقوا فيما بينهم نخبة محلية . وتوهمت الادارة الاستعمارية الفرنسية خلال السنوات الاولى التي اعقبت الحرب العالمية الثانية ان بالامكان نقل السلطة الى هؤلاء ، وناصرت الاحزاب السياسية التي ينتمون اليها . واضطر الزعماء الوطنيون ، نتيجة لهذا ، الى السعي من اجل كسب تأييد جماهير الريف والاتجاه اليهم مباشرة على عكس ما كان مألوفا في الاقاليم البريطانية ، فضلا عن انهم كانوا مسلحين بفهم واضح وغني عن تنظيم الاحزاب وهي الخبرة التي تحققت لهم في باريس . وهكذا استطاع الزعماء المتحدثون بالفرنسية انشاء شبكات واسعة لفروع الحزب في مرحلة مبكرة . بيد انه على الرغم من كل مظاهر التشابه

فقد نشأت بين الاقاليم الافريقية المتحدثة بالفرنسية ، ونتيجة لمواقف محلية ، بعض الاختلافات الهامة بشأن بنية الحزب والايديولوجية .

وفي السنغال انتزع ليوبولد سنجور الزعامة من السياسي العريق لامين جي Lamine Gue'ye . ولد سنجور لاب يعمل بقالا ناجحا ، وان كان من الرعايا ، في قلب اقليم زراعة الفول السوداني ، وكان طالبا نابها . قضى عدة سنوات بالمدارس الثانوية في باريس وغيرها ونال حق المواطنة الفرنسية ثم عاد الى افريقيا عقب الحرب بعد ان خدم في الجيش الفرنسي وقضى فترة في احد سجون المانيا . وبينما كان جي يعبر عن رغبة « المواطنين » في احتكار السلطة السياسية ، كسب سنجور ولاء « الرعايا » وقدامى العسكريين . وجاب كل انحاء الريف مرتديا بنطلونا قصيرا كاكي اللون يشارك شيوخ القرية طعامهم بينما قبع جي محافظا على سترته الرسمية ورباط عنقه . واكد حزب سنجور « الكتلة الديمقراطية Bloc Democratique Sengalaise » اعلان نظرية افريقية عن الاشتراكية معارضا بذلك قيم التشبه والاستيعاب او الدمج التي يؤمن بها خصومه . وسعى الى توحيد مختلف الروابط المحلية العسكرية والعرقية ، وتودد الى رجال الدين وشيوخ الطريقة التيجانية . وحصل خلال سنوات قليلة على تأييد غالبية الناخبين . بيد ان تجميع هذه الفرق ذات المصالح والاتجاهات المتباينة حرم الحزب من ايديولوجية تقدمية متجانسة كما حرمه من قاعدة جيدة التنظيم في القرى ، ولهذا فان الشباب العائد من فرنسا في الخمسينيات حاملا معتقدات ماركسية اكثر وضوحا ، شرع ينتقد حزب سنجور وان انضموا اليه فيما بعد . ولكن بدات تتسع في السنوات الاخيرة الهوة الفاصلة بين سنجور وبين الراديكاليين .

واذا كان كثيرون من القيادات السياسية في السنغال مسيحيين (سنجور ذاته كاثوليكي روماني) في بلد مسلم* فان القيادة السياسية في مالي متأثرة بشدة بالحركات الاصلاحية البيوريتانية التي سادت الاسلام خلال القرن التاسع عشر . ولقد وجد الاتحاد السوداني بزعامة مامادو كوناتي Mamadou Konate (توفي ١٩٥٦) وموديبوكيتا اول تأييد في اقاليم الحضر (لنقارن هذا بحزب الاتحاد التقدمي لابناء الشمال في نيجيريا الشمالية) وبين شعوب مالينك Malinko وسونغي Songhai وغيرهم من الشعوب القوية المؤمنة بالاسلام . أما خصمه وهو الحزب السوداني التقدمي Partie Progressiste Soudanaise فقد التمس التأييد الشعبي من الريف حيث شعوب بامبارا Bambara الوثنية والشعوب الاخرى التي روعها الحاج عمر خلال القرن التاسع عشر . وايده ايضا شيوخ المقاطعات والادارة الفرنسية . وهكذا حشد الاتحاد السوداني كل العناصر المعادية للاستعمار — المتعلمون والاجراء والمثقفون المسلمون — وضمهم حزب واحد راديكالي النزعة السياسية من ناحية ويتطلع الى اخوة اسلامية من ناحية اخرى . وكان انشط من منافسه الحزب التقدمي السوداني في اقامة فروع محلية لحزبه . ولقد كان الشيوخ في واقع الامر لا يرحبون بمرأى فروع الحزب التقدمي في مقاطعاتهم خوفا من ان يكون ذلك مصدر منافسة لسلطاتهم ومن ثم لا غرابة حين نعرف أن انتخابات ١٩٥٧ التي اجريت لانتخاب الجمعية الاقليمية كشفت عن فوز الاتحاد السوداني باغلبية ساحقة .

وكانت الاحزاب السياسية في غينيا المتخلفة ابان ١٩٤٥ ترتكز على مصالح عرقية محلية . ووجد المرشحون تأييدا صريحا من جانب الادارة الفرنسية . بيد ان التوسع السريع في الصناعات

* يشكل المسلمون ٩٠٪ من جملة السكان والمسيحيون ٦٪ والباقي ديانات قبلية وثنية [المترجم].

الاستراتيجية خلق قاعدة عمالية واسعة فضلا عن اعداد كبيرة من العاطلين في المدن وضم الفريقين الاتحاد العام للعمل Confederation General du Travail وهو اتحاد نقابي بقيادة سيكوتوري السكرتير العام للاتحاد . ونشب اضراب عام ناجح للغاية عام ١٩٥٣ حقق لسيكوتوري شهرة واسعة واشتهر معه كذلك حزبه الغيني الديمقراطي Partie Democratique de Quinée سواء في المدن ام في الريف . وتصدت الاحزاب العرقية الصغيرة لهذا النجاح وتحالفت سويا ولكن نداءهم الى الجماهير افسده تأييد الشيوخ والادارة الفرنسية لهم . وتدعمت شعبية الحزب الديمقراطي الغيني في اقاليم كثيرة نظرا لان سيكوتوري سليل ساموري ، وبفضل تأييد المعلمين المسلمين له ، مثلما حدث في مالي . وتعدلت اللغة الماركسية للحزب الذي يرتكز على أبناء الحضر واسبغت عليه صبغة التعاليم الاسلامية . واكتسح الحزب الديمقراطي انتخابات ١٩٥٧ وفاز بكل المقاعد تقريبا في الجمعية الاقليمية .

وفي عام ١٩٤٦ اسس هوفو بوانيه Houphouel Boigny الحزب الديمقراطي لساحل العاج ثمرة اتحاد المزارعين الافريقي . وكان بوانيه ابن ساحل العاج نائبا عن ساحل العاج والفولتا العليا في البرلمان الفرنسي . واستطاع الحزب خلال أعوام ثلاثة ان يحشد كل القوى المعادية للاستعمار في هذه المستعمرة الغنية نسبيا . وعجزت الادارة الفرنسية عن خلق أي منافس ذا فعالية لمواجهة هذا الحزب ومن ثم ساندت خمسة أحزاب صغيرة ترتكز على قواعد عرقية ودينية . واتبعت الحكومة خلال الفترة من ١٩٤٩ — ١٩٥١ سياسة قمع متطرفة ضد الحزب الديمقراطي لساحل العاج واعقبت هذا باجراء انتخابات صنعتها لحسابها . الا ان هذا كله افاد الحزب اذ قوى عوده . وسلمت الحكومة الاستعمارية ابتداء من عام ١٩٥٢ بالتأييد الشعبي للحزب فشرعت تتبع سياسة تودد نحو قادته . وافاد هوفو بوانيه من موقعه كوزير في باريس ابتداء

من عام ١٩٥٦ اذ عرف الكثير من دخائل الحكومة الاستعمارية وهو ما لم يتيسر لاي سياسي اخر في مستعمرة بريطانية . بيد ان الانتصار كلف الحزب الديمقراطي لساحل العاج وحدته فقل عدد اعضائه في فروع الاقاليم بالريف بينما خلقت الجماعات العرقية واصحاب المصالح العديد والعديد من الانقسامات . وبدلا من الدعوة الى قيادة جماعية (على نحو ما فعل قادة مالي وغينيا) اتجه هوفو مباشرة الى الجماهير ، وهكذا اصبح كل زعيم محلي معتمدا على علاقته الشخصية به . وتدعمت شخصية هوفو كزعيم مؤله بعد ان اصبح الحاكم الاوحد . وتزايدت المعارضة من جانب المثقفين (العائدين لتوهم من الدراسة في فرنسا) ومن النقابات العمالية . وبعد ذلك انضمت النقابات عام ١٩٥٩ الى الحزب الديمقراطي لساحل العاج وتم القبض على قادة بعض النقابات المهنية التي رفضت الاتحاد .

ليبيريا :

لم تشهد ليبيريا صراعا ضد الاستعمار فقد كان حزبها المعروف باسم حزب الاحرار «الويج» الحقيقي The whig Party الذي تأسس عام ١٨٦٠ هو الحزب الحاكم أبدا منذ ١٨٧٧ . وتم انتخاب البرلمان عن طريق الاقتراع العام بين البالغين ، ولكن غالبية التمثيل كانت للاقاليم الساحلية حيث يعيش الليبيريون الامريكيون Americo - Liberians اذ كان لهم ثلاثة وثلاثين نائبا من بين تسعة وثلاثين . واسهم السكان الاصليون الذين يقطنون بالداخل مساهمة هامشية فقط في الخطط الاقتصادية والتنمية الاجتماعية ، على الرغم من وجود مناجم الحديد الجديدة في منطقتهم . ولم تشجع السلطات الحاكمة الزراعة التعاونية وانتشار المحاصيل التي تزرع بمساحات واسعة . واعترفت السلطات رسميا بجماعة البورو Poro ممثلة للحكومة في المناطق القبلية

ويراس الرئيس توبمان * Tubman اليوم كل البورو . وتضم النقابات اعضاء كثيرين من كرو Kru ولكن ابن توبمان هو رئيس الهيئة العليا للنقابات Trade Union Congress وتقمع السلطات الاضرابات دون هوادة أو رحمة .

وجدير بالذكر ان المناصب السياسية العليا محتجزة بالكامل تقريبا لليبيريين الامريكيين ، ومتاحة لسواهم اذا كانوا فقط موضع قبول ورضى من جانب هذه الجماعة ويفضل من يتزاوجون بهم . وهكذا تصبح الخلافات التي تثار داخل حزب الاحرار الحقيقي مبعثها التنافس بين الليبيريين الامريكيين انفسهم ويجرى حلها عادة عن طريق منح مناصب للساخطين .

وبدا الليبيريون الامريكيون** مؤخرا يخشون الاثر المحتمل للتنمية الاقتصادية على وضعهم المميز . واستطاع توبمان باعتباره « المدير لشئون طبقة الليبيريين الامريكيين » ان يمكن هؤلاء من حصاد مغانم التنمية . وبينما اتخذ سياسة اكثر تسامحا تجاه السكان الاصليين وكسب شعبية بينهم الا انه ابقى على وضعهم المتسم بالدونية .

---

* توفي إثر عمليه جراحيه في يوليو ١٩٧١ وخلفه نائبه وليام تولبرت.

** الليبيريون الامريكيون هم عبيد افريقيون حررتهم جماعات امريكية إبان فترة الصراع بين الشمال والجنوب في الولايات المتحدة الامريكية. والرغبة في توجيه ضربة اقتصادية للجنوب الزراعي وكذلك الخوف من فائض اليد العاملة السوداء. وقد اسكنوها الساحل الغربي لافريقيا ابتداء من عام ١٨٢٢. وحملت تلك الجماعات لواء الدعوة الانسانية. الحيزة لتحرير العبيد. ويقدر عدد الليبيريين الامريكيين الآن ٨ ٪ من جملة السكان وهم النخبة الحاكمة، والسكون الأصليون ٩٩٪ [المترجم].

نحـو نظام الحـزب الواحـد :

حـين اقامت الحكومتان البريطانية والفرنسيـة نظاما برلمانيا في مستعمراتها ظننا ان هذا النظام سيفضي الى قيام دول متعددة الاحزاب . ويبدو ان كان لديهما ما يبرر هـذا الاعتقاد نظـرا للتنافس القائم وتتذاك بين الاحزاب في اوائل الخمسينات . علاوة على هذا فقد ساد اعتقاد بأن قيام حزبين او اكثر ، احدهما يشكل الحكومة والاخر المعارضة ، انمـا يعني توفـر قسمة جوهرية للديمقراطية ، بيد انه في السنوات التي اعقبت منح هذه البلـدان استقلالها تحركت كل دولة وبسرعة شديدة نحو نظام الحـزب الواحد . وسرعان ما تغيرت معدلات قوى الاحزاب القائمة خارج السلطة . مثال ذلك : ان نكروما حصل عام ١٩٦٠ على اكثر من مليون صوتا في الاستفتاء القومي على الرئاسة مقابل ١٢٥,٠٠٠ صوتا حصل عليها منافسه دكتور دانكوا Danquah مرشح التحالف وممثل النخبة المهنيـة وعدد مـن الجماعـات العرقية . واصدرت حكومة غانا على اثر ذلك قانـونا اسقط شرعية كـل الاحزاب المعارضة لحزب المؤتمر . وفي بلـدان اخرى ـ مثـل السنغال ومالي وغينيا ـ اتحدت بعض احزاب الاقلية مع احزاب السلطة وشكلوا معا « جبهة وطنية » وتلاشت احـزاب اخـرى للاقلية وذهب معها قادتها دون ان يسهموا بنصيب في السياسة القومية . وحدث كل هذا بسرعة كبيرة غير متوقعة . ولكن بعد أن تحقق الاستقلال الكامل ازيلت كل القيود التي فرضتها السلطات الاستعمارية واطلقت يد الحكام الجـدد لاصلاح الدستور بغيـة ازاحة المعارضة (وتم ذلك باسم الشرعية القانونية لانهم كانـوا يتمتعون بالاغلبية الساحقة في البرلمان عادة) .

ونذكر ان احد الاسباب في الاتجاه نحو نظام الحزب الواحد هو رغبة السياسيين في البقاء في مناصبهم . فقد كان قليلون مـن بينهم يحققون دخلا كبيرا مثل الاطباء او المحامين ، ومن ثم فان رواتبهم كوزراء او نواب بالبرلمان لم تمثل زيادة كبيرة في دخولهم .

ولكن اكثر السياسيين المنتخبين كانوا يعملون قبل انتخابهم معلمين او كتبة او تجارا ومن ثم اضحت رواتبهم ضعف او ثلاثة امثال دخولهم السابقة . هذا علاوة على ان بدلات السفر السخية والاسكان المجان (حيث كان المسكن الرسمي للوزير يتكلف ثلاثين الف جنيه استرليني) وحفلات الكوكتيل الرائعة (فيما عدا مالي ذات الاتجاه المتزمت) التي تقيمها الدولة للوفود الزائرة ، كل هذا خلق اسلوب حياة لم يعهده ابناء غرب افريقيا من قبل حتى كبار موظفي الادارة الاستعمارية . يضاف الى هذا سلطة رجال السياسة في تعيين الموظفين وتقديم خدمات خاصة . واصبحت السياسة اكثر المهن عائدا وافضلها ربحا . واستن قادة الدول الحديثة اسلوبا مترفا في حياتهم . مثال ذلك : ان قصر الرئاسة الذي يسكنه هفو بوانيه في ابيدجان تكلف اكثر من ستة ملايين جنيها استرلينيا ويسمى قصر فرساي المعاصر . وشيد الزعيم الراحل ساردوانا Sardauna سورا تكلف اكثر من ثلاثين الف جنيه استرليني حول كادونا Kaduna مقر اقامته . واعتاد الوزراء استخدام سيارات فارهة باهظة الثمن والتكاليف حتى ليكاد المرء يتهمهم بجنون العظمة .

واذا كانت دولة الحزب الواحد قد انتقدها في الخارج اولئك الذين يرون فيها سلبا للديمقراطية الا انها تجد ما يبررها في نظر الافريقيين . وتهيىء حججهم للحزب السائد اساس الشرعية لسلطته .

ولقد تركت فترة الاستعمار تراثا للحكم الاستبدادي والذي احست الحكومات الافريقية بعده انها مجبرة على اتباعه . واحست كذلك ان الحزب الذي لعب دورا اساسيا في نيل الاستقلال احرى به ان يواصل قيادته للبلاد لدفعها في طريق التنمية الاجتماعية والاقتصادية . ونالت احزاب الاقلية المثلة للمهنيين ما تستحقه من عقوبة جزاء محاولتها ارجاء الاستقلال وتبعيتها الذليلة للسلطة الاستعمارية واضحت غير صالحة لشغل اي منصب في البلاد .

ولسنا بحاجة الى تأكيد صعوبات التنمية التي تواجه هذه الدول الفتية . ويقول الزعماء الافريقيون في هذا الصدد ان المهارات والمواهب نادرة جدا في مجتمعاتهم مما يستوجب توظيفها كلها مباشرة في مهام اعادة البناء . كذلك تعتبر الوحدة الوطنية امرا حيويا . ويردد الافريقيون نقد الغرب للديمقراطية بأنها أقل صور الحكم فعالية و « المعارضة » لا تعني في نظر جمهرة الافريقيين « حكما بديلا » بل تعني « ألهدم » و « التخريب » وتترجم في عديد من اللغات الافريقية الدارجة بكلمة تعني من بين ما تعني « الهدامون او السفاحون » .

ويقال على المستوى الايديولوجي ان لا وجود لجماعات ذات مصالح متعارضة ــ بمعنى برجوازية اقتصادية وبروليتاريا . فقد كان المجتمع الافريقي القبلي التقليدي مجتمعا لا طبقيا اذ لم يسمح في الغالب الاعم بظهور فوارق وراثية بشأن الثروة او السلطة . ويذهب كثير من القادة الافريقيون اصحاب الفكر الماركسي الى ان الطبقات لا تشكل اسسا ترتكز عليه الاحزاب السياسية المتنافسة نظرا لعدم وجودها اصلا . وتزعم الاحزاب المتنافسة في كل دولة انها تنذر نفسها لتوفر للناخب افضل مستوى للمعيشة ، ويرجع الاختلاف بينها حول وسائل بلوغ هذا الهدف وليس حول توزيع العائد بين مختلف قطاعات السكان . ونجد في نهاية الامر أن سياسة التنمية لم تحددها ايديولوجيات السياسيين بقدر ما تحددها ادارة المؤسسات الاجنبية ورغبتها في الاستثمار ، وسخاء هيئات المعونة الدولية .

ويقال كذلك ان الصراعات والتوترات الكامنة في المجتمعات التي تمر بمثل هذه التحولات السريعة شديدة وضخمة للغاية بحيث لو طرحت للمناقشة الصريحة في البرلمان والصحافة فان تماسك الدولة الحديثة سيتعرض لخطر جدي ومحقق . وهناك من يزعم ان حسم الصراعات داخل اطار حزب واحد يعتبر امرا اكثر فعالية . وهنا يتاكد دور الزعيم معبود الجماهير ، فهو وحده

القادر على فرض الوفاق بين الجماعات المتصارعة ذات الآراء المتعارضة . ويرون ان هذه العملية يبررها التقليد الموروث فهي تشبه ما كان يحدث في الممالك التقليدية حيث يتوسط الملك ، الذي يسميه الاوروبيون خطأ « المستبد » بين الجماعات السلالية المتنافسة . ولم يكن مجلس شيوخ القبائل في هذه الممالك منقسما الى جماعات او احزاب متعارضة على طول الخط دائما ، بل كان موقف كل جماعة يتغير حسب تغير القضايا المطروحة . وتتسم الموافقة بالاجماع على قرارات القادة من الشيوخ او الملك وليس عن طريق التصويت والاغلبية . ويزعم رجال السياسة الان ان هذه العملية ذاتها هي التي تتكرر داخل الحزب الواحد .

ووجدت الاحزاب الناجحة في توليها الحكم فرصة يسرت لها العديد من الوسائل لتعزيز هيمنتها وتقليل نفوذ وفعالية خصومها . واتجهت الحكومات في توزيع الخدمات المدنية الجديدة ــ تعبيد الطرق وانشاء المدارس والمستشفيات ــ الى تركيز هذه الخدمات في الدوائر الانتخابية التي تشجع اعضاء حزبها . أما الاقاليم التي تقدم اعضاء من احزاب معارضة فانها تجد نفسها وليس بدون مبرر على الاطلاق ، معرضة للتخلف اكثر ، ومن ثم يجد اعضاؤها انفسهم مضطرين اما الى الاستسلام لحزب الحكومة او ان يصوتوا الى جانب اخرين في الانتخابات التالية . وقد تستخدم الحكومة العقوبات كذلك ضد ابناء النخبة المحلية ، على امل بذل جهدهم ليحملوا الجماهير في مجتمعاتهم على تغيير رايهم . ويجد الاوفياء المخلصون لحزب الحكومة كل التسهيلات الممكنة للحصول على قروض للتجارة او الزراعة ، او عقود لتنفيذ بعض المشاريع الصغيرة للخدمات العامة . اما اعضاء جماعات المعارضة فيتعرضون لحملات تفرض عليهم ضرائب عالية بحجة ارتفاع دخولهم وتحميلهم مسئولية اثبات العكس ، وتدفع بهم الاجهزة الى المحاكم بحجة عدم السداد . ويعني هذا ان حزب

الحكومة يبسط سلطانه على هذه المحاكم ومختلف اجهزة الحكم المحلي . ويتم كل ما تريده السلطة باسم الشرعية القانونية وذلك عن طريق تعيين المخلصين للحزب قضاة في المحاكم (بدلا من الشيوخ التقليديين كما يحدث في كثير من الحالات) وعن طريق نجاح الحزب الحاكم في انتخابات المجلس المحلي .

وتحقق الاحزاب السياسية دخلا ضئيلا من الاشتراكات الدورية التي يدفعها آلاف الاعضاء ، ونادرا ما تكون هذه الاساليب فعالة ومجدية على المدى الطويل . وكثيرا ما يدفع اعضاء البرلمان حصة من رواتبهم وهنا تبدو الاحزاب الصغيرة في وضع غير موات بالنسبة لها . علاوة على هذا فان الاحزاب التي في السلطة تتلقى هبات من المؤسسات التجارية ، المحلية والاجنبية ، مقابل مزايا تتوقعها منها هذه المؤسسات . وحدث كثيرا تحويل ميزانيات بطرق غير محسوسة من الحكومة الى الحزب ويتم ذلك عن طريق حصول الحكومة على ارض او مشروع بسعر مبالغ فيه ويغنم الحزب فارق السعر بين القيمة السوقية الفعلية وبين سعر البيع وهو الفارق الذي يقدمه المنتفع في صورة هبة الى الحزب .

واذا توفرت للحزب الحاكم مصادر تمويل ضخمة فانه يستطيع خوض المعركة الانتخابية بقوة فعالة مستخدما عددا اكبر من العملاء فضلا عن تقديم الكثير من الرشاوى وفي بعض الاحيان مزيدا من الاعتداءات ضد المعارضة لاخضاعها . وتدخل اجهزة الدعاية التابعة لوزارات الاعلام المعركة الانتخابية كقوة مناصرة للحزب الحاكم . ولقد كان ضباط الادارة البريطانية في شمال نيجيريا مناصرين سافرين لحزب مؤتمر شعب الشمال . وبلغت البلاد مرحلة أصبح من المستحيل فيها على حزب معارض ان ينظم نفسه بصورة فعالة ـ اذ يقع اعضاؤه دائما فريسة في يد السلطات الحاكمة ـ او ان يدخل المعركة الانتخابية ندا للحزب الحاكم . ولقد ظلت نيجيريا حتى الانقلاب العسكري في ١٩٦٦ مثالا للدولة المتعددة الاحزاب . اذ كان بها ائتلاف حاكم من حزبين (مؤتمر

شعب الشمال والمجلس القومي لنيجيريا والكاميرون) بينما كان الحزب الثالث في موقع المعارضة (حزب جماعة العمل ثم اخيرا الحزب الوطني الديمقراطي النيجيري) . بيد ان كلا من هذين الحزبين كان القوة المهيمنة في اقليمه . واستطاع كل منهما مرتكزا على قاعدته المحلية ان يخوض معركته في الاقاليم المجاورة ، ولولا هذه المساعدة الخارجية لانهارت احزاب الاقلية في كل اقليم .

وثمة منهج اخير يكفل سيادة وهيمنة الحزب الواحد ويتمثل في المجال الثقافي والايديولوجي . يسعى الحزب القائم على السلطة الى غرس وتأكيد القيم التي يمثلها في نفوس كل السكان . وتحقق هذا الهدف بالنسبة لبعض الاحزاب ـ حزب المؤتمر في غانا ، والاتحاد السوداني في مالي والحزب الديمقراطي الغيني ـ عن طريق السيطرة على جماعات عصرية الاتجاه ـ مثل روابط الشباب والنقابات والجمعيات الزراعية وما أشبه ـ ويسعى قادة حزب مؤتمر شعب الشمال في شمال نيجيريا الى هدي السكان غير المسلمين في منطقة « الحزام الاوسط » الى الاسلام ـ وتتألف هذه المنطقة من جماعات ذات بنية قبلية وموجودة خارج الامارات . وفرضت السلطات هنا تطبيق الشريعة الاسلامية في كل المحاكم العرفية بينما ظل القانون المحلي التقليدي معمولا به طوال حقبة الاستعمار . واصبحت الهاوسا هي اللغة المشتركة . واعتماد الوثنيون او المسيحيون من أعضاء مجلس الشيوخ ارتداء العمامة والريجا Rigo كلما قصدوا كادونا Kaduna تجنبا لما قد يستشعرونه من خجل . وكان ساردوانا السوكوتي Sardauna of Sokoto اول رئيس اقليمي حتى مقتله في انقلاب ١٩٦٦ ، يقوم بجولات طوال الاعوام الاخيرة في المناطق غير الاسلامية ، وتميزت هذه الجولات بالحماس الشديد في الدعوة الى الاسلام . وجرى اعلان تحول عشرات الالاف الى الاسلام بعد ختام تلك الجولات . وتتحدد الهاوسا كجماعة عرقية في ضوء الثقافة ـ لغة مشتركة وزي موحد وليس في ضوء النسب السلالي او الانتماء

الى وحدة سياسية واحدة . وهكذا اصبح من اليسير تمثل واستيعاب الاعضاء الجدد . ولهذا يبدو ان الهدف النهائي للقادة السياسيين هو استيعاب كل ابناء نيجيريا الشمالية في الهاوسا . وجاءت أقوى معارضة لهذا الاتجاه من جانب شعب تيف Tiv .

واتخذت النخبة ذات الثقافة الغربية دورا استسلاميا يدعو للدهشة ازاء قيام دول الحزب الواحد . انهم وقد تلقوا تعليمهم بجامعات غرب اوروبا او الولايات المتحدة تعلموا قبول واكبار مفاهيم الديمقراطية السائدة هناك . وحيث انهم خيرة المتعلمين في بلادهم الافريقية فان الامر لم يقتصر على ايمانهم بحرية انتقاد الحكومة بل ظنوا ان آراءهم سيكون لها ثقلها واعتبارها في نظر السياسيين وهم دونهم تعليما . وكثيرا ما كانوا يستاءون حين تتخذ السلطات قراراتها على اساس مصلحة الحزب الحاكم وليس على اساس منطق اقتصادي . ولكن وعلى الرغم من هذا فان احتجاجاتهم ضد كل هذه المساوىء التي تعرضوا لها كانت واهية غير فعالة . ويكمن السبب في تحكم السلطات في شئون توظيف النخبة . ويعمل كثير من النخبة في مجال الخدمة المدنية ويشعرون ان النشاط السياسي السافر خطأ ، وان من يحمل آراء معادية للسلطة يوصم بأنه « غير جدير بالثقة » ويحرم من كل فرص الترقي . ويعرف نظار المدارس ان لو اعرب واحد من هيئات التدريس عن آراء معادية للحزب الحاكم فان مدارسهم ستحرم من الاعانات الاضافية التي تقررها الحكومة . ولن نجد سوى عدد محدود جدا من المهن بمنأى عن السيطرة الحكومية وهي عادة مهن تحتاج تدريبا خاصا . ولكنها ليست ملاذا آمنا لمعلم او مدير يكشف عن استيائه بعبارات صريحة .

وتتمتع النخبة علاوة على هذا بوضع متميز في المجتمع اذ تدافع الحكومة عن رواتبهم المرتفعة . وتؤمن النخبة بأن مصلحتها تكمن في الحفاظ على الحكومة قوية ، ذلك لان انهيار السلطة وما يتبع ذلك من فوضى عامة سينتهي بحرمانهم من مناصبهم وامتيازاتهم .

ولهذا فان اي انتقاد يجب الا يكون قاطعا وحادا على نحو يهدد السلطة . فالتوترات موجودة في كثير من الدول ويمكن بسهولة ان تولد موقفا ثوريا اذا ما اشعلت شرارتها ثورة داخل صفوف النخبة .

ويمكن القول بوجه عام ان الاحزاب الحاكمة في كل غرب افريقيا . استخدمت نفس الاساليب لضمان سيطرتها سواء بفرض الامر الواقع او باسم الشرعية القانونية داخل دولة الحزب الواحد . وبررت جميعها مواقعها بطرق متماثلة . ولكن لمجرد اختلاف هذه الاحزاب الحاكمة عن بعضها في المراحل الاولى للنضال من أجل الحكم الذاتي ، اتخذ كل منها تنظيما متباينا عن سواه وذا طابع متميز .

وظلت احزاب النخبة التقليدية اوتوقراطية الطابع على الرغم من استمرارها في تأكيد دورها في مجال تحديث بلادهم . وتأكدت هيمنة ايديولوجية النخبة التقليدية . ويتسم تنظيم الحزب بضعف بنيته ، فضلا عن ندرة المؤتمرات التي يعقدها الحزب ، وتصدر أكثر القرارات الحزبية عن طريق اتصالات غير رسمية تجري بين قيادات الحزب او بين أعضاء البرلمان .

ويتمثل اهم فارق بين الاحزاب في التمايز بين نمطين للبنية السياسية . فهناك من ناحية الحزب الذي يسعى الى حشد كل الناس من أجل تطوير البلاد ويقدم من خلال هذه العملية ايديولوجية متميزة تؤكد على زعامة الحزب ، كما يسعى الى بلوغ اهدافه عن طريق السيطرة على روابط واتحادات عصرية يستخدمها ادوات له في التنشئة الاجتماعية . وهناك من ناحية اخرى الحزب الذي يوافق على استقلال الروابط والاتحادات القائمة معتبرا ان دوره الخاص هو التوفيق بين المصالح المتعارضة لهذه الروابط . ومثل هذا الحزب لا يقدم صياغة محددة لايديولوجية خاصة به . هذان النمطان من الاحزاب ــ احزاب

حشد وتعبئة الجماهير واحزاب التوفيق والمصالحة ـ اذا ما استخدمنا مصطلحات آبتر Apter تطورا عن الاحزاب الراديكالية القديمة واحزاب النخبة المهنية وان لم يكن التطابق بين اليوم والامس كاملا . كذلك فان القسمات المميزة لاحزاب الحشد والتعبئة ليست منعدمة تماما في احزاب التوفيق والمصالحة ، والعكس بالعكس .

وتركز احزاب الحشد والتعبئة ـ حزب المؤتمر في غانا والحزب الديمقراطي الغيني في غينيا والاتحاد السوداني في مالي ـ تركز كلها على قبول الناس جميعا لقيم التحديث . وينشط الحزب من خلال تلك الروابط التي تدعم مثل هذه القيم وتعمل على الانتقاص من الولاء التقليدي للجماعات العرقية (على الرغم من ان الدولة الحديثة قد تزعم انحدارها سلاليا عن ممالك قديمة ، فساحل الذهب اصبح غانا ، والسودان يسمى مالي) . ويمكن ان نورد فيما يلي بعض امثلة عن الروابط التي تخضع لسيطرة الحزب .

انشىء في غانا « البناء الجديد » لمؤتمر النقابات في عام ١٩٥٨ بأن اصبح مؤتمر النقابات جزءا متكاملا مع تنظيم حزب المؤتمر ، والسكرتير العام لمؤتمر النقابات عضوا في اللجنة المركزية للحزب . واعترفت الحكومة بعدد قليل من الاتحادات ، واستطاعت هذه الاتحادات بفضل حجمها وقدراتها المالية الجديدة ان تصبح اقوى من سابقتها . وكان هدف « البناء الجديد » هو حشد كل طاقات وامكانيات جميع العمال ودفعها نحو اعادة بناء غانا اقتصاديا . وعلى الرغم من سيطرة الحكومة على الاتحادات الا انها كانت تأمل في ان تقلل من مظاهر الصراع والخلافات في مجال الصناعة الى الحد الادنى والا ضعف اقتصاد البلاد . ومن ثم تحددت مهام الاتحادات بالعمل على تنظيم قوة الانتاج ودفعه الى اعلى مستوى ، ودعم حياة المدينة ، وان تكون واسطة واداة لدعاية حزب المؤتمر في كل الشئون السياسية .

وتشكلت « فرق عمال غانا » عام ١٩٥ كنتيجة مباشرة لزيادة البطالة بين خريجي المدارس وهو ما تسبب في كثير من احداث العنف المواجهة في اغلب الاحيان لاهداف عرقية . وضمت هذه الفرق اكثر من عشرة الاف عضو حتى عام ١٩٦٠ وتم تنظيمها وفق الاسلوب العسكري واتخذت زيا موحدا وتدريبات منتظمة . واعتادت القيام بنشاطات رياضية وترفيهية ، علاوة على تلقي محاضرات عن الايديولوجية الجديدة المسماة (مذهب نكروما) Nkrumaism واشتغل اعضاء الفرق العمالية في الخدمات العامة مثل تعبيد الطرق وفي مزارع الدولة . وكان من المتوقع ان يتعلموا مهنا يستطيعون ممارستها فيما بعد في الحياة المدنية . ولكن عاق نمو هذه الفرق سوء تحديد الافكار المتعلقة بهدفها النهائي وتكاليفها الباهظة التي بلغت مليوني جنيه استرليني خلال الفترة ١٩٦٠ - ١٩٦١ .

وتشكلت في مالي حركة الشباب الجديدة عام ١٩٦١ وضمت كل الروابط السابقة - بما في ذلك الكشافة على سبيل المثال . وصدر مرسوم يقضي بأن تكون عضويتها الزامية لكل من بلغ الثامنة عشرة من العمر ، كما اتبعت مثل غانا نظام حياة عسكرية داخل معسكرات خاصة بها . وزعم الانقلاب الذي وقع في عام ١٩٦٠ أن ثمة حاجة ملحة وظروفا طارئة تقتضي حماية امن البلاد ، وهو الانقلاب الذي انهى الاتحاد الفيدرالي بين مالي والسنغال . وتعلم الشباب داخل المعسكرات مبادىء القراءة والكتابة وفنون حرفية وطرقا جديدة في الزراعة بهدف الحيلولة دون تدفق الهجرة من الريف الى المدينة فضلا عن تعليمهم احترام تاريخهم وثقافتهم . واقتدت دول عديدة من دول غرب افريقيا بمثال حركة الشباب الاسرائيلي التي استهدفت توحيد المهاجرين ذوي الثقافات والخلفيات الاقتصادية المتباينة للغاية وصهرهم جميعا داخل اطار من القيم الواحدة .

ان واحدة من اهم المشكلات التي تواجه اي حزب يستهدف حشد وتعبئة الجماهير هي تأكيد جذوره في الريف ، وقد يتحقق هذا اما عن طريق اقامة جمعيات تعاونية ترعاها الحكومة او انشاء لجان محلية للحزب لتكون أداته للحكم المحلي وارساء العدالـــة . وترتكز الجمعية التعاونية الريفية في مالي على القرية اساسا وتكون مسئولة عن تنظيم الزراعة التعاونية وتطوير الاساليب التقنيـــة الجديدة واقراض الفلاحين . ويعين الاعضاء قائدا محليا لهـم ، ويتلقى عمال الحكومة الزراعيون التعليمات على مستوى المقاطعة والاقسام وينظمون شراء مواد التموين اللازمة لهم وبيع المنتجات ـ وتنشط التعاونيات ايضا في مجال محو الامية فضلا عن اوجه النشاط الثقافي الاخرى .

وفي غينيا تـم القضاء علـى نظام رئاسـة شيوخ القبائل الاستعماري عام ١٩٥٨ وتولى المناصب الادارية الاكفاء من الموالين للحزب الديمقراطي الغيني وحل محل نظام شيوخ القبائل نظام مجالس القرى التي يجري انتخابها سنويا بالاقتراع العام بـين البالغين . ويضم كل مجلس عشرة اعضاء ـ بشرط احتجاز ثلاثة مقاعد للنساء واثنين لعضوين من روابط الشباب ـ ويتولـــى رئاسة القرية المرشح الذي يفوز بأكثر الاصوات . وتعتبر هذه المجالس مسئولة عن تطبيق القانون محليا وضمان استتباب النظام والصحة العامة وبعض القضايـا التشريعية البسيطة وجبايـة الضرائب ويكون رئيس القرية ممثل الحزب على ادنى مستوى وفي الوقت ذاته هو اصغر عضو في سلم السلطة الادارية .

ويواجه التخطيط الاقتصادي في دول غرب افريقيا معوقات بسبب اعتماده على المؤسسات الخارجية للبـدء في مشروعـات جديدة ، وبسبب اخفاق الحكومة في ممارسة تنظيم ورقابة كافية وفعالة بحيث ان القسط الاكبر من العملات الاجنبية يتم انفاقه على استيراد الكماليات التي تستخدمها النخبة بدلا من استيراد آلات وماكينات تعود بالنفع على البلاد . ويدعو الاشتراكيون الى

سيطرة الدولة على كل مجالات الصناعة والتجارة . ونظرا للتشريعات التي سنتها غانا خلال السنوات السابقة على الانقلاب العسكري فان المؤسسات الاجنبية لا يمكنها العمل الا في المشروعات الصناعية الضخمة فقط هناك (على الرغم من السماح للشركات الاجنبية القائمة وقتذاك بمواصلة العمل) وتضم البلاد بذلك خمسين مؤسسة مملوكة للدولة . بيد ان سيطرة الدولة في حد ذاتها لا تجعل المشروع قابلا للحياة والنمو ، فكم من مشروعات انشئت لاسباب مظهرية لا غير وحققت خسائر ضخمة .

ولوحظ ان اكثر من تدربوا على الادارة ليست لديهم الكفاءة اللازمة لادارة الاعمال . فضلا عن ان الزيادة السريعة في سيطرة الدولة افضت الى تفاقم الروتين الحكومي ومن ثم استشرى الفساد والرشوة مما يحطم فعالية المؤسسات وصورتها لدى العامة . والحق يقال انها ليست معضلة سهلة الحل .

وفي الدول التي تحكمها احزاب حشد وتعبئة تسيطر على روابط الشباب والنساء والنقابات وتعاونيات الفلاحين ومجالس القرى تصبح اللجنة المركزية للحزب مناط اتخاذ القرار . وتكون وظيفة المجلس النيابي هنا التصديق على القرار . ويقال في الدفاع عن هذا النظام انه ديمقراطية حقيقية حيث تعبر الجماهير عن آرائها من خلال تنظيماتها وتنتقل صعودا الى المستويات الاعلى للجان الحزب . وانه لمن العسير اكتشاف مدى فعالية هذه العملية في حقيقة الامر ، ولكن من اليسير تصور قرارات اللجنة المركزية للحزب تنتقل هبوطا الى الفروع المحلية للروابط المختلفة . والشيء المؤكد ان هذه القنوات الجديدة للاتصال تخلق ولاءات جديدة ، وتحد من العلاقات التقليدية ، وتغرس في النفوس قبول القيم الملائمة لعملية التحديث . بيد ان ، الامر يعتمد كثيرا على نجاح هذه الروابط ، ونحن لا نملك من هذا غير الاوصاف البراقة التي تقدمها لنا كراسات الدعاية الرسمية . فهذه الروابط هي البوتقة التي يتعين ان تتم بداخلها عملية الملاءمة بين القيم التقليدية

والحديثة كما وان التوترات التي تنشأ داخلها او الخلافات التي تنشأ حول علاقاتها بالمستويات الاعلى في الحزب قد تجهض انجازاتها الايجابية . وترتبط شبكة اتحادات وفروع الحزب ببعضها البعض من خلال العديد من المؤتمرات المشتركة التي يجري بداخلها (كما يبدو في ظاهر الامر) تبادل واضح للآراء اكثر مما يصدر عنها من قرارات . وتعتبر هذه الشبكة في الدول الحديثة احدى الوسائل الرئيسية التي تصل الفروع بالمستويات الاعلى — وهي وسيلة متمايزة عما هو ميسر للمتعلمين في النظم البيروقراطية وتؤكد على معايير مختلفة مثل الولاء للحزب والقيادة بين الجماهير .

اما حزب التوفيق والمصالحة ـ وتمثله الاحزاب التي تولت السلطة في اقاليم نيجيريا الجنوبية وفي ساحل العاج والسنغال على سبيل المثال — فانه يختلف عن طراز الحشد والتعبئة من حيث انه لا ينشد التحكم والسيطرة من خلال دمج الاتحادات الكبرى والجماعات صاحبة المصلحة في المجتمع داخل تنظيمه الذاتي . انه على احسن الفروض كسب ولاءها أو الحصول على تصريحات علنية بمساندتها له . ويستمر الشعب في التعبير عن آرائه من خلال نوابه البرلمانيين اساسا . ويمثل اعضاء البرلمان دوائرهم كما تؤثر المؤسسات التجارية على القرارات التي يتخذها الوزراء . ويخضع الجانب الاكبر من النشاط الاداري لنفوذ رجال السياسة عمليا . وقد يتدخل عضو البرلمان للحصول على منحة دراسية بالجامعة لحساب طالب من ابناء بلدته — ويعوضه ابواه عما يتجشمه من متاعب في هذا السبيل ، وقد يحصل الوزير على عقد أو امتياز لحساب مؤسسة ما — والتي تقيم له مسكنا من عدة طوابق عرفانا منها له بالجميل . وبعد ان يطمئن الحزب الى السلطة يخبو نشاط الفروع المحلية التي يدب فيها النشاط كلما حان موعد الانتخابات . ويتوقف الحزب عن عقد مؤتمرات دورية ويقتصر نشاطه على أعضائه في البرلمان . ويؤكد الحزب مساندة

الجماهير له عن طريق الشرطة والمحاكم واجهزة الحكم المحلي وليس عن طريق الطواف بين الجماهير وكسب تأييدهم . ويقدم المسئولين في الحزب الوعود المعمولة بالحديث عن المثل العليا في الديمقراطية والاشتراكية بينما ينتهج الحزب سياسة برجماتية* في جوهرها — حيث ينشد الاهداف التي يمكن ان يحققها فقط بدون تضحية .

وطبيعي ان التنمية الاقتصادية هي الهدف الرئيسي للدولة التي تقوم على « حزب التوفيق والمصالحة » . ولكن المبادرة تأتي كما هو متوقع من الروابط والاتحادات المستقلة والمؤسسات المحلية والاجنبية . وقد تلتمس الجماعات المحلية مساعدة الحكومة لتحقيق مشروع ما ، وتعمل مكاتب تنمية المجتمع او رفاهية المجتمع على اثارة هذه المطالب . ولكن جهودهم تسير عبر الروابط القائمة مستغلة القيم التقليدية او العناصر المنافسة لحفز هذا الجهد . وتأخذ خطط التنمية الزراعية صورة مزارع مملوكة للدولة أو مزارع مستقلة عن القرى ولكن دون بذل جهد يذكر من أجل اصلاح الاساليب التكتيكية التي تتبعها جماهير الفلاحين . ولعل السبب في ذلك ان مزارع الدولة تغل عائدا اسرع من اي اصلاحات يجري ادخالها على اساليب الزراعة التقليدية ولكن يمكن أن نعزو السبب ايضا الى عجز رجال السياسة عن تعبئة جهود الفلاحين لمثل هذا النشاط على نحو يحقق فوائد ملموسة .

---

* سياسة (عمليه) الغايه فيها تبرر الوسيلة.
تتعامل مع الواقع الممكن وكما هومعطى للانسان دون التزام بمبدأ أوعقيدة تحكم السلوك وتحدده، وانما تتغير وتتعدل وفق ماتمليه المصلحة الفردية.

(المترجم)

١٠

معاناة التغير

راينا في الفصول السابقة كيف ان ابناء غرب افريقيا لاءموا مؤسساتهم وانماط سلوكهم مع اثر الغرب على مجتمعاتهم . فقد تغيرت العلاقات بين اعضاء الاسرة واصبحت قاصرة على زوجين يبنيان بيتهما بمنأى عن العشيرة . وبدأ السعي الى الاهداف التقليدية بوسائل جديدة ، ولم يعد ساكن المدينة ينشد الامن الاجتماعي من خلال جماعته السلالية بل من خلال الرابطة العرقية التي تضم اعضاء من قريته . وتشكلت اهداف جديدة ، فالعمال ينظمون النقابات للمساومة على ظروف عمل افضل ، بينما اسس ابناء النخبة ذوي الثقافة الغربية حركات واحزابا سياسية لانتزاع السلطة من الحكومات الاستعمارية . واذا نظرنا الى هذه التغيرات نظرة سطحية سيخيل الينا انها تمت بسهولة كبيرة نسبيا . وواقع الامر اننا نقصر عادة عن تقييم مدى المعاناة التي يتعرض لها كل امرىء حين يكون بصدد عملية تكيف وهو ينتقل من مجتمع قبلي الى مجتمع حديث .

يجد المرء في مواقف التغير نفسه ازاء مشكلات الاختيار الصعب . ثمة اهداف جديدة اضيفت الى تلك التي سبق واقرها المجتمع . وقد يكون على المرء ان يختار بين وضع رفيع المنزلة في مجال تقليدي او في مجال حديث فيجد عسيرا عليه ان يحسم أمره ، ويتردد ازاء القيم التي يؤمن بها ، ويتلقى من رفاقه مشورات متعارضة فضلا عن وعيه بالجزاءات التي قد يفرضها عليه هؤلاء لو انه اخفق في العمل وفق توقعاتهم المتباينة . ويتولد الشعور بالاحباط حين يفشل المرء في بلوغ هدفه ، على الرغم من انه التزم الوسائل المقبولة لبلوغ هذا الهدف . وينشأ علاوة على

هذا احساس بالذنب بسبب الفشل في مجاراة توقعات الاخرين ، وقليل من الرجال والنساء هم القادرون على مواجهة هذه المشكلات بنجاح . اما الاخرون فانهم يعبرون عن حالة القلق التي يعانونها بعديد من الاعراض الفسيولوجية التي تظهر عليهم ــ الصداع وآلام المعدة وما شابه ذلك . وثمة الاعراض العصابية وان كانت اقل شيوعا من هذه بنسبة ضئيلة وتكشف اقلية صغيرة عن اعراض لامراض الشخصية ــ التي تتبدى في صورة سلوك عدواني أو سلوك قهري Compulsive أو سلوك سوسيوباتي (سلوك اجتماعي مضطرب ومرضي Sociopatic مثل ادمان الخمر او ادمان المخدرات) ، او امراض عقلية حادة . وتملك اكثر المجتمعات وسائلها التي تخفف بها مخاوف المرء. وقلقه المرضي ــ على الاقل الى الحد الذي لا تسبب له مرضا عقليا يعوق بصورة خطيرة نظام عمله اليومي . وتتم هذه الوظيفة الاجتماعية في السحر . حقا لقد بدأ الناس اليوم يهجرون مثل هذه الاساليب ليمارسوا امورا اخرى بديلة . ونشأ بعضها كامتداد لبعض الممارسات التقليدية . مثال ذلك : استخدام الطلاسم السحرية الحديثة و « حبوب القوة » والبعض الاخر مأخوذ عن مؤسسات غربية ، مثل الفرق الدينية العديدة التي انشقت عن كنائس التبشير المسيحي في محاولة منها الوفاء بالمتطلبات التي بدت الكنائس ذاتها عاجزة عن اشباعها .

واكثر العناء الذي يكابده الناس اليوم هو وليد انفتاح مجتمعهم ــ من السرعة البالغة في انتقال المرء من مسقط راسه المتواضع الى منصب رفيع في بنية بيروقراطية حديثة . وطبيعي أن المجتمعات التقليدية لم تعهد مثل هذه الدرجة في الحركية الاجتماعية . حقا لقد شهدت مجتمعات قبلية كثيرة في حزام الغابات في غرب افريقيا صعودا الى الثروة او المنصب السياسي بسرعة تضارع سرعة الشهب . بيد ان المجتمع كله كان يعرف

بوضوح كيف تحققت هذه المغانم في كل الحالات التي يشاهدها ، اما اليوم فان النظام التعليمي — وهو سلم النجاح الاوحد تقريبا في الاطار الاجتماعي الحديث — غير مفهوم بوضوح للجميع ولم يختبره غير القليلين . لقد قدمت مئـــات القرى خريجين جامعيين وبخاصة في مناطق انتاج المحاصيل التجارية في نيجيريا وغانا وساحل العاج . واضحى خريج الجامعة المختال بسترته الغربية وسيارته الفارهة ، زائرا مألوفا لمسقط رأسه ، ويتطلع اليه الشيب والشباب كطراز وقدوة احرى بكل الشباب ان يحاكوه . ويختلف هذا الموقف عن سواه المألوف في المجتمعات الصناعية حيث ينمزج المرء الناجح بعيدا عن جماعته من العمال اليدويين الذين نشا بينهم ، ولا يبدو نموذجا وقدوة لشباب بلدته . ذلك لان تطلعات الشباب هنا تصاغ في الاساس وفق طراز الوظائف الميسورة لاغلب اقرانهم . ومثل هذه التطلعات هي تطلعات واقعية في جوهرها . ولكن تطلعات جمهرة شباب غرب افريقيا اليوم تطلعات غير واقعية . ان نجاح القلة الذين دخلوا زمرة النخبة ذات الثقافة الغربية ، نجاح واقعي ، وأكثر هؤلاء وفدوا ، كما رأينا من قبل ، من بيوت متواضعة . وتؤكد الاحصائيات ان الفرص المتاحة لكل شاب ، من مثل هذا المواطن ، لبلوغ مثل ذلك النجاح هي فرص قليلة الى اقصى حد . ولكن وعلى الرغم من هذا فان المرء لا يكتفي فقط بتحديد مثل هذه الاهداف لنفسه بل يصر ويتشبث في السعي لها حتى بعد ان يتأكد له فشله وتتضاءل توقعاته في النجاح . ولا تكتفي عشيرة المرء بالحماس الشديد في مساندتها لهذه الاهداف غير الواقعية بل انها تدعمها ماليا كذلك ، اذ تتجمع المدخرات التي حققها جمع غفير من الاقارب ليسهموا في سداد مصروفات الجامعة لابن الجماعة الذي يخالونه شابا نابها . وتتوالى عليه الضغوط لبلوغ ما يأملونه من نجاح ولـيرد الجميل لعشيرته ليس فقط في صورة منزلة اجتماعية يصيبها بل وعائد مادي لها ايضا .

وبالمثل في مجال الاعمال التجارية فان القليلين من المشهورين في قراهم ، هم الذين اصبحوا اثرياء . الا ان ، الجانب الاكبر من نجاحهم يرجع الى التقلبات الفجائية في سوق الاقتصاد العالمي ، أو الى اجراءات المؤسسات التجارية الاجنبية . وما عدا ذلك من تظاهر الثراء فانه غير مفهوم لدى ابناء القرية ، لذا فان ثروة التاجر يعزوها جمهور القرية – وربما التاجر ذاته – الى الحظ . وهكذا فان من المألوف في المجتمع الذي يتعرض لتحولات سريعة ان نرى الاهداف التي يحددها الافراد لانفسهم ويكبرها اكثر ابناء المجتمع لا يمكن بلوغها عن طريق الوسائل التي توصف عادة بانها وسائل مشروعة .

ترى ما هو حجم التوتر الذي يعاني منه ابناء غرب افريقيا اليوم ؟ من المفروض ، دون برهان دقيق ، ان المجتمعات التي تمر بتحولات سريعة تعاني توترا اكثر من المجتمعات المستقرة . ويلزم عن هذا ان اولئك الذين ينتقلون سريعا من اسلوب حياة تقليدية الى اسلوب حياة حديثة سيعانون توترا اشد مما يعانيه اولئك الذين ظلوا كما هم نسبيا دون تغيير . ولكننا قد نعود الى تأكيد مظاهر تعقد الحياة الحديثة عند مقارنتها « بالحياة البسيطة في القرى الافريقية » . بيد ان هذا التعقد نفسه الذي يميز الحياة الحديثة قد يمكن المرء من تجنب كثير من الاختيارات الصعبة ، بينما تطرح القرية فرصا اقل لحرية العمل . ان القروي الافريقي التقليدي يشعر انه اكثرمن ساكن المدينة من حيث خضوعه لرحمة قوى طبيعية لا سبيل لديه للتحكم فيها .

وفي عام ١٩٦١ جرى مسح شامل للامراض النفسية في وحول منطقة ابيوكوتا Abeokuta في الجنوب الغربي من نيجيريا . وقام بهذا المسح فريق من الاطباء النفسيين بعضهم أطباء بشريين والبعض الاخر علماء انثروبولوجيا اجتماعية من خريجي جامعة كورنيل ، وعملوا دراستهم بالاشتراك مع هيئة اطباء مستشفى الامراض العقلية بالمنطقة . وكانت العينية موضوع الدراسة

ماخوذة من ابيوكوتا ذاتها ـ وهي مدينة في يوروبا احتفظت بقدر كبير من بنيتها التقليدية فيما يتعلق بالمستوطنات السكنية والجماعات السلالية ولكن يسكنها اليوم سكان يعمل اكثرهم في مهن حضرية مثل الحرف والتجارة . واخذوا العينة ايضا من الكفور المحيطة بمنطقة ابيوكوتا حيث يعيش رجال ونساء لهم تجمعات سكنية اصلية في ابيوكوتا ذاتها ، وايضا من بلدة صغيرة تتبع سياسيا ابيوكوتا . وتتميز المنطقة المختارة بأنها غنية نسبيا حتى بالقياس الى المستويات المرتفعة في يوروبا . واكثر سكانها اسميا مسيحيين او مسلمين . وطبيعي انها لا تمثل المنطقة الحضرية الحديثة بما تتضمنه من نسبة عالية من المهاجرين يعملون ابتغاء الاجر والراتب في اعمال صناعية او تجارية . وقورنت النتائج الخاصة بمسح منطقة ابيوكوتا بنتائج مشروع اخر مماثل قام به في سنوات سابقة فريق من الباحثين في سترلينج كاونتي Stirling County التابعة لنوفا سكوتيا Nova Scotia

واذا كانت دراسة فريق جامعة كورنيل عن منطقة ابيوكوتا قد توصلت الى نتائج غير نهائية الا انها كاشفة . فعدد الاعراض النفسية الفسيولوجية والاعراض العصابية التي وجدت بين سكان يوروبا أكثر من التي وجدت بين سكّان شمال امريكا . بيد ان نسبة عينة السكان الذين يعانون من مرض نفسي معين او محتمل كانت اقل بين ابناء يوروبا ، (نظرا لان من يعانون المرض يكشفون في الغالب عن اكثر من عرض) ولقد كان الفارق بين الجماعات الافريقية وجماعات شمال امريكا اكبر من حيث تقييم نسبة الاشخاص الذين اضر بهم المرض ضررا واضحا فأقل رقم هو (١٥) بالمائة كان خاصا بالقرى الصغيرة في يوروبا . وارتفعت النسبة في مدينة ابيوكوتا الى (١٩) بالمائة ، وبلغت في سترليخ كاونتي (٣٣) بالمائة . علاوة على هذا فبينما ارتفعت نسبة من اضر بهم المرض ضررا واضحا في عينة شمال امريكا مع ارتفاع عمر الرجال والنساء ، فقد كانت النسبة عالية بين الاصغر سنا من رجال

شعب يوروبا (دون ٣٩ سنة) وبين نساء يوروبا (من ٤٠ ــ ٥٩ سنة) ولوحظ في مدينة أبيوكوتا ان الرجال الملتزمين بالزواج من واحدة صحتهم معتلة واضعف من صحة المتزوجين بأكثر من واحدة ــ هذا على الرغم من ان نساء ساكن المدينة المتزوج بأكثر من واحدة كن اضعف صحة من نساء الرجال المتزوجين بواحدة. ويعاني المتعلمون من ابناء يوروبا اضطرابات عقلية اكثر مما يعاني الاميون ، ولكن ليس بدرجة شديدة الوضوح . ودهش فريق البحث من قدرة الثقافة على دمج بعض جوانب التعليم بطرق لا تسبب ضررا .

والصورة العامة التي تخرج بها من هذه الدراسة هي ان التغير الاجتماعي والاقتصادي ــ على الاقل من الطراز الذي عايناه في ابيوكوتا ــ لا يفضي الى اي زيادة في توتر المرء ، وان مجتمع يوروبا المعاصر يعمل على تسكين هذا التوتر بنجاح كبير . ولهذا فان صحة الغالبية ليست معتلة بصورة واضحة (اما من يتعرضون لمرض عقلي خطير فان العلاج على يد الاطباء المحليين مع استخدام وسائل العلاج المتوارثة عن الماضي علاج ناجح الى حد كبير في اغلب الاحيان) .

اساليب التغلب على التوتر : ــ

السحر : نحن اليوم نصف كل وسيلة غير علمية تستخدم لبلوغ غاية ما بأنها سحر . والسحر قد يكون موجها نحو زيادة القوة الذاتية للمرء او قدرته على التأثير على الاخرين ، او للتحكم في العالم غير الشخصي . وطبيعي ان مثل هذا الاستخدام للسحر كان شائعا جدا في المجتمعات التقليدية . وعلى الرغم من ان الفلاح كشف عن مهارة فائقة في تقديم خصوبة التربة وتقرير اي نوع من المحصول يزرعه الا انه يأمل كذلك في ضمان طقس موات وحصاد طيب ، وسبيله الى ذلك مثلا دفن قدر « طبي » في حقله « يحتوي على اشياء يعتقد انها تمكنه من السيطرة على قوى الطبيعة » .

ولعله رأى ان هذا العمل الاخير ليس اقل معقولية مـن تقييمه لخصوبة الارض حتى ولم يتوفر لديه برهان تجريبي يؤكد فعالية « طبه السحري » اكثر من العلاقة بين انواع المحاصيل وظروف التربة . ونراه يستخدم السحر وكأنه احد الشعائر والطقوس التي ترمز الى اهمية المناخ بالنسبة له ، ودواء يخفف من قلقه الشديد في مواقف تنذر بالخطر او سوء المآل .

وان اكثر المتعلمين من ابناء غرب افريقيا اليوم قد شبوا في بيوت تؤمن بالنظرة التقليدية تجاه السحر ، ولهذا فلن ندهش كثيرا حين نجد جل هؤلاء ، رجالا ونساء ، لا يزالون يؤمنون ، الى حد ما ، بالقوى السحرية . ولكنهم ينشدون سبلا جديدة لمواكبة العالم الحديث .

ويبدو ان استخدام السحر على هذا النحو لا ينقص من حجم الجهد العقلي الموجه نحو الهدف المنشـود . فالطالب يشتـري تعاويذه ولكنه يواصل الدراسة طوال الليل . حقا ان الطلاسم قد تخفف قلقه كما تيسر الجهد الزائد . ولكن ليس من المحتمل ان تدفعه الى اعادة تقييم طاقاته ليرى اذا ما كان قد احسن التصرف في جهوده ام لا . واذا جاء الامتحان مخيبا للآمال فان الجانب الاكبر من اللوم يقع على السحر ، اما لان التعويذة كانت باطلة او لانه هو لم يستخدمها على نحو سليم .

الرشـوة : نادرا ما نطالع عن دولة من دول غرب افريقيـا المعاصرة دون ان نجد اشارة الى الرشوة . فالوزراء يتلقون مـن المقاولين الذين قبلت الوزارة عروضهم هدايا نقدية او ربما مسكنا مكونا من عدة شقق ليؤجره . ويبدي كل اعضاء مجلس الحكومة المحلية رغبتهم في رئاسة مؤسسة او لجنة عمل حيث الرشاوى كثيرة ، وقليلون من يتوقون لمنصب في مجال التعليم او اللجـان الصحية . ويؤجل رجل الشرطة منح رخصة قيادة السيارة حتى يتلقى قدرا من المال اكبر من المصروفات المقررة قانونا . وطالب

المنحة الدراسية يلتمس من صديقه صاحب النفوذ ان يتصل تليفونيا بالمسئولين ليضمن له انهم سينظرون في امره « بعين الرعاية » . وما ان يسقط القادة السياسيون حتى يتعالى النداء بالقضاء على الفساد .

ويقال بهدف تهدئة الموقف ان من العسير تحديد هوية الفساد في المجتمعات الافريقية . لقد كان اصحاب المناصب في المجتمعات التقليدية يتلقون الكثير من المكافآت في صورة هدايا مقابل خدمات ادوها ، كما اعتاد الطموحون تقديم مصالحهم مشفوعة بتوصية من اصحاب النفوذ والسلطان في المجتمع . ويمكن القول بوجه عام ان تبادل الهدايا كان وفيرا وفاق حدود ما هو سائد في المجتمع الغربي المعاصر . وفي مقابل هذا نرى ان الطبيعة المجردة للعلاقات البيروقراطية غريبة على الافريقي .

ويزعم الراشون انه ما دام هذا هو ما يفعله الجميع فان احدا لن يستمع الى كلامهم اذا لم يسايروا الركب . ونجد الكثيرين من الاميين العاجزين عن فهم الصيغ المطبوعة يقدمون هدايا للموظف المختص التماسا لمساعدته ويملأ لهم البيانات بصورة صحيحة مفترضين ان هذا العمل خارج عن حدود واجباته .

ويدافع المرتشون عن انفسهم بالاشارة الى من يشغلون المناصب العليا . ونعود لنقول ان درجة الفساد هنا مرتبطة على ما يبدو بسرعة الحركية الاجتماعية ، وفروق الدخل الواسعة بين من اصابوا غاية النجاح وبين العاديين . ويشير الموظف الكتابي الصغير او معلم المدرسة الابتدائية الى الرجل الناجح في حياته قائلا انه كان زميله في الدراسة وكان دونه جدا واجتهادا ويدخل في عداد تلاميذ الفصل المتخلفين .

ترى كيف تأتى له كل هذا النجاح ليكون افضل من سواه ؟ ان فارق العمر حيث يبلغ الطالب ذروة المرحلة الدراسية مسألة غير مفهومة وغير واردة لتفسير ذلك . ويعزو الاخرون نجاح هذا

الشخص الى المحسوبية وقدرته على الرشوة وما دام شق طريقه بطرق لا تمت الى التعليم بصلة ، كذلك فانه عوض الفارق بالطرق نفسها . ولعل الرشوة شيئا ملازما للمجتمع القائم على المنافسة الشديدة حيث سبل النجاح تكون غير مفهومة تماما .

تحدثنا عن السحر والرشوة كوسيلتين مستخدمتين اما للنجاح في نطاق العمل المهني الحديث واما لتخفيف التوتر النفسي الناتج عن المعاناة . والوسائل المستخدمة في الحالة الاولى وسائل غير علمية ، وفي الثانية غير بيروقراطية . ولا ريب في ان هذا التحليل لن يصادف قبولا من جانب بعض من يلجأون الى هاتين الوسيلتين ، فهم يؤمنون بفعالية السحر وصواب الرشوة . ولكن اكثر المتعلمين لو ضغطنا عليهم سيكشفون عن موقف متناقض ، فانهم ينكرون السحر ولكن يلجأون اليه ، ويدينون الرشوة ولكن يمارسونها . وهذا السلوك وحده يمكن ان يخلق توترات نفسية بحاجة الى البحث عن علاج جديد لها .

العدوان : ان القسوة التي يلجأ اليها الزعماء السياسيون الافريقيون لقمع المعارضة تتحدث عنها عادة الصحافة الغربية صارخة في هلع حتى وان لم تختلف هذه الوسائل الا قليلا عن الوسائل التي كانت تلجأ اليها الحكومات الاستعمارية السابقة . لقد كان الحكام في كلتا المرحلتين لا يخشون فقط الثورة المنظمة بل ولعلهم يخشون اكثر انفجارات العنف من جانب العامة ، التي يصعب التحكم فيها . ونورد فيما يلي عددا من الامثلة مستقاة من نيجيريا لتوضيح هذه الظاهرة .

في عام ١٩٥٧ قتل في حادث سيارة اديجوكي اديلابو Adegoke Adelabu القائد السياسي والمعبود في ابادان . لقد كان شعب ابادان يتطلع اليه آملا ان يعيد الى مدينتهم مجدها السابق وينهي استغلالها على يد جيرانهم من جماعات يوروبا الاكثر منهم ثراء وافضل تعليما . ولقد كان فقده ضربة اليمة لهيبة

ابادان . وكان الرد الفوري على ذلك ان شرعت عصابات من الشباب تجوب الطرقات وبخاصة في المناطق المتطرفة التي يسكنها الغرباء ويقلبون السيارات . وحدث في الايام التالية أن اغتيل عدد من جباة الضرائب في بعض القرى بينما استغل بعض الافراد هذه الفترة لتصفية حسابات قديمة .

وشرع طلاب الجامعة يجوبون شوارع لاجوس حاملين لافتات تعرب عن معارضتهم لسياسة الحكومة . ولم تفض اكثر هذه الاضرابات الى اي اضرار او فوضى ، ولكن حدث في بعض الاحيان ان اندس بينهم بعض الغرباء وبدأوا يقذفون الحجارة مما خلق جوا من الفوضى واضطر البوليس الى التدخل واستخدام الغازات المسيلة للدموع لحفظ النظام .

وظلت الطريق الرئيسي في لاجوس طوال الاسابيع الاخيرة من عام ١٩٦٥ وحتى الانقلاب العسكري في يناير ١٩٦٦ مغلقا بسبب عصابات السلب والنهب التي كانت تطالب بمبالغ كبيرة مقابل السماح للسيارة بالمرور . واذا رفض العابر دفع المبلغ المطلوب سرعان ما ينثر المخربون على سيارته البترول ويضرمون فيها النار . ووقعت أحداث عنف مماثلة في مناطق اخرى من الاقليم الغربي وخلال الاسابيع السابقة على الانتخابات الاقليمية في اكتوبر ١٩٦٥ ، كان المخربون المأجورون لحساب الاحزاب السياسية مشغولون بالاعتداء بالضرب على قادة الاحزاب المنافسة وحماية قادتهم . ولم يعد العنف موجها في الفترة الاخيرة ضد العناصر السياسية النشطة بل ضد ابناء النخبة الناجحة وممتلكاتهم .

واتسمت كل هذه الاضرابات بافتقارها الى قيادة واضحة ، وبات من الصعب اكتشاف اول من ارتكب حوادث العنف وكان قدوة لغيره . وبعد أن هدأت الاحداث لم يعرف اسم واحد من زعمائها كبطل لها . ولم يكن المخربون عصابات شعبية تسرق الغني لتعطي الفقير بل على العكس كانوا مخربين يدمرون الممتلكات

قصد التخريب لا التوزيع ، وليس لهم اي هدف اجتماعي واضح . ويبدو ان عنفهم جاء وليد توتر نفسي متصاعد لم يجد له متنفسا اخر . والاحتمال الاكبر أن الاضطرابات تتزايد كلما أصبح القائمون على سياسة البلاد أكثر تشبثا بالسلطة ، وحين لا تكون الانتخابات فرصة حقيقية للجماهير لتعبر عن ارائها المعادية للمتربعين على السلطة ، ومن المحتمل ان تتزايد ايضا مع زيادة عدد العاطلين ممن أتموا تعليمهم بالمدارس الابتدائية وانطلقوا الى المدن ولكن عجزوا عن الحصول على عمل . واعتقد ان الفرض الذي يقدمه عادة علماء النفس الاجتماعي والقائل بأن العدوان نتيجة للاحباط فرض صحيح هنا تماما . والقسط الاكبر من العنف موجه ضد المتربعين على السلطة وضد الحكومة القائمة ولكن اكثر من يعانون هم ابناء النخبة . ولذلك فان المطالبة باستخدام القسوة في القمع تأتي عادة على لسان هؤلاء .

ولا توجد في غرب افريقيا حركات تنكر فوائد التكنولوجيا الغربية ، فلم يظهر قائد بارز يطالب بالعودة الى حياة الريف البسيطة او الى رفض كل الادوات غير التقليدية . ولعل تكنولوجيا غرب افريقيا كانت شديدة البساطة بحيث لا يمكن التزاوج بينها وبين تكنولوجيا الغرب . حقا ان مجتمعا صغيرا يقطن ساحل نيجيريا ويعيش وفق المبادىء الاساسية لنظام الحياة المشاعية يملك بفضل جهده الذاتي أسطولا اليا معقدا لصيد الاسماك كما يملك محطة خاصة به لتوليد الكهرباء . ويعتبر أبناؤه من الناجحين للغاية في حياتهم بالقياس الى مجتمعات صيد الاسماك المجاورة . ولم تعرف غرب افريقيا حركات اجتماعية مثل حركات أصحاب « عقيدة الاحمال Cargo Cults » في ميلانيزيا ، وهم هؤلاء الذين تملكهم شعور الاحباط نتيجة عجزهم عن امتلاك السلع الغربية ، وفشلوا في التعبير عن احباطهم من خلال القنوات السياسية فارتدوا الى عالم التخيلات والاوهام واعتقدوا ان « آلهتهم البيض » سيعودون الى الظهور يوما ما

ومعهم شاحنات محملة بالسلع لتوزيعها على الكافة . ونعرف ان السلع والكماليات الاوروبية كانت ميسورة للجميع وعلى مدى عشرات السنين في غرب افريقيا ، كما كانت سبل الحصول عليها معروفة وميسورة (سواء عن طريق الهجرة للحصول على المال والاجر اللازم او زراعة محاصيل التصدير) وانتقل اشخاص كثيرون الى صفوف النخبة ليثبتوا ان هذا الطريق الى النجاح مفتوح لمن شاء وان بدا ضيقا . وبدات الاحزاب السياسية الوطنية تبشر الجماهير مؤخرا بمستقبل كله « حرية » لتلقى في روع الكثيرين من الاميين ، رجالا ونساء ، انهم على ابواب ثراء كبير فوري . ويعتقد الكثيرون أن الولاء للحزب وتملق الزعيم عبادة راسخة . بيد ان الغشاوة زالت عن اعين الناس وسقط الوهم سريعا بعد الاستقلال حين بدا لهم ان رفع مستوى المعيشة حلم لم يتحقق .

المخاوف من السحر والشعوذة :

ان التباين الصارخ بين تطلعات الغالبية من ابناء غرب افريقيا وبين فرصهم الحقيقية في النجاح يؤدي الى ارتفاع معدل الفشل وتبدو الاستجابة على هذا الفشل وكأنها عقوبة اضافية . فالمرء هنا لا يلوم نفسه وما هو عليه من قصور بل يلقى المسؤولية على عاتق عوامل خارجية . وقد كشفت دراسة فريق جامعة كورنيل عن منطقة ابيوكوتا أن نصف من يعانون مرضا عقليا حقيقيا او محتملا يعتقدون انهم ضحايا السحر ، ويعتقد الربع أن هناك من استخدم تعاويذ ورقى ضدهم ولوحظ أن الكثيرين ممن اشتروا طلاسم لتكفل لهم النجاح يقولون انها « لم تكن فعالة بما فيه الكفاية » لتواجه قوى اخرى مضادة . والقليلون منهم يعزون فشلهم الى اهمالهم لآلهتهم التقليدية ، أو اغفالهم تقديم القرابين أو انتهاكهم للمقدسات . بيد ان السحر لا يخشاه الفاشلون فقط بل والناجحون كذلك ، ولعل هؤلاء يخشونه اكثر من سواهم .

فطالب الجامعة الذي يغدق عليه عدد كبير من ابناء عشيرته للانفاق على تعليمه يخشى أن يحسده من هم دونه حظا من اخوته غير الاشقاء وأبناء عمومته ــ وعلى الاخص حسد امهاتهم . ويعتقد الرجل الثري ان اقاربه يطمعون في ماله ويأملون في أن يغدق عليهم من ماله الوفير اكثر مما يريد هو أن يعطيهم .

وثمة من يعزو زيادة الانحلال الخلقي الى انتشار المسيحية . فقد كان الاعتقاد السائد قديما ان الالهة التقليدية لا تمهل في عقابها ولا ترحم . ولكن المرء البروتستانتي يتلقى تعاليم دينية تؤكد له ان الخلاص يتحقق عن طريق الايمان وحده ، اما الكاثوليكي فانه يعترف ويتلقى الغفران عن كل خطاياه . ونتيجة ذلك يخشى المرء ان يستعين احد خصومه بالسحر ضده . وبدأ الناس يفقدون الثقة مؤقتا في الاساليب التقليدية لاكتشاف السحر . وأحد هذه الاساليب المتبعة في جنوب غانا ودلتا النيجر هي حمل جثة على نقالة والتجول بها في طرقات القرية ، وسوف « يوجه » الميت حاملوه نحو البيت او الشخص الذي قتله . ولم يعد الناس يلجأون الى انواع كثيرة من القسم بسبب الخوف ، وهو ما كانت تلجأ اليه المحاكم العرفية في مطلع هذا القرن ثم حظرته الحكومات الاستعمارية . فقد كانت الاطراف المتنازعة اذا اختلفت اقوالهم يدعون للمثول امام الاله المحلي ليقسموا على صدق دعواهم . ويقضي الاعتقاد السائد وقتذاك بأن الكاذب سيقع ميتا في الحال . ويخشى البعض القسم بالانجيل ــ ما لم يكن مفتوحا ، كما يعتقد كثيرون ، على الصفحة التي بها قصة انانياس وسافيرا Ananias and Saphira وتلمس الشفاه الكلمات التي تصف كذبهما والموت العاجل الذي حل بهما . وحرمت الحكومات ايضا المحاكمات عن طريق الابتلاء حيث يتعين على المتخاصمين أن يتناولوا جرعات سامة من نبات الساس وهنا، كما كانوا يعتقدون ، يلقى المذنب حتفه بينما ينجو البرىء اذ يقيء السم .

ولتخفيف هذه المخاوف الناشئة عن السحر والشعوذة والتي تضاعف من الاحساس بعدم الامان ، نشأت في السنوات الاخيرة فرق دينية كثيرة ومزارات لابطال مفعول السحر . وقد اسس الفرق الدينية رجال ونساء كانوا من اعضاء الكنيسة البارزين ويدعون للتوفيق بين العقائد المختلفة ، اما المزارات فانها تعمل في اطار المعتقدات التقليدية . وحقق الفريقان شهرة وانتشارا وهو ما يشير الى فشل كنائس التبشير في الاستجابة لاحتياجات رعاياها .

فرق مكافحة السحر :

قدم فيلد Field وصفا كاملا وتفصيليا لقيام المزارات الجديدة في غانا التي تقدم خدماتها للوقاية من السحر . اننا نجد من بين ٢٩ مزارا مقامة في منطقة صغيرة من اشانتي ثلاثة فقط قديمة العهد ، وثلاثة اخرى اقيمت حوالي عام ١٩١٨ اثناء وباء الانفلونزا ، وواحد وعشرين انشئوا منذ اقل من عشرين عاما . وكل المزارات الحديثة ملكية خاصة ، تستهدف الربح . وتنقسم المزارات الى نوعين . الاول يقصده صاحب الحاجة الذي يلتمس مساعدة الالهة بأن يقدم اليهم دجاجة مذبوحة ، ويلقى بها فاذا استقرت على ظهرها وصدرها الى أعلى كان هذا دليلا على رضى الالهة وموافقتها ، واذا اخذت وضعا اخر يصبح لزاما على الشاكي ان يستكشف سريرته ويعترف بالمزيد من الخطايا ثم يقدم ذبيحة جديدة . واذا تأكد رضى الالهة يأكل السائل ثمرة كولا مقدسة او يغتسل وفق طقوس وشعائر محددة ليرمز الى عهده الذي قطعه مع الالهة . ويتدرج الكهان في هذه المزارات حسب سلم محدد كممارسين اخصائيين يعملون في مجال الطب المحلي ويدفعون مقابل ذلك مبلغا من المال كل عام لمجالس الحكم المحلي ويحصلون منها على اجازة بممارسة مهنتهم .

ويتبع النوع الثاني من المزايدات طقوسا مغايرة حيث تتلبس الالهة الكاهن وتحل به غشية . ويبلغ اثناء غشيته السائل نصيحة الالهة نبؤاتها . وتنعقد الجلسات هذه وفق طوس ومهرجانات يغلب عليها طابع الابهة . ويشرف الشيوخ ومساعدوهم على تنظيم تدفق اصحاب الحاجات القادمين لسؤال الالهة ، وتدق الطبول دقات صخابة مهتاجة لتمهد الطريق لموكب الكاهن . ويجري تقديم الدجاج او البيض الى الالهة لمعرفة ما اذا كانوا قد صفحوا وقبلوا التماس الشاكي ام لا .

وقد يقصد المزار الاثير لدى الناس مائة سائل من اصحاب الحاجات في اليوم الواحد بينما لا يقصد مزارات اخرى سوى افراد لا يتجاوز عددهم اصابع اليد الواحدة . ونجد من بين هؤلاء الامي والمتعلم ، الغني والفير . واكثرهم لا يعاني مرضا خطيرا وانما جاء فقط يلتمس تخفيف حدة القلق النفسي عنده . ونجد من بين الشكاوى التي تتردد كثيرا ، الشكوى من ان المرء « غير موفق » او شكوى من امراض غير محددة الاعراض او العقم (الذي يعزوه الناس الى السحر دون اسبابه الطبيعية) . ويقصد كثيرون المزار ليعربوا عن شكرهم وامتنانهم لان الالهة استجابت لدعائهم او وفرت لهم الحماية المنشودة .

ولا تقدم الهة هذه المزارات الحماية لسائليها ولا تستجيب لضراعاتهم الا وفق شروط يتعين على السائل أن يلتزم بها في سلوكه . اذ يجب عليه ان لا يسرق أو يزني أو يشهد زورا ضد اي انسان ، ويتعين عليه ان يتجنب ممارسة السحر والشعوذة ولا يسب الاخرين . وإذا اخل باحدى هذه القواعد ستصيبه الالهة بمرض جسماني أو عقلي اول الامر لتعطيه فرصة للتوبة ، ولكن اذا تنكب الطريق المستقيم ستقبض الالهة روحه وتتوفاه أو يصاب بالجنون مدى الحياة . وكل من يرتكب احدى هذه الاخطاء في حق من شملته الالهة بعنايتها سوف يلقى نفس المصير . وتعكس الافعال المحرمة مخاوف الرجال والنساء .

ويعتقد البعض ان اضمحلال وسائل الكهانة التقليدية افضى الى وقوع سرقات كثيرة لم يتسن الكشف عنها ، فضلا عن ان من يمثلون امام المحاكم لا ينالون العقاب الرادع . والملاحظ في المجتمعات التي تفتقر الى علاقة عاطفية قوية تربط الزوج بزوجته يسود الخوف نفوس الرجال من ان زوجاتهم سيهجرونهم الى رجال اخرين اكثر ثراء او اقوى فحولة . ويغلب الاعتقاد بأن هذه الغيرة احد اسباب الشعوذة .

وهناك عقيدة تدعى تيجاري Tigari وهي من اشهر العقائد الجديدة في غانا . ويدفع انصارها اشتراكا ماليا مقابل انضمامهم اليها . وتقضي هذه العقيدة بأن طاعة الالهة والالتزام بحدودهم ضروري للحياة . وتصوغ هذه القواعد على نحو مماثل للوصايا العشر . ونجد بالاضافة الى هذا التاثير المسيحي الواضح عناصر اخرى اسلامية تنعكس في رداء الكهان وفي بعض الطقوس التي يؤدونها . ويقف الكاهن في المهرجان حيث تحل فيه روح الارباب ولكن العلاقة بين السائل صاحب الحاجة وبين الرب تتم عادة مع تناول ثمرة من ثمار الكولا . وتستخدم كلمة تيجاري Tigari ذاتها لوصف اي مزار متخصص في ابطال مفعول السحر وللدلالة على حركة تستهدف كشف السحر انتشرت في اواخر الاربعينات ومطلع الخمسينيات في كل من داهومي وغرب نيجيريا وعرفت هنا باسم اتينجا Atinga .

ففي اخر عام ١٩٥٠ وفدت الى مقاطعة اجبادو في غرب نيجيريا جماعة تطلق على نفسها أسم الاتنجا Atinga وزعموا انهم وفدوا فقط لزيارة المدينة بناء على طلب شيوخها ــ وهو طلب يكون مشفوعا بهدية قيمتها مئات الجنيهات (وان قيل انها ترد ثانية الى الشيوخ المضيفين مقابل السكن والطعام المجاني). واقامت الجماعة مزارا . وبعد تقديم ذبائح واضحيات وفق طقوس وشعائر خاصة اعدوا بعض ثمار الكولا المقدسة لبيعها

مقابل شلن للواحدة او الاثنتين . ويعتقد الناس ان هذه الثمرة تقي المرء من خصومه ، طالما وانه ملتزم بحدود المقدسات ونواهيها عن السرقة والزنا والسحر .

ويؤدي اصحاب عقيدة الاتنجا بالاضافة الى ما سبق رقصات وهم في حالة نشوة تتلبسهم اثناءها الارواح ويكونون خلالها ، حسب زعمهم ، قادرين على اكتشاف السحر . وتضم هذه الجماعة في مدينة واحدةسكانها الف نسمة قرابة خمسمائة امراة. وحين تعترف هذه النسوة بعد ممارسة بعض طقوس الكهانة ، يطلب منهن الكاهن احضار كل المواد الشريرة الخاصة بهن لتدميرها في المزار ، ولتطهيرهن بالاغتسال وفق الطقوس الخاصة ثم يأكلن ثمرة الكولا المقدسة (وبذلك فان اي عمل من اعمال السحر والشعوذة يؤدينه بعد ذلك سيعاقبن عليه بالموت عن طريق الاتينجا) . وقد استخدم العنف مع قدر كبير من القسوة ضد بعض النساء للحصول على اعترافات منهن ..

وصاحب وفود عقيدة الاتنجا تدمير كثير من مزارات الهة الجماعة السلالية ، كما تم تكديس الصور الخشبية وغير ذلك من ممتلكات في مزارات الاتنجا . ولم يسلم من هذا الدمار نسبيا سوى العقائد التقليدية التي تعني بالكشف عن السحر . ولم تنشأ هذه الحركة نتيجة ضعف الالهة التقليديين بل انها قضت على فاعلية هذه الالهة الى حد كبير ومن ثم ادت الى زيادة الفراغ بين الديانتين التقليدية والحديثة .

طوائف جديدة :

اذا كان كهان الحركات والمزارات المضادة للسحر يزعمون انهم يخدمون اربابا من الطراز التقليدي فان قساوسة الحركات الطائفية الحديثة يعترفون باله المسيحية . واكثرهم ممن هجروا كنائس التبشير بسبب التنافس على الزعامة ، او الخلاف حول المذهب ، او الفشل في الحصول على اشباع وجداني . ويبدو

ـحا ان عدد هذه الطوائف ومحافلها زاد زيادة سريعة خــلال
وام الاخيرة . ففي ابادان على سبيل المثال كان يوجد ثمانية
قبل عام ١٩٤٠ تحت اسم الادورا Aladura او المتعبدة ،
عام ١٩٥٠ زيدت الى ٢١ ثم اصبحت ٨٣ في عام ١٩٦٢ .وكان
كرا عام ١٩٥٥ سبعـــة عشر طائفة مختلفة . وتكشف هــذه
ائف الجديدة عن تباين كبير . فبينما يحافظ بعضها علــى
س الكنيسة البروتستانتية فان البعض الاخر يتخذ طابعــا
يقيا مؤمنا بأن الروح تحل بين القساوسة (وربما في كل أعضاء
فل) ويرقصون ويطبلون أثناء القداس . ويبني اكثرها عقيدته
اساس فعالية الصلاة ودورها في الشفاء . ويسود الاعتقــاد
القساوسة يتلقون الوحي في اكثر الحالات ، وانهم يتلقــون
التهم في احلامهم . ويأخذ النداء احيانا صورة تقليدية ــ فاذا
اب المرء وعكة خفيفة فهذا دليل علــى ان الاربــاب اختاروه
امة . واغلب المحافل صغيرة ، والانقسامات بينها شائعة .
- نجحـــت بعض الطوائف في اقامة عـــدد من الفروع وحــل
كلات المتعلقة باختيار خلفاء المؤسسين الاصليين .

ونشأت اغلب الطوائف الجديدة في المناطق التي وقعت تحــت
التبشير لعشر سنوات او اكثر . ولكننا لا نجد غير امثلــة
ة تشهد بنجاح الهداية في تلك المناطق غير المسيحية . وكــان
ابرز هذه المحاولات تلك المحاولات النشطة والقصيرة التي بذلها
م هاريس في ساحل العاج وغرب ساحل الذهب .

كان هاريس ابن اخ راع ميثودي المذهب في ليبيريا وعاش
ة روتينية عادية حتى بلغ الستين من العمر ثم بدأ رسالتــــه
شيرية . لبس رداء ابيض وعمامة بيضاء وحمل صليبا خشــبيا
جيلا وتحول من ١٩١٣ حتى ١٩١٥ بين قرى جنوب ساحـــــل
ج . عاش حياة بسيطة زاده فيها المنح التي يقدمها له الناس
حلاته . لم يدع سلطانا لنفسه وانما وصف نفسه بأنه رسول
ح ارسله الملك جبريل . ووعظ الناس مؤكدا شرف العمــل

وطاعة اولى الامر ، وادان الخمر والسرقة والزنا وان اجاز الزواج بأكثر من واحدة . وقال في تعاليمه ان يوم الاحد حري بأن يكـون يوم الراحة . وشجب كل اشكال الديانة التقليدية ، ودعا الـى تدمير كل المقدسات القديمة وعمد المؤمنين به وان لم يمارس شفاء المرضى ، على الرغم من القصص التي تروي عن نساء اصبـــن بالفالج وشفين منه حين لمسن صليبه . وعين هاريس في كل قرية اثنى عشرة رسولا زعماء للكنيسة المحلية لمواصلة العمل حتى يصل المبشرون . ولقد وافقت الحكومة الاستعمارية الفرنسية اول الامر على نشاطه اعتقادا منها ان الجانب الاكبر من الاضطراباتالسائدة في البلد مرجعها « اطباء السحر » بيد انهم نفوه فيما بعد وبذلوا محاولات لتدمير كنائسه . ويبدو ان من بين مائة الف نسمـة تابعين له يوجد موظفون حكوميون مفصولين زعموا انهم « ابنـاء الرب » وان على الفرنسيين ان يرحلوا من البلاد عاجلا وطالبـوا كذلك بخفض الضرائب . ولم تتسامح الحكومة مع هذا التحريض على الفتنة خاصة في السنوات الاولى من الحرب العالمية . ولكن المحافل التي بدأها هاريس استمرت في نشاطها بحماس ،واضعين اناجيلهم هدفا رئيسيا لهم في كنائسهم الصغيرة حتى وان لم يقرأها احد . وبعد مضي عشر سنوات على نفي هاريس بدأت الارساليات التبشيرية الميتودية عملها في هذه المنطقة : متخذة من النشاط السابق أساسا لها تبنى عليه نشاطها . وحتى يومنا هذا لـــم تبعث من جديد العبادات الدينية التقليدية .

وظهرت حركة مماثلة الى حد ما في جنوب غرب نيجيريا عـام ١٩٣٠ . ويدعي زعيم هذه الحركة جوزيت بابا لولا J. Baba Lola تعلم في يوروبا واشتغل سائق هراس بخاري . شعر بنداء يدعوه الى وعظ الناس . وعزف اول الامر عن طاعة النداء الى ان تجلت له علامة من الرب اذ توقف الهراس عن العمل تماما . ونظرا لانـه تعمد ضمن طائفة مثوى الايمان faith Tabernacle فقد حضـر اجتماعا للزعماء في اليشا I Lesha ثم بدا فجاة عمليـات

درامية لشفاء المرضى . وانتشرت اخباره سريعا وظل على مدى ستة اسابيع يشفي المرضى ويصلي على الماء التي يقدمها اليه السائلون من اصحاب الحاجات . وزعم البعض ان السحرة الذين لا يعترفون وانما يشربون الماء المقدس لا بد وان يلقوا حتفهم ، ودعا الناس مثلما فعل هاريس الى ترك العقائد التقليدية ودفن اصنامهم وتعاويذهم .

وتاسست احدى الطوائف الغانية ، وهي كنيسة الاثني عشر رسولا على يد اثنين من اتباع هاريس . وانتقلت الزعامة بعد موتهما الى جون هاكمان J. Hackman وهو امي عمل اسقفا حتى وفاته عام ١٩٥٧ . واستطاعت الطائفة خلال هذه الفترة تأسيس عدد كبير من الفروع وان اصبح تنظيمها الرئيسي بعد وفاة هاكمان يتسم بالتحلل . ويبدو ان مستوى التعليم بين اعضائها اليوم منخفض جدا . وتزعم الطائفة انها تتبع نفس قواعد الايمان عند الكنيسة الميتودية ولكنها في واقع الامر تركز على نشاط الروح القدس لتمكين الرجال والنساء من التنبؤ بالمستقبل وكشف الشرور وشفاء الامراض . ويؤدي الانجيل دورا بارزا في الاجتماعات وان لم يقرأوه ، اذ يكتفون برفعه عاليا فوق رؤوس الراغبين في التعميد او الشفاء ويمسك القساوسة واعضاء المحفل خشاخيش ذات قرع عال ، يستخدمونها وفق طقوس معينة ويؤمنون بأن لها قدرة على طرد الارواح الشريرة ويقدسون بعض انواع الطعام ، اما التدخين فهو محرم ، والنبيذ والبيرة مسموح بهما بكميات معتدلة فقط ، والصوم فريضة . وتبيح الطائفة تعدد الزوجات ولكن لا يجوز للمطلق ان يتزوج بامرأة عضوة في نفس المحفل المحلي .

ويحتفظ كل قسيس ببستان ومساحة من الارض بها مجموعة مساكن ينزل فيها عشر او عشرين شخصا من الباحثين عن الشفاء عن طريق الكنيسة ويوجد وسط هذه المساكن صليب ابيض ضخم وحول قاعدته حوض ماء مقدس . وثمة سقيفة

واسعة تستخدم مصلى للعبادة وتقديم القداسات بصورة منتظمة ، وكذلك لشفاء المرضى ايام الجمعة . ولا تحرم كنيسة الاثنى عشر رسولا استخدام الطب الغربي أو عقاقير الاعشاب التقليدية ، كما انها لا تتخذ اجراء ضد من يلتمس المساعدة من المزارات التقليدية. ويتجرد اصحاب الحاجة من ملابسهم حتى الخصر ويحملون آناء ماء مقدس فوق رؤوسهم . ويبدأ القسيس صلاته ثم تدق الطبول دقات مهتاجة بينما يتنقل القساوسة بين اصحاب الحاجات ينثرونهم بالماء المقدس . ويدخل اصحاب الحاجات في نشوة حتى تشل ابدانهم ويتملكهم الاعياء ، ثم تحل بهم حالة الجذب . ويعتقدون ان هذه الحالة بالاضافة الى الماء المقدس تحقق الشفاء المطلوب .

ومن المتوقع ان يلتزم اعضاء الطوائف ناموسا اخلاقيا متزمتا. ومن الواضح ان تحريم اعادة زواج المطلق بأحدى عضوات المحفل المحلي هو محاولة لاحباط اي ميل لاشتهاء زوجات الاخرين . ونظرا لان القساوسة يتلقون الالهام السماوي ، كما يعتقدون ، فانهم دائما اهل لبذل المشورة بشأن المعاملات حين تبدو المعايير مبهمة ومتعارضة . وقد يلجاون الى تفسيرات حرفية للانجيل لتبرير سلوك غير متزمت وبينما ترفض طوائف كثيرة القيم الغربية للكنائس التبشيرية ، فانها تعمل على تيسير امكانية تعديل انماط السلوك التقليدي . مثال ذلك : ان كنيسة الاثنى عشر رسولا تؤكد التزام الاب برعاية اطفاله حتى الزواج وواجب الابناء رعاية الابوين في شيخوختهما . وهذا كله تجديد جذري في قيم مجتمع أكان الاموي . وتجيز الطوائف بشكل عام تعدد الزوجات ولكن البعض منهم يحاول تحديد عدد الزوجات اللائي يحق للرجل التزوج بهن . وتحرم طائفة في غانا الطلاق بين اعضائها ، وان كانت تحاول تعديل القواعد العرقية التقليدية التي يتعين على الارامل اتباعها ، كأن تقال فترة الحداد من سنة الى شهرين أو ثلاثة ، كما تبطل العديد من الشعائر المنفردة .

وتؤلف النساء في اكثر الطوائف الغالبية بين المترددين على المحافل . ويرجع ذلك جزئيا الى رغبتهن في الحمل أو سلامة الوضع وضمان صحة طيبة لاطفالهن . بيد ان الطوائف تخصص ادوارا للنساء من الاعضاء ، اذ تجيز لهن العمل قساوسة وشمامسة ، وهي ادوار غير مسموح لهن بها سواء في الديانات التقليدية او في الكنائس المسيحية .

وتدعو الطوائف الى المساواة بين الناس وذلك في المجتمعات التي يتزايد فيها الاتجاه الى تقسيمها طبقيا على اساس الثروة . وتضم بعضها عددا قليلا من الاعضاء يلبسون ملابس خشنة او عباءة بيضاء . ويتبع البعض الاخر نظاما هرميا لمراتب القساوسة، وقد يمايز بينهم نوع الزي ، ولكن نادرا ما يرأس القداسات الكبرى من سبق له شغل منصب دنيوي رفيع . ويتسم قساوسة كثيرون بالتواضع بينما تجذب محافلهم الاغنياء والفقراء على السواء .

ويجد المرء في استخدام السحر والمزارات وسيلته ، حسب الاعتقاد الشائع ، للتأثير في عالم الواقع ، ولتخفيف قلقه النفسي. وتفي الطوائف بنفس هذه الوظائف الى حد كبير . ولكن بينما لا يقصد اصحاب الحاجات المزارات الا حين تكون لهم طلبات بذاتها او للشكر عرفانا بما تحقق فان الطوائف تعقد محافل لاعضائها بصورة منتظمة . وتمثل الطائفة بالنسبة للكثيرين ، ان لم يكن للجميع ، مجتمعا يتيسر لهم اللوذ به والانسحاب اليه حينا من عالم الواقع . ويلتزم هذا المجتمع بقانون اخلاقي تفرضه سلطة غير بشرية ويختلف عن قانون العالم الخارجي من حيث انه يتلاءم على نحو افضل مع حاجات الاعضاء ، ومحدد بصورة اكثر دقة وجمودا ، وارقى خلقيا . وتهيمن الطائفة على كل ما يتعلق بحياة اعضائها . وتعد المخلصين من انصارها بالجزاء الاوفى في الحياة الاخرة ، في صورة منزلة افضل مما هو متاح لسواهم .

(وعلى العكس من ذلك المزارات التي تقدم منافع في هذا العالم فقط) علاوة على هذا فان الطائفة توفر لاعضائها الكثير من التأييد الوجداني الذي كان بالامكان ان يحصل عليه من ابناء عشيرته .

نلاحظ فيما سبق ان المزارات والطوائف والسحر والرشوة والعدوان تخدم كلها كوسائل لتخفيف مظاهر القلق النفسي والاحباط في مجتمع يعيش عصر تحول . وبقدر ما تخفف عن المرء توتره النفسي ، وتقلل من قسوة المرض العقلي ، بقدر ما تكون هذه العوامل نافعة للمجتمع . ولكنها في ظروف محددة قد تفسد التوافق وتعوق اكثر مما تساعد على سرعة النمو الاجتماعي والاقتصادي . فالى اي حد على سبيل المثال يمكن القول بأن الاعتماد على عوامل خارجية لتقدير فشل المرء في تحقيق اهدافه من شأنه أن يفسد كلا من التقييم العقلاني للفرص المتاحة امامه مع تعديل هذه الاهداف ، ويعوق كذلك اختبار المرء لاوجه القصور عنده ؟ والى اي حد يمكن أن تعوق مخاوف المرء من السحر السلوك العقلاني ؟ ومن ناحية اخرى اليس من الممكن ان تضعف قوة وفاعلية العمل السياسي المباشر نتيجة توجيه السخط عبر مسارات لحركات دينية وهو ما يسهم في استقرار الدولة ؟ والى اي حد يمكن ان يحول الاعتقاد في القوى الخارقة للطبيعة دون نمو وتطور الاسلوب العلمي في التفكير ؟ أم سوف تختفي مظاهر الايمان بالسحر سريعا مع انتشار التعليم ؟

الباب الرابع
الجمود أو الثورة



١١

الايديولوجيات

رأينا كيف تتحول المؤسسات الاصلية المحلية في غرب افريقيا لتتلاءم مع البنية السياسية والاقتصادية للمجتمع الذي يمر بمرحلة تغير . لقد تعدلت العلاقات داخل الاسرة لتتواءم مع انماط الاقامة الجديدة ، وحين اضحت بعض الاساليب التقليدية لمواجهة الاحباط والقلق اساليب بالية غير مجدية نشأت بدلا منها اساليب اخرى جديدة . وشكل الناس رجالا ونساء روابط اجتماعية جديدة حين اقاموا في اقاليم الحضر الحديثة وذلك التماسا للامن الاقتصادي : وكان بعض هذه الروابط الاجتماعية ـ مثل النقابات ـ اضافة غربية ، والبعض الاخر ـ مثل الروابط العرقية ـ امتدادا تقليديا . وخلقت النخبة ذات الثقافة الغربية الاحزاب السياسية التي حصلت على الاستقلال لبلادها والسلطةالسياسية لاعضائها . وعرضنا دراسة عن كل من هذه المؤسسات بمعزل قدر المستطاع عن المجتمع الذي تنتمي اليه . وبات لزاما علينا الان ان نرى هذه المجتمعات الغرب افريقية في شمولها ، وان نضع في اطار واحد كل عمليات التغيير التي تجري بداخلها .

ان السؤال الذي يجب ان يسأله الجميع هو : ماذا عن مستقبل دول غرب افريقيا المستقلة ؟ ترى هل ستتحقق آمال شعوبها في رفع مستوى معيشتها بحيث تقارب مستوى المعيشة في الدول الصناعية ؟ ترى هل سيكمل قادتها بنجاح الثورة من المجتمع القبلي الى المجتمع الحديث ؟ أم أن هذه المجتمعات ستظل راكدة اقتصاديا ، وتتخلل حياتها السياسية ثورات وانتقاضات متكررة تأتي بحكام جدد الى السلطة ولكن دون حل لمشكلات الفقر ؟

من الناحية الاقتصادية ، يبدو ان مستقبل دول غرب افريقيا ليس مشرقا تماما . اذ على الرغم من أن قادتها يأملون في تحول صناعي سريع ، الا ان الاسواق التي يمثلها سكانها الفقراء باعدادهم الصغيرة ، ليست كافية لدعم صناعة غالبية السلع الاستهلاكية : فيما عدا نيجيريا وحدها فسوقها له جاذبية اقتصادية . ويبدو ثانية ان من المستبعد اكتشاف مصادر ثروة معدنية غنية ، واذا حدث العكس فانها ستزيد الثروة الطبيعية ولكن ايضا تبقى على النمط « الاستعماري » للاقتصاد . بيد ان هذه النبوءات محددة في ضوء التكنولوجيا المتاحة اليوم ، ونحن لا يسعنا ان نتخيل ماذا يمكن ان تكون عليه الاختراعات الجديدة اذ قد تغير هذه الاختراعات جذريا موقع الصناعة في القرن التالي.

ان معدل النمو سوف يتوقف الى درجة كبيرة خلال المستقبل القريب على دور النخبة ذات الثقافة الغربية ـ حجمها ومستوى تعليمها وتدريبها وقدرة اعضائها على تحليل المشكلات التي توجهها البلاد . انهم يواجهون مهمة تبدو فريدة بالنسبة للشعوب النامية في القرن العشرين . ففي اوروبا خلال القرن التاسع عشر كان الحرفي والمقاول الصغير عماد التنمية الصناعية وليس خريج الجامعة بثقافته الليبرالية . ويقتضي الحجم الصغير لهذه النخبة الجديدة ، توفر التلاحم والحماس بين اعضائها ، بيد أن هذا ستفسده الصراعات المستمرة على السلطة بين الفرق المختلفة او تراجع النظام الفاشل المحبط ليلوذ بروتينية بيروقراطية . ان نسبة عالية من النخبة ذات التعليم العالي في عدد قليل من البلدان قد انخرطت في مجال الخدمة العامة يحدوها احساس برسالتها من اجل تحسين مستوى معيشة شعوبها ، بيد ان هذه الآمال كان بالامكان ان تتحول في سهولة ويسر خلال سنوات قليلة الى هدف للسخرية بعد ان بدت جهودهم معطلة او غير مجدية . كذلك فان نسبة كبيرة من النجاح ستعتمد على نوع

العلاقة القائمة بين النخبة والجماهير ، وعلى المدى الذي تصل اليه النخبة لكسب رضى الناس بقيادتها ، او على الاقل كسب تأييدها النشط لمهام التحديث .

ولقد اشرنا في فصول سابقة الى الصراعات القائمة بالفعل او التي يمكن ان تنشأ ، سواء داخل صفوف النخبة او بين النخبة وبين الجماهير . ويقوم التنافس بين جماعات النخبة ابتغاء السلطة السياسية ، ويمكن تحليل ذلك في ضوء معايير توزيع المناصب الرئاسية . ويوجد كذلك صراع بين الاجيال المختلفة للنخبة ــ الاقدم يزعم احقيته في السلطة بحكم الاسبقية ، والاحدث بحكم مستواه التعليمي الاعلى . ونشاهد الصراع ايضا بين الموظفين المدنيين الذين يرتكز حقهم الوظيفي على المعايير التعليمية وبين كبار اعضاء الحزب ممن يكافئهم الحزب بالمستويات الوظيفية العليا جزاء ولائهم للزعيم والحزب .

ولقد نشأ اغلب اعضاء النخبة المعاصرة في اسر متواضعة واذا كانوا اليوم في رغد من العيش الا انهم لا يزالون حافظين لروابطهم الوثيقة بمواطن نشأتهم . الا ان الهوة بين رواتبهم وامتيازاتهم وبين دخل وامتيازات الفلاح او العامل في الحضر لا تتناقص أبدا . وواقع الامر ان النظام التعليمي يكفل لابناء النخبة مزايا واضحة تيسر لهم دخول المدارس الثانوية فالجامعة ومن ثم يخلفون آباءهم في مكانتهم الاجتماعية .

وهكذا تكاد النخبة تغلق الباب على نفسها وتحول دون دخول اعضاء جدد ، وربما تصبح خلال بضع عشرات من السنين ارستقراطية مغلقة على نفسها تماما . ويتزايد شعور الاحباط لدى الجماهير ليس فقط لان مستويات معيشتهم لم ترتفع (كما اعتقدوا ان هذا سيتحقق عقب الاستقلال) بل كذلك لان الفرص تضيق امامهم وامام ابنائهم للانتماء الى النخبة صاحبة الامتيازات.

وتباعد الشقة بين النخبة وبين الجماهير كل فترة من الزمان ، وينقلب الفخر الذي يستشعره الناس لنجاح احد ابنائهم الى غضب وسخط لان الآمال والمنافع المنتظرة اخفقت ولم تتحقق .

ان التنافس داخل صفوف النخبة ، والصراع بين النخبة وبين الجماهير قد يفضي في كل دولة من دول غرب افريقيا الى عداوة مما قد يعوق عملية التحديث او يسبب ، آخر الامر ، انهيارا كاملا لقطاع الاقتصاد الحديث . وثمة سبل لتجنب مثل هذا العداء السافر منها تطوير الاجراءات التي يتم بمقتضاها حسم الصراعات ، بحيث يدعم كل فريق ، ولو مؤقتا ، أحد الحلول المتفق عليها . ثانيا الحد من المصالح المتصارعة عن طريق قبول الايديولوجيات التي تؤكد الوحدة ، او عن طريق التنازل الجزئي من الاطراف المختلفة في المجتمع وبخاصة الجماعات العرقية ، في حالة غرب افريقيا ، التي تؤكد الولاء البدائي وتضمه مقابلا للوحدة الوطنية ولكن تخفي ايضا التمايزات القومية من حيث الثراء والامتيازات .

موضوعات ايديولوجية :

الايديولوجية وعاء حاو للافكار المقبولة شعبيا او الرائجة عن بنية المجتمع والعمليات التي تجري فيه ، وتفسر تاريخ المجتمع ، وتعطينا اساسا لتقييم الخبرة الجديدة . وتجسد الايديولوجية الاهداف والقيم التي يقرها المجتمع . ولقد صاغت النخبة في غرب افريقيا ذات الثقافة الغربية ايديولوجيات تحدد دورها في مجتمعاتها . واذا كانت ايديولوجيات المجتمعات التي تجتاز تحولات بطيئة اقرب الى ان تكون ايديولوجيات ضمنية غير معلنة بشكل واضح ـ اذ أن القلائل فقط من الانجليز هم الذين يستطيعون تحديد ايديولوجيتهم القومية ـ فان ايديولوجيات غرب افريقيا على العكس من ذلك هي موضوع نقاش متصل وتفسير مستمر حتى وان بدت احيانا مبهمة الصياغة ، وتفي بوظيفتين :

اولا : ــ ينشد اعضاء النخبة الجديدة ايديولوجية تحدد هويتهم . انهم كافراد عايشوا كلا من حياة المجتمع الافريقي التقليدي وحياة العالم الصناعي الغربي . ورفضوا جميعا على الاقل بعض قيم المجتمع الاول ثم احسوا بتانيب شيوخهم او احسوا بالذنب . واذا كانوا قد ارتضوا تكنولوجيا الغرب ، وسلموا بتفوقها ، فانهم يشعرون بميل نحو الاعتراف بسمو القيم الغربية كذلك . ويبحثون وهم في حالة الشك هذه عن مبادىء يهتدون بها تحدد لهم العلاقة بين المجتمع الافريقي والمجتمع الغربي . وتزداد حدة هذا الشك لدى اولئك الذين تمثلوا سبل الحياة الغربية ــ ابناء النخبة في الاقاليم المتحدثة بالفرنسية على سبيل المثال الذين عاشوا سنوات في باريس ــ وكذلك ، ولكن بدرجة اقل ، المتعلمون من شعب الفولاني في امارات نيجيريا الشمالية الذين لم تفصلهم دراساتهم بالمدارس المحلية عن تراثهم الاسلامي ، او ايضا الليبيريون الامريكيون في مونروفيا والكريوليون « المخلطون » في فري تاون الذين ارسى اجدادهم قواعد ثقافة توفيقية .

ثانيا : تنشد النخبة صبغ نظام حكمها بصبغة شرعية . لقد امسكوا بزمام السلطة السياسية واصبح منهم رجال السياسة وكبار الدولة وذلك بفضل تعلمهم وصندوق الاقتراع ، وكلا الشرطين لم يكن لهما وجود في المجتمع التقليدي . ومن ثم لا توجد قوانين تقليديةيستند اليها القادة الجدد لتبرير حكمهم ، على الرغم من ان بعضهم حاول بعد توليه السلطة ان ينتحل رموز الرئاسة التقليدية . لهذا بات لزاما على النخبة ان تتخذ مذهبا يفسر ويبرر قيادتها ، ويحول السلطان السياسي الى سلطة شرعية . ويجب ان تصادف الايديولوجية قبولا ليس فقط بين صفوف النخبة بل وايضا لدى العامة . ولا ريب في ان البديل للقبول العام بشرعية الحكومة هو الحكم كرها وقسرا .

وتأخذ ايديولوجية النخبة صيغة العقيدة الجماهيرية وذلك في الدول التي تتطلع حكوماتها الى حشد وتعبئة كل السكان لانجاز مهمة التحديث ، وتوجيه الروابط الاجتماعية صوب هذه الغاية . واذا اقترنت الفلسفة السياسية للقادة بتنظيم سياسي نضالي فانها تصبح قضية قد يتوحد معها الناس جميعا . وتأخذ الحياة الاجتماعية . كلها صيغة سياسية . ويغدو الزعيم مسيحا ـ رجل الشعب وان ظل نائيا عنهم . ومع قبول مثل هذه الايديولوجية تضعف مظاهر الولاء العرقي .

وهذا هو ما حدث في غينيا ومالي وغانا في عصر نكروما ، حيث تم تحديد الايديولوجيات بدقة ووضحت للناس واصبحت العقيدة الرسمية للاحزاب الحاكمة بدلا من كونها مجرد آراء فردية يعبر عنها ابناء النخبة . وبدأ المثقفون الشباب في البلدان الاخرى تستهويهم صياغات زعماء دول الحشد والتعبئة ، ويستشعرون حرجا لافتقارهم الى خط واحد يقدمه لهم زعماؤهم البرجماتيون .

وثمة قضيتان اساسيتان تغلبان على الايديولوجيات السائدة في غرب افريقيا ـ الزنوجة Negritude او الشخصية الافريقية والاشتراكية الافريقية .

اول من صاغ مصطلح الزنوجة هو شاعر الهند الغربية ايمي سيزار عام ١٩٣٩ . وتبناه على الفور ليوبولدسنجور ثم ذاع بعدها بين اوساط النخبة المتحدثة بالفرنسية في غرب افريقيا . ونشأ مفهوم الشخصية الافريقية بين ابناء غرب افريقيا المتحدثين بالانجليزية بعد ان روج لها لاول مرة نكروما في عام ١٩٥٨ . وذاع استخدام هذين المفهومين على نطاق واسع . وكنا نجد من ناحية من يستخدمون مصطلح الشخصية الافريقية للدلالة فقط على مساواة الافريقيين بشعوب العالم الاخرى ومن ثم يبررون حقهم في تقرير مصيرهم ، ويبررون دعواهم بأن اصواتهم يجب ان تسمعها المحافل العالمية بنفس القدر من الاهتمام الذي

تحظى به الشعوب الاخرى . ونلحظ ان من يستخدمون المصطلح على هذا النحو لا يعنون بالضرورة ان القيم السائدة في المجتمع الافريقي تختلف في شيء عن قيم المجتمع الغربي . بيد ان هناك اخرون ، ويدخل معهم هنا دعاة مفهوم الزنوجة ، يؤمنون بأن القيم الافريقية مغايرة لقيم الغرب وان تساوت معها اخلاقيا . حقا ، قد يؤكد البعض ان اكثر هذه القيم اسمى من القيم السائدة في الغرب وأحرى بالنظر اليها كاسهام افريقي الى المجتمع الانساني . وثمة قضية تتردد كثيرا عند عرض مفهوم الزنوجة وهي الدعوة الى الحفاظ على هذه القيم في نظام الاقتصاد الحديث. وقد يستخدم البعض احيانا الشخصية الافريقية لتبرير الغايات والوسائل التي تتعارض تعارضا تاما مع غايات ووسائل الايديولوجيات الغربية .

ونجد اولئك الذين يرتضون اساسا القيم الغربية ولكن يخشون ان تقصر جهود الافريقيين عن دعمها فانهم يستخدمون المصطلح لستر ما يستشعرونه من حرج وهم يتطلعون الى ما يعتبرونه هم انفسهم اهدافا اقل قيمة .

وزعمت اكثر الحكومات الافريقية انها اشتراكية باستثناء اثنتين هما حكومة ليبيريا وحكومة شمال نيجيريا . ومع هذا فان « مؤتمر سياسات التنمية والنهج الافريقي الى الاشتراكية » المنعقد في داكار خلال ديسمبر ١٩٦٢ وحضره عديد من المثقفين وزعماء عدد كبير من الدول الافريقية المتباينة ، اخفق في تقديم تعريف واضح او موجز عن الاشتراكية الافريقية . ولكن المصطلح شائع للدلالة على التزام نهج علمي في معالجة المشكلات الانسانية ، كما وانه يتطابق مع التخطيط وقواعد متميزة للعمل . ويبدو مصطلحا ملائما عند صوغ ايديولوجية نخبة غرب افريقيا بلغة ماركسية . بيد ان دعاة الاشتراكية الافريقية ادركوا ان تحليل ماركس لراسمالية غرب اوروبا في منتصف القرن التاسع عشر لا يتلاءم كثيرا مع مجتمعات غرب افريقيا في القرن العشرين حيث لا

تزال الارض في حيازة الجماعات السلالية ، والصناعة ــ التي تملكها الدولة او شركات اجنبية ــ تمثل جزءا صغيرا من الاقتصاد . ويأمل الافريقيون المتعلمون في الحقيقة في ان يتمكنوا من تحديث مجتمعاتهم دون ان يتسبب هذا في معاناة بشرية على نحو ما حدث ابان نمو المدن في اوروبا الغربية او اسلوب القهر الذي اقترن بتطور الاتحاد السوفيتي . كذلك فان التاكيد على اسباغ الصفة الافريقية على النزعة الاشتراكية يحمي مثقفي غرب افريقيا من النقد بأن اشتراكيتهم دون ما توحي به الكلمة من دلالات في الغرب . ويحاول هؤلاء البحث عن الصيغ الاشتراكية في المجتمعات الافريقية التقليدية ثم يؤكدونها ثانية كأساس للمجتمع الجديد .

ويتعين علينا النظر الى محتوى هذه الايديولوجيات في علاقتها بخبرة النخبة ذات الثقافة الغربية خلال القرن الماضي ، فليس بالامكان فصلها عن الخلفية الفكرية والحاجات الوجدانية لهؤلاء الناس . بيد ان الخلفيات والحاجات ليست واحدة مع اختلاف الزمان والمكان . (ونحن نستطيع في الواقع ان نفترض اربع مراحل) .

المرحلة الاولى :

خاصة بالأقاليم المتحدثة بالانجليزية خلال القرن التاسع عشر والاقاليم المتحدثة بالفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية فقد كانت الايديولوجيات الافريقية انذاك رد فعل ضد الاستيعاب . لقد كان الافريقي يحظى بالمساواة الاجتماعية مع الاوروبيين ، وربما يشغل مناصب رفيعة ولكن فقط بقدر قبوله لاساليب الحياة الاوروبية وتنكره لثقافته الافريقية . واحس اخرون بصدمة اذ أدركوا اغترابهم عن ماضيهم بعد سنوات من التعليم الغربي .

المرحلة الثانية :

خاصة بالحقبة الاستعمارية ، وبخاصة في الاقاليم البريطانية، وكانت مرحلة تمييز ضد الافريقي في الوظائف العامة وما استتبع هذا من شعور بالاحباط لدى الذين حرموا من الجزاء المشروع لدراساتهم الاكاديمية . وتعتبر ايديولوجيات الاحتجاج السياسي النمط الحقيقي لذلك .

المرحلة الثالثة :

مع نهاية الحقبة الاستعمارية حيث بدا التأكيد على الجوانب الايجابية لبناء المجتمع الجديد . ولكن ما ان تحققت هذه الاهداف، مثل الاستقلال وافرقة وظائف النخبة ، حتى انتقل الاهتمام في المرحلة الرابعة الى الحفاظ على الابنية الجديدة .

وثمة موضوعات ايديولوجية كثيرة مشتركة بين كل مرحلة من هذه المراحل . ذلك ان القادة الحاليين لا يزعمون فقط انهم امتداد فكري للكتاب الوطنيين الاوائل ، بل ان كثيرين ممن كانت اصواتهم اعلى الاصوات اثناء حركات الاحتجاج هم الان رؤساء لحكومات في الدول الجديدة . نذكر منهم دنيس اوزاديباي Dennis O Sadebay أول رئيس وزراء لاقليم وسط غربى نيجيريا فقد كان واحدا من طليعة شعراء نيجيريا في العقود الاولى . وعبر سنجور عن قضايا الزنوجة او الشخصية الزنجية في طائفة من قصائده التي نشرها في اواخر الاربعينات ، وجعل الاشتراكية الافريقية القضية الرئيسية في كتاباته طوال العقد التالي . وكتب ازيكيوي Azikiwi اثناء اقامته في الولايات المتحدة عدة مقالات في صحيفة تاريخ الزنوج Journal of Negro History تناول فيها تاريخ نيجيريا والمؤسسات السياسية واخلاق الامبريالية . ثم اصدر في مطلع الاربعينات كتبا وكتيبات عن الاصلاح السياسي. وظهر في عام ١٩٤٣ كتابه : خطة عمل سياسي لنيجيريا Political Blue Print of Nigeria وبعد مضي اربع

سنوات نشر اوولوو Awolowo بيانه « طريق نيجيريا الى الحرية Path to Nigerian Freedom » ولكن ما ان يصبح الرجل من هؤلاء في السلطة حتى يكف عن طرح المزيد من البرامج السياسية ويقنع بنشر سيرة حياته . وتقع مهمة صوغ ايديولوجيات مرحلة الاستقلال على القادة الذين يحاولون حشد وتعبئة الجماهير في دولهم — ونعني اساسا نكروما وسيكوتوري .

ويأتي التعبير عن الايديولوجيات الافريقية بلغة فكر القرن العشرين في اوروبا وامريكا وان اختلفت قضاياها كثيرا عن القضايا التي تعبر عنها عادة هذه اللغة ومن ثم يفصل الباحث الغربي بسهولة . وسبق ان قال هودجكين Hodgkin ان اكثر الافكار الاساسية في الايديولوجيات الافريقية تقارب كثيرا القضايا المحورية عند روسو ، هذا على الرغم من اننا لا نملك دليلا قويا يؤكد ان الافريقيين بما في ذلك المتحدثين بالفرنسية تأثروا مباشرة بهذا الفيلسوف . « ان موقفا تاريخيا محددا ، ومشكلات انسانية اساسية يتعين حلها هي التي قد تحفز المرء الى التزام اسلوب بذاته في التفكير بشأن هذا الموقف وتلك المشكلات » . وصيغت اكثر الايديولوجيات الافريقية المعاصرة بعبارات ماركسية . ووجد الافريقيون المتحدثون بالفرنسية الفرصة لمعرفة الافكار الماركسية عن كثب خلال ايام دراستهم في باريس ، كما وان التراث الفكري لهذه المدينة قادهم الى االبحث عن فلسفة متكاملة ومتسقة . لقد جلس رجال السياسة الافريقيون المنتخبون الى جوار النواب الشيوعيين في البرلمان الفرنسي ، وتبادل الدارسون الافريقيون الفكر والراي مع سارتر وتعرفوا على الفكر الوجودي . اما نظرائهم في لندن فقد استهواهم اساسا الجناح اليساري للاحزاب السياسية ، ولكنهم لم يحصلوا الا على طائفة من الافكار الاساسية التي اكتشفوا فيما بعد انها لا تنطبق على افريقيا . وقال نكروما أثر عودته الى انجلترا عقب دراسته بجامعة الزنوج الامريكية « انني اشتراكي ماركسي » . بيد ان نظرته الى الشيوعية تحددت جزئيا

في ضوء علاقته الوثيقة مع جورج بادمور . والمعروف ان بادمور مفكر هندي غربي من ابناء الطبقة المتوسطة ، وقضى عدة سنوات في موسكو خلال العقد الثالث ثم ساءه اسلوب الاتحاد السوفيتي في التعامل مع شعوب المستعمرات والنظر اليها كأدوات لتحقيق أهدافه . وتحول بعد ذلك الى فكرة الجامعة الافريقية او الوحدة الافريقية Pan - Africanism وعاش في أكرا منذ مطلع الخمسينات حتى وفاته . وبذل خلال هذه الفترة نشاطا كبيرا من أجل تأسيس العديد من المراكز المؤمنة بالوحدة الافريقية ومرتبطة بحكومة غانا ، كما عمل على تطوير ايديولوجية الوحدة الافريقية . وثبت للافريقيين فائدة المصطلحات الماركسية للتعبير عن شرور المجتمع الرأسمالي ـ استغلاله للعالم المتخلف واغتراب الانسان فيه ـ كما اخذوا عن لينين قواعد تنظيم الحزب .

وثمة مصدر اخر كان له تأثيره القوي على الافريقيين ونعني به حركات الزنوج في الامريكتين . لقد اصبح عدد قليل من زنوج الهند الغربية ـ وبخاصة ادموند بلايدن E. Blyden شخصيات بارزة في غرب افريقيا خلال القرن التاسع عشر ومطلع العشرين . والتقى الافريقيون في باريس باخرين من الدارسين ابناء المستعمرات الفرنسية الامريكية ، فهنا قابل سنجور رفيقه ايمي سيزار من مارتنيك ، وهو مؤسس حركة الشخصية الزنجية . وبدأ قليلون من الافريقيين ابناء المستعمرات البريطانية يلتحقون بجامعات الزنوج الامريكية في الثلاثينات واوائل الاربعينيات . ولم يكتف هؤلاء بالاتصال بحركات ماركوس جارفي Marcus Garvey و و.أ.ب. دوبوا Dubois بل اكتشفوا عند عودتهم الى اوطانهم ان الدرجات العلمية الامريكية التي حصلوا عليها دون الدرجات البريطانية من حيث المستوى العلمي ، وان مجتمعهم ينظر الى درجاتهم العلمية على هذا الاساس . لذلك فان ازيكيو Azikiwe بعد ان قضى سنوات يتعلم في الكليات الامريكية رفضت الحكومة منحه وظيفة بالكلية الملكية في لاجوس . وطبيعي ان مثل هذا الموقف

الذي تكرر واستمر خلال الخمسينات (ولو ان هذا لم يكن يحدث تعسفا ، ذلك لان الكثيرين من الافريقيين حصلوا على درجاتهم العلمية من جامعات امريكية ذات سمعة علمية رديئة) افاد في دعم نضالية خريجي جامعات الولايات المتحدة وحفزهم الى التزام جانب الصراع من اجل وحدة الزنوج . وتجلى احترام نكروما للزعيم الزنجي الشيخ دويوا في تعيينه مديرا لمشروع الموسوعة الافريقية ، وهو مشروع تأسس في اكرا تحت رعاية اكاديمية العلوم في غانا .

واذا كان زعماء غرب افريقيا لا يفتأون يرددون نزعتهم الماركسية الا انه لا يوجد بينهم من يعارض الاديان . فلا يزال سنجور كاثوليكيا مخلصا ، يستلهم كثيرا من افكاره من تيلهارد دو شاردان . ولا يزال اوولوو Awolowo متمسكا بنزعته الميتودية . واخرون يعترفون بالممارسات الدينية التقليدية ويزاولونها في مناسبات عامة . وطبيعي ان مهاجمة المعتقدات الدينية امر يثير استياء العامة بشدة في المجتمعات التي لا تزال الكثرة من ابناء النخبة فيها ابناء المدارس الارسالية (مع اعتبار الكنائس ذاتها ادوات تغير وتقدم في المجتمع) وحيث يسود لدى العامة جهل تكنولوجي يعوق كل تفكير علمي .

خبرة النخبة : ـ

نشأت افكار الشخصية الزنجية في باريس بين الدارسين والطلاب الزنوج الذين استوعبهم المجتمع الفكري اليساري ، ولكنهم تألوا اذ احسوا انهم نأوا عن ثقافتهم التقليدية . ولقد كانت هذه الافكار في جوهرها تعبيرا عن مشاعر غرباء ، وسرعان ما تفقد مدلولها أثر عودتهم الى اوطانهم وتجدد علاقاتهم مع مجتمعاتهم وابناء عشيرتهم . وانحصر الاهتمام بافكار الزنجية في نيجيريا خلال الخمسينيات داخل اوساط الرجال والنساء لذين تبنو اسلوبا اوروبيا في حياتهم ـ في تكوين وتأثيث بيوتهم ، ووسائل الترقيه

التي يؤثرونها . بيد ان الازدهار الفني في هذا البلد لم يات على يد هؤلاء بل جاء اساسا على يد اخرين ممن تلقوا تدريبهم الجامعي والمهني في نيجيريا . ولهذا نجـــد وول سوينكا Wole Soyinka خريج جامعة ابادان يبدي ملاحظة ساخرة يقـول فيهـا : « لا احسب ان على النمر التجول هنا وهناك مؤكدا نمورته » . ومع هذا فانه سواء أكان موقف المتعلمين من ابناء غرب افريقيا جـاء كرد فعل ضد تمثلهم اساليب حياة الغرب ، او جاء عن ادراك واع بأنهم اقتبسوا من الغرب ما رأوه مناسبا من عناصر ثقافته بينما احسوا بقدر اكبر من الامان وهم في كنف مجتمعهم ، فانهم قـد اكتشفوا انهم ازاء معضلة تعكسها خبرتهم وليدة اتصالهم بالعالم الغربي .

وكثيرا ما يعبر الشاب في افريقيا عن التفوق التكنولوجـي للرجل الابيض ويقرن هذا بتفوق معنوي يبرر الحكم الاستعماري. ولكن يسقط عنه هذا الوهم عند زيارته للدولة الاستعمارية ويشاهد البيض يؤدون احقر الاعمال بل وربما يقابل رئيسه المدير في الادارة الاستعمارية واقفا ممسكا بحزام سقف المترو او أي مركبة اخرى. ويجد اتجاهات التفوق العرقي صارخة في اوروبا بعـد ان كانت سمحة في افريقيا تخفيها في غالب الاحيان السيطرة السياسية والاقتصادية . ويتعلم الافريقي هنا ان « البيض » ينفرون مـن لون الزنجي وقسماته اكثر مـن نفورهم مـن شـعوب آسـيا « الصفراء » ويكتشف الافريقي في هذه البلاد التي رسخت فيها الاخلاق البروتستانتية ان فقر شـعوب المستعمرات وتخلفهـا التكنولوجي رهن بضعفها معنويا .

ورد الفعل الطبيعي لاحساس المرء بالعزلة وانه منبوذ هـو الشعور بالحنين الى الوطن . وتصبح حياة الطفولة مثلا اعلى في نظر الافريقي . ويتحول الدفء والرعاية في كنف الاهل والاقارب في القرية ، والسعادة اثناء اللعب بين لداته من الاطفال الى رؤى وصور تقلب على خياله في تلك المدينة الغربية الباردة . ولننظـر

الى سنجور اذ يمجد المراة الزنجية في قصيدته « المراة السوداء » حين يقـول :

انثى عاريـة ، امـرأة سـوداء

ثمرة مكتنزة ناضجة ، ونشوة سمراء من نبيذ

احمـر داكـن ،

وفـم يجعل كل مالي تسبيح غنـاء

ويتطلع سنجور في اكثر قصائده الى اجداده ويراهم الجسـر الذي يصل بينه وبين مجتمعه الذي انتزعه تعليمه بعيدا عنه .

ومع ظهور هذه القضايا الفكرية بدات تسوء سمعة الخصائص المميزة للمجتمع الغربي . لقد روع الافريقيون حين زاروا اوروبا فاذا ضواحيها السكنية خالية لا تعج طرقاتها بأهلها ، أغلق السكان دونهم ابواب دورهم حيث يعيشون خلفهـا . وصدمتهم الروح الفردية الغالبة على حياة الاسرة ــ كأن يعني الاخـوة بتعليـم اخواتهم دون سواهم من الاطفال . وعزا سنجور شرور المجتمع الغربي وادوائه الى اغتراب الانسان الناجم عن التقدم المادي وبلغ ذروته في المجتمع الراسمالي . ولم تبد افريقيا في نظره بعيدة فقط عن كل هذه الشرور بل راى ان القيم الاصلية في المجتمع التقليدي كفيلة بان ترد للانسان كرامته الحقة في المجتمع الصناعي الحديث. وهكذا لم يعد الحكم على قيم افريقيا واوروبا بنـاء على درجـة تلاؤمها مع كل مجتمع بل وفق معايير تتجاوز الواقع .

وتنبع التعريفات الافريقية للاشتراكية من واقـع الحيـاة الاقتصادية في الدول الافريقية . حقا ان المهمة الاساسية للزعماء الجدد هي زيادة ثروة شعوبهم ، ولكن اعادة توزيـع الثروة ليست قضية عملية حين تكون النخبة صغيرة العدد جدا . لقد اصبـح الاقتصاد فعلا خاضعا في الاساس لسيطرة الدولة ــ وهو ارث ورثته الدول عن الحقبة الاستعمارية . كذلك فان اصحاب المشروعات

الخاصة قليلون وليس من المحتمل ان يزيد عددهم سريعا وبنسبة كبيرة . وسبق ان اقترضت الحكومات الوطنية قروضا لصالح رجال الاعمال من ابناء البلاد المحليين ولكن لم ينجح سوى القليل من مشروعاتهم . ويرجع فشلهم اساسا الى الجهل التكنيكي وعدم كفاءة اصحاب القائمة . ولم يتجه زعماء البلاد الى الاعتماد على الدولة ومبادراتها انطلاقا من قناعة ايديولوجية فقط بل وأيضا بدافع من المنفعة . ذلك ان التنمية الاقتصادية تعتمد على الدولة ومبادراتها انطلاقا من قناعة ايديولوجية فقط بل وايضا بدافع من المنفعة . ذلك أن التنمية الاقتصادية تعتمد على النخبة ذات الثقافة الغربية واداتها السياسية المتمثلة في الحزب .

ولقد اقنعت سنوات الحكم الاستعماري الزعماء الافريقيين ان سياسة حرية العمل Laissez-Faire لن تحقق معدلا معقولا للتنمية . ومن ثم تأكدوا من ان تخطيط الاقتصاد مسألة حيوية . ويلزم توفر الحافز للصناعة اما عن طريق تهيئة الظروف المواتية للمستثمرين الاجانب واما عن طريق التدخل المباشر للدولة في الصناعة . ولكن هناك عدد قليل من الدول قادر على ان يوفر محليا رأس المال اللازم للتنمية على هذا النحو . وتنفق النخبة القليلة العدد ، ولكن الشديدة الثراء اموالا طائلة على مظاهر الابهة ، وتعليم ابنائها ، وتدخر النزر القليل على الرغم من أن سوق السلع الاستهلاكية الذي دخل حديثا نيجيريا بدأ يستهوي هذه العناصر كحقل للاستثمار . اما الجماهير فانها فقيرة بما فيه الكفاية مما يحول دونها وادخار الاموال الكافية ، كذلك فان رجال السياسة يحجمون عن حرمان النخبة من تحقيق بعض مظاهر رغد العيش . ولهذا تواصل دول غرب افريقيا الاعتماد على رأس المال الاجنبي . ففي غانا عهدت الخطة الى الرأسماليين الاجانب بدور أساسي في التنمية الصناعية ــ وهو مجال لم يكن من المنتظر ان ينافسوا فيه المشروعات المحلية الوطنية ولكن المسئولين عن ادارة مؤسسات الدولة كانوا يفتقرون الى المهارات التكنولوجية.

وفي غينيا يمتلك الاجانب نصف صادرات مناجم البوكسايت . ولكن هذا التناقض في موقف الزعماء السياسيين الذين يزعمون الحاجة الى ملكية الدولة وسيطرتها علـى الصناعـة ويشجعون في الوقت ذاته المشروعات الاجنبية ، من شأنه ان يسد الطريق امام كثيرين من مستثمري القطاع الخاص .

وعلى الرغم من الآمال التي يعقدها قادة غرب افريقيا علـى التصنيع الا انهم ادركوا ان بلادهـم ستظل بلدانـا زراعيـة في الاساس ، ومن ثم يجب ان يكون نظام الزراعة المتطورة هو الاسهام الرئيسي من اجل التنمية الاقتصادية . ولكـن لم توضع بعـد الاسس اللازمة لرفع انتاجية الزراعة . فنحن نجد دولة مثل غانا تؤكد على ضرورة اقامة مزارع للدولة . ونجد اخرى مثل نيجيريا (الاقليم الغربي) تقيم مستوطنات للفلاحين متوقعة لهم ان يحققوا دخلا مماثلا لدخل الحرفي الماهر . الا ان هذه الاساليب في التنمية تحتاج الى رأسمال كبير للاستثمار لا يقل عما تحتاج اليه الصناعة. وتضطر الدول الفقيرة الى البحث عن وسيلة لتطوير وتحسـين الزراعة عن طريق اقامة تعاونيات زراعية ونشاط جماعي .

وجدير بالذكر ان الاصـرار على وجـود صـورة افريقيـة للاشتراكيـة يمكن القادة السياسيين من اتباع سياسة خارجيـة قائمة على مبدأ عدم الانحياز . انهم وقد حققوا استقلالهم حديثا حريصون على الا يظهروا في صورة الدولة التابعة لاي قوة خارجية ـ او على الاقل تابعة للدولة الاستعمارية سابقا . ومع هـذا فان هذه الدول هي التي لا تزال تملك اكبر حصة من المال تستثمرها في مستعمراتها سابقا ، وهي ايضا الاقدر على توفير المساعـدة التكنيكية . وعلى الرغم من أن الزعماء الافريقيين يندون بالبلدان الرأسمالية وعزوفها عن رؤية الدول النامية وقد خرجت من اسار الاقتصاد الرأسمالي ، فان هذه الدول ذاتهـا هي اقرب الدول لتزويد مستعمراتها السابقة برأس المال اللازم للتنمية . حقـا ان الدول الافريقية تتجه للحصول على مساعدة القوى الاشتراكية

العظمى ـ الاتحاد السوفيتي والصين ـ الا ان الزعماء الافريقيين يظلون في شك من امرهم تجاهها ولا يقدمون على تلك الخطوة الا بهدف التوازن وضمان عدم التبعية الكاملة للغرب . انهم يخشون استخدامهم كأداة في لعبة السياسة الدولية .

اساطير المجتمع التقليدي :

ان دعاة الزنوجة والشخصية الافريقية والاشتراكية الافريقية يقفون جميعا على قدم المساواة في اتجاههم الى المجتمعات الافريقية التقليدية التماسا للمنشأ الوطني الاصيل للقيم التي ينشدون الان تمجيدها والترويج لها . وتشكل هذه القيم جسرا يصل ما بين اساليب الحياة الغربية التي تبناها ابناء النخبة وبين الثقافات التي يلتمسون فيها هويتهم . بيد ان صورة المجتمعات التقليدية التي يطرحونها ليست من النوع المتسق مع دراسات علماء الاجتماع والانثروبولوجيا . ففي مطلع الحقبة الاستعمارية قدم رجال من أمثال سارباه Sarbah واجيساف Ajisafe وصفا دقيقا للنظم السياسية والتشريعية في مملكتي فانتي ويوروبا . واليوم تكشف روايات شينوا اشيب Chinua Achebe رؤية عميقة ونافذة للتنظيم الاجتماعي في قرية ايبو Ibo خلال ما قبل الاستعمار واثناء الحقبة الاستعمارية . ولم يأت مثل هذا الاسهام على يد واحد ممن يتصدرون القيادة في احدى دول غرب افريقيا والذين ينتمون عادة الى جيل منفصل عن مجتمعاتهم الاصلية ومتناقض في موقفه منها .

ويركز هؤلاء على ان المجتمع الافريقي التقليدي يفتقر الى الصراع . ويذهب كثير من المثقفين الافريقيين الى ان الطبقات الاجتماعية ظاهرة خاصة باوروبا وبالمجتمع الصناعي ، وينفرون من فكرة ادخالها الى افريقيا . ويقولون دفاعا عن رأيهم ان المجتمعات الافريقية التقليدية لم تعرف سوى الحد الادنى من التقسيم الطبقي والتباين الاقتصادي . اما الباحثون الذين

يسلمون بامكانية ظهور فوارق كبيرة في مجال الثروة والسلطة داخل المجتمعات التقليدية ، يضيفون الى ذلك قولهم ان الطبقات الناشئة على هذا النحو لم تكن طبقات متطاحنة ومن ثم لم ينشأ عنهـا صراع طبقي . ويضطر الماركسيون الى الحفاظ على مصطلحات الطبقة والاستغلال ويستخدمونها في وصف العلاقة بين الدول الافريقية وبين القوى الاستعمارية التقليدية والجديدة . وهكذا يبدو الافريقيون ابناء طبقة واحدة ويرسخ في وجدانهم هـذا الشعور والتلاحم . فلم يكن الشيوخ في المجتمع التقليدي مستغلين للجماهير ، وقد كان وقت الفراغ الذي يتمتعون به هو الجزاء العادل لجهودهم في شبابهم ، ومن ثم لم تكن الجماهير تنظر اليهم كمستبدين بل كمدافعين عنهم ، يطعمونهم عند الحاجة ويحمونهم من هجمات الاعداء .

وعلاوة على ذلك فان المجتمع الافريقي يختلف عن المجتمع الاوروبي من حيث معاملة الفـرد . ويرى سنجور ان المجتمـع الاوروبي « تجمع من الافراد .... بينما المجتمع الزنجي الافريقي يرتكز على الجماعة اكثر من ارتكازه على الفرد ، ويؤكـد علـى التضامن اكثر من تأكيده على نشاط الفرد وحاجاتـه ويعنـي بالمشاركة بين الاشخاص اكثر من عنايته باستقلالهم الذاتي .... ان عضو المجتمع الجمعي ... يطالب باستقلاله الذاتي ليؤكد ذاته ككائن له وجوده . ولكنه يشعر ويرى انه لا يستطيع ان يطـور امكاناته واصالته الا في المجتمع وبه ، وفي اتحاد مع كل الاخرين » .

ولا وجود للاغتراب في المجتمعات الافريقية التقليدية ، واذا كان موجودا في افريقيا اليوم فانه نتيجة الاستعمار وسيطرة دولة على اخرى .

واذا نظرنا الى المجتمع الافريقـي في ضـوء هذه العبـارات البسيطة سيبدو لنا مجتمعـا متجانسـا ، كمـا ستبدو الفوارق العرقية امرا ثانويا ، بل ان العداوات العرقية هي نتاج سياسة

فرق تسد التي اتبعتها السلطات الاستعمارية . وقيم المجتمعات الافريقية هي قيم زنجية (او الزنجية البربرية بلغة سنجور ، ذلك لانه حاول ان يلائم نظرته مع سكان السنغال غير الزنوج وكذلك سكان مالي) انها فيما يبدو رهن بالخصائص البيولوجية للشعوب الزنجية وليس بالتكوينات الاجتماعية والسياسية التي تتباين تباينا واسعا .

وليس من العسير علينا ان ندرك ما تعنيه هذه التفسيرات للمجتمع التقليدي في ضوء الفهم الاجتماعي المعاصر . ويقال ان المجتمع الافريقي كان ولا يزال مجتمعا لا طبقيا ذلك لان النخبة لا تبدو في نظرهم طبقة مستغلة للجماهير . وتتحد مختلف قوى الشعب ضد القوى الخارجية وسرعان ما تختفي الانقسامات العرقية بينهم . وكلمة حزب سياسي هي مرادف لكلمة امة ، كما وانه ليس بالامكان اطلاق كل جهود الفرد الا داخل الحزب . ولهذا فان اتساق المجتمعات الافريقية في نضالها ضد الاستعمار ، واتساق قيمها يشكل الاساس لايديولوجيات وتنظيمات الوحدة الافريقية حيث تتجاوز مظاهر التنافس بين الدول المجاورة وصعوبات التعاون الاقتصادي .

التباين الايديولوجي :

نلاحظ ان التعبير الايديولوجي عند مثقفي غرب افريقيا ضيق المدى ويرجع ذلك الى التباين المحدود في خبراتهم التعليمية بالاضافة الى موقفهم المشترك مع موقف النخبة في الدول النامية التي تواجه مشكلات اقتصادية واجتماعية مماثلة . فلو قارنا بين آراء سنجور واراء نكروما سيذهلنا مدى التقارب بين الفلسفتين خلال العقد الماضي .

ان سنجور هو بالدرجة الاولى فيلسوف الزنوجة Negritude والاشتراكية الافريقية . فقد تطور خلال سنوات اقامته الطويلة في باريس ، كطالب اول الامر ، ثم مدرسا فيما بعد ، وكشف عن

امكانياته كشاعر يعبر عن الشخصية الزنجية ، وافاد في تطوره بعلاقاته مع كل من ايمي سيزار وسارتر . وانه لامر له دلالته ان يتخذ الظلمة عنوانا لاول كتابين يصدرهما : Chants d'ombres, Hosties Noires, Ethiopigues. ويستمد شعره قوته من تمثله واستيعابه الشديد للثقافة الفرنسية ـــ ثم محاولته فيما بعد اعادة اكتشاف وطنه افريقيا . الا ان مصطلح الزنوجة لا يعني عودة الى كل الاساليب التقليدية ، وقد اقتبست افريقيا الكثير والكثير من الغرب . ويقول سنجور متحدثا عـــن الديانات المستوردة :

« منحنا الاسلام والمسيحية قيما روحية بديلة عن (النزعة الحياتية*الزنجية Negro Animism) وهما عقيدتان اكثر أحكاما او اكثر عقلانية او ان شئت اكثـــر اتساقا مـــع العصـــر الحديث . اما وقد اخترناهما فقد اضحت مهمتنا ان تلائم بينهما وبين ظروفنا التاريخية والاجتماعية : ان مهمتنا هي ان نصبغها بالصبغة الزنجية

ولكن الافريقي قادر على العطاء قدرته على الاخذ :

« المشكلة التي تواجهنا اليوم نحن الزنوج عام ١٩٥٩ هي ان نعرف كيف نحقق التكامل بين القيم الافريقية الزنجية وبين عام ١٩٥٩ . نحن لا نسعى الى احياء الماضي والعيش في متحف افريقي زنجي ، وانما القضية هي ان نلهم العالم هنا والان بقيم ماضينا » .

وتطور ، لكن ببطء ، تحليل سنجور لاسباب تخلف افريقيا وخضوعها . وازداد تقييمه الدراسي لماركس عمقا مـــن خـــلال نشاطه السياسي . بيد ان ما يجذبه من فكر ماركس هو الافكـــار

---

* الحيانية أو الاحيائية .
الاعتقاد بأن كل موجود له روح حالة فيه بما في ذلك الجماد والبنات وله أثر في حياة الانسان.
وهذه هي العقيدة السائدة في كل ديانات الافريقيين ممن لم يتحولوا الى الاسلام أو المسيحية .

والقضايا الانسانية التي طرحها ماركس قبل ١٨٤٨ — ونعني بهـا القضايا الاخلاقية والتحـرر الاقتصادي . وراى ان التحليـل الاقتصادي للمجتمع لا يتفق مع افريقيا .

« الخطأ .... ان نبدأ انطلاقا من الاشتراكية الاوروبية دون تحليلها ... والخطأ ان نسعى الى نقل المؤسسات الاوروبية كمـا تدعو اليهـا . ان الجانب الذي ينبغي علينـا ان نحتفظ به مـن الاشتراكية الاوروبية هو اولا وقبل كل شيء منهجها . وهذا يقتضـي منا ان نبدأ بتحليل واقع الحياة الافريقية الزنجية :

وهنا فقط يمكن للمرء ان يدرك كيف يلائم المؤسسات الاجنبية مع المتطلبات الافريقية » .

وكما سبق ان اشرنا ، يؤكد سنجور لا طبقيـة المجتمـع الافريقي التقليدي ، هذا على الرغم من تحذيره من امكانية وقـوع صدام بين النخبة وبين العمال من ناحية وبينها وبـين جماهـير الفلاحين من ناحية اخرى اذا ما حاولت النخبة استغلال الطرف الاخر . ويؤكد كذلك الطبيعة الجمعية للمجتمع الافريقي . ويرى الاغتراب كارثة وبلاء المجتمعات الراسمالية والاستعمارية وهو امر لا وجود له في المجتمع الجمعي الحقيقي .

« ان قمع الاغتراب الثاني (الاستعماري) ، وحل هـــذه التناقضات الجديدة لا يمكن ان يتوفر الا في النشاط الابداعي ، والنشاط العلمي والاجتماعي للمنتجين وللافراد المنظمين كمجتمع جمعي » .

وفي عام ١٩٦٢ دعا سنجور الى اقامة الحزب المهيمن مـن خلال نظام متعدد الاحزاب . ان الاشتراكية لا تعنـي بالضرورة دولة الحزب الواحد او حزب الكوادر ذلك لان الحزب الوحيـد مآله ان يخضع لقبضة عصبة ، وحزب الكوادر لن يكون حـزب جماهير . وينبذ الحزب المهيمن العنف ، ويدعم الوجدان القومي؛ انه حزب الجماهير « تنظيم سياسي للامة جمعاء مستهدفا بنـاء

الامة عن طريق ارساء دعائم المشاركة والملكية الاجتماعية .... حيث الامة كلها وكل مواطن فرد يسير قدما من الوضع المتخلف الى وضع متطور راق « ويجب ان يكون الحزب ضمير الجماهير ». وينبغي الا تكون النقابات مكاتب شكاوى ومظالم :

« احرى بالعاملين الاجراء ، وهم خيرة المتعلمين والفريق الواعي ، ان يتعالوا على مصالحهم الذاتية كجماعة .... وان يضعوا انفسهم في مرتبة ارقى ، ويعبرون عن كل مصالح الفئات الاجتماعية جميعها ، واولها مصالح الفئات الدنيا المحرومة من الامتيازات : الفلاحين والرعاة والصيادين والحرفيين » .

وتوحد الاشتراكية الافريقية بين ما اسهمت به الاشتراكية الاوروبية وبين القومية الافريقية والشخصية الزنجية حسب تعريفها بانها القاسم المشترك بين كل الافريقيين الزنوج ايا كان عرقهم او دينهم او بلدهم . وتصبح الزنوجة النداء لايقاظ الوعي القومي ، والتسليم بان التطور هو جماع « التغيرات العقلية والاجتماعية للشعوب » ومن ثم فان احدى الوسائل الرئيسية لتحقيق خطة التنمية تتمثل في الاحياء الريفي Animation والذي يتضمن خلق مراكز تنمية جماعية في كل انحاء البلاد . وتركز سياسة « الاستثمار البشري » l'investissement humain في السنغال على دور الفرد . وتعني التنمية الاقتصادية اكثر من مجرد متابعة تحقيق اهداف محددة . وتحتاج السنغال الى مذهب يمنح شعبها الحماسة والدينامية ووعيا بتحرره .

ويحدثنا نكروما في سيرة حياته عن الذين اثروا في « افكاره ونشاطاته الثورية » وهم هيجل وماركس وانجلز ولينين ومازيني والزعماء الامريكيون الزنوج وماركوز جارفي ، والى حد ما المفكر الاشتراكي دى بوا Du Bois ويصف نفسه بانه مسيحي غير طائفي واشتراكي ماركسي ، وانه لا يجد تناقضا بين الاثنين .

ولقد كانت ايديولوجية نكروما في باكر عهدها اقرب الى الماركسية المتزمتة على عكس سنجور . وقال دفاعا عن رأيه ان غانا لم تعد بعد دولة اشتراكية ، وانها ستصبح كذلك حين يتم تصنيعها بالكامل مع قيام ثورة زراعية واخضاع وسائل الانتاج للسيطرة الشعبية . ويرى ان الدولة الاشتراكية لا يكن بناؤها الا على يد الاشتراكيين — على يد كوادر تعمل داخل المجتمع . ولكن الاشتراكية لا يمكن بناؤها بنجاح داخل بلد افريقي واحد . ولهذا فان قضايا الوحدة الافريقية تتمثل في معتقدات نكروما باعتبارها شاملة لكل القارة وان حزبا سياسيا جماهيريا قادر على ان يبني الاشتراكية ويحقق الاستقلال الاقتصادي للقارة كلها .

وترتكز الاشتراكية في تطورها على نخبة البلد وبخاصة الحزب السياسي الواحد . بيد ان حزب نكروما (حزب المؤتمر) لم ينشأ كحزب مبني على اسس ماركسية . بل ولم تكن النخبة مقتنعة بمزايا النظام الاشتراكي ، فاكثر ابناء الجيل القديم مؤمنون بأفكار الغرب عن النزعة الفردية والمشروعات الانتاجية الخاصة — ولم يكن الاف التجار في غانا يفتقرون الى القيم وقد كان هؤلاء يرفضون بشدة اي اقتراح يفيد سيطرة الدولة على نشاطهم . وهكذا نجد راس الحربة في بناء ايديولوجية البلد مؤلفة من جماعات من المثقفين تربطهم بنكروما رابطة وثيقة . وبينما كان نكروما في لندن باشر تشكيل « الحلقة » التي تضم الاتباع المخلصين وطليعة حركة الاستقلال . وانتقل هذا الدور في غانا الى قادة الرابطة الوطنية لمنظمة الطلاب الاشتراكيين ، والتي خلفتها (طليعة دعاة الحزب). والتي تأسست عام ١٩٥٩ عندما بدا خطر سيطرة الموظفين على « الرابطة الوطنية لمنظمة الطلاب الاشتراكيين ، ولم يكن من العادة ان يتولى اعضاء الطليعة مناصب وزارية او ان — يشغلوا مقاعد في البرلمان . وانما احتلوا المراكز الاستراتيجية في منظمات الحزب وفي الصحافة والاذاعة وفي منظمات الوحدة الافريقية — مكتب الشئون الافريقية مثلا — وفي مراكز التدريب الخاصة بالحزب مثل المعهد الايديولوجي في ونيبا Winneba

وتضمنت الخطة السبعية تأميم الجانب الاكبر من القطاع الاقتصادي مما اكد وبالحاح الحاجة الى قبول وتبني المبادىء الاشتراكية . ولكن اعضاء حزب المؤتمر كانوا منقسمين بين « الرابطة الوطنية » وبين « الطليعة » قانعين برعاية نكروما الشخصية لهم من ناحية ، بينما الكثيرون من الوزراء وكبار الموظفين يعطون من ناحية اخرى كلاما معسولا ظاهرة الايمان بالاشتراكية . ولم تتحقق حملة التطهير التي بشرت بها اذاعة الفجر في ابريل ١٩٦١ . واصبحت صحيفة « سبارك » او الشرارة ابتداء من ديسمبر ١٩٦٢ اللسان النظري المعبر عن صحافة الحزب والتي يصدرها مكتب الشئون الافريقية . والتزمت الصحيفة خطا ماركسيا متزمتا ، رافضة كل الافكار عن اشتراكية افريقية خاصة ومؤكدة ان المجتمع الافريقي التقليدي لم يكن مجتمعا لا طبقيا ولا جماعيا بل اقطاعيا . واشرف على صحيفة الشرارة اقلية من حزب المؤتمر بل واقلية من بين « الرابطة الوطنية » وكانوا على ما يبدو يحظون بحصانة شخصية من قبل نكروما على الرغم من انه لم يدعم آراءهم علنيا . وواقع الامر ان افكاره اخذت تتعدل بصورة واضحة وكبيرة وتجعله قريبا أكثر فأكثر من سنجور .

ويبدو ان نكروما بدأ في اوائل الستينات يبحث عن تعاليم للاشتراكية يمكن ان تصدق بعامة على افريقيا ، ويمكن التوفيق بينها وبين فكرة الوحدة الافريقية من خلال فلسفة تدعم موقفه باعتباره القائد المنقذ « المسيح » لكل القارة . وقدم نكروما بادىء الامر تعريفا برجماتيا لمعنى النكرومية او مذهب نكروما

« لقد بدأنا في غانا خطواتنا على طريق الاشتراكية للتقدم ، ولكنها اشتراكية مع فارق محدد . اطلق عليها البعض اسم « النكرومية » . انها ليست الاشتراكية من اجل الاشتراكية ، بل هي الحل العملي لمشكلات البلاد . اننا ننشد عمالة كاملة وسكنا مريحا وفرصة متكافئة في التعليم وتقدما ثقافيا لكل الشعب حتى ارقى مستوى ممكن » .

ونجد في تعريف رسمي نال تاكيدا اكثر على الوحدة الافريقية:
« النكرومية ايديولوجيا لافريقيا الجديدة ، المستقلة والمتحررة تماما من الاستعمار ، والمنظمة على نطاق القارة كلها ، والمؤسسة على مفهوم افريقيا واحدة ومتحدة ، مستمدة قوتها من العلم والتكنولوجيا الحديثة ومن الايمان الافريقي التقليدي بأن التقدم الحر لكل دولة رهن بالتقدم الحر للجميع . »

ويصف نكروما المجتمع الافريقي التقليدي بأنه مجتمع مشاعي ورفض مفهوم الصراع الطبقي في المجتمع الافريقي . ويرى ان الاشتراكية هي الدفاع عن المبادىء الجماعية في المجتمع الحديث ، حفاظا على المجتمع من الانقسامات الطبقية التي يمكن بدونها ان تسبب كل مظاهر التفاوت وعدم المساواة السياسية والاقتصادية. وتصبح الثورة العنيفة امرا محتوما عندما ينتقل المجتمع من بنية تنتفي فيها اسس الاشتراكية مثلما يحدث في المجتمع الراسمالي او الاستعماري . وتصبح الثورة السلمية الى المجتمع الحديث أمرا ممكنا بالنسبة للمجتمعات التي ارتكزت تقليديا على المبادىء الاشتراكية . ونجد كل هذه الآراء التي تحدثنا عن اشتراكية افريقية خاصة مبسوطة في الفلسفة الجديدة « الضميرية Consciencism » مع عرض لمنهج تحقيق مثل هذا النظام الاشتراكي في كل بلدان افريقيا على يد حزب جماهيري واحد لكل القارة .

اثر الايديولوجيات :

ليس من اليسير تقدير مدى نجاح هذه الايديولوجيات سواء في خلق شعور بالتلاحم بين النخبة المتعلمة او في مجال حشد وتعبئة الجماهير . ان القضايا التي تطرحها ايديولوجية الزنوجة لا تعني كثيرا بالنسبة لشباب غرب افريقيا الذي تعلم بالمدارس الثانوية والذي لم يعد خاضعا لسيطرة معلمي الارساليات ، وربما يصدق نفس الشيء بالنسبة لخريجي الجامعات المحلية . فمثل هذا

الطراز من الناس لا يجد حاجة الى اعادة اكتشاف القيم الافريقية، كما وانه ليس من السذاجة بشأن تجانس المجتمعات الافريقية . ومع هذا فانه يقبل الفكرة القائلة بأن مجتمع المستقبل في افريقيا ينبغي الا يكون صورة طبق الاصل من مجتمع الغرب الصناعي ، ويظل التحدي القائم هو اقامة مؤسسات افريقية متميزة تفي بحاجات افريقيا الخاصة . لعل الماركسية والحركات الزنجية الامريكية لها تأثير على الطلاب الدارسين في الخارج الان اقل من تأثيرها منذ عقدين او ثلاثة مضت . فلم يعد طالب اليوم مشغولا بالصراع من اجل الاستقلال ، وانما اصبح ينتمي الى البيروقراطية والتكنوقراطية الصاعدة . واصبح اميل الى نفاد الصبر من البيانات والشروح التي يقدمها زعماؤه السياسيون والتي تعكس مشكلاتهم هم الفكرية والوجدانية وليس لها من علاقة عملية بالمهام المطروحة امامه . ومع هذا فبينما كان الشاب الغاني ينظر ساخرا الى « النكرومية » والضميرية Consciencism كان نظيره النيجيري ضيق الصدر ،مشوش الفكر بسبب افتقاره الى توجه نظري يحدد موقفه بين قادة بلده ، ومن ثم كان أميل الى الاعجاب بغانا وزعمائها لاحساسهم بالهدف دون ان يكشف عن اي تعاطف نحو دعوة نكروما لزعامة افريقيا .

كذلك مصطلح الزنوجة فانه لا يعني شيئا على الاطلاق بالنسبة للجماهير ، كما وانهم لا يستطيعون تقييم الجهد في محاولة تقديم تفسير جديد للنظريات الاوروبية عن الاشتراكية في السياق الافريقي . وتبدو البيانات الايديولوجية للقادة السياسيين امرا عويصا حتى ان قلة من بين النخبة ذاتها هي القادرة على فهمها بوضوح . وبقدر ما يمكن اختصارها الى شعارات مثل شعار الشخصية الافريقية بقدر ما تبدو مبهمة المعنى بحيث تقصر دون حشد الجماهير وكسب تأييدها . ولعل الفرحة التي عمت بالانقلاب العسكري ضد نكروما في غانا تكشف عن ضعف النكرومية وعدم رسوخها في اذهان الشعب حتى في هذا البلد الذي يفضل سواه تعليما كما يضم افضل الاحزاب السياسية تنظيما .

وتتسم الاشتراكية الافريقية ، على نحو ما يفسرها اصحابها عادة بانها فضفاضة وذات طابع برجماتي بحيث تتسع لكل اشكال التنمية الاقتصادية التي يبدو بالامكان ان تزيد ثروة الامم في غرب افريقيا . ولا ترحب بالمشروعات الخاصة الاجنبية اذا توقعت منها منافسة غير متكافئة مع المشروعات الافريقية الوليدة . ونلاحظ ان البلدان التي التزمت في تحقيق اهدافها الاشتراكية ، مثل غانا وغينيا ، أسلوب التأميم للتجارة والخدمات والصناعات الانتاجية، عانت من خسائر مالية ضخمة حطمت كل الاقتصاد بسبب افتقارها الى المهارات الادارية والانتاجية بين النخبة فضلا عن التضخم المفرط للبيروقراطية . وتستلهم الاشتراكية الافريقية وتشجع بصور مختلفة نظام مزارع الدولة في غانا ، والتعاونيات في السنغال ومالي .

ولقد اكدت فلسفة الزنوجة وفلسفة الاشتراكية الافريقية على عدد من قيم المجتمعات الافريقية التقليدية وهي قيم المجتمعات القبلية وان صاغتها صياغة مثالية . ترى هل يتناقض هذا مع التحديث ؟ لقد اختارها المثقفون أما لانها تفي بحاجاتهم الوجدانية او لانها تدعم بعض مقومات المجتمع العصري . ولم يأت اختيارها على يد رجال الاقتصاد الذين يخططون للمؤسسات القادرة على ان تكفل نموا سريعا ، ولم يقض علماء الاجتماع براي فيها من حيث مدى اتساقها مع مجتمع صناعي . ترى هل المجتمع الحديث القائم على قيم افريقية تقليدية ليس الا وهما وخيالا وغير قابل للتحقق في الواقع ؟ الزمن وحده كفيل بالاجابة ، وان كان ثمة بينة قوية تؤكد ان اساليب الحياة وانماط الفكر التي تأخذ جذورها في الرسوخ في مدن غرب افريقيا هي تلك التي تجمعها خصائص مشتركة مع الغرب اكثر منها مع افريقيا . ولكن ربما كان تأكيد القيم التقليدية وامكانية تعديلها فيما بعد هو المدخل الوحيد الذي يمكن للافريقيين ان يعبروا منه الى الغد دون خسائر فادحة .

١٢
القبليــة

تؤكد ايديولوجيات النخبة ذات الثقافة الغربية على وحدة الدول المستقلة حديثا ، بينما تنكر او تغفل او تقلل من الصراعات الدائرة داخل حدودها بين الطبقات او الجماعات العرقية المختلفة . ومع هذا فان ابناء النخبة في بحثهم عن هويتهم يكتشفون ماضي مجتمعاتهم ، وكثيرا ما يبتدعون اساطير عن عظمة خلت او قيم تقليدية في صيغة مثالية . ومن المحتم ان ينصب التركيز في مثل هذه العملية على روابط بدائية ـ تلك الروابط التي تنشأ من احساس بقرابة او نسب طبيعي نتيجة ميلاد المرء في اسرة بذاتها او طائفة دينية او جماعة لغوية وليس نتيجة وجدانات شخصية او مصالح مشتركة . وتتأكد الوحدة القومية عادة في الدولة الحديثة عن طريق الولاء الروتيني للسلطة المدنية بالاضافة الى عظات ايديولوجية ، اما محاولة رفع الروابط البدائية الى مستوى السيادة السياسية فانها تعتبر ظاهرة مرضية . بيد اننا نلحظ في دول افريقيا واسيا التي تأخذ طريقها لتكون دولا حديثة أن هذه الروابط البدائية كثيرا ما يتخذها البعض اساسا للوحدات السياسية ، وحجتهم في هذا أن السلطة الشرعية والمقبولة من الجماهير انما تنبع فقط من السلطة القسرية الاصيلة التي تفرضها هذه الروابط .

ويبدو ان النزعة القبلية Tribalism قد زادت في غرب افريقيا خلال السنوات التالية لاولى الحركات الحاسمة نحو الاستقلال . علاوة على هذا فقد ساد الاعتقاد بأنها احد الامراض الاجتماعية الخطيرة التي اصابت الدول الحديثة ، والتي داب رجال السياسة على التنديد بها . وتستخدم كلمة « القبلية » على نحو استهجاني ـ مثلما يمكن ان تستخدم كلمة « برجوازي »

او « راسمالي » او « شيوعي » في انحاء اخرى من العالم . بيد ان اللفظ لا يزال مبهما ، ويجسد استخدامه العام عددا من المفاهيم المتباينة . فقد يصف امرؤ شخصا بانه « قبلي النزعة » اذا التزم بمعايير مجتمعة التقليدي في مكان لا تتسق معه ، كالمدينة الحديثة على سبيل المثال . كذلك فان الرجل الذي يستخدم نفوذه ليؤمن وظيفة لاحد اقربائه يتهمه الاخرون ممن يؤكدون سيادة القيم البيروقراطية بالانحياز ومحاباة الاقارب . وايضا قد يستخدم المرؤ كلمة « قبلي » ليصف انسانا يلائم سلوكه مع المواقف الحديثة ولكنه يبقى على ولائه لشيوخ ورؤساء مسقط راسه . ولكن ربما كان اكثر استعمالات كلمة « القبلية » شيوعا هو للدلالة على الولاء لجماعة عرقية (او قبيلة) بحيث يكون الولاء لها موازيا ، ان لم يتجاوز ، الولاء للدولة الحديثة .

وسبق ان اوضحنا ان الفوارق الثقافية بين شعوب غرب افريقيا المتجاورة فوارق كبيرة في الغالب الاعم . مثال ذلك ان التشابه بين لغة يوروبا ولغة ادو Edo تشابه طفيف لا يتجاوز التشابه بين اللغتين الانجليزية والروسية . وتتباين انماط النظام الاجتماعي والملابس والغذاء واللغة على طول المسافة من داكار حتى تشاد ، وتتجاوز في تباينها ما نجده من فوارق على طول المسافة من ايرلندا حتى الاورال . ولم تقلل احداث القرن العشرين من هذه الفوارق . ولا تزال اللغات المحلية الاصلية هي لغة الحديث لدى كل شعوب غرب افريقيا تقريبا ، ويجري تدريس اكثرها في المدارس الابتدائية . ولم تتغير اساليب حياة الغالبية العظمى من الناس الى الحد الذي يمكن معه ان تخلق قدرا معقولا من الاتساق والتجانس . ولا يزال القطاع الاكبر من الفلاحين يسكن التجمعات السكنية التقليدية في قرى اسلافهم حتى في المناطق التي تعيش على تصدير الكاكاو او البن او الفول السوداني وحققت من وراء هذا العمل زيادة سريعة في الدخل . وثمة مناطق قليلة تضم جماعات ضخمة من الغرباء الذين لا يدينون بالولاء للشيوخ او الرؤساء المحليين .

ويختار الرجال عادة زوجاتهم من مستوطنات تبعد بضع اميال عن مكان سكنهم او عن مكان جماعتهم العرقية . واذا استقر غريب في منطقة ريفية واستوطن المكان الجديد فانه يتخذ ثقافة الجماعة المضيفة ثقافة له ، اما المهاجر لفترة مؤقتة فانه يحافظ على روابطه بأهله وشعبه الاصيل . وتظل الروابط البدائية في ريف غرب افريقيا قوية متينة مثلما كانت دائما .

وليس لنا ان نتوقع ضعف هذه الروابط الا في المدن فقط . ولكن الامر ليس على هذا النحو دائما كما اسلفنا . فأكثر المقيمين في المدن الحديثة هم مهاجرون حديثي العهد ، الرجال منهم والنساء ولدوا وشبوا في قرى الريف ، ولن نجد غير القليلين جدا من كبار السن ولدوا في المدينة . ويزعم المهاجر عادة انه ينوي العودة الى قريته في سن الشيخوخة ، ان لم يعد قبل ذلك ،ونراه حريصا على علاقاته الوثيقة بكل سكان قريته حتى لا تسقط عنه حقوقه في الارض او وضعه السياسي بسبب تخليه عن جماعته . وتتدعم هذه العلاقات عن طريق الروابط العرقية .

ومع هذا فان المدن الحديثة هي المكان الذي تتلاقى فيه اهالي الجماعات العرقية المتباينة . ونادرا ما يفترق ابناء الجماعة الواحدة ويقيمون في اماكن منفصلة ، باستثناء ابناء الهاوسا . وكثيرا ما نجد خليطا من جماعات عرقية كثيرة ينزلون بنايات متعددة المساكن وتضم هذه المساكن اعضاء من جماعات مختلفة يشتركون معا في مرافق الغسيل والطهي . ولكن على الرغم من تعدد الاتصالات بين ابناء الجماعات المختلفة فان الحياة الاجتماعية للمهاجر ساكن المدينة ، وبخاصة حياة العامل غير الماهر ، ترتكز في الغالب على المشاركة مع ابناء جماعته هو . وقد تكون الانجليزية او الفرنسية لغة مشتركة ولكنها لا تشكل قاعدة لعلاقات حميمة. كذلك الزواج فانه عادة قاصر على ابناء الجماعة العرقية ، حتى ان ساكن المدن يختار عروسه من قريته او قرية مجاورة . ولم تتزايد الزيجات المختلطة بقدر ملحوظ الا في اوساط المتعلمين

تعليما عاليا . وليس من المألوف ان نعثر في المدينة على رجل لا ينتمي انتماء وثيقا بجماعة عرقية بذاتها ، ونادرا ما نجد انسانا ينسب نفسه الى الدولة الحديثة فحسب .

ولقد كان لكل شعب من شعوب الجماعات ، على الرغم من تجاورها ، نمطا سلوكيا وفكريا مستقلا بذاته ـ ونادرا ما كان القروي في الماضي يرى رجالا او نساء من اماكن اخرى تبعد عن قريته بأكثر من بضعة اميال . ويعتبر الاختلاف بين الجماعات العرقية ظاهرة عصرية . ويغدو المهاجر الجديد في المدينة غير متلائم مع الادوار التي تتوقعها المدينة سواء منه او من غيره . ولكنه يتعلم تدريجيا وببطء كيف يصنف الناس الى فئات حسب ثرواتهم أو مهنهم . كذلك فان اول ما يتبادر اليه في المرحلة الانتقالية هو التصنيف العرقي للناس . ولهذا لا يبدو غريبا ان ينظر الناس الى التنافس على الوظائف والى حالات الاحباط الناجمة عن الفشل في ضوء النزعة العرقية حتى ان التوترات الناشئة عن ذلك تضاعف من الميل الى تصنيف الافراد باديء ذي بدء وفق معايير عرقية . وهكذا نجد ان النزعة القبلية الى حد كبير ظاهرة خاصة بالمدينة ، وانها تنمو مع زيادة تحديث الاقتصاد .

القومية العرقية :

اعتاد المثقفون الاول في غرب افريقيا ان يتتبعوا نشأة شعوبهم وثقافاتهم من الحضارات ذات المكانة التاريخية في الشرق الاوسط . واكدوا بعملهم هذا ، وربما بصورة ضمنية ، ان ثقافاتهم تقف على قدم المساواة مع ثقافات العالم الغربي ، وان روايات العهد القديم عن تشتت ابناء نوح تدعم صدق افتراضاتهم . وهكذا نجد على سبيل المثال كاتبا يقول ان ديانة شعب يوروبا ترتبط بوشائج وثيقة وفريدة بديانة مصر القديمة في الالف الثاني قبل الميلاد . ويقال ايضا ان شعب يوروبا نشأ

اصلا في مملكة ميروي على ضفاف النيل ..وثمة اخرون يردون شعوب غرب افريقيا الى العبرانيين . ويستقى هؤلاء وهؤلاء حججهم لتأكيد اصولهم من تفسيرات أدبية متباينة لاساطير سائدة في ممالك غرب افريقيا (وتأثرت في اكثر الاحوال بروايات تاريخية اسلامية عامة) ، ومن التشابه الخادع بين اسماء افريقية حديثة لاماكن او شعوب او الهة وبين اسماء ثقافات قديمة يذهب الرواة الى انها ثقافات اسلافهم . ويستقونها كذلك من التماثل بين ابنية وسمات اجتماعية لثقافات حالية واخرى دارسة ــ وهي اوجه تماثل عامة للغاية بحيث يمكن ان تصدق على كل الشعوب القبلية في اي بقعة من بقاع الارض . واتجه المثقفون اخيرا الى تأكيد أن ثقافتهم المعاصرة لم تنشأ عن اصول لحضارات غير زنجية بل نشأت في ممالك العصور الوسطى في السودان الغربي الذي خضع لحكام زنوج ، وبهذا يؤكدون ان اصول الثقافة الافريقية اصول زنجية خالصة.وذهب شيك انتا ديوب Chick Anta Diop الى ابعد من هذا حين سلم بأن الحضارة المصرية القديمة ذات اصل زنجي الى حد كبير ، ومن ثم يصبح العالم الغربي وبصورة غير مباشرة الوريث الثقافي لافريقيا الزنجية .

ولم تجد هذه الافتراضات القائمة على بينة واهية سوى دعما واهيا ايضا من البحوث الحديثة . فاذا كان من المحتمل حقا ان هناك مؤثرات ثقافية انتقلت من وادي النيل ومن ممالك السودان الغربي في العصر الوسيط (وكذلك من شمال افريقيا وسواحل البحر المتوسط عبر وادي النيل والسودان الغربي) الى مناطق غابات ساحل غينيا ، الا ان شواهد علم اللغة وعلم الاثار توحي باستقرار هذه المناطق زمنا طويلا . ولكن بينما تسلم الدراسات الافريقية المعاصرة باهمية الاكتشافات الحديثة ، الا ان المؤرخين لا يزالون يميلون الى النظر الى كل جماعة عرقية وكأن لها اصلها ومنبتها الخاص بها ، وانها نمت وطورت ثقافتهاالخاصة

عبر القرون ، واحتفظت بنقائها البيولوجي لدرجة عالية . ولهـذا يصور بعض الباحثين اسلاف جماعتهم العرقية وكأنهم عصبـة صغيرة من المهاجـرين رحلـوا مـن الشرق . ويـرى اخرون ان الجماعات العرقية في غرب افريقيا ترتبط ببعضها البعض بسلالة نسب . ونادرا ما يفيد هؤلاء الباحثون ان مجتمعات غرب افريقيا كما نعرفها اليوم ، قد تطورت عبر القرون نتيجة الاتصـالات المتتابعة بين السكان . ونلاحظ ان حجج علمـاء الانثروبولوجيـا الذين يؤثرون القول بالتطور التدريجي ويسلمون مقدما بوجـود نمط شديد التعقيد للتفاعل بين الشعوب والثقافات ، لا تجـد تأييـدا واسعـا .

ولم يكن المثقفون من النخبة مسؤولون فقط عن تأكيد تفـرد كل جماعة عرقية بل وفي احوال كثيرة عن خلق جماعات متلاحمة اكبر حجما من تلك التي كانـت موجودة خـلال حقبة ما قبـل الاستعمار . مثال ذلك ان أسم يوروبا كان يستخدم سابقا للدلالة فقط على مملكة ايو Oyo ولم يكن هناك فيما يبدو اسم واحد للدلالة على الممالك المتباينة والتي كانت شعوبها تتحدث لهجات متقاربة جدا ، وكان حكامها يدعون انحدارهم من نسب مشتـرك يرجع الى جد خرافي يدعى ادودوا Oduduwa وكان ولاء كـل أمرىء موجه الى مملكته الخاصة ، وينظر الى ابناء الممالك الاخرى باعتبارهم اجانب . ولكن الارساليات الاولى استخدمت كلمـة يوروبا للدلالة على كل هـذه الشعوب ذات العلاقـة المشتركة ، وحظى هذا الاستعمال قبولا من الجميع تقريبا . وشرعت المدارس بعدها تعلم التلاميذ لهجة واحدة تتجاوز الفوارق المحلية . واتخذ أبناء النخبة لباس يوروبا زيا لهم وان كانت الفوارق بين الممالـك لا تزال قائمة . ويبدو ان البحث في « نشأة شعب يوروبا » لـه الاولوية على تاريخ كل مملكة على حدة . ومن المحتمل ان الممالك التي كانت تعيش في الماضي على حدود يوروبا شعرت بأن نسبها الى جيرانها من غير اليوروبيين اقوى من نسبها الى الجماعات الاخرى

التي تتحدث لغة يوروبا ولكنها تبعد عنها بمائتي ميل . بيد ان نشوء الوعي بيوروبا لا يخلق فقط تلاحما داخليا كبيرا ، بل ويخلق ايضا حدودا ثقافية متمايزة مع الجماعات العرقية المجاورة .

وحدثت عملية مماثلة داخل جماعات عرقية اخرى . وهكذا دخل كثيرون من ابناء غرب افريقيا الى المجتمع الحديث واضحوا اعضاء في المدن الحديثة بينما يواصلون زعمهم بأن جماعاتهم العرقية هي الفريدة في نوعها والمتميزة على سواها . وبات عسيرا التمييز بين اعتزاز المرء بانتمائه الى جماعته وبين ادعائه بسموها على غيرها .

ولم يدرك انسان خبرة التنافس بين الولاء للدولة والولاء للجماعة العرقية مثلما ادركها ابناء النخبة المتعلمون . انهم نخبة قومية متوحدة مع الدولة وحكومتها ، وهم كذلك مسؤولون والى حد كبير عن نمو النزعة القومية العرقية في جماعاتهم . حقا ان الكثيرين منهم لا يزالون يؤثرون التوحد اولا مع جماعاتهم العرقية قبل الدولة . مثال ذلك اننا لو طالعنا سجل الفنادق نجد في اغلب الاحيان عبارة « ابو » او « يوروبا » او « هاوسا » مكتوبة تحت عنوان « الجنسية » ومن المتوقع أن يكون المرء المتعلم ، كما اسلفنا ، نشطا وفعالا بالنسبة لشؤون بلدته ومسقط رأسه مستخدما كل قدراته ونفوذه ابتغاء تنميتها اجتماعيا واقتصاديا. واذا حدث وكان موظفا كبيرا على سبيل المثال فان الاخرين سيتهمونه باستغلال منصبه لمصلحة بلدته .

مخاوف السيطرة العرقية :

وقفت الحكومات الاستعمارية بمعزل عن المجتمع الافريقي ، تحكمه تعسفيا وتتخذ من الجميع موقفا متساويا نسبيا ، فقد كان كل مجتمع وكل جماعة عرقية مساوية لغيرها في تبعيتها للسلطة الاجنبية . واتاح الاستقلال اليوم للافريقيين الفرصة للمشاركة في الحكم ، وكذلك المشاركة في حكومات تملك سلطات

اكبر ، وتتحكم في مصادر ثروة اضخم مما كان لدى الادوات الاستعمارية السابقة عليها . وهكذا احتل الشعب مكانة رفيعة لدى حكومات الدول الحديثة ، واضحت عبارة « الحكم الذاتي » تفيد لدى الكثيرين تحديد العلاقة بين المجتمع الخاص للمرء او جماعته العرقية وبين السلطة الجديدة . ويتمثل احد مظاهر القومية العرقية في القول بالمساواة مع الجماعات الاخرى . ومع هذا فان الدساتير السياسية الحديثة يمكن استخدامها باعتبارها اقوى ادوات السيطرة .

وتجري المنافسة على السلطة بين الجماعات العرقية على المستوى القومي عادة ، وان كانت هناك عمليات مماثلة داخل المجتمعات الاصغر .

والمخاوف على المستوى القومي ليست سوى تكرار للمخاوف على المستوى المحلي . فمن المتوقع ان يفوز كل عضو في المجلس التشريعي بمعاملة خاصة مميزة لدائرته — ان لم يفز بمثلها دائما لقطاعه الخاص بهذه الدائرة (على الرغم مما نسمعه عن الطرق الجديدة المعبدة التي تنتهي عند بيت الوزير المسؤول عن هذه الاعمال) . ويتوقع الناس من الوزارة او الولاية التي تسيطر عليها جماعة عرقية ما ان تعجل بمشروعات التنمية الاجتماعية والاقتصادية لهذه الجماعة على حساب غيرها . ويشعر ابناء جماعات الاقلية انهم لن يكونوا يوما ما افضل من مواطنين من الدرجة الثانية . انهم عاجزون عن تغيير وضعهم العرقي ، ومن ثم يحاولون الاسهام بنصيب اكبر في السلطة عن طريق الانضمام الى الحزب السياسي المرتبط بالجماعة العرقية صاحبة السلطان، وبهذا ييسرون خلق اتجاه عام نحو اقامة حكومة الحزب الواحد .

ولعل القروي في الماضي كان يشعر ان الناس الذين يعيشون على مسافة عشرة اميال او اكثر بعيدا عن قريته ناس غرباء ، اما من يبعدون عنه باكثر من ثلاثين ميلا فهم اجانب . ويعطى ولاءه للتجمعات السياسية الصغيرة نسبيا وليس التباين بين الجماعات

العرقية المعروفة لنا اليوم مجرد تباين بسيط في الحجم بل هو
احيانا تباين كبير في واقع الامر ـ مثال ذلك مجتمع يوروبا البالغ
عدده عشرة ملايين ومجتمع الابو وتعداده ايضا عشرة ملايين .
لذا فان درجة العداء الناشيء بين الجماعات العرقية بسبب
مخاوف السيطرة السياسية انما يعتمد على الحجم النسبي
للجماعات . فقد تكون الجماعات العرقية في دولة ما صغيرة جدا
بحيث لا يمكن لايها المطالبة بدور يكون لها فيه السيطرة ، بل
وربما لا ينشأ تحالف دائم بين الجماعات العرقية المرتبطة ببعضها
ثقافيا . وهنا يكون العداء العرقي في ادنى مستوى له . بيد اننا
قد نجد في دول اخرى احدى الجماعات العرقية لها الغلبة
والسيطرة . وتعطينا نيجيريا مثالا ثلاثيا لهذا ، حيث نجد في كل
من الاقاليم الثلاثة جماعة عرقية تشكل غالبية السكان ـ يوروبا
في الغرب وابو في الشرق وهاوسا وسكان الامارات في الشمال .
وتزعم مناطق الاقليات العرقية انهم يعاملون معاملة غير عادلة
على اساس التمييز العرقي . وكثيرا ما كانوا يشعرون ، وبحق،
ان تشريعات الاحوال الشخصية او حيازة الارض تجري صياغتها
لتتفق مع البنية الاجتماعية للجماعة المسيطرة . وابدت الاقليات
مخاوفها من ان تفقد هويتها الثقافية . الا ان جماعات الاقليات
العرقية نادرا ما توحدت في مطالبها من اجل اقليم منفصل نظرا
لانقسامهم هم انفسهم من الداخل . ففي اقليم غرب نيجيريا
يؤلف غير اليوربيون جماعات تتحدث لغة ادو Edo وابو Ibo
واجوة Ijoh وراى حكام بنين Binin التقليديين في اقتراح
دولة وسط غرب أفريقيا بعث لامبراطورية بنين ، وهو امر
استاءت منه الشعوب المتحدثة بلغة ادو Edo والتي لم تعد
تشعر بولاء نحو اوبا اقليم بنين . وابدى اخرون
مخاوفهم من سيطرة الابو Ibo وطالب ابناء جماعة اجوه
Ijoh بالانضمام الى ابناء جماعتهم العرقية في شرق نيجيريا

او عقدوا الامل على ان يشكلوا معهم دولة منفصلة تسمى دولة الدلتا . ويرجع انشاء دولة وسط الغرب الى عدد من العوامل بحيث لا تشكل المطالب المحلية الا واحدة منها .

وتتردد كثيرا اصداء مخاوف السيطرة العرقيـة في المجال السياسي . ولكن بالامكان ان نجدها بطبيعة الحال في اي بنية للسلطة ــ في النقابات او الاتحادات الطلابية او المجالس الدينية ــ حيث يكون اصحاب المناصب الكبرى في وضع يسمح لهم بالتمييز وايثار ابناء جماعتهم العرقية . وسيظل الناس تتوقع منهم هذا التمييز الى ان تنشأ ولاءات اخرى لا ترتكز على الروابط العرقية ويكون لها الافضلية .

التنافس على العمالة :

مدن غرب افريقيا الحديثة مدن غير متجانسة عرقيا . فمع انتشار المدارس الابتدائية والثانوية تزايد باطراد تدفق المهاجرين المتعلمين صوب المدن . ولا ينشد الشباب المهاجر الحصول على عمل فحسب بل غالبا ما تكون لديه ، ولو في البداية على الاقل ، معرفة غير واقعية عن سوق العمالة ونمط العمل المرتبط عادة بمستويات معينة من التعلم . ولا يزال كثيرون من خريجي المدارس الابتدائية يتوقعون الالتحاق بعمل كتابي على نحو ما فعل اخوتهم وابناء عمومتهم الكبار منذ عشر او عشرين سنة مضت . وفي الحقيقة فانهم قد يجدون صعوبة في العثور على عمل كعمال غير مهرة في مناطق مثل جنوب نيجيريا او غانا . وهناك من يعزو حالات الاحباط النفسي الناتجة عن ذلك الى النزعة القبلية .

وليس ثمة بينة مقبولة عن ان ابناء جماعة عرقية في غرب افريقيا اكثر ملاءمة من غيرهم بحكم تكوينهم الفطري سواء للدراسة الاكاديمية او المهارات الميكانيكية .

واذا كان من الصعب تحديد الفوارق في المهارات الفطرية فان الفوارق في اتجاهات التحصيل تبدو يقينا اكثر وضوحا . فان ابناء جماعات عرقية بذاتها يبدون اكثر عدوانا من غيرهم في سعيهم لتعويض الخسارة ورغبتهم في تحقيق مغنم ما. ويبدو اخرون اقل ترددا عند الاقدام على عمل بصورة مباشرة . ونجد فريقا ثالثا يعاف العمل اليدوي محافظا بهذا على اتجاه تقليدي للتعالي على الشعوب المجاورة واخرون لا يعبأون بالعمل الدني اذا كان الجزاء مرضيا . وتغلب مثل هذه الصفات عادة على الانماط السلوكية للشعوب المتجاورة . ومن المعتقد علاوة على هذا ان كل انسان في المدينة يشعر بالتزام ازاء البحث عن عمل للاخرين من ابناء قريته . وتتجلى هذه الالتزامات في الروابط العرقية التي تمثل بؤرة الولاء الاولى . وهكذا تنشأ صورة رئيس الكتبة او رئيس العمال الذي يسعى جاهدا لتأسيس « ادارة مغلقة » على ابناء عرقه ــ كل موظفيها التابعين له من ابناء جماعته العرقية ــ وهو مسعى لا ينجح الا الى مدى محدود فقط حين يصر كبار المسؤولين على اعتبار القدرة والتعليم المعيارين الاساسيين للتعيين والترقية .

ولا تقتصر مظاهر التنافس العرقي على العمال غير المهرة الساكنين بالمدن ، وهم اولئك الذين نتوقع منهم ان يكونوا اكثر ارتباطا بالمشاعر البدائية . اذ قد نجد تلك المظاهر قوية وبنفس الدرجة بين الحاصلين على اعلى الدرجات العلمية .

ويبدو ان هذا الطراز من التنافس يكون اكثر حدة عندما يجري بين جماعتين عرقيتين متكافئتين حجما ومتعادلتين من حيث مستويات التعليم . وهذا هو الحال بين الابو ويوروبا في نيجيريا. وتتفاقم حدة المنافسة نتيجة اختلاف نمط شخصية الشعبين بالاضافة الى أن شعب الابو بدا متأخرا في تطوير نظامه التعليمي ويشعر بحاجة الى اللحاق بشعب يوروبا . ولقد عانت مؤخرا

المؤسسات العامة وبعض الجامعات من مظاهر التمزق بسبب العداء العرقي الى الحد الذي اصبحت فيه هذه المظاهر مشكلة سياسية رئيسية .

ويقف زعماء الجماعات العرقية في المدن الحديثة عادة على ارض محايدة ، فالكل غرباء على قدم المساواة ولكن قد تحدث على الرغم من هذا مواقف يشغل فيهـا مهاجرون جدد افضل انماط العمالة ، بينما تبقى الاعمال الدنية للسكان المقيمين محليا. وهنا تكون الفوارق التعليمية هي المسؤولة عن ذلك في اغلب الاحيان . بيد ان هذا قد يفضي الى توترات تصل الى حد وقوع احداث شغب خطيرة ذات مظهر عرقي .

ولقد ادى خطر النشاط التبشيري داخل الامارات في شمال نيجيريا الى تخلف هذه المناطق في مجال التعليم الثانوي بخاصة . ولهذا نجد الكتبة والحرفيين من ابناء الجنوب يشغلون كل الوظائف في الحكومة وفي المؤسسات التجارية الاجنبية ، بل ولدى السلطات المحلية . لقد كان ما يقرب من نصف العاملين في ادارة الخدمات العامة في زاريا عام ١٩٤٥ من الجنوبيين . ومن ثم كانت الهاوسا تخشى ، ولديها بعض الحق ، من سيطرة المهاجرين الجنوبيين على كل القطاعات الاستراتيجية للاقتصاد الحديث في الشمال . والح رجال السياسة من ابناء الجنوب في المطالبة بالحكم الذاتي ، وهي المطالبة التي زادت من احتمال سيطرة الجنوبيين على الحكومة الفيدرالية الجديدة على الرغم من تخصيص نصف مقاعد مجلس النواب للاقليم الشمالي . ولهذا وقعت اضطرابات عنيفة ادت الى مقتل ٣٦ شخصا وجرح ٢٤٠ عندما دخلت احزاب الجنوب المركة في كانو عام ١٩٥٣ من اجل الاستقلال الفوري .

الاستقلال السياسي :

وجد الزعماء السياسيون للدول الحديثة ان من واجبهم استثارة مشاعر الوحدة الوطنية والولاء القومي وذلك في محاولاتهم تأكيد شرعية حكمهم امام الجماهير . ولا ريب في انه بقدر ما يسعى قادة الحزب الى حشد وتعبئة الجماهير مستخدمين الحزب الواحد في ترسيخ القيم الجديدة اجتماعيا وتأكيد زوال كل من الصراعات الطبقية والعرقية في المجتمع المقدر له ان يكون مجتمعا متجانسا ، بقدر ما يكون قمع الولاءات العرقية ومظاهرها المثبطة للجهود . بيد ان اكثر السياسيين حاولوا في وقت او اخر استخدام الولاءات العرقية لدعم التأييد الجماهيري لهم .

وكم هوعسير على القادة في واقع الامر خلق هالة من الشرعية التقليدية حول انفسهم دون اثارة الولاءات والمخاوف العرقية . اذ حينما يؤكد موديبوكيتا انحداره سلاليا عن الحكام الاول لامبراطورية مالي او حين يستغل سيكوتوري مقاومة جده ساموري للاستعمار الفرنسي فمن المرجح الا تتأثر الشعوب التي كانت رعايا في الماضي لهذين الحاكمين القديمين . ولكن حين يستخدم الحاكم الرموز التقليدية من لباس وطقوس للاحتفالات السياسية فان من الصعب تجنب الاحساس بالتوحد مع جماعة عرقية بذاتها . ولقد كان اطلاق اسم غانا على منطقة ساحل الذهب هو الى حد ما محاولة لا تخلو من عبقرية ذلك لانها لم توحد بين الامة الجديدة وبين اي جماعة عرقية داخل حدودها ، بل وحدت بينها وبين امبراطورية عريقة في القدم . وبالمثل فان استبدال الرموز والاحتفالات الغانية بالرموز والاحتفالات البرلمانية الانجليزية كان محاولة موفقة استهدفت توحيد عديد من الحوافز المشتركة من كل انحاء البلاد . وتعكس هيمنة موضوعات اكان الغلبة العددية لهذه الجماعة في الدولة . ولعله من الصعوبة بمكان صياغة رموز نيجيرية توحد بين حوافز عديدة مقتبسة من ثقافات الهاوسا والابو ويوروبا .

وعندما تنتخب الدوائر البرلمانية رجالا من ابنائها ذوي نفوذ وسطوة ليكونوا اعضاء في المجالس التشريعية فان هذا يغـــري الحكومة بمكافاة مؤيديها ليس فقط بتقديم خدمات اجتماعية بل وايضا بمنحهم منصبا وزاريا . والنتيجة ان يتجه عدد كبير مــن اعضاء الحزب الحاكم الى شغل مثل هذه المناصب ومن ثــم يصبح المجلس النيابي مؤسسة باهظة التكاليف . ويتجلى التنافس بين الجماعات العرقية في مطالبة كل جماعة بأن يكون احد ابنائها ضمن من يشغلون اقوى المناصب نفوذا . وهكذا يتأكد الانطباع بــأن اعضاء المجلس النيابي انما يمثلون مصالح الجماعات العرقية قبل غيرها . وتفيد التقارير بأن فروع الحزب الديمقراطي لساحل العاج في تريشفيل ، اكبر ضاحية في ابيدجان ، ترتكز على اساس عرقي ، مما يدعم الروابط البدائية في تلك المنطقة حيث كان من المتوقع ان تكون الغلبة للمصالح المهنيــة دون سواهــا . ولعــل المحاولات المتعمدة التي تستهدف غرس الولاءات العرقية تساهم في غياب التنظيمات القائمة على معايير اخرى لحشد الجماهير .

وطبيعي ان مظاهر الاستياء العرقي تمثل سلاحــا في يــد السياسي الذي لا يطمئن الى ان الغالبية في صفه حقا . ويحدث احيانا ان يقدم مطالب الجماعة المهيمنة في دائرته على امل الفــوز بكل اصواتها . وقد يحدث في حالات اخرى ان يهيج مشاعر العــداء ضد الغرباء بهدف حسم او اخفاء الانقسامات داخل دائرته .

وحدث في ساحل الذهب ان حزب النخبة القديمة ذات الثقافة الغــربية وكــان يقـــوده دكتور دانكـــوا اخــذ يتدهور وضعه سريعا ومن ثم بدا يتشبث بحالة السخط السائدة في اقليم اشانتي كورقة اخيرة للحفاظ على السلطة . فقد كــان شعب الاشانتي يشكو من ان القسط الاكبر من عائدات البلاد من بيع محصول انكاكاو يجري انفاقه في اكرا ، وان السلطة عمــدت الى تقويض مركز التقليديين . وازاء ذلك سعت حركة التحرير الوطني الى خلق نظام فيدرالي للدستور لا يكتفي بمنح قدر اكبــر

من الاستقلال الذاتي المحلي بل يؤدي كذلك الى اضعاف حزب المؤتمر المنظم على مستوى قومي . وفي شمال نيجيريا دخلت جماعة العمل Action Group في عام ١٩٥٩ معركة في اقاليم الهاوسا بشأن قضية الطبقة وحاولت اثارة العامة ضد ارستقراطية الفولاني . و هنا ركزت دعاية حزب مؤتمر شعب الشمال في ردها على ذلك بأن التصويت لصالح حزب جنوبي سيؤدي الى سيطرة الجنوب ومن ثم القضاء سريعا على الهاوسا والتراث الاسلامي .

وبلغ انقسام جماعة العمل في غرب افريقيا ذروته بين اكينتولا Akintola واوولوو Awolowo عندما اعادت الحكومة الفيدرالية الاول الى منصبه كرئيس لوزراء الاقاليم واتهام الثاني بالخيانة . وظلت يوروبا موزعة ولاءها بين هذين الزعيمين ، وان كان اكينتولا لم يحظ بتأييد الاغلبية . وعقب محاكمة اوولوو Awolowo حاولت الفرق المعارضة توحيد يوروبا ثانية خلف بطل ثقافي جديد ، واحلت اولوفن Olofin محل ادودوا الذي اقترن اسمه باسم اجبي امو ادودوا Egbe Omo Oduduwa وهي الحركة الثقافية لكل يوروبا التي اسسها اوولوو . بيد ان هذه المحاولة لم تنجح كثيرا . ومع اول انتخابات اقليمية جرت بعد انتصار اكنتولا اكدت دعاية حزبه على حاجة يوروبا الى الوحدة . وظهرت بعض الرسوم الكاريكاتورية وهي تبين رجلين من ابو ومن هاوسا يغترفان من وعاء حساء مليء بينما وقف بجوارهما رجل من يوروبا يلتقط الفتات المتساقط على الارض . (والمعنى المقصود انه على الرغم من دخول حزب اكنتولا ، وهو الحزب الاكبر في الاقليم الغربي ، في الائتلاف الفيدرالي الا ان سياسة التمييز ضد اهل يوروبا لا تزال جارية فيما يتعلق بالخدمات واختيار مراكز الصناعة الجديدة . وكان اوولوو يرغب في تحويل جماعة العمل الى حزب قومي بينما كان اكنتولا يؤثر قيام احزاب اقليمية بحيث يكون كل حزب هوالسيد

الاول في اقليمه . وكان هذا احد اسباب الخلاف بينهما) .
وظهرت رسوم كاريكاتورية اخرى حادة في انتقادها ضد الابو
وتشير الى أن اكثر الشرور التي يعاني منها شعب يوروبا سببها
استغلال تجار الابو واصحاب الشاحنات لهذا الشعب ـ واسهم
هذا الموقف في الدعوة الى مزيد من وحدة شعب يوروبا خلف
حكامهم .

نتائج النزعة القبلية :

يستخدم البعض لفظ القبلية كصفة استهجانية احيانا ضد
اخرين يؤكدون بها القيمة الايجابية للولاء العرقي . ويفيد المصطلح
عديدا من المعاني المتباينة حسب الجوانب او النظريات المختلفة
لعملية التحديث .

ويعطي الولاء العرقي لشعوب غرب افريقيا احساسا بهويتهم ،
وبقيم ثقافاتهم الخاصة وهو ما من شأنه ان يوازن مع شعورهم
بالدونية الناجم عن اقتباسهم المستمر من التكنولوجيا الغربية
وقبولهم لاساليب حياة الغرب . وانتقل الولاء الى وحدات عرقية
اكبر من تلك التي كانت قائمة في مرحلة ما قبل الاستعمار . وثمة
روابط كثيرة ترتكز على هذه الوحدات وعلى وحدات اصغر منها ،
مثل الروابط الثقافية للنخبة او الروابط العرقية في المدن . وهذه
كلها روابط حديثة في هدفها وبنيتها ، وتفضي على نحو اقل مباشرة
الى قبول قليل من المعايير والقيم داخل اطار تقليدي في ظاهره .
وجدير بالذكر أن اكثر الحماس لبناء مدارس جديدة لم يكن مبعثه
اكبار تلك القيم الخاصة بالمجتمع الجديد والتي تؤكد على التعليم
بقدر ما كان مبعثه التنافس بين القوى المتجاورة أو الجماعات
العرقية التي لا ترغب احداها في الظهور بمظهر الجماعة او القرية
الاكثر تخلفا . واذا كان الانتقاد موجها للمسئول عن الوظيفة بناء
على انتمائه العرقي فان هذا يعني ان الدور الجديد للوظيفة مقبول
ضمنيا . اما اذا كان الهجوم بسبب اخفاق القطاع الحديث وموجه

ضد بنية الوظيفة وليس ضد سمات خاصة بالفرد صاحب الوظيفة فان هذا يعني أن بقاء الدولة الحديثة سيكون معرضا لخطر محقق .

ولكن نجد مقابل هذه الاسهامات الايجابية مواقف اخرى، تبدو مناوئة للتحديث . فالوحدات العرقية الكبرى توحدها قسمات ثقافية ، وتمايزها ايضا بوضوح شديد عن جاراتها . والعوامل التي وحدت بين الشعوب المختلفة المتحدثة لغة يوروبا لا يمكنها على المستوى الارقى ان توحد بينها وبين شعب ابو . كذلك فان البنية المميزة لمجتمع الابو والتي رسخت وجدان التلاحم بين ابنائه لا يمكن مضاعفتها عند مستوى محدد لتوحد كل شعوب نيجيريا . ومن ثم فان التفرد العرقي يهيىء اساسا قائما مقدما للحركات السياسية الانفصالية . وربما يكون تفوق الولاءات العرقية ملائما لجماعات حاكمة تخشى معارضة الجماعات العاطلة من الامتيازات ولذلك تستغل عوامل الانقسام هذه . وهذا من شأنه ان يفضي الى ضعف الحركات التقدمية . علاوة على هذا يصبح من الصعب تأكيد الولاءات العرقية دون قبول قيم قبلية مثل المحسوبية لابناء الجماعة . ولا ريب في ان فعالية اي تنظيم حديث معرضة للوهن والفساد اذا ما جاء تعيين الموظفين على اساس الولاء العرقي دون الكفاءة . ويحدث في احيان كثيرة ان يكون الضعف ضئيلا نسبيا ، الا ان اغفال اصحاب السلطة للقيم البيروقراطية يدفع كثيرين من المتعلمين الى النظر الى مؤيديهم نظرة تهكم وازدراء . ان التنافس العرقي قد يحقق منافع مثل بناء المدارس وما شابه ذلك ، بيد ان الحماس قد يكون مغاليا . ومن ثم تفضي مثل هذه الخدمات الاجتماعية المبالغ فيها الى اضرار خطيرة تصيب الجهد الاقتصادي في شموله . مثال ذلك ان مشروعا صناعيا جديدا له امكانيات وطاقة اقتصادية كبيرة قد يتعطل وتلحق به اضرار فادحة اذا ما تحدد مركز اقامته وفق اعتبارات عرقية وليس وفق اعتبارات صناعية . ولهذا فان القادة السياسيين في

محاولاتهم تجنب هذه القسمات المدمرة التي تميز النزعة القبلية مع رغبتهم في الحفاظ على بعض جوانبها النافعة عملوا على تأكيد قيام ثقافة افريقية عامة لا تتطابق مع جماعة عرقية بذاتها . وهنا تنحصر مظاهر التنافس العرقي داخل الوحدات الصغيرة جدا حيث لا تشكل ضررا يذكر على الامة واقتصادها .



١٣
الصراعات

غالبا ما تتفاقم مع التنمية الاقتصادية الصراعات الاصلية في المجتمع التقليدي فضلا عن ظهور صراعات جديدة في القطاع الحديث . وتنشأ في القطاعات التقليدية اساليب جديدة لمتابعة المصالح والقيم الاصلية حيث يمكن الحصول على الثروة الان عن طريق زراعة او تسويق محاصيل التصدير ، كما وان وظيفة في الكنيسة المحلية قد تسبغ على صاحبها هيبة ومنزلة تعادل منصبا رئاسيا تقليديا . وطبيعي انه مع زراعة محاصيل التصدير وزيادة السكان فان نقص الاراضي الزراعية يؤدي الى تفاقم حدة الصراعات بين الجماعات السلالية التي يتألف منها المجتمع . وبعد ان كانت مجالس الشيوخ تقيد تقييدا شديدا تصرفات الحكام استطاع هؤلاء استثمار علاقاتهم بالمديرين الاستعماريين من قبل ، والسياسيين احيانا في الدول المستقلة ابتغاء تدعيم سلطتهم المحلية .

بيد ان كتابنا هذا معنى اولا وقبل كل شيء بالصراعات التي تجري في غرب افريقيا حديثا ـ بتطور التقسيم الطبقي للمجتمع الى ملاك ومعدمين ، اغنياء وفقراء ، اصحاب امتيازات ومحرومين . واذا تأملنا الاثرياء واصحاب الامتيازاب من ابناء النخبة ذوي الثقافة الغربية نشاهد التنافس على السلطة بين الجماعات المتصارعة ، حيث تبنى كل منها مزاعمها على معايير مختلفة لتحصيل المكاسب او نسبة المغانم اليها . ولا ريب في ان اهداف امرىء ما او جماعة ما تتضارب مع اهداف الغير عندما يتعذر بلوغ الهدفين في آن واحد ، ويستتبع نجاح فريق فشل الفريق الاخر . ويعتبر لفظ صراع ، بصورة ما لفظا غير دقيق نظرا لانه يفيد الدارس غير المشتغل بعلم الاجتماع وجود علاقة قائمة على العنف . ولكن حسم

الصراع ، او التوسط بين المصالح والمطالب المتضاربة ، قد يأخذ صورا متباينة ابتداء من العتاب والحديث الودي الخالص داخل لجنة مصالحة وانتهاء باستخدام القوة المادية . وتتغير بنية المجتمعات من خلال عمليات حسم الصراعات . وكما سبق ان اوضحنا فان هذه التغيرات قد تتباين من حيث مداها وحجمها . فقد تسلم الجماعة الاقوى ببعض مطالب الجماعة الاضعف دون ان تتخلي عن مكانتها الاساسية ، او ربما تواجه المطالب بضم عدد من افراد الجماعة الاضعف الى عضويتها . الا ان مثل هذه التغيرات في سياسة أو اشخاص الجماعات الاقوى قد لا تفيد في خفض درجة التوتر في المجتمع . وهنا يمكن ان تظهر تنظيمات جديدة تحدث تغييرات اكثر جذرية في بنية المجتمع . ولا يرتبط حجم التغير بالضرورة بدرجة التحكيم السلمي او العنف كوسيلة لحسم الامور فقد تبقى الانقلابات العسكرية على الوضع القائم ، بينما تستطيع لجان احداث تغييرات ثورية .

ويتعين علينا ان نضع في الاعتبار متغيرات ثلاثة ونحن نفكر في مدى التوتر والتغير في مجتمعات غرب افريقيا . اذ يجب اولا ان نقيم تعارض المصالح : الفوارق بين الفقر والغنى في المجتمع ، والدرجة التي تصبح عندها هذه الفوارق وراثية ، وكذلك درجة تباين الجماعات المختلفة داخل النخبة ذات الثقافة الغربية . ثانيا ، يجب التحقق من طريقة التعبير عن مصالح الجماعات المختلفة ، هل الافراد واعون بمصالحهم ، وهل لديهم القنوات الملائمة للتعبير عنها ؟ أم ان هناك قوى موازية تقمع كل محاولة لاستبيان هذه المصالح على نحو ما يحدث عندما تحول الانقسامات الدينية او العرقية دون استجلاء المصالح الاقتصادية ؟ ثالثا ، يجب ان نقيم الدرجة التي يمكن عندها ومن خلال الاجراءات المتعارف عليها حسم التوترات الناجمة عن الصراعات داخل المجتمع . فالمجتمعات التقليدية لديها وسائلها الخاصة التي تتذرع بها لحل الخلافات والمطالب المتضاربة . ولكن في المجتمعات التي

تمر بتحولات سريعة يكون عسيرا تطوير اجراءات جديدة يمكنها ملاحقة تطور الصراعات ، وغالبا ما تخفق الاجراءات . وهنا قد تفشل قوى التوسط ، وبخاصة الاحزاب السياسية والنقابات ، في اداء المهام المتوقعة منها .

وانه لعسير تقييم هذه المتغيرات بدقة صادقة تماما . حقا اننا لو استطعنا الحصول على المعلومات اللازمة ، واتخاذ أسلوب للقياس فربما نستطيع التنبؤ بما ستكون عليه مستقبلا انماط الاستقرار والعنف ، والركود والتغير في دول غرب افريقيا . بيد اننا نريد بدلا من ذلك ان نعتمد على طريقة النظر الى الامور بعد حدوثها عند تقييمنا لقوى التغير السائدة في هذه المجتمعات . وعلاوة على هذا فان عالم الاجتماع الذي يشرع في تحليل التغيرات الجارية في البلدان النامية يجد نفسه في وضع متناقض . ذلك لان تقاريره تصبح واحدا من العوامل داخل العملية ، اذ لو انه ركز على الصراعات الاصلية في المجتمع فانه قد يعطي العالم الخارجي انطباعا بعدم الاستقرار ، ومن ثم يؤثر على موقفه من البلد النامي، وبالمثل فانه قد يتساهل في التعبير عن المصالح داخل البلد النامي ومن ثم يرفع مستوى التوتر دون ان يقدم اي وسيلة جديدة لتخفيف حدته . ولعل هذه البلاد من ناحية اخرى ، ودول غرب افريقيا ليست استثناء ، قد اضيرت على يد الكتاب الذين عزوا الاستقرار لمواقف اثبتت الاحداث فيما بعد انها كانت وقتذاك على شفا انقلابات عسكرية .

الصراع الطبقي الوليد :

ان نشوء اشكال جديدة من التقسيم الطبقي الاجتماعي في دول غرب افريقيا يخلق صراعا طبقيا وليدا ــ صراع بين فرق النخبة الجديدة وبين جماهير السكان ، وبخاصة في مناطق الحضر . وطبيعي اننا حين نستخدم عبارة « صراع طبقي » فاننا لا نعني ان طبقات غرب افريقيا ينبغي تحديدها بنفس الطريقة التي تحدد

بها طبقات غرب اوروبا ، او انها تمتلك بالضرورة نفس خصائص اساليب الحياة والانماط السلوكية والقيم .

وسبق ان رأينا ان العمال اليدويين في مدن غرب افريقيا يعيشون في حالة فقر مدقع . ونعيد الى الاذهان هنا ما انتهت اليه لجنة مورجان في نيجيريا حين قررت ان اجور العمال غير المهرة تمثل نصف ما يلزم رجل متزوج للوفاء بالحد الادنى من المعيشة . ومع هذا فؤلاء العمال هم الرجال الذين هجروا الريف بحثا عن حياة افضل . ويتمتع هؤلاء في المدن بخدمات حديثة ــ مياه جارية تمدهم بها الانابيب وكهرباء ــ وخدمات تعليمية وصحية افضل مما يحصل عليها عادة اهل الريف . وادى التوسع في التعليم الابتدائي الى زيادة مطردة في هجرة خريجي هذه المدارس الى المدن ، بينما ادى نقص الاراضي في اقاليم كثيرة الى خلق عامل اضافي يدفع الناس بعيدا عن الزراعة . ولكن المدن عاجزة عن توفير العمالة الكاملة . ففي السنوات السابقة على الاستقلال والتالية له مباشرة انتشرت الخدمات الحكومية انتشارا سريعا ، كما استخدمت المدخرات المتراكمة لبناء وظائف جديدة ومدارس ومراكز صحية . ولكن هذه المدخرات تم استهلاكها الان ، كما وان كل دولة انفقت وتنفق دخلها القومي والمساعدات الاجنبية للوفاء بديونها الخارجية . وبدأت تتزايد البطالة في المدن تزايدا سريعا . ويستعين ساكن المدينة بصلاته بالريف التي يحافظ على بقائها للتخفيف من اثر الفقر والبطالة عليه . ذلك لان غالبيتهم يضع في اعتباره ، على الرغم من تردده ، امكانية العودة الى قريته ليعاود الزراعة بالطريقة التقليدية هذا فضلاً عن أن أبناء بلدته سكان المدينة معه سيقدمون له العون وقت الحاجة عن طريق الروابط العرقية أثناء وجوده بالمدينة.

ولكن يجب الا ننظر الى فقر مهاجري المدن باعتباره امرا مطلقا فحسب ، بل وايضا كشيء نسبي بالقياس الى تطلعاتهم . ان اكثر هؤلاء ، وبخاصة ابناء الجماعات العرقية ذات النظام القبلي ، ينتمون الى جماعات تقليدية حيث امكانية تحصيل ثروة كبيرة او

بلوغ منصب سياسي رفيع امكانية متاحة للجميع . وهكذا فانهم في المدينة ايضا لا يرون حدا لآفاق المكانة الاجتماعية التي يمكن ان تسوقهم اليها « اقدارهم » ومن ثم يتطلعون في حماس وحمية الى التقدم ويتنافسون في ذلك . ويعتبر التعليم الشرط الاول للنجاح ويسعى الآباء بنهم لتوفيره لابنائهم ، كما يتسابق اليه العمال الشباب انفسهم . ولكن مع كل عقد يمر يزيد عدد خريجي المدارس ، وتتجاوز الزيادة حجم الوظائف الجديدة ، كما ترتفع معايير الكفاءة اللازمة لهذه الوظائف . وبعد ان كانت شهادة اتمام الدراسة الابتدائية ، تكفل لصاحبها وظيفة كتابية اضحت اليوم مؤهل العامل اليدوي غير الماهر . وعندما يعود المهاجر لزيارة قريته فانه سيعنى على الارجح بأن يقص عليهم مظاهر الاثارة والمتع في المدينة قبل ان يقص صراعه هو من اجل اكتساب رزقه ، او فشله في بلوغ الآمال التي رسمها لنفسه وعقدها عليه اهل عشيرته .

ونلاحظ ان رجال السياسة ، وكلهم من ابناء النخبة الجديدة وسعوا جهدهم للحصول على تأييد الجماهير ، قد صوروا فوائد الاستقلال على نحو يعطي الكافة من البسطاء صورة غير واقعية عن آفاق المستقبل القريب . وتحدثوا كثيرا عن الجزاء دون ان يذكروا الجهد اللازم لذلك الا لماما . ولقد كان مستوى الاهتمام بالسياسة بين أبناء غرب افريقيا مستوى عاليا جدا خلال العشرين عاما الماضية حيث امتدت اصداء تحقيق الاستقلال وما تبع ذلك من تحولات دستورية الى اقصى القرى . ويؤكد ارتفاع نسبة الحضور الى صناديق الاقتراع مدى تأييد الجماهير لقادتهم ورغبتهم في المشاركة بنصيب في العائد الذي بشروا به الامم الحديثة .

وتأكد مستوى الطموحات كذلك من خلال الاتصال الوثيق الذي حرصت عليه الدول النامية في آسيا وافريقيا بالامم الصناعية . واحست انها افقر من ان تعيش في عزلة وترفع مستوى المعيشه بها وحدها قانعة بجهودها الذاتية فقط . وبينما يعيش المستشارون ورجال الاعمال الاجانب في البلدان النامية في

مستويات اعلى بكثير مما يتوقعوه هم لانفسهم في بلادهم ، وبينما يتردد الطلاب ورجال السياسة على البلدان الاجنبية في رحلاتهم المتكررة الى الخارج ، فان مستوى معيشة البلدان الصناعية يصبح هدفا تصبوا اليه شعوب افريقيا .

وواقع الامر ان اولئك الذين حصلوا على مؤهلات تعليمية عالية تبنوا في حياتهم اسلوبا مماثلا تماما لاسلوب نظرائهم من الرجال والنساء العاملين في البلدان الصناعية . ومع تزايد عددهم وتطور ضواحي سكنهم نشأ نمط للحياة يتباين تباينا واضحا مع نمط حياة فقراء المدن او ابناء القرى ـ وهذا التباين اوضح واكبر بكثير مما هو سائد في المجتمعات التقليدية والذي يفرق بين الغني وصاحب السلطان وبين الفلاح العادي . ويعيش فقراء المدن فعليا على هامش مجتمع النخبة يتأملون ثروتهم دون ان يفقدوا الامل في ان يصبحوا يوما ما في مثل وضعهم ـ الم يكن اكثر ابناء النخبة من سلالة بيوت ريفية متواضعة وتشبه في بساطتها البيوت التي نشأ فيها الفقير المهاجر الى المدينة ؟

ولكن بات الانخراط في صفوف النخبة امرا صعبا الان ، ويتزايد صعوبة باطراد . وبقدر تزايد النخبة بمعدلات متناقصة بقدر ما يقل عدد الصاعدين الى النخبة من بيوت متواضعة . ذلك لان التعليم هو الشرط الاساسي للنجاح ، واولئك الذين بلغوا مكانة النخبة هم اقدر الناس على ان يكفلوا لاطفالهم افضل الظروف لتنشئتهم وتعليمهم . ولا ريب في ان الفرص المتاحة للفتى للالتحاق بمدرسة ثانوية أو بالجامعة ترتبط ارتباطا مباشرا بمستوى تعليم ابوية . ولا تزال الاسر التي حصلت على مستوى تعليمي طيب اسرا كبيرة الحجم ، ولذا فان ابناءها كفيلون خلال السنوات القادمة بملء كل المناصب الشاغرة داخل النخبة النامية ببطء . ونجد في المقابل أن ابن العامل غير الماهر في المدينة ، دون كل الطوائف المهنية الاخرى ، لا يملك الا اقل الفرص واسواها للحصول على تعليم طيب . ولم يعد الاب الفقير ساكن المدينة يرى

فقط فرص النجاح تضيع من امامه سريعا بل بدأ يشعر كذلك ان فقره عقبة تعوق ابناءه ـ وهو موقف لا ينطبق على مجتمع قبلي .

ولعل النمو الاقتصادي السريع تلازمه حتما تطلعات ممعنة في بعدها عن الواقع . ان الكثيرين على يقين من فشل محاولاتهم لبلوغ أهداف يصبون اليها ويسعون لتحقيقها بطرق جديدة ولكنها غير مفهومة بوضوح . ويعزون الفشل اما الى قصور شخصي واما ، كما هو شائع في غرب افريقيا ، الى مكائد الاخرين عن طريق السحر او الشعوذة او التخريب . وتأخذ الطموحات الشخصية طريقها تدريجيا لتصبح طموحات اكثر واقعية . ولكن حين لا تغدو حياة التفاخر التي تعيشها النخبة املا ممكنا في نظر المرء له او لابنائه يبدأ التناقض الاجتماعي في البروز كذلك . وتنقلب الامال التي يعلل بها المرء نفسه ليدخل في صفوف النخبة الى مطالب تدعو الى تجريد النخبة من كل امتيازاتها .

حسم التوترات :

تتمثل مطالب عمال المدن اولا في زيادة الاجور ولكن اذا لم تتحقق تتحول الى المطالبة بالحد من امتيازات النخبة . والمطلب الاول يكاد يكون مطلبا غير واقعي . وسبق ان اعترف اعضاء لجنة مورجان بأن حكومة نيجيريا لن تستطيع مضاعفة الحد الادنى للاجور القائمة فعلا ، ونصحوا باتباع حل وسط بين المستوى القائم وبين المستوى المأمول ، هذا بينما لم تستطع الحكومة منح اكثر من ثلث الزيادة المطلوبة . وطبيعي ان زيادة الاجور وفق مستوى يسمح بالتخفيف من حدة الفقر لا تتأتى الا بتحقيق زيادة ملموسة في الانتاج . ولهذا فان فرض ضرائب على النخبة ، وهي قليلة العدد، او خفض امتيازاتها لن يكفي وحده لتوفير الدخل اللازم . ولكن نظرا لعجز الحكومات عن تلبية مطالب شعوبها فانها تتجه الى قمع هذه المطالب وغالبا ما يكون ذلك بالقوة والقسر .

ويغلب على نقابات غرب افريقيا ، كما سبق ان راينا . الضعف التنظيمي . هذا علاوة على ان نسبة كبيرة ، تتجاوز النصف عادة ، من الاجراء هم من العاملين في الحكومة . ولهذا فان المساومات على رفع الاجور لا تأخذ صورة المفاوضة مع صاحب عمل خاص وتحت اشراف الحكومة كقوة تحكيم ، بل تكون فعلا مفاوضة مع الحكومة ذاتها . وكم هو يسير على المسئول الحكومي ان يؤول المطالبة بزيادة الاجور بأنها اعمال تهدد امن الدولة ورخاءها . وتلجأ السلطات هنا الى احدى وسيلتين ، اما ان تضم الحركة النقابية الى صفوف الحزب الحاكم وتعهد اليها بالعمل اساسا على دعم قيم الحزب اجتماعيا ، واما ان تضعف النقابات وتعجم عودها عن طريق سلسلة لا متناهية من اجراءات القمع . ويبدو ان كلا من الوسيلتين ليست فعالة تماما بما فيه الكفاية للحيلولة دون المطالبة بظروف عمل افضل ، وان ظلت كل منهما عائقا هاما واساسيا .

وحدث ان قدمت حكومة غانا في منتصف عام ١٩٦١ ميزانية تقشف ، ويرجع السبب في ذلك جزئيا الى هبوط اسعار الكاكاو . ورفعت الحكومة الجمارك على عدد كبير من السلع الاستهلاكية كما قررت استقطاع خمسة بالمائة من اجور العاملين الذين تزيد رواتبهم على ١٢٠ جنيها استرلينيا في العام مساهمة في خطة للادخار الجبري . وادت هذه الاجراءات الى خفض الدخول الحقيقية ولكنها كانت شديدة الوطأة على العمال المهرة ونصف المهرة . ووقع في سبتمبر اضراب كبير قام به عمال السكك الحديدية واحواض السفن في سيكوندي ـ تاكورادي واصاب الاضراب وسائل النقل بشلل واسع النطاق . ويعتبر هذا الاضراب اضرابا غير مشروع وفق التشريعات النقابية لعام ١٩٥٨ ومن ثم أعلنت الحكومة حالة الطوارىء ، وانفجرت احداث العنف المتبادلة بين المضربين والشرطة ولكن نفد رصيد العمال خلال اسبوعين او ثلاثة ، وعاد المضربون الى عملهم وتعرضوا للوم من جانب زعماء النقابات ونكروما

شخصيا . ولم يمض وقت قصير حتى القت السلطات القبض على زعماء الاضراب ، كما زجت بأكثر من خمسين عضوا من اعضاء الحزب المعارض في السجن المؤقت .

وارجأت حكومة نيجيريا اولا نشر تقرير لجنة مورجان ثم تأخرت كذلك في اعلان قراراتها في هذا الشأن مما ادى الى وقوع أضراب شامل عم كل البلاد في يونيو ١٩٦٤ . ووجه رئيس الوزراء ابو بكر تافاوا باليوا نداءات شخصية للشعب ولكن ضاعت كلها سدى . وواقع الامر ان اسلوب الحكومة المتعجرف افاد المضربين ويسر لهم المناصرة والتأييد على نطاق واسع . وتحولت المطالب الاصلية المحدودة لزعماء النقابات الى سخط عام واستياء من فساد وقصور رجال السياسة . ولم يعد المضربون الى عملهم الا بعد ان وعدت الحكومة بالتفاوض مع القادة على أساس تقرير مورجان. ولم تمض سوى ايام قلائل حتى القت الحكومة القبض على دكتور الين المدرس بالجامعة والذي يدرس الحركة النقابية النيجيرية ، وثلاثة من القادة النقابيين الصغار ، واتهمتهم السلطات بالعمل على الاطاحة بنظام الحكم . وادانت المحكمة الجميع على الرغم من ان دكتور الين كسب دعواه بعد ذلك واطلق سراحه . وادرك الجميع ان السلطات عمدت الى المبالغة الشديدة في الاتهامات اليهم بغية تخويف القادة النقابيين الاخرين .

وفي فبراير ١٩٦٦ اضرب عمال شركة فايرستون فـي ايبيريـا مطالبين بزيادة اجورهم ١٥ سنتا عن الساعة بدلا من الاجر الحالي وقدره ٦٥ سنتا عن اليوم ــ وهو مطلب من شأنه ان يضاعف رواتبهم . ولكن قررت الحكومة منحهم زيادة قدرها ٤ سنتات عن اليوم . وهنا اعلن رئيس الجمهورية ايضا أن الاضراب عمل غير مشروع ونزلت القوات الخاصة الى الطرقات وقتل احد العمال . وبعد عودتهم الى العمل دعا الرئيس توبمان الى الصلاة والصوم اسبوعا كاملا « حتى يعفي الله الدنيا من شرور التوترات

والاضرابات والفوضى » وحثت السلطات شعب ليبيريا لكي يقبل على العبادة « بقلوب ورعة نادمة وقد تزيوا برداء من الخيش أو أي لباس عادي » .

وهكذا نجد ان كل محاولات عمال المدن للتعبير عن شكاواهم من خلال نقاباتهم او باللجوء الى الاضراب كأسلوب متعارف عليه واجهتها السلطات بالتهديد حينا وبالقوة حينا اخر مع كيل الاتهامات لهم بالعمل على تخريب البلاد .

وبدأت الاحزاب السياسية في غرب أفريقيا ، خلال السنوات التالية للاستقلال ، تضعف تدريجيا ، بدلا من ان تقوى ، في تمثيلها للرأي العام . ونظرا لان هذه الاحزاب كانت ترتكز على قاعدة قوامها نوايات من النخبة المتعلمة ، فقد وجدت نفسها مضطرة الى البحث عن سند شعبي في تنافسها مع بعضها البعض على وراثة السلطة الاستعمارية . وكان النجاح عادة حليف الحزب الذي يملك افضل تنظيم في القرى وضواحي المدن فضلا عن ان اعضاءه يمتازون بأكبر قدر من الفعالية في التعبير عن تطلعات الجماهير . ولكن مع سيطرة الاحزاب الوحيدة داخل كل حكومة بدأ الساسة ينأون بعيدا عن منتخبيهم ، واخذت تنظيمات الحزب في الاضمحلال .

ومن المسلم به في دول الحزب الواحد ان تتم تسوية الصراعات التي تنشأ داخل المجتمع عن طريق لجان الحزب ، اذ ينبغي ابعادها عن مجال المناقشة الجماهيرية حتى لا تثير توترات في المجتمع . والمفهوم هنا ان الحزب ليس فقط اداة سيطرة اجتماعية بل وبالمثل اداة للتعبير عن مظالم الجماهير . ويستطيع حقا اداء هذا الدور الاخير اذا كانت التقارير الرسمية عن اجتماعات القرية صادقة ومطابقة للحقيقة . ولكن يبدو واضحا في كثير من القرى ان اهلها فقدوا الاهتمام بهذه اللقاءات .

وينزع رجال السياسة في كثير من عواصم غرب افريقيا الى حياة البذخ ، يساعدهم على ذلك رواتبهم الكبيرة واسكانهم المجاني او المعادن ، وبدلات السفر السخية .

وربما كان قيام احزاب سياسية جديدة امرا اكثر ملاءمة للتعبير عن مظالم الناس . بيد ان هذا ، كما سبق ان لحظنا ، يكاد يكون امرا مستحيلا . ففي بعض البلاد نجد سيطرة الحزب الواحد يفرضها القانون واي مناقشة تعد خروجا على القانون . وفي بلاد اخرى تضيع جهود الاحزاب الصغيرة المنافسة هباء بسبب ما يتمتع به الحزب الحاكم من مصادر طائلة للثروة ، وسيطرته على وسائل الاعلام ، واستخدامه المطلق لاساليب القوة والعنف ضد خصومه . وتأتي قيادة هذه الاحزاب المنافسة من بين المثقفين الساخطين . وبينما اصاب الاحزاب الكبرى المسيطرة وهن وضعف من الناحية الايديولوجية على نحو ما هو حادث في نيجيريا ، تتجه الاحزاب الجديدة الى الدعوة بأنها صاحبة مذهب اكثر ثورية . ونذكر هنا على سبيل المثال « الحزب الدينامي Dynamic Party وزعيمه دكتور شيك اوبي Chike Obi مدرس الرياضيات بالجامعة . فقد سعى هذا الحزب الى فرض نظام حكم « كمالي » مستلهما عقائد زعيم تركيا الحديثة كمال اتاتورك . واصدر حزب العمال والفلاحين الاشتراكي بزعامة دكتور تونجي اوتيجبي Tunji Otegbeye عدة بيانات كلها ترديد للبيان الشيوعي . ولكن الايديولوجية لا تثير حماس الجماهير الشديد ، لذا فان زعماء هذه الاحزاب حين ينشدون اصوات الناخبين يعمدون الى الحديث عن فساد الحكام القائمين على الامر . بيد ان الناخب الساخر قد يجيب على ذلك بقوله ها هم مجموعة جديدة من السياسيين ولن يكونوا اقل فسادا من سابقيهم .

غياب الوعي الطبقي :

مع تطور الصراع بين جماهير الشعب وبين النخبة المتعلمة الثرية يزداد فشل الوسائط ــ النقابات والاحزاب

السياسية ـ في توفير القنوات القادرة على التوصيل الجيد والصحيح لشكاوي الفقراء . وكثيرا ما يساء التعبير عن هذه الشكاوى بصورة لا تفضي الى اجراء منطقي . والمسئول عن هذا بالتضامن كل من قيم المجتمع التقليدي والايديولوجيات التي صاغتها جماعات النخبة .

فلا يزال الولاء للجماعة العرقية هو الاقوى في كل انحاء غرب افريقيا . اذ ان اكثر الناس لم يهجروا قرى اسلافهم التي لا تزال تحتفظ بالبنية الاجتماعية التقليدية قوية راسخة . ويجد سكان المدن الامن والراحة في الروابط العرقية ، بينما تبدو الروابط المهنية للعمال اليدويين ضعيفة . واعتاد الناس في غالب الاحيان أن يعزوا الفشل في تحقيق الاهداف المنشودة الى الولاء العرقي لدى اولئك المسئولين عن التعيين اوالى منافسة جماعات عرقية اخرى . وجدير بالذكر ان تنظيم النقابات على اساس المؤسسات وليس على اساس مهني من شأنه ان يدعم علاقة الوصاية بين صاحب العمل والعامل . وليس من المتوقع ان تجد في الريف روابط قومية للفلاحين مؤسسة للدفاع عن مصالحهم المشتركة . ذلك ان الامية المتفشية بين أهل القرى فضلا عن التباين الشديد بين لغات الحديث الدارجة يجعل مثل هذا الترابط امرا عسيرا .

والملاحظ ان مفاهيم الصراع الطبقي يكاد لا يكون لها وجود في اللغات المحلية الدارجة . ولعل مصطلحات الطائفة المستخدمة في مجتمعات السافانا الطبقية هي أنسب المصطلحات هنا . وتستخدم الهاوسا كلمتين موجزتين يمكن ان ينقسم اليها كل السكان وهما : تالاكاوا Talakawa وتعني العامة او الكافة وساراكونا Sarakona

وتعني اولى الامر . ونجد من ناحية اخرى المجتمعات القبلية لديها عديد من المصطلحات المتباينة للدلالة على اصحاب المكانة الاجتماعية مؤكدة في كل منها اما على ثروتهم او وضعهم الاخلاقي او كرمهم . ويصدق هذا على الافراد دون الجماعات . وبدأت كلمة النخبة تسود وتجري على السنة المتعلمين انفسهم ، ففي جنوب نيجيريا

يستخدم المتعلمون عبارة « الاقدم خدمة » للدلالة على من يتقاضى راتبا اكثر من خمسمائة جنيها استرلينيا في السنة وتسمح لـه وظيفته باقتراض ثمن سيارة .

وكما اسلفنا فقد قدم ابناء النخبة المثقفة في عديد من دول غرب افريقيا ايديولوجية عن المجتمع اللاطبقي . اما اولئك الملتزمين بحدود الاطار الماركسي الجامد فانهم عادة يرون الصراع الطبقي قائم بين الامم الصناعية المتطورة وبين اممهم المتخلفة والتي كانت مستعمرة من قبل . ولكننا لن نعدم تماما استخدام مصطلحات الطبقات لتفسير الصراع الدائر في مجتمعات غرب افريقيا . ففي شمال نيجيريا اقام الاتحاد التقدمي لابناء الشمال N.E.P.U. سياسته على اساس الصراع بين ارستقراطية شعب الفولاني وبين العامة . كذلك فان جماعة العمل حين خاضت معاركها في الاقليم الشمالي قبل الانتخابات الفيدرالية عام ١٩٥٩ استغلت نفس هذه الموضوعات داخل الامارات بينما نراها في مواضع اخرى تحاول اثارة نعرات الولاء العرقي ضد الهاوسا . وفي عام ١٩٦١ اصدرت جماعة العمل بيانها تحت عنوان « الاشتراكية الديمقراطية » جددت فيه ثلاث طبقات وليدة ــ الحرفيون « الذين يعملون كافراد لحسابهم الخاص ــ (ويشكلون غالبية السكان) . العمال واصحاب الاعمال (بما في ذلك المؤسسات الخاصة والعامة ورجال الصناعة والمقاولين) . وهذه كلها فئات اقتصادية قدمتها الجماهير بديلا للتقسيم الثلاثي الذي قال به سابقا اوولوو Awolowo والذي يرتكز على التعليم : المتعلمون والمستنيرون (التجار والحرفيون) وجماهير الجهال . اما حزب العمال والفلاحين الاشتراكي بزعامة اوتوجبي Otegbeye فانه اكثر تزمتا في ماركسيته ، اذ يصف انصار حزب المؤتمر القومي لمواطني نيجيريا وانصار جماعة العمل بأنهم برجوازية الكومبرادور القومية . ويبدو ان المثقفين الافريقيين لم يتأثروا بعد بتحليلات جيلاس Djilas عن « الطبقة الجديدة » او الانتقادات

القاسية التي قدمها الطبيب النفسي فانون . وليس بالامكان في ضوء واقع الحياة في غرب افريقيا تحديد الطبقات على اســاس ملكية وسائل الانتاج ـ ذلك لان غالبية النخبة هم من اصحاب الرواتب كما وأن المزارع في المجتمعات القبليـــــة هو مالك الارض بالاشتراك مع غيره . ومـن ثم فان السبيل الوحيـد هو تحديد الطبقات على اساس السلطة . علاوة على هذا فبينما يتوفر للنخبة التلاحم العضوي والوعي بامتيازاتهم واسلوب الحياة المتميز الذي يبرر تسميتهم طبقة الا اننا لا نجد في المقابل طبقة اخرى ـ ما لم نقصر استخدامنا لهذا المصطلح على القطاع الحديث ونصف عمال المدن اليدويين بأنهم طبقة وليدة .

والطبقات الممثلة لمصالح متضاربة هي نظريا جماعات مغلقة . ويصل الوعي الطبقي حده الادنى عندما يتوفر الاعتقاد بسهولـة وتكرار الانتقال من الطبقة المحرومة الى الطبقة صاحبة الامتيازات. ونادرا ما يميل الناس الى معارضة امتيازات يعتقدون هم بامكانية ان يأتي يوم ليشاركوا فيها بنصيب . ولا يزال مجتمع غرب افريقيا مجتمعا مفتوحا . وتبين لنا فيما اسلفنا ان الفرص المتاحة لابـن الفلاح للحصول على تعليم جيد ووظيفة ذات اجر مرتفع اقل كثيرا مما يتخيل هو . ولكن لا يزال اكثر ابناء النخبة الناجحين متلاحمين مع مواطن نشأتهم ، ويتطلع اليهم الشباب كقدوة لهم وبالامكان ان يحذوا حذوهم . لذلك نجد من يثابر على مواصلة التعليم ليتخرج في الجامعة وقد ناهز الاربعين بدلا من الثلاثين ، ونرى اخرين في العشرينات يعملون في دأب وجلد لاعداد انفسهم لدخول امتحانات الالتحاق بالجامعة ، ويأبون الاعتراف بفوات الفرصة من ايديهـم مهما طال بهم العمر . ومن الامور ذات الدلالة ان اولئك المتطلعين لبلوغ منزلة النخبة هم العمال اليدويون المهرة ، وصغار الكتبـة والمعلمين ـ وهم نفس الناس الذين كان لنا ان نتوقع منهم المشاركة بنشاط في حركات الاحتجاج والاتجاهات السياسية الراديكالية . ونحن نادرا ما نجد في اي بلد من بلدان العالم القيادة الثورية نابعة حقا من بين صفوف الجماعات المقهورة والتي سحقها الفقر .

وتعتبر الاثارة المستمرة للمشاعر القومية عاملا اخر يحول دون تطور الوعي الطبقي . ولقد كان تحقيق الاستقلال ، كما يرونه ، صراعا قوميا وليس ثمرة جهد لجماعات عرقية بذاتها دون سواها ، ولا حتى جهود النخبة وحدها . وانما كان في خاتمة المطاف نجاحا لجهود النخبة في اثارة الدعم الشعبي لهم وهو ما اعطاهم في نظر السلطات الاستعمارية حقا مشروعا في حكم البلاد . ولقد كان نجاحهم في تحقيق الاستقلال السند القوي في يد الزعماء السياسيين للمطالبة بالاستمرار في مناصبهم ، وهو المطلب الذي وافق عليه ناخبوهم . ويرمز الزعماء الى التلاحم بين الامجاد التقليدية لشعوبهم وبين توقعات العالم الحديث . ولكن لا صورتهم امام الجمهور ولا بياناتهم المعلنة توفر للانسان العادي دليلا للعمل او مرشدا للايمان . وغالبا ما ينظر العامة الى الزعيم الاوحد وكأنه صانع معجزات ، حتى ان رجال الدعاية في حزب المؤتمر زعموا ذات مرة ان نكروما مولود من ام عذراء . ويركز الناس على الجزاء الذي يمكن ان يقدمه لهم الزعيم ، ولهذا كثيرا ما يتوحد اسم الزعماء باسماء مشروعات ضخمة مثل سد الفولتا او الوحدة الافريقية .

متنفسات التوتر :

مثلما تنشأ الصراعات الاجتماعية . وتنمو مع التحولات الاقتصادية وتطور اشكال جديدة من التقسيم الطبقي كذلك الحال بالنسبة للتوترات فهي تزداد بالمثل . ولكن ثمة عوامل عديدة تحول دون التعبير عن المظالم بعبارة اقتصادية كما تحول دون تطور مشاعر الوعي الطبقي . علاوة على هذا فان القنوات المشروعة للتعبير عن مثل هذه المظالم آخذة في الضعف تدريجيا لتصبح قليلة الفعالية ، ولهذا لم تعد الحركات السياسية المنظمة توجه احتجاجاتها ضد بنية المجتمع . واتجه الناس بدلا من ذلك الى التعبير عن مشاعر الاحباط النفسي عن طريق اتهامات بالقبلية والفساد والسحر والشعوذة . وعمد كل امرىء الى دعم علاقاته

بأصحاب النفوذ والسلطان ، والتماس قوى غيبية خارقة لتحميه من القوى الشريرة وتعينه على تحقيق طموحاته . وتفتقر انتفاضات السلوك العدواني الى قيادة متماسكة او تنظيم قوى ، ولا تعدو ان تكون هبات عاطلة من اي ايديولوجيات او اهداف طبقية ــ ما خلا اتجاه عام نحو التدمير ضد كل اصحاب الثروة او ذوي الاملاك .

التنافس داخل صفوف النخبة :

تحتفظ كل جماعة من جماعات النخبة في دول غرب افريقيا بقدر كبير من التجانس داخلها . وثمة تباين قليل في الخلفية التعليمية لهم . ويتخذ ابناء النخبة اساليب متماثلة جدا في حياتهم . وتنزع اسرهم الى التزاوج المتبادل . ويرتبط اعضاؤها بشبكة من العلاقات الحميمة عن طريق الصداقات والروابط الرسمية .

وجماعات النخبة لها امتيازات رفيعة وعديدة ، ويعيش اهلها في رغد وبحبوحة يتجاوزون بهما كل احلام ابائهم واجدادهم . وتأتيهم هذه الامتيازات مباشرة من الحكومة التي توظف غالبية المتعلمين تعليما عاليا ، وتفرض شروط العمل في المجالات الاخرى . وهكذا يمكن القول ان النخبة مدينة لرجال السياسة في السلطة ، وتعتمد عليهم ليس فقط للحفاظ على امتيازاتهم بل وايضا لتأمين التوسع الاقتصادي ، حتى يتسنى انشاء وظائف جديدة والترقي في سلمها . وهناك بعض اصحاب الاصوات المستقلة الذين تحدثوا على قلتهم عن الرواتب الباهظة التي يتقاضاها المتعلمون ولا تتناسب ابدا مع معاشات الجماهير . ولكن لم يحدث ان صدرت من بين صفوف النخبة حركة عامة تدين تلك الامتيازات . ذلك لان غالبية ابناء النخبة يؤمنون بان تمتعهم بالامتيازات التي كان يتمتع بها رجال الادارة الاستعمارية هي اوقع دليل على مساواتهم بأسيادهم السابقين .

والنخبة واعية يقينا بوضعها في مجتمعها ، وبالسلطة وبالمسئولية الملقاة على عاتقها . وينزع اكثرهم الى الاستخفاف بالفلاحين الاميين والحرفيين في بلادهم عند الحديث عنهم . واكثر هؤلاء لم ينخرطوا في صفوف اصحاب الامتيازات الا مؤخرا ، ولهذا فبينما ينكرون اي فارق ثقافي اساسي بينهم وبين غيرهم من ابناء جماعاتهم العرقية ، نراهم يدربون ابناءهم على شغل مكانة رفيعة بين النخبة ، ويوفرون لهم افضل المدارس ، ويحدون من علاقاتهم بأبناء الاسر المتواضعة . ومن العسير جدا تقدير درجة التزام ابناء النخبة بتطوير قيم الجماعة ، او تقدير مدى رؤيتهم للنخبة كأداة لتقدم مصالحهم الذاتية .

وتجري منافسة شديدة داخل صفوف النخبة ابتغاء السلطة والنفوذ للسيطرة على جهاز الدولة الحديثة . وتدور هذه المنافسة بين جماعات تبني مزاعمها على معايير متضاربة لتحصيل الاهداف.

وسبق ان عرضنا بايجاز في الفصول السابقة هذه المعايير المتضاربة . ان وضعية النخبة ، حسب تحديدها الدقيق ، مستحيلة بدون التعلم في مجتمع غرب افريقيا الحديث . ولكن قد يحدث احيانا ان يصبح هذا المعيار ثانويا لمعيار الميلاد . مثال ذلك ما يحدث في مونروفيا حيث يصعب على امرىء شغل منصب رفيع ما لم يكن ليبيريا امريكيا . كذلك في لاجوس فقد كان الساسة من ابناء شمال نيجيريا الذين هيمنوا على الحكومة الفيدرالية لا يثقون في ولاء اي هيئة مسؤولة عن الخدمة المدنية اذا كان كل اعضائها من الجنوبيين . ومن ثم كانوا يضمون الى مثل هذه اللجان اعضاء شماليين ليوازنوا الامر ، وكان يحل محل الجنوبيين رجال دونهم بكثير تعليما وخبرة مما كان يثير استياءهم . ونلاحظ في المجتمعات التي تعتبر التعليم حجر الزاوية في التحديث ان المتعلمين لا يرتاحون الى ما يبديه البعض من تقدير للمعايير الاخرى للتحصيل . ولقد خرج القادة السياسيون الاول من بين صفوف النخبة المتعلمة ، اذ كانوا معلمين او محامين او اطباء . ولم يفض

التحديث الى زيادة اعداد المكتبيين الافريقيين فقط بل افضى ايضا في بعض الدول الى زيادة عدد الموظفين العاملين في الاحزاب ، والذين يدينون بترقيهم في سلم العمل الى ولائهم او الى تدراتهم التنظيمية او الى شهرتهم المحلية . وعندما تكون الكلمة لهؤلاء الرجال وتحكم قراراتهم ، التي تصدر في ضوء المنفعة السياسية ، الاتجاهات السياسية التي يتعين على الاجهزة المكتبية اتباعها فان العاملين في هذه الاجهزة يشعرون ان التزامهم بالعمل الرشيد مهدد بالاخطار .

واذا سعوا الى اصلاح اسباب شكاواهم فانهم يقفون عاجزين عن اتخاذ اجراء مباشر ضد حكوماتهم نظرا لانهم عاملون بها . بل ان اصحاب المهن المستقلة يعتمدون في الغالب اعتمادا كبيرا على وصاية رسمية . ويسعون الى بلوغ اهدافهم بوسائل غير رسمية عن طريق شبكة من علاقات الصداقة . ونلاحظ في هذه الدول التي يغتال زعماؤها قيم حرية التعبير ، ان النخبة تلتزم الصمت الغريب ولا يبدي ابناؤها حراكا وهم الذين ساندوا تلك القيم في بادىء الامر . لعلهم حريصون على الا يثور خلاف علني بينهم وبين القادة السياسيين حتى يستثير ذلك مشاعر الجماهير ويهدد استقرار الحكومة وما يترتب على ذلك من اخطار حتمية تؤثر على مكانتهم هم في المجتمع .

الانقلابات العسكرية :

في يناير ١٩٦٦ تنازل رئيس الفولتا العليا عن السلطة لقادة جيشه وعلقت الصحافة البريطانية على هذا الانقلاب وعلى انقلاب اخر سبقه ببضعة ايام في جمهورية افريقيا الوسطى ، واتجهت في تعليقها الى التركيز على الفقر الاقتصادي في هاتين الدولتين الصغيرتين ، ثم استقلالهما عن الحكم الفرنسي فجأة ودون اعداد سابق . ولكن خلال الشهر ذاته ، وبينما كانت لاجوس لا تزال تستمتع بالدعاية عن مؤتمر الكومنولث استولى الجيش على السلطة

في نيجيريا ، وقتل في هذه العملية رئيس الوزراء الفيدرالي ووزير ماليته ورئيسا وزراء الاقليمين الشمالي والغربي . وبعد ذلك بشهر واحد ، وبينما كان نكروما غائبا عن بلاده عزله الجيش والبوليس وزجوا بوزرائه واقرب مؤيديه في السجن والغوا رسميا حزب المؤتمر . ولقد كان النظامان في كل من نيجيريا وغانا مختلفين عن بعضهما اختلافا واضحا كما ان هاتين الدولتان كانتا من بين اغنى دول غرب افريقيا . ولعل الدرس المستفاد من هذه الانقلابات الثلاثة هو انه لا يوجد نظام حكم عرضة للسقوط اقل من سواه .

ويجب أن يكون حديثنا عن دور العسكريين مرتبطا بالتوترات التي لمسناها في دول غرب افريقيا . ان ضباط الجيش المقيمين في ثكناتهم معظم الاوقات بعيدا عن العاصمة لا علاقة لهم بالحياة الراقية التي يحياها الساسة والنخبة المتعلمة . وتؤثر واجباتهم تأثيرا ضئيلا على الحياة اليومية للناس ، فضلا عن انهم براء من وصمة الفساد والمحسوبية وهما تهتمان مرتبطتان بادارات الخدمات المدنية . ولقد فاز جيش نيجيريا بترحيب وتهليل شعبيين لدوره من اجل حفظ السلام في الكونجو . وكان الجيش في اكثر البلدان المستقلة حديثا هو اخر مؤسسة تمت افرقتها بصورة كاملة .وضم ضباطا من اهل البلاد تدربوا تدريبا عاليا في الكليات العسكرية للبلدان الاستعمارية وكان تعيينهم وترقيتهم رهن بقدراتهم . وساد شعور بالاستياء داخل الجيش حين وضعت السلطات العوامل السياسية موضع الاعتبار ، مثلما حدث عندما استبدل نكروما ضباطا موالين له بكل من جنرال الكسندر الانجليزي الجنسية وكذلك رئيس اركانه جنرال انكراه . ويميل كبار ضباط الجيش الى التزام لنظرة المحافظة ، كما تشبعوا بفضل تدريبهم بروح الفريق الجماعية . واشارت تقارير الى ان ساردوانا السوكوتي حاول الاطاحة بالقيادات الجنوبية في الجيش والشرطة في نيجيريا ، فمنحهم اجازة طويلة ورقى بدلا منهم ضباطا شماليين ، الا ان الشماليين انفسهم احبطوا هذه المحاولة . ويختلف نظام الجيش تماما عن

الاتجاهات الانقسامية المتفشية في حركات الاحتجاج بين النخبة ، حيث يعتقد كل شاب مثقف انه ند لسواه واراءه تعادل في صوابها راي اي انسان اخر . ولكن الجيش ليس مجرد هيئة خاضعة لنظام ثابت ، وانما يتحكم ايضا في استخدام القوة المادية .وتبرهن سهولة الانقلابات وسرعتها على ان الامر لا يحتاج الا لقوة صغيرة لاسقاط الحكومات في هذه الدول .

وتبدو النخبة العسكرية اكثر تلاحما من اي جماعات اخرى للنخبة . ولقد ترقى اكثر القادة الكبار من تحت السلاح اذ التحقوا بالجيش في بادىء الامر للعمل كتبة بعد ان اتموا دراستهم بالمدارس الابتدائية في اوائل الاربعينات . ولهذا فان اكثر الضباط الصغار ارقى من قادتهم من حيث المستوى التعليمي ، حيث نجد كثيرين منهم من خريجي الجامعات وحصلوا على تدريباتهم العسكرية في فترات وجيزة وسريعة وكذلك ترقوا بسرعة كبيرة تتناسب مع سرعة نمو الجيش وافرقته . ويتميز صغار الضباط بأنهم اكثر راديكالية من قادتهم .

نيجيريا :

جاء الانقلاب العسكري في نيجيريا في يناير ١٩٦٦ نتيجة موقف معقد انعكست فيه كل الصراعات التي اسلفنا الحديث عنها . وظهر اتجاه على الرغم من هذا يحاول ان يعزو ذلك كله الى الانقسامات العرقية داخل البلاد على حساب الصراعات الطبقية الوليدة.

ولقد كانت البنية الاقطاعية لامارات الاقليم الشمالي ، والتي ظلت كما هي تحت الحكم الاستعماري ، تختلف اختلافا بينا عن التنظيمات القبلية للمجتمعات الجنوبية . والمعروف أن هذه المجتمعات الاخيرة ، وبخاصة القريبة من الساحل ، قبلت التعليم الغربي في فترة مبكرة ومن ثم تيسر لها الهينمة على قطاع الاقتصاد

الحديث . وكان قادة حزب مؤتمر شعب الشمال او الممثلين لارستقراطية الفولاني مترددين اول الامر في الموافقة على استقلال نيجيريا ، ولكنهم قبلوا اخر الامر حين تبين لهم ان اقليم الشمال سيحوز نصف المقاعد على الاقل في المجلس التشريعي الفيدرالي (على اساس عدد السكان طبقا لاحصاء عام ١٩٥٢) وان كل اقليم ستتوفر له سلطات الحكم الذاتي . واصبح الوضع المهيمن لحزب مؤتمر شعب الشمال في الدولة الاتحادية اكثر وضوحا بعد ان فاز الحزب بولاء كل مناطق الاقليم الشمالي تقريبا . وخرج بعد انتخابات ١٩٥٩ كشريك أكبر في الحكومة الفيدرالية ، وتحالف مع حزب المؤتمر القومي لمواطني نيجيريا ، بينما مثلت المعارضة جماعة العمل لقيادة اوولوو Awolowo

واصبحت مكانة استقراطية الفولاني والتي كان يحميها البريطانيون مهددة تهديدا خطيرا بسبب سياسةالتحديث في الخمسينات ــ والتي تستهدف زيادة التصنيع ودعم سلطة الحكومة الفيدرالية والحكومات الاقليمية . ولكن ادرك قادة مؤتمر شعب الشمال خلال هذه الفترة ان الحفاظ على مكانتهم لن يكون بمعزل عن كل هذا وانما سيكون واقعا تحت سيطرة الحكومة الفيدرالية والقطاع الاقتصادي ومن ثم يتمين عى اماراتهم تقبل التغيرات التي يرتضيها حكامهم . وعبروا عن ادراكهم هذا بالمطالبة بأن يكون لهم نصيب اكبر في الوظائف الادارية وفي التعداد السكاني . ولم تنشر الحكومة نتائج الاحصاء السكاني لعام ١٩٦٢ وان ساد اعتقاد بأنها اعطت الغلبة لسكان الاقاليم الجونبية بحيث فاقوا سكان الشمال ــ مما يعطي الجنوبيين حقا مشروعا بالمطالبة بأكثرية المقاعد في المجلس التشريعي الاتحادي والهبوط بمستوى حزب مؤتمر الشمال الى احزاب الاقلية . واعطى احصاء تال اقليم الشمال النصيب ذاته من جملة عدد السكان مثلما كان مثلما كان في عام ١٩٥٢ ، وهنا طعن الجنوبيون على الفور في صحة الارقام واتهموا السلطة بالتلاعب . ولم يتسن الحد من

مخاوف سيطرة الشماليين سيطرة كاملة عندما اشار ساردوانا Sardauna الى مواصلة الجهاد واعرب عن طموحاته المثوبة بجنون لعظمة في ان يقوم بدور دان فوديو Dan Fodio بيد ان مسلمي الشمال الذين وحدتهم تنبؤات ساستهم المفجعة عن مصير الاسلام لو اتيح للجنوبيين السيطرة على الشمال ، انقسموا فيما بينهم بسبب الحركات الطائفية السائدة بينهم ، فضلا عن ان اوسع الحركات انتشارا واكثرها اعضاء وهي الطريقة التيجانية اتخذت موقفا فاترا تعوزه الحماس لمساندة ساردوانا المتزمت .

ولم تقع ازمة نيجيريا في عام ١٩٦٥ ومطلع ١٩٦٦ كنتيجة مباشرة للموقف في الشمال ، ولكن جاءت بفعل احداث وقعت في الاقليم الغربي وبخاصة الشقاق بين الزعيمين السياسيين اوولوو Awolowo واكنتولا Akintola اذ اختلفا وانفصلا عمن بعضهما بسبب عوامل شخصية وصراعات عرقية الى حد ما . فقد نشأت بينهما علاقة دستورية معقدة منذ ان اصبح اوولوو بعد ١٩٥٩ زعيما للمعارضة في البرلمان الفيدرالي وقائدا لجماعة العمل ، بينما كان اكينتولا رئيسا لوزراء الاقليم الغربي ومرؤوسا لاوولوو في الحزب . وكان الخلاف الاساسي بينهما خلافا ايديولوجيا فبعد ان دعم اوولوو ركائز جماعة العمل في الاقليم الغربي سعى لكي تصبح حزبا قوميا ، وخاض في عام ١٩٥٩ الانتخابات الفيدرالية على اساس قضايا قبلية في اقليم الشرق غير التابع لشعب ابو وفي الحزام الاوسط ، كما خاضها على اساس قضايا طبقية في الامارات متحالفا مع الاتحاد التقدمي لشعب الشمال . وكشفت نتائج التصويت الخاصة بجماعة العمل في الدوائر الانتخابية الغنية عن تصدع في صفوف مجتمع الهاوسا . بيد ان اكينتولا حاول الابقاء على جماعة العمل كحزب اقليمي مستهدفا اخر الامر تشكيل ائتلاف قومي بين الاحزاب السائدة في كل اقليم .

ووقعت مشاجرة في برلمان ايبادان في يونيو ١٩٦٢ اعلنت الحكومة الفيدرالية على اثرها حالة الطوارىء وفرضت نظام الحكم الاداري لمدة ستة شهور . وابعدت كل الساسة مؤقتا . ولكن بعد ان استعاد اكينتولا مركزه وتولى السلطة ثانية معربا عن ولائه فيما يبدو لقيادة مؤتمر شعب الشمال ، اتهم اوولوو بالتامرللاطاحة بنظام الدولة مما احاطه بهالة من الاستشهاد . وخلفت هذه الاحداث يوروبا مقسمة وقد توزع ولاؤها بين زعيميها المتنافسين . وسعى اكينتولا بعد ان اصبح في السلطة الى كسب تأييد شعبه بالحديث عن الولاء العرقي ليوروبا . ولكن يبدو ان التأييد الشعبي له لم يتحقق ولم يزد الا يسيرا على مدى عامين من حكمه . وجرت اول انتخابات اقليمية بعد توليه منصب رئيس الوزراء في اكتوبر ١٩٦٥ . وتميزت المعركة الانتخابية بالعنف الشديد قبل يوم الاقتراع ، مما غلب الاعتقاد اثر انتصار حزبه بأن السلطة تلاعبت في نتائج الانتخابات . واستمرت احداث العنف ، وبدت واضحا انها غير قاصرة على عناصر الحزب . اذ انتشرت عصابات من الشباب المارق ينصب الكمائن عند تقاطعاتالطرق الرئيسية مما اكد الانهيار التام لسلطة الحكومة .

وأحد الاسباب الاخرى الكامنة وراء التوترات في نيجيريا هو خوف ارستقراطية الفولاني على تكامل ووحدة بنيتهم الاجتماعية التقليدية ، بالاضافة الى خوف الجنوبيين بالمقابل من سيطرة الفولاني وهو ما انعكس مرارا في الاتفاقات العرقية على نحو يمثل غلبة القيم في مجتمع قديم . ولكن الجنوبيين كانوا عاجزين عن توحيد قواهم بصورة فعالة لمقاومة تهديد الشماليين . اذ علىالرغم من ان احزابهم السياسية تضم نفس الاتجاهات الايديولوجية الا ان التنافس شديد بينهم ، وبخاصة بين ابناء نخبة يوروبا وابناء نخبة ابو .وسرعان ما اخفقت احتجاجات النخبة ضد كارثة الاحصاء السكاني وان خلفت بعض الاستياء العميق . وعم السخط بين الجماهير نتيجة فساد وقصورقادتهم السياسيين ، ولكن لم تحفزهم

اي قضية الى العمل . وطبيعي أن توتر الجو السياسي فاقم من حدة العنف الذي جاء ايضا كرد فعل على حالتي الفقر والبطالة . بيد أن هذا العنف اتجه عشوائيا ضد النخبة التي تعيش حياة رغد ووفرة (هذا على الرغم من الهجمات التي حدثت ايضا ضد مجتمعات الهاوسا في لاجوس ضد مدن ايجيبو) .

وبدا واضحا ان منظمي الانقلاب هم من الضباط الصغار . ومن المحتمل انهم خططوا لمواجهة أكنتولا ورئيس الوزراء الاتحادي مع اوولوو بهدف اجبارهم على تشكيل حكومة قومية . وادى قتل ساردوانا الى انقشاع التهديد الرئيس وهو احتمال قيام عمل مضاد . ولكن قواعد العملية كانت شديدة التعقيد . واستطاع جنزال ايروني Ironsi السيطرة على الموقف خلال بضع ساعات .

ولا يزال من غير الواضح اذا كان الضباط المتمردين ظنوا في انفسهم انهم يعملون اساسا باعتبارهم من ابناء ابو ـ على نحو ما كان اكثرهم ـ ام باعتبارهم راديكاليين . ولكن الجماعاتالعرقية الاخرى بدات تنظر الى الحكم العسكري خلال الشهور التالية كمحاولة من الابو للاستيلاء على السلطة وتم القبض على الضباط المتمردين ولكن دون توجيه اتهام ضدهم . واعتبر ضباط الجيش الشماليين المتمردين قتلة لزملائهم ، بينما اعتبرهم كثيرون من الجنوبيين ابطالا قوميين . والغريب ان موت ساردوانا لم يثر استياء كبيرا في الشمال ، مما يشير على الارجح الى امرين احدهما المعارضة المتزايدة لجنون العظمة عنده ، والثاني الانقسامات الدينية في مجتمع الهاوسا . ولكن الهاوسا استاؤوا من مظاهر الابتهاج التي ابداها الابو في الطرقات .

وعلى الرغم من انتماء ايرونسي الى الابو الا ان احدا لم ينظر اليه باعتباره نصيرا لجماعته العرقية . ولكن يبدو انه اعتمد كثيرا على مستشاريه من ابناء الابو خلال الحكم العسكري الذي امتد شهورا . وحاول آخرون من الابو استغلال العلاقات

العرقية لمصالحهم الخاصة . وبدا ن ترقية ضباط الجيش لشغل الاماكن الخالية نتيجة الانقلاب اثرت ابناء الابو . وسرعان ما بـدأ اعداد خطط تستهدف دعم الوحدة الادارية في نيجيريا ، فكـان لا بـد من الغاء الحكومة الاقليمية ، كما ظهر ان جانبا كبيرا من السلطـة المحلية مهدد بالاخطار . وظن الشماليون ان الابو سيستطيعون بذلك زيادة هيمنتهم على الشمال من خلال سيطرتهم على الوظائف المدنية الكبرى . وبدأ اليأس من جدوى الحكم العسكري يتزايـد شهرا بعد اخر ليس فقط لانه اخفق في اتخاذ اجراءات لرفع مستوى المعيشة ، بل وايضا لان البحث في نشاط المؤسسات العامة كشف عن أن الفساد لم يكن قاصرا على الساسة بـل اشتمل بالمثل كبـار موظفي الدولة . ولكن مخاوف الشماليين هي التي اشعلت شرارة مذابح مايو ضد الابو في مدن الشمال .

وفي اخر يوليو احتجز جماعة من صغار الضباط من اصـل شمالي الجنرال ايرونسي فـي ابادان ، واحتجـزوا معـه الحاكم العسكري للاقليم الغربي وقتلوا الاثنين . وقتل عديدون من الضباط والرجال من ابناء الابو في مواقعهم. وزعم الضبـاط الشماليون انهم اكتشفوا مؤامرة يحيكها ضباط راديكاليون شباب من ابناء الابو تستهدف عزل جنرال ايرونسي . وزعموا ايضا ان كل هدفهم هو احباط المؤامرة وتولي كولونيل جوان Gowan منصب الحاكم العسكري الجديد ، وهو ابن رجل دين مسيحـي وينتمى الى احدى الجماعات العرقية الصغيرة في هضبة جـوس Jos وادى هذا الانقلاب الى تعميق واظهـار الانقسامات العرقيـة داخل جيش نيجيريا . وتم ترحيل الفرق العسكرية من ابناء الابـو الى الشرق ، واتجهت النية الى ان تكون الفرق العسكرية في كـل اقليم من ابنائها المحليين قدر المستطاع . (ولكن نظرا لقلة عـدد ابناء يوروبا في صفوف الجيش فقد كان حتما وضع كتائب مـن الشماليين في ايبادان ولاجوس) . وادت الخسارة الجديدة في كبار الضباط واحلال ضباط اخرين محلهم الى ترقية عدد اخر وتجاوزهم لرؤسائهم .

ويبدو ان الابو كانوا غير واعين بالعداء العرقي الذي يكنـــه الاخرون ضدهم ، وجاءت مذابح مايو وانقلاب يوليو بمثابة صدمة عنيفة لهم . واخذوا في التراجع ، الى اقليمهم ، وبداوا يهـــددون بالانفصال وان الشرقيين لنيحتفظوا بعضويتهم في نيجيريا المتحدة ما لم يتم الانسحاب . والمعروف ان الانفصال من شأنه ان يعطـــي للشرق السيطرة الكاملة على عائدات النفط ، فيكون الشرق بذلـك اغنى من الغرب او الشمال . (على الرغم من دعاوي ابناء اجوه Ijoh وابيبيو Ibibio فيالاقليم الشرقي من ان النفط تنفجر فـــي اراضيهم ومن ثم جددوا مطالبتهم بتكوين دولة منفصلة) . وخــلال هذه الفترة التي شهدت توترا سياسيا حادا ورهيبا عمد كولونيـل جوان الى عقد مؤتمر يضم الساسة والوجهاء ممن لا تربطهم روابط وثيقة بالاحزاب التي كانت في السلطة حتى عهد قريب . (وكــــان اوولوو Awolowo عضوا بارزا في الوفد الغربي) . ولكن ما ان كادت الاجتماعات تنتهي ـــوقد حققت تقدما نحو المصالحة ـــحتى سادت شائعات عن قتل اعداء من ابناء الهاوسا في انيتشا Onitsha وميناء هاركور ما ادى الى وقوع مذابح أشد واعنف من مذابـــح الابو في الشمال . وقتل في هذه المذبح ما لا يقل عن عشرة آلاف نسمة وفر الباقون ، ويقدر عددهم بمئات الالاف ، وقد تركـــوا وراءهمممتلكاتهم وعادوا الى مسقط راسهم في الشرق . وعاد الى الشرق ايضا الكثيرون من كبار الموظفين من ابناء شعب الابـــو العاملين في لاجوس ، واساتذة الجامعة والطلاب في ابادان ، وشغلوا جميعا مراكز بديلة عوضا عن وظائفهم السابقة .

وحل عام ١٩٦٧ وكانت نيجيريا لا تزال من الناحية انشكلية كما هي لم تمس سوى الحديث عن العلاقات بين الاقاليم . وعقـــد الحكام العسكريون ومستشاريهم اجتماعا في مقر اقامة الرئيـس نكروما السابق في أبوري Aburi قرب اكرا ، وكشف هذا اللقـاء عن تحسن طفيف في العلاقة بين الشرق وبقية الاقاليم . ولكن الابو شعروا ان الحكومة العسكرية الفيدرالية لم تلب مطالبهم بشـأن

تعويضهم . وبعد عدة تهديدات متتالية انفصل الاقليم الشرقي وأطلق على نفسه اسم بيافرا . وشرعت الحكومة الفيدرالية في اتخاذ « اجراء بوليسي » يهدف استعادة وحدة نيجيريا : بيد أن هذا الاجراء تطور تدريجيا الى حرب مريرة حيث حشد كل طرف جيوشا لم يسبق لها مثيل من حيث عددها ، وسعى كل الى التماس السلاح والعون من القوى الخارجية . وتقدمت الجيوش الفيدرالية حثيثا الى داخل بلاد الابو ، ولكن اهل بيافرا اخذوا يرددون مع هذا التقدم أن الشماليين في الجيش يتبعون سياسة لابادة العامة مما ادى الى تفاقم العداوات العرقية داخل البلاد . وكشف المراقبون الاجانب أن هذه المزاعم لا اساس لها من لصحة .

ولا يزل من العسير تصور نوع الحل السياسي الذي يضمن لشعب الابو الامن والاستقلال ويحافظ في الوقت ذاته على تكامل نيجيريا . لقد ازالت الحكومة العسكرية الفيدرالية البنية الاقليمية للبلاد ، واحلت بدلا منها اثنى عشرة دويلة تتمتع كل منها بدرجة عالية من الاستقلال الذاتي . ويؤلف الاقليم الغربي ، وكله يوروبا تقريبا ، دويلة من هذه الدويلات . ولكن امارات الهاوسا ــ فولاني في الشمال قسمت بين ثلاث دويلات ، بينما تؤلف بورنو ومنطقتين من الحزام الاوسط القطاع الباقي من الاقليم الشمالي سابقا . وقسم الاقليم الشرقي الى ثلاث دويلات ، ولا يوجد تقريبا في اثنين منهم عناصر من شعب الابو . وساد اعتقاد بأن هذا الاجراء قضى على سيطرة الاقليم الشمالي . ويتمتع سكان الحزام الاوسط بمكانة سياسية عالية . ولعل ارستقراطية الفولاني الحاكمة في دويلات الهاوسا ــ فولاني تأمل في استعادة مكانتها المتميزة ، الا أن السيطرة الفيدرالية المتزايدة على اجهزة الشرطة والمحاكم من شأنها ان تسحب من الامراء سلطاتهم السابقة التي كانت تمكنهم من البطش .

غانـــا :

أنهى انقلاب غانا مرحلة طويلة ارتكز خلالها حكم نكروما على العنف والقهر .ولكن يبدو أنه لا يوجد حدث متميز ، ما خلا غياب

نكروما ،أدى إلى الاسرع بالانقلاب العسكري . هذ على الرغم من ان الوضع الاقتصادي كان ينذر بوقوع انفجارات عنيفة . ففي أواخر الخمسينات واوائل الستينيات انفقت غانا كل مدخراتها من الاسترليني التي ادخرتها من أرباحها العالية التي ربحتها من الكاكاو سابقا . وضاع القسط الاكبر من هذه النفقات على البناء التحتي اللازم للاقتصاد الحديث ، ولكن انفقت بعضه ايضا على مباني فخمة مترفة وصناعات خاسرة . وكانت غانا تدفع ثمن تنميتها من القروض الخارجية حتى اضحت سياسة الاقتراض قاعدة من قواعد انفاق الدولة . ولكن انهيار اسعار الكاكاو ادى الى خفض عائدات الحكومة ، حتى اوشكت البلاد على الافلاس . وبات متوقعا ان تفرض الحكومة ميزانية تقشف وذلك بأن تتجه الى فرض ضرائب عالية او ادخار اجباري هذا علاوة على الارتفاع المستمر والسريع لتكاليف المعيشة في المدن الكبرى . ولكن ابناء النخبة من الساسة استمروا في حياة البذخ والاسراف دون رقيب او حسيب على الرغم من النداءات المتكررة بين حين واخر بضرورة الالتزام بتقشف حقيقي .

ويبدو هنا أن الانقلاب كان من تدبير كبار ضباط الجيش والشرطة دون معارضة من الداخل فيما عدا قوات الحرس الجمهوري في مقر الرئاسة الرسمي .

الفولتا العليا :

افضت الازمة الاقتصادية الى الانقلاب الذي وقع في أواجا دوجو Ouaga Dougou فقد اقرت الدولة ميزانية تقشف في عام ١٩٦٣ دون ان تواجه معارضة ، ولكنها في عام ١٩٦٥ خفضت رواتب كل العاملين المدنيين بنسبة عشرين بالمائة كما خفضت علاوات الحالة الاجتماعية . وقابل الناس هذه الاجراءات بسخط وعداء شديدين على الرغم من أن هذه الخصومات ذاتها طبقت على رواتب رئيس الجمهورية والوزراء . والمعروف أن المعارضة للحكومة في هذه الدولة التي تعتمد على نظام الحزب الواحد قد نشأت بين صفوف

النقابات التي يعمل اعضاؤها جميعا على وجه التقريب في الخدمات المدنية . وكان الزعيم النقابي أويدراجو Ouedrago يعمل قبل ذلك عمدة لمدينة اواجا دوجو ، وكان ايضا خصما سياسيا للرئيس ياميوجو Yameogo منذ الاستقلال . وواجه رئيس الجمهورية التهديد بالاضراب بأن اعلن حالة الطوارىء وان الاضراب عمل غير مشروع . الا أن العمال احتشدوا في الشوارع واصطدموا بالشرطة ، وتوجهوا في مسيرة واحدة نحو القصر الجمهوري مطالبين الجيش بالاستيلاء على السلطة . ثم اتجهت المسيرة الى رئاسة اركان الجيش حيث حصل ممثلوهم على موافقة قائد الجيش بأن يتولى سلطة رئاسة الدولة ــ وهو القرار ، الذي يقال ، انالرئيس رحب به .

سيراليــــون :

انتهت انتخابات مارس ١٩٦٧ بنتائج متماثلة جدا لكل من حزب الشعب بزعامة البرث مارجاي وحزب مؤتمر كل الشعب بزعامة سياكا ستفنس . وحين دعا حاكم البلاد زعيم حزب مؤتمر الشعب الى تأليف الحكومة قام بريجادير لانسانا بالاستيلاء على السلطة . ولكن سرعان ما اقيل هو الاخر بانقلاب مضاد قام به بريجادير جكسون سميث . وبدا أن الانقلاب محاولة تستهدف دعم اقدام مارجاي في السلطة . وانعقدت لجنة قضائية فيما بعد وقررت أن حزب ستفنس هو الذي فاز حقا في الانتخابات ولكن الحكام العسكريين احجموا عن أن يعهدوا بالسلطة الى حكومة مدنية . وفي ابريل ١٩٦٨ تمردت جماعة من صغار الضباط وسجنوا معظم ضباط الجيش والشرطة واعلنوا انهم يمثلون الحركة الثورية ضد الفساد ، ثم نصبوا سياكا ستفنس رئيسا للحكومة . ويبدو أن الحكومة العسكرية لم تحظ بترحيب الجماهير بسبب عجزها الواضح عن مواجهة مشكلات البلاد الاقتصادية والاجتماعية والاحساس بأن كبار ضباط الجيش يتمتعون ببذخ السلطة وترفها شأنهم شأن الساسة الفاسدين . وحين نصب العسكريون ستفنس رئيسا للوزراء فان ذلك لم يكن منهم مجرد اعتراف بنجاحه في الانتخابات التي جرت

منذ عام مضى ، بل ورغبة منهم في ان يعهدوا بالسلطة الى حزب يستمد قوته من عمال المدن ويعكس مصالحهم .ولقد كان حزب الشعب على النقيض حزبا تقليديا يدعمه الشيوخ والكريوليون .

نتائج الانقلابات : ـ

لاقت الانقلابات العسكرية ترحيبا شعبيا . ففي غانا احتفلت جماهير غفيرة في الشوارع بنفس درجة الحماس الذي ابدته في مظاهرات حزب المؤتمر قبل ذلك ببضع سنوات . وتوقف العنف مباشرة في نيجيريا الغربية ـ ويرجع ذلك جزئيا الى تحذيرات الجيش من انه سيطلق النار فورا على كل من يخل بالامن والنظام . وكان الفساد السياسي هو المشجب الذي علق عليه الانقلابيون مظاهر القصور القومي ، وزجوا بكبار السياسيين في المعتقلات وفرضوا على البعض الاخر الاقامة الجبرية في قراهم بالريف . وابعدوا كل السياسيين المعينين من مجال المؤسسات العامة ومجالس الحكم المحلي والمحاكم . واعتمدت المجالس العسكرية في اتخاذ قراراتها على مشورة كبار الموظفين المدنيين ـ وبذلك اعادوا من جديد طرازا استعماريا للادارة . ورحبت النخبة بالنظم الجديدة ، واضحت الممتلكات في مأمن اي هجوم كما اصبحت القرارات السياسية ترتكز اكثر واكثر على منطق اداري او اقتصادي بدلا من منطق المنفعة السياسية .

والشيء المؤكد ان الانقلابات خففت الى حين من مستوى التوتر في البلاد التي وقعت فيها . ولكن لا نزال بحاجة الى ان نرى ما اذا كانت الحكومات العسكرية ، ستجري تغيرات،اساسية في بنية مجتمعاتها . ففي دولة فولتا العليا أصدر النظام الجديد قرارا بالغاء نسبة العشرين بالمائة التي تقرر خصمها من الرواتب . ولكن السلطات العسكرية في غانا أو في نيجيريا لم تتخذ اي قرار سواء للحد من امتيازات النخبة أو لفرض اعباء جديدةعلى الجماهير وفق برنامج شامل للتضحية من أجل التنمية القومية . ويبدو أن القادة

العسكريين يتصورون حكمهم كعملية سيطرة الى حين تشكيل حكومة منتخبة ، على الرغم من ان هذا الامر يصبح اجراء عسيرا بعد حظر كل مظاهر النشاط السياسي ـ سواء نشاط الاحزاب التي كانت في السلطة من قبل او معارضيها .

ويمكن القول بوجه عام أن الانقلابات العسكريةدعمت وضع النخبة ذات الثقافة الغربية في مجتمعات غرب افريقيا ، بأن درأت عن النظم الحاكمةمخاطر الانهيار التام بسبب قصوررجال السياسة ولكن لا تزال الصراعات الكامنة في هذه المجتمعات تتطلب اتخاذ قرارات قد لا تكون موضع ترحيب سواء من النخبة أو من الجماهير . ولقد دابت الجماعات المتنافسة على دراسة البيانات العسكرية لتشتم فيها اي بادرة تثبت انحيازها . ففي نيجيريا سرعان ما زعم البعض أن النظام الجديد يؤثر الابو ، نظرا لان القادة البارزين فيه من هذه الجماعة العرقية . وسرت شائعات في غانا مفادها ان الانقلاب دبرته قوى صاحبة مصلحة في السباق العرقي ـ وقالت ان الحكام العسكريين يمثلون النخبة المهنية القديمة الرافضة لاي تحولات اجتماعية جذرية .

ولقد كانت داهومي اول بلد في غرب افريقيا يشهدانقلابا عسكريا . ويمكن القول ، باستثناء الامثلة التي اسلفناها وكذلك باستثناء توجو ومالي ، ان الدول الاخرى تنعم بحكم مستقر ويحكمها زعما منتخبون (حتى فبراير ١٩٦٩) . بيد أن هذا لا ينفى وجود الصراعات سالفة الذكر في كل منها . واذا كان الامر لم يصل بعد الى حالة من عدم الاستقرار السياسي الشديد فذلك مرده الى عدد من العوامل . فالبلاد الغنية مثل ساحل العاج اقدر على الوفاء بمتطلبات شعوبها . اما البلاد الفقيرة جدا التي عجزت ، او عزفت عن ، زيادة امكانياتها التعليمية ، فقد اجتنبت مشكلة خريجي المدارس العاطلين الذين يزحفون الى المدن تحدوهم تطلعات وامال غير واقعية . ونجد في بعض الدول ان النشاط السياسي على مستوى القرية يعطي الجماهير احساسا بالمشاركة في الحكم وهو

ما تفتقر اليه الدول الاخرى . ويعيش الساسة في بعض الدول حياة البذخ بابشع صوره بينما يؤثر اخرون في بعض الدول حياة البساطة . ولعل الصراع يبلغ اقصى حدته في الدول الغنية التي حققت اوسع الخطوات بالقياس الى غيرها في عملية التحديث . ان الازمات تقع حين تصبح الوسائل الوسيطة لحسم الصراعات والتوترات ليست كفوءا للمهام المنوطة بها .





ملحـــق*

الملاحظات التالية هى بيانات مقارنة وموجزة عن الدول التي تعرضنا لها في كتابنا هذا. وأكثر هذه الاحصائيات مأخوذة عن «كتاب الاحصاء السنوى» للأمم المتحدة لعام ١٩٦٤. وأخذنا الأرقام الخاصة بتعداد سكان بعض المدن من الكتاب السنوى لرجل الدولة الصادر عام ١٩٦٥ - ١٩٦٦ (Statesman's Year-Book, 1965 - 1966)

وأرقام الأجور من كتاب «الموجز عن افريقيا « تأليف جوند ورزنيك U.I. Jund & I.N. Resnicki Handbook of Africa

ومرجعنا بالنسبة لأرقام الانتاج كتاب التقديرات الاجمالي للانتاج القومى Estimates of Gross National Product Africa Report) الذى أعدته وكالة التنمية الدولية في ابريل ١٩٦٣ وصدر في أغسطس ١٩٦٣ . وتتضمن ملاحظاتنا عن الحكومات والأحزاب السياسية وزعمائها خلاصة موجزة جدا عن المواقف المعقدة.

---

* نظرا لأن بعض البيانات الواردة في الملحق قد تغيرت فقد رأينا اضافة هامش يتضمن الجديد من البيانات البديلة. ولم نشأ تعديل الملحق، وانما آثرنا اثبات بياناته كما هي فقد يكون في ذلك نفع لمن شاء عقد مقارنة. ومرجعنا فيما اثبتناه من بيانات كتابي:

Statesman's Year Book 1975 - 1976
Information Please Almanac - 1975



داهومى *

المساحة : ٤٤٠٠٠ ميل مربع

السكان : ٢ ر٢ مليـــون

المـدن الرئـيسية : بورتو نوفو العاصمة (٥٨٠٠٠) كوتونو (٨٦٠٠٠) أبومى (١٩٠٠٠)

الجماعات العرقية الرئيسية : فون ٤١ ٪ ، أدجا ١٣ ٪ يوروبا ٩ ٪ بار يبا ٪

الاقتصاد : اجمالى الانتاج القومى ٢٨ مليون جـ استرليني (١٤ جـ استرليني للفرد) الصادرات ٦ر٤ مليون جـ استرليني (١ر٢ جـ استرليني للفرد) الكهرباء ٦ر٩ مليون ك . و . (٣ ر٤ ك . و . للفرد)

---

* جمهورية بنين الشعبية وكانت تعرف سابقا باسم داهومي.
الرئيس ــ ماتيو كيريكو (١٩٧٢)
السكان (١٩٧٧) ٣٢٩٠٠٠٠
العاصمة ــ بورتو نوفو ٠٠٠ر١٠٠ نسمة
الوحدة النقدية ــ فرنك
اللغات الفرنسية ولغات افريقية
الديانات وثنية ومسيحية واسلام

الاقتـصاد ــ اهم المنتجات زيت النخيل وتنتج ايضا حاصلات زراعية. واهم الصادرات زيت النخيل ٣١٪ كاكاو ٢٤٪ ــ قطن ١٩٪

التاريخ: «علاوة على ماورد في الملحق»

تم تغيير اسم الدولة من داهومي الى بنين في ٣٠ نوفمبر ١٩٧٥ بقرار من رئيس الجمهورية ماتيو كيريكو. وأعلن أيضا تشكيل تنظيم سياسي جديد باسم ثورة بنين الشعبية اعلانا عن ميلاد مجتمع جديد يؤمن بالماركسية اللينينية.

استولت مجموعة من الضباط الشباب على السلطة في ديسمبر ١٩٦٧ وعزلت سوجولو. وفي ٦٩/١٢/١٠ تولت السلطة لجنة ثلاثية. وفي ١٩٧٢/١٠/٢٦. استولى كيريكو على السلطة.

الخدمات الاجتماعية : تلاميذ المدارس الابتدائية ٦٫٣٠٠ (٢٩٠٠ من كل
العمالة ٢٢٠٠٠ (١٠ من كل ١٠٠٠ من السكان) .
مليون من السكان).
الأطباء ٨٥ (٣٩ لكل مليون مواطن) .
توزيع الصحف ٣٠٠٠ (١٤٠٠ لكل مليون مواطن).
الحكم : كانت داهومي مستعمرة فرنسية ثم اقترعت على الأنضمام الى الاتحاد الفرنسي عام ١٩٥٨ وحصلت على الاستقلال عام ١٩٦٠ . خضعت سياسة داهومي للأحزاب التالية : حزب هوبرت ماجا - و يعتمد على تأييد القطاعات الشمالية للدولة ، وحزب س . م . أبيثي (**A pithy**) و يناصره بوجه خاص الكاثوليكيون فى الجنوب، وحزب جوستين أهومادبجي (**Ahomodegbe**) و يؤيده عمال المدن. وقد غيرت هذه الأحزاب اسماءها وتحالفت أحيانا وانشقت أحيانا أخرى بطريقة مشوشة. وحصل حزب أبيثي على أغلبية مقاعد الجمعية الاقليمية فى انتخابات ١٩٥٧. وتحالف أبيثي وماجا فى تشكيل حزب داهومي الاتحادى عام ١٩٦٠، وفاز هذا الحزب بكل المقاعد فى الانتخابات التالية. وتولى ماجا رئاسة الجمهورية وشغل أبيثي منصب نائب الرئيس . وأصدرت الحكومة فى عام ١٩٦١ قرارا بحل حزب أهومادبجبى بعد فترة وجيزة من الدخول فى حكومة ماجا الائتلافية. ولكن أهوما ديجبى انضم الى ماجا وأبيثي وشكلوا معا حزبا قوميا عام ١٩٦٣ بعد عملية تدخل عسكرى. وسيطر الجيش بعد ذلك سيطرة كاملة على الحكم، بعد أن تكرر فشل رجال السياسة فى تشكيل ائتلاف قوى. وأجريت عام ١٩٦٧ انتخابات جديدة لتشكيل حكومة مدنية .

جامبيا : *

المساحة : ٤٠٠٠ م ٢

السكان : ٣٢٠٠٠٠ نسمة

المدن الرئيسية : بانجول العاصمة

الجماعات العرقية الرئيسية : ماندينجو (٣٣ ٪)، فولانى (١٦ ٪) وولوف (١٠ ٪)

الاقتصاد : لايوجد رقم يحدد الدخل القومى .

الصادرات ٣٫٢ مليون جنيه استرلينى (١٠ جنيهات لكل فرد).

الكهرباء ٤ ر٧ مليون ك . و . س . (٢٣ ك . و . س للفرد).

العمال المأجورة ٦٫٠٠٠ (١٨ من كل ألف من السكان).

الخدمات المدنية : تلاميذ المدارس بعد الابتدائية ٩٠٠ ر ٢ (٧٠٠ ر ٨ من كل مليون من السكان).

الأطباء ١٧ (٥١ لكل مليون)

توزيع الصحف ١٥٠٠ (٤٥٠٠ لكل مليون).

---

* الرئيس ــ سير داودا جاورا (١٩٧٠)
السكان ــ (١٩٧٧) ٥٥٥٫٠٠٠
العاصمة ــ بانجول ٤٢٤٠٠
الوحدة النقدية ــ دالازي
الديانات ــ الاسلام ــ المسيحية ــ الوثنية.
التاريخ ــ أصبحت جامبيا جمهورية ضمن اطار الكومنولث في ١٩٧٠/٤/٢٤.
توافد عليها التجار والشركات الانجليزية خلال القرن ١٧ وتاجروا بالعبيد حتى الغائه.
حصلت على الاستقلال الكامل في ١٩٦٥/٢/١٨ وفي ابريل ١٩٧٠ اجرى استفتاء عام اعلنت بناء عليه جامبيا جمهورية.
الاحزاب السياسية ــ الحزب التقدمي وله ٢٨ مقعدا في مجلس النواب (من ٣٢ مقعدا) وزعيمه الرئيس جاوارا. والحزب الاتحادي بزعامة نجبي وله ثلاث مقاعد.

الحكم : تعتبر جامبيا أقدم مستعمرة بريطانية في غرب افريقيا، وحصلت على الحكم الذاتى عام ١٩٦٣.

أسس بيير نجى (Pierre N'gie) الحزب المتحد عام ١٩٥٧ و يستمد الحزب قوته الاساسية من الكاثوليكيين فى مدينة باثورست و بقية المستعمرة وحصل الحزب على أغلبية المقاعد فى انتخابات ١٩٦٠. وأسس حزب الشعب التقدمى عام ١٩٥١ زعيم عمالى فى المحمية ثم انتقلت السيادة الى دافيد جاراوا. وفاز هذا الحزب بكل مقاعد المحمية فى انتخابات ١٩٦٠. وتولى نجى منصب الوزير المسئول عام ١٩٦١، ثم تولى جوارا منصب رئيس الوزراء عام ١٩٦٣.

***

غانا : *

المساحة : ٩٢٠٠٠ ميل مربع

السكان : ٣ ر ٧ مليون

المدن الرئيسية : أكرا (العاصمة ٣٣٧،٠٠٠ نسمة) كومازى (١٩٠،٠٠٠) ، سيكوندي ـ تاكورادى (٧٦٠٠٠)، تامالى (٤٠٠٠٠)

---

* رئيس الدولة جنرال اجنانيوس كونو اكيا ميونج (١٩٧٢)

السكان ١٠٦٠٠٠٠٠ (١٩٧٧)

العاصمة أكرا ٧١٦،٦٠٠ نسمة

الوحدة النقدية سيدي

اللغات المحلية توى ، فانتي ، جا، ايوا، داجباني

الديانات مسيحيون ٤٣٪ مسلمون ١٢ ٪ ديانات وثنية ٣٨٪

الاقتصاد الكاكاو السلعة الأساسية وتعتبر غانا الأولى في العالم
زيت النخيل والكولا والبن والمطاط والأخشاب
الصادرات عام ١٩٧٤/ ٥٤٪ كاكاو ١٢٪ اخشاب
المعادن أهمها الذهب ـ الماس ـ خام المنجنيز ـ البوكسايت.

التاريخ في فبراير ١٩٦٦ قاد امانويل كوتوكا انقلابا عسكريا ضد نكروما واطاح بنظامه وقتل كوتوكا في ابريل ١٩٧٦ أثناء محاولة انقلابية ضده

الجماعات العرقية الرئيسية : أكان ، ايوى ، جا

الاقتصاد : الدخل القومى ٤٩٠ مليون جنية استرليني (٧١ حـ لكل فرد)

الصادرات ٩٧ مليون حـ استرليني (١٣ جـ لكل فرد الكهرباء ٤٧٠ ك . و . س (٦٤ ك . و . س للفرد) العمالة المأجورة ٢٥٣٠٠٠ (٣٥ من كل ألف من السكان).

الخدمات : التلاميذ المقيدون بالمدراس بعد الابتدائية ١٨٠٠٠٠ (٢٥٠٠٠ من كل مليون) الأطباء ٣١٥ (٤٣ لكل مليون)

توزيع الصحف ٢٠١٫٠٠٠ (٢٧٠٠٠ لكل مليون)

الحكم : كانت غانا مستعمرة ومحمية بريطانية باسم ساحل الذهب واستقلت عامعام ١٩٥٧ وتغير اسمها الى غانا ، واعلنت جمهورية عام ١٩٦٠.

أسس كوامى نكروما حزب المؤتمر عام ١٩٤٩. وشغل قبل ذلك بسنتين منصب السكرتير العام لمؤتمر ساحل الذهب المتحد. وكان حزب المؤتمر هو الفائز دائما فى الانتخابات العامة ابتدأ من عام ١٩٥١ وهى السنة التى تولى فيها نكروما زعامة الحكم ، ثم رئيسا للوزراء عام ١٩٥٢. وبدأت المعارضة أول الأمر من مؤتمر ساحل الذهب المتحد ثم من عديد من الأحزاب الصغيرة مثل حزب شعب الشمال وحركة التحرر الوطنى وقد تحالفا عام ١٩٥٧ لتشكيل الحزب المتحد.

وفى فبراير ١٩٦٦ وقع انقلاب عسكرى أطاح بحكم حزب المؤتمر.

ووقع انقلاب عسكري في يناير ١٩٧٢ واعلن القائد الجديد نفسه رئيسا للدولة (١٩٧٢ ــ ١٩٧٣)

التعليم

٥٤٢١ طالبا بالجامعات والمعاهد العليا — ٢٥٩٩ معاهد تعليم الكبار

٤٤٦٦٩٥ بالمدارس المتوسطة — أكثر من مليون بالابتدائي

وقع في ١٩٧٩/٦/٤ انقلاب بقيادة كابتن طيار دولنجر. وتولى السلطة مجلس قيادة ثورة يضم عددا من صغار الضباط. وتم اعدام الرئيس السابق في منتصف يونيو ١٩٧٩.

غينيا : *

المساحة : ٩٦٠٠٠ ميل مربع السكان : ٣٫٤ مليون

المدن الرئيسية : كوناكرى (العاصمة ١١٢٠٠٠)، كانكان (٢٥٠٠٠)، كنديا (٢٥٠٠٠).

الجماعات العرقية الكبرى : ماندى (وتضم مالينكى، وصوصو) (٤٨٪) فولانى (٢٩٪)

الاقتصاد : الدخل القومى ٢٦ مليون جـ استرلينى (٢١ جنيها للفرد)

الصادرات ١٩٫٥ مليون جـ استرلينى (٥٫٧ جـ للفرد) الكهرباء ١٤٧ مليون ك. و. س (٤٢ ك. و. س للفرد) العمالة ١٠٩٠٠٠

الخدمات : تلاميذ ما بعد الابتدائية ١٣٠٠٠ (٣٨٠٠ من كل مليون)

الأطباء ١٥٤ (٤٥ لكل مليون)

توزيع الصحف ٢٥٠٠ (٧٤٠ لكل مليون).

الحكم : استقلت غينيا عن الاستعمار الفرنسى عام ١٩٥٨ بعد أن جاءت نتيجة الاقتراع رفض شعب غينيا الانضمام الى الاتحاد الفرنسى. تولى سيكوتورى رئاسة الوزراء عام ١٩٥٨ ثم رئيسا للجمهورية عام ١٩٦١. وكان يتولى زعامة الحزب الديمقراطى الغينى منذ عام ١٩٥٢ وهو الحزب الذى أسسه عام ١٩٤٦ ماديبراكيتا (وهو الآن وزير الداخلية فى مالى). وسبق انتخاب سيكوتورى نائبا فى الجمعية الفرنسية عام ١٩٥٦.

---

* رئيس الدولة ــ أحمد سيكوتوري

السكان ــ (١٩٧٧) ٤٦٥٤٠٠٠ العاصمة ــ كوناكري ٤١٢٫٠٠٠ نسمة

الوحدة النقدية ــ سيلي

اللغات ــ الفرنسية لغة رسمية بالاضافة الى اللغات المحلية وأهمها مالينكي ــ سومو ــ فولاني)

الديانات ــ الاغلبية مسلمون.

الأحزاب ــ الحزب الديمقراطي الغيني بزعامة سيكوتوري.

الاقتصاد ــ غنية بمعدن البوكسيت وتملك احتياطي ضخم من الطاقة الهيدروليكية

ساحل العاج *

المساحة : ١٢٨٠٠٠ ميل مربع

السكان : ٧ ر٣ مليون نسمة

المدن الرئيسية : أبيدجان (العاصمة ١٨٠٠٠٠) بوواكى (٧٠٠٠٠).

الجماعات العرقية الكبرى : أجنى ، كرو ، ماندى ، باولى ، دان .

الاقتصاد : الدخل القومى ٢٢٠ مليون استرلينى (٦٦ حـ للفرد).

الصادرات ٨٢ مليون استرلينى (٢٢ حـ للفرد)

الكهرباء ١٥٩ مليون ك . و . س (٤٣ ك. و. س للفرد) العمالة ١٧١٠٠٠ (٤٦ من كل مليون)

الخدمات : تلاميذ ما بعد المرحلة الابتدائية ١٤٠٠٠ (٣٨٠٠ من كل مليون)

الأطباء ١٢٣ (٣٣ لكل مليون)

توزيع الصحف ٤٠٠٠ (١١٠٠ لكل مليون)

الحكم : استقلت مستعمرة ساحل العاج عن فرنسا عام ١٩٦٠، وصوت شعبها في استفتاء ١٩٥٨ لجانب البقاء فى الاتحاد الفرنسى. أسس فليكس هوفريوانيه عام ١٩٤٦ الحزب الديمقراطى لساحل العاج. وفاز فى انتخابات ١٩٤٦ بعضوية الجمعية الفرنسية وتولى مناصب فى مجلس الوزراء الفرنسى طوال الفترة من ١٩٥٦ - ١٩٥٩ وفاز الحزب الديمقراطى لساحل العاج بكل مقاعد الجمعية المحلية فى انتخابات ١٩٥٧، وتولى أوجست دنيس منصب نائب الرئيس ثم رئيسا للوزراء بعد ذلك. وعاد هوفوبوانيه من فرنسا عام ١٩٥٩ ليتولى قيادة الحزب والحكومة، ثم رئيسا للجمهورية عام ١٩٦٠.

* السكان ٥٠٠٠٠ر١٤٠ر٥ (١٩٧٧) العاصمة ابيدجان (نصف مليون)

الوحدة النقدية فرنك

الديانات وثنيون ٦٥٪ مسلمون ٢٣٪ مسيحيون ١٢٪

الاقتصاد قمح ــ بطاطا ــ كاسافا بن ــ كاكاو

أهم الصادرات ١٩٧٥ بن ٢٤٪، كاكاو ١٩٪ أخشاب ١٤٪ ــ منتجات بترولية ٦٪

ليبيريا *

المساحة : ٤٣٠٠٠ ميل مربع

السكان : ١ مليون (يتفاوت التقدير ما بين ٧٥٠ ألفا و ٢٫٥ مليون)

العاصمة : مونروفيا (٨٠٠٠٠)

الجماعات العرقية الكبرى : ماندنجو، جيسي، جولا، كبيلي، كرو، جربيوس.

الاقتصاد : الدخل القومى ٥٧ مليون استرلينيى (٥٧ جنيها للفرد)

الصادرات ٢٩ مليون (٢٩ جنيها للفرد)

الكهرباء ٨٤ مليون ك . و . س (٨٤ ك . و . س للفرد)

العمالة (لا توجد بيانات)

---

* رئيس الدولة : وليام د. تولبرت (١٩٧١)
السكان : (١٩٧٧) ١٫٧٩٠٫٠٠٠ نسمة.
العاصمة : مونروفيا (١٨٠٫٠٠٠)
الوحدة النقدية: دولار ليبيري
اللغات : الانجليزية لغة رسمية
ولغات محلية
الديانات : البروتستانتية دين رسمي،
مسلمون، كاثوليك، ديانات قبلية
الاقتصاد : أهم الصادرات خام الحديد ٧٥٪ ، المطاط ١٢٪، ماس ٥٪.
التعليم
مدارس عامة حكومية ومدارس ارساليات تبشيرية تعينها الحكومة ومدارس خاصة ومدارس قبلية تنفق عليها القبائل. تقدر عدد التلاميذ عام ١٩٧٣ بحوالي ١٧٢٫٦٣٠ تلميذا
الحكم:
مماثل لنظام الولايات المتحدة الامريكية. توفى وليام توبمان في يوليو ١٩٧١ اثر عملية جراحية وتولى رئاسة الدولة خلفا له نائبه وليام تولبرت.

الخدمات : تلاميذ ما بعد المرحلة الابتدائية ٣٧٠٠ (٣٧٠٠ من كل مليون)
الأطباء ٨٠ (٨٠ لكل مليون)
توزيع الصحف ٣٠٠٠ (٣٠٠٠ لكل مليون)
الحكم : أصبحت ليبيريا دولة مستقلة منذ ١٨٤٧ واستمر حزب الاصلاح (الويج) الحقيقى فى تشكيل الحكومة ابتداء من عام ١٨٦٠ باستثناء سبع سنوات من ١٨٧١ - ١٨٧٧ تولى خلالها الحزب الجمهورى الحكم. وانتخب وليام ف . س . توبمان لأول مرة رئيسا للجمهورية عام ١٩٤٣.

***

مالي *

المساحة : ٤٦٥٠٠٠ ميل مربع
السكان : ٤ ر٤ مليون
المدن الرئيسية : باماكو (العاصمة ١٢٠٠٠٠)، كابيس (٢٨٠٠٠)، سيجو (١٩٠٠٠).

---

* رئيس الدولة كولونيل موسى تروري
السكان (١٩٧٧) ٥٫٩٨٠٫٠٠٠
العاصمة باماكو ٢٤٣٫٠٠٠
الوحدة النقدية الفرنك المالي
الديانات مسلمون ٦٥٪ وثنيون ٣٠٪ مسيحيون وآخرون ٥٪
التعليم (٦٦/٦٧) ١٧٥٥٣٨ بالابتدائي
٢٧٤٠ بالثانوي ــ ٣٠٢٦ بالفني
الاقتصاد
ارزــ قطن ــ فول سوداني ــ أهم الصادرات (١٩٧٤) قطن ٣٦٪ فول سوداني ١٠٪.
الحكم
شكل انقلاب ١٩٦٨ حكومة مؤقتة تم وقعت محاولة انقلاب فاشلة في أواخر ١٩٦٩ تولى على اثرها موسى تروري رئاسة الدولة باعتباره رئيس اللجنة العسكرية للتحرر الوطني.

الجماعات العرقية الكبرى : بامبارا (٢٣ ٪)، فولانى (١٢٪)، سونغى (٥ ٪) طوارق .

الاقتصاد : الدخل القومى ٢٨ مليون استرلينى (٢١ جنيها للفرد)

الصادرات ٤ مليون استرلينى (٩ر٠ جنيها للفرد).

الكهرباء ٢١ مليون ك . و . س (٥ ك . و . س للفرد)

العمالة ٤٢٠٠٠ (٩٥٠٠ من كل مليون).

الخدمات :تلاميذ مابعد المرحلة الابتدائية ٤١٠٠ (٩٠٠ من كل مليون)

الأطباء ١١٠ (٢٥ لكل مليون).

توزيع الصحف ٢٠٠٠ (٤٥٠ لكل مليون)

الحكم : صوت شعب السودان الغربى فى استفتاء ١٩٥٨ الى جانب البقاء فى الاتحاد الفرنسى . وفى يناير ١٩٥٩ انضم السودانى الغربى فى اتحاد فيدرالى مع السنغال لتشكيل دولة مالى وحصل الاتحاد الجديد على الاستقلال فى يونيو ١٩٦٠. ولكن انفصلت الدولتان ثانية فى أغسطس من نفس العام واحتفظ السودان الغربى باسم مالى . وتأسس الاتحاد السودانى (Union Soudanese) عام ١٩٤٦ على يد ماما دو كوناتى الذى توفى عام ١٩٥٦ بعد أن كان عضوا بالجمعية الفرنسية. وانتقلت زعامة الحزب الى موديبو كيتا الذى انتخب هو الآخر عام ١٩٥٧ لعضوية المجلس المحلى، ثم أصبح كيتا رئيسا للوزراء . وفاز الحزب بكل المقاعد فى انتخابات ١٩٥٩، واندمجت معه كل أحزاب المعارضة الصغيرة لتشكيل حزب واحد للبلاد. ووقع انقلاب عسكرى فى نوفمبر ١٩٦٨ أطاح بحكومة كيتا.

* * *

موريتانيا *

المساحة : ٤١٩٠٠٠ ميل مربع
السكان : ٧٧٠٠٠٠ نسمة
المدن الرئيسية : نوا كشوط (العاصمة ـ لايوجد بيانات عن تعداد سكانها) .
كايدى (٨٠٠٠).
الجماعة العرقية الاساسية : مورس (٨٢ ٪)
الاقتصاد : الدخل القومى (لابيانات)
الصادرات ٤ مليون استرلينى (٥ جنيهات للفرد)الكهرباء (لابيانات).
العمالة ٤٨٠٠ (٦ر٢ من كل ألف)
الخدمات : تلاميذ ما بعد المرحلة الابتدائية ٩٠٠ (١٢٠٠ من كل مليون).
الأطباء ٢٦ (٣٤ لكل مليون).
الصحف (لابيانات)

---

* رئيس الدولة ولد سالك
السكان (١٩٧٧) ١٫٣٨٠٫٠٠٠
العاصمة نواكشوط ١٠٣٫٥٠٠ نسمة
الوحدة النقدية اوجويا
اللغات العربية ــ الفرنسية
الديانة مسلمون
التعليم (١٩٧٢) ٣١٩٤٥ تلميذا بالابتدائ ٣٧٤٥ بالثانوي.
الحكم:
وقع في ١٩٧٨ انقلابا عسكريا اطاح بالرئيس مختارولد داده.
قدم الرئيس مصطفى ولد سالك في ٧٩/٦/٣ استقالته الى اللجنة العسكرية للخلاص الوطني وانتخبت اللجنة خلفا له المقدم محمد ولد أحمد.

الحكم : حصلت جمهورية موريتانيا الاسلامية على الاستقلال عام ١٩٦٠ بعد أن كانت اقليما من اقاليم غرب افريقيا الفرنسية حتى عام ١٩٥٨ ثم عضوا بالاتحاد الفرنسى. وتأسس حزب التجمع الموريتانى عام ١٩٤٧ (تحت اسم الاتحاد التقدمى الموريتانى). وكانت تؤيده الادارة الفرنسية والنخبة الموريتانية التقليدية. وفاز الحزب فى انتخابات عام ١٩٥٧ للجمعية الاقليمية وأصبح مختار ولد داده رئيسا للوزراء، (وأطاح به انقلاب عسكرى عام ١٩٧٨ بقيادة ولد سالك ـ المترجم)

***

النيجر: *

المساحة : ٤٩٠٠٠٠ ميل مربع

السكان : ١ ر٣ مليون نسمة

المدينة الرئيسية : نيامى (العاصمة ٣٠٠٠٠ نسمة)

الجماعات العرقية الكبرى : الهاوسا (٤٧٪) سونغى (٢٣٪) فولانى (١٨٪) طوارق (١٠٪).

---

* رئيس الدولة سيني كونتشي (١٩٧٤)
السكان (١٩٧٧) ٠٠٠ر٨٨٠ر٤
العاصمة نيامي ٠٠٠ر١٣٠
الوحدة النقدية الفرنك
اللغات الفرنسية ـــ لهجات سودانية
الديانات مسلمون ـــ وثنيون ـــ مسيحيون
الاقتصاد ـــ أهم الصادرات: يورانيوم ٣٩٪ فول سوداني ١٤٪
التعليم (١٩٧٢) ـــ ٩٤٥١٩ تلميذا بالابتدائي
٧٧٩٦ بالثانوي
١٧٩ بالفني
الحكم:
في ١٥ ابريل ١٩٧٤ وقع انقلاب بقيادة سيني كونتشي وتولى رئاسة الدولة واوقف العمل بالدستور وحل الحزب النيجيري التقدمي. وتشكلت في ٢١ فبراير ١٩٧٦ حكومة مدنية برئاسة كونتشي.

الاقتصاد : الدخل القومى ٤٣ مليون استرلينى (١٤ جنيها للفرد)
الصادرات ٧ مليون (٢ر٣ جنيها للفرد).
الكهرباء ١٤ مليون ك . و . س (٥ر٤ ك . و . س للفرد)
العمالة ١٣٦٠٠ (٤ ر ٤ من كل ألف من السكان)
الخدمات : تلاميذ مابعد المرحلة الابتدائية ٢٥٠٠ (٨٠٠ من كل مليون).
الأطباء ٤٥ (١٥ لكل مليون)
توزيع الصحف ١٠٠٠ (٣٢٠ لكل مليون)
الحكم : استقلت مستعمرة النيجر الفرنسية عام ١٩٦٠. وتأسس الحزب النيجيرى التقدمى عام ١٩٤٦. وانفصل عنه سكرتيره العام الراديكالى باكاري دجيبو ليؤسس حزب الاتحاد الديمقراطى النيجيرى عام ١٩٥١. وفاز الحزب التقدمى بأقلية ضئيلة فى انتخابات ١٩٥٦ للجمعية الفرنسية ، ولكن حزب الاتحاد الديمقراطى فاز بثلثى المقاعد فى انتخابات الجمعية الاقليمية عام ١٩٥٧ وشكل الحكومة وخاض هذا الحزب معركة الاستفتاء عام ١٩٥٨ للتصويت بلا، ورفض عضوية الاتحاد الفرنسى . وخسر خسارة كبيرة اذ نقل الشيوخ ولاءهم الى الحزب التقدمى. واستقالت الحكومة ولم يحصل الحزب الا على خمسة مقاعد من بين ستين مقعدا فى الانتخابات التالية . ويعرف الحزب الآن باسم حزب صوابا (Sawaba): وأصدر هاماني ديوري رئيس الحكومة قرارا بحظر نشاط الحزب.

* * *

نيجيريا *

المساحة : ٣٥٧٠٠٠ ميل مربع .

السكان : ٦ر ٥٥ مليون (الاقليم الشمالى ٨ر٢٩، الغربى ٣ر١٠، الشرقى ٤ر١٢، الوسط الغربى ٥ر٢، لاجوس ٦٧٥٠٠٠)

المدن الرئيسية : لاجوس العاصمة ٦٧٥٠٠٠ - ايبادان ٦٠٠٠٠٠ - كانو ١٣٠٠٠٠ - أونيتشا ٧٧٠٠٠ - بورت هاركورت ٧٢٠٠٠ - انيجو ٦٣٠٠٠ - أبا ٥٨٠٠٠، ميدورجى ٥٧٠٠٠.

الجماعات العرقية الكبرى : هاوسا - فولانى (٢٧٪) ايبو (١٧٪) يوروبا (١٦٪) .

---

* رئيس الدولة آلوسيجن أوباسانجو(١٩٧٦)

السكان (١٩٧٧) ٦٦٫٦٠٠٫٠٠٠.

المدن الكبرى (١٩٧٣) لاجوس ٩٧٠٢٦٢ اوجبوموشر ٣٨٦٦٥٠

ايبادان ٧٥٨٣٣٢ كانو٣٥٧٠٩٨

الوحدة النقدية ميرا

اللغات: الانجليزية لغة رسمية ولغات محلية.

الديانات: ملسمون ٤٧٪

مسيحيون ٣٤٪.

وثنيون ١٩٪.

الاقتصاد أهم الصادرات: البترول الخام ٩٣٪ دخل الفرد في السنة ١٢٠ دولارا.

الحكم:

تولى مجلس عسكري حكم البلاد منذ انقلاب ١٩٦٦ وحظر المجلس النشاط الحزبي. ووقعت اضطرابات عام ١٩٦٦ وانقسمت نيجيريا وانسلخ عنها اقليم بيافرا في مايو ١٩٦٧. وشكلت فيه جمهورية جديدة بهذا الاسم مما أدى الى اشتعال حرب أهلية استمرت ٣١ شهرا انتهت في يناير ١٩٧٠ باستسلام اقليم بيافرا. وانتهى حكم الجنرال جوون في ٢٩ يوليو ١٩٧٥ اثر انقلاب عسكري بقيادة موريتالا روفاي محمد. واغتيل هذا الأخير في ١٣ فبراير ١٩٧٦ على يد جماعة من الضباط قادوا انقلابا فاشلا. واختار مجلس الثورة جنرال الوسيجين اوبا سانجو رئيس أركان الجيش رئيسا للدولة.

الاقتصاد : الدخل القومي ١١٨٠ مليون جنيه استرلنيى (٢٩ جنيها للفرد على أساس تعداد السكان ٤٠ مليونا).
الصادرات ١٩٠ مليون (٤ر٣ جنيها للفرد)
الكهرباء ٩٢٩ مليون ك . و . س (١٧ ك . و . س للفرد)
العماله ٤٦٦٠٠٠ (٨ر٣ من كل ألف نسمة)
الخدمات : تلاميذ ما بعد المرحلة الابتدائية ٢٣٧٠٠٠ (٤٣٠٠ من كل مليون) الأطباء ١٣٥٤ (٢٤ لكل مليون)
توزيع الصحف ٣٧٠٠٠٠ (٦٧٠٠ لكل مليون)
الحكم : جرت عام ١٩٥١ أول انتخابات للمجالس النيابية الاقليمية والاتحادية. وأصبحت الاقاليم مستقلة ذاتيا عام ١٩٥٧ ثم حصلت نيجيريا على استقلالها عام ١٩٦٠. وأعلنت الجمهورية عام ١٩٦٣. وكان الفوز في الانتخابات الاقليمية في الاقليم الشمالي دائما من نصيب حزب مؤتمر شعب الشمال بزعامة أحمدو بللو وساردوانا السوكوتي الذي يشغل منصب رئيس الوزراء. كذلك في الاقليم الشرقي كان الفوز في الانتخابات الاقليمية حليفا ثابتا لحزب المجلس القومي لنيجيريا والكاميرون (الذى أصبح اسمه بعد انفصال الكاميرون المؤتمر القومي لمواطني نيجيريا) وظل الحزب محافظا على موقعه في السلطة بزعامة ننا مدى أزيكيوي رئيس الوزراء.. وتفوز دائما جماعة العمل في الغرب بزعامة أوبافيمي أوولوو. وحدث انقسام في الحزب عام ١٩٦٢ بين أوولوو زعيم المعارضة في البرلمان الاتحادي وبين صموئيل أكينتولا رئيس الوزراء الاقليمي . وألف هذا الأخير حزب نيجيريا الوطني الديمقراطي وتولى السلطة اثر نجاحه في انتخابات ١٩٦٥.

وانشق الاقليم الأوسط الغربي عن الاقليم الغربي عام ١٩٦٢

وأصبح دنيس أوزاد يباى رئيسا للوزراء فى حكومة المؤتمر القومى لمواطنى نيجيريا. كذلك فان سير أبو بكر تافاوا باليوا، نائب رئيس حزب مؤتمر شعب الشمال أصبح وزيرا اتحاديا عام ١٩٥٢. ثم عين رئيسا للوزراء عام ١٩٥٧ فى الحكومة القومية المؤلفة من الأحزاب الكبرى الثلاثة. وبعد الانتخابات الاتحادية عام ١٩٥٩ أصبح رئيسا للوزراء فى الحكومة الائتلافية التى ضمت مؤتمر شعب الشمال والمؤتمر القومى لمواطنى نيجيريا. وتولى أزيكيوى عقب الاستقلال منصب الحاكم العام ثم رئيسا للجمهورية.

ووقع انقلاب عسكرى فى يناير ١٩٦٦ أطاح بالحكومة الفيدرالية والحكومات الاقليمية.

***

غينيا بيساو*

المساحة : ١٤٠٠٠ ميل مربع

السكان : ٥٥٠٠٠٠ نسمة

المدن الرئيسية: بيساو العاصمة (لابيانات عن عدد السكان)

---

* رئيس الدولة لويس كابريل (١٩٧٤)

السكان (١٩٧٧) ٥٤٠٫٠٠٠

العاصمة بيساو ٧١٢٠٠ (١٩٧٠)

الوحدة النقدية بيزو غينيا بيساو

الديانات وثنيون ــ مسلمون ــ روم كاثوليك

التعليم (١٩٧٢) ــ ٣٤٣ مدرسة ابتدائية بها ٣٢٨٩٦ تلميذاً.

٢ مدرسة اعدادية ٢٠٦٨ تلميذا

١ مدرسة ثانوية بها ٦٩٢ تلميذا.

٤ مدارس فنية بها ٦٩٤ تلميذا

الاقتصاد أهم الصادرات (١٩٧٣) فول سوداني ٤٦٪

الحكم: تأسس حزب الاستقلال الافريقي عام ١٩٥٦ وشن حرب عصابات ضد المحتلين واستطاع الثوار السيطرة على القطاع الأكبر من البلاد حتى عام ١٩٧٤ وشكلوا حكومة لهم اعترفت بها أكثر بلدان العالم. ونالت غينيا البرتغالية استقلالها في سبتمبر ١٩٧٤ واصبح اسمها غينيا بيساو.

الجماعات العرقية الكبرى : بالانت ، بيبيل

الاقتصاد : الدخل القومي (لا بيانات)

الصادرات ٢٫٨ مليون جنيه استرليني (٥ جنيهات للفرد)

الكهرباء (لابيانات)

العماله (لابيانات)

الخدمات : تلاميذ مابعد المرحلة الابتدائية ١٫٥٠٠ (٢٧٠٠ من كل مليون)

الأطباء ٢٧ (٤٩ لكل مليون)

توزيع الصحف ٢٠٠٠ (٣٦٠٠ لكل مليون).

الحكم : كانت غينيا بيساو تسمى في ظل الاستعمار البرتغالي غينيا البرتغالية وتعتبر مقاطعة برتغالية فيما وراء البحار. وكان حاكمها مسئولا أمام وزير المستعمرات في لشبونة، وله مجلس استشاري يمثل الادارة المدنية والعسكرية، وكانت الأحزاب السياسية في المنفى تتخذ مراكزها في الدول المجاورة وتنتهج اساليب ثورية وتقوم بأعمال لتخريب منشآت الاستعمار داخل البلاد .

حصلت على استقلالها عام ١٩٧٤.

***

السنغال *

المساحة : ٧٦٠٠٠ ميل مربع

السكان : ٤ر٣ مليون

المدن الرئيسية : داكار (العاصمة ٣٨٠٠٠٠ نسمة) روفيسك ٤٨٠٠٠ - سان لويس ٤٨٠٠٠ - كولاك ٤٧٠٠٠ - تييس ٣٩٠٠٠

الجماعات العرقية الرئيسية : وولوف (٣٢٪) فولاني (١٥٪) سيرر (١٤٪) توكولور (١١٪) ديولا (٥٪) .

---

* السكان (١٩٧٦) ٠٠٠ر١١٠ر٥
العاصمة (١٩٧٦) داكار ٧٩٨٨٠٠ نسمة
الوحدة النقدية فرانك
الديانات
مسلمون ٩٠٪
مسيحيون ٦٪
التعليم (١٩٧٢)
٢٦٩٩٩٧ تلميذا بالابتدائي
٥٧٧٢٠ « بالثانوي
٥٥٦١ بالجامعة.

الاقتصاد:
اهم الصادرات (١٩٧٤)
الفوسفات ٢٨٪
زيت فول سوداني ٢٢٪

الحكم:
تألف حرب معارض عام ١٩٧٤ باسم الحزب الديمقراطي السنغالي ويرأسه ابدولاي واد يدعو الى الحد من المؤثرات الفرنسية والغربية عامة. وتشكل حزب الاستقلال الافريقي عام ١٩٧٦.

الاقتصاد : الدخل القومى ١١٨ مليون استرلنيى (٦٣ جنيها للفرد)
الصادرات ٤٠ مليون استرلينى (١٢ جنيها للفرد)
الكهرباء ١٧٥مليون ك . و. س (٥١ ك . و . س للفرد)
العماله ١٠٠٫٠٠٠ (٢٩ فى المليون)
الخدمات : تلاميذ مابعد المرحلة الابتدائية ١٩٥٠٠ (٥٧٠٠ من كل مليون)
الأطباء ١٤٥ (٤٣ لكل مليون)
توزيع الصحف ٢٠٠٠٠ (٥٨٠٠ لكل مليون)
الحكم : صوتت مستعمرة السنغال الفرنسية فى استفتاء عام ١٩٥٨ الى جانب البقاء ضمن الاتحاد الفرنسى. ودخلت فى عام ١٩٥٩ فى اتحاد فيدرالى مع السودان الغربى لتكوين دولة مالى.

وحصلت مالى على الاستقلال عام ١٩٦٠. ولكن الاتحاد تحطم وانفصلت الدولتان فى العام نفسه . وكان حزب «الكتلة الديمقراطية السنغالية «قد تأسس عام ١٩٤٨ على يد كل من ليوبولد سنجور ومامادو ديا. وفاز الحزب فى انتخابات الجمعية الفرنسية عام ١٩٥١ وعام ١٩٥٦ وانضم اليه عام ١٩٥٨ «القطاع الفرنسى للدولة العمالية» بزعامة لامين جى (وهو التنظيم الذى انشق عنه سنجور أساسا) وتشكل من التنظيمين الاتحاد التقدمى السنغالى. وفاز الاتحاد التقدمى بكل مقاعد المجلس التشريعى السنغالى عام ١٩٥٩ وتولى سنجور رئاسة الجمهورية وماما دو ديا رئاسة الوزراء فى الدولة المستقلة. وأخيرا طرد سنجور ديا.

***

سيرا ليون *

المساحة : ٢٨٠٠٠ ميل مربع

السكان : ٢ر٢ مليون

المدن الرئيسية : فرى تاون (العاصمة ١٢٨٠٠٠)

الجماعات العرقية الكبرى : مندى ٣٠ ٪ - تيمن

الاقتصاد : الدخل القومى ٦٣ مليون استرلينى (٢٥ جنيها للفرد)

الصادرات ٢٩ مليون استرلينى (١٣ جنيها للفرد)

---

* الرئيس دكتور مسيا كاك. ستيفنس (١٩٧١)

السكان (١٩٧٧) ٣٠٠٠ر٣٠٠ر٣ نسمة

العاصمة فري تاون ٢٧٤ر٠٠٠

الوحدة النقدية ليون

اللغات :

الانجليزية ــ لغة رسمية

ولغات محلية: مندي ــ تيمني ــ كريولي

الديانات:

وثنيون ٦٦٪

مسلمون ٢٨٪

مسيحيون٦٪

الاقتصاد: أهم الصادرات ١٩٧٥

ماس ٥٤٪

خام الحديد: ١١٪

التعليم (١٩٧٢)

١٦٦٠٧١ بالابتدائي

٣٣٣١٨ بالثانوي

الحكم: اعلنت جمهورية مستقلة في ١٩ ابريل ١٩٧١.

الكهرباء ٧٢ مليون ك . و . س (٣٣ ك . و . س للفرد)
العمالة ٤٤٠٠٠ (٢٠ من كل ألف نسمة)
الخدمات : تلاميذ ما بعد المرحلة الابتدائية ١٠٤٠٠ (٤٧٠٠ من كل مليون)
الأطباء ١١٢ (٥١ لكل مليون)
توزيع الصحف ١٨٠٠٠ (٨٢٠٠ لكل مليون)
الحكم : أصبحت سيراليون دولة مستقلة عام ١٩٦١. وشكل ميلتون مارجى عام ١٩٥١ حزب شعب سيراليون وهو الحزب الذى استطاع بنجاح أن يجمع بين مصالح الكريوليين وبين شعب سيراليون المحمية. وشغل مارجاى منصب الوزير المسئول (**Chief Minister**) عندما حصلت سيراليون على استقلالها الذاتى عام ١٩٥٤. وانقسم الحزب على نفسه عام ١٩٥٨ وشكل البرت مارجى (اخو ملتون) وسياكا ستفنس حزبا آخر أكثر نضالية باسم حزب الشعب الوطنى. ولكن اتحد البرت مارجى مع حزب شعب سيراليون وتشكل حزب الجبهة الوطنية المتحدة. وشكل ستفنس حزب مؤتمر كل الشعب، وأيده فى ذلك الشباب الراديكالى والنقابيون. واتخذ الحزب موقف المعارضة للجبهة الوطنية المتحد
مارجى عام ١٩٦٤ تولى أخوه البرت رئاسة الوزراء.
فى مارس ١٩٦٧. وأعقبه انقلاب مضاد بعا
ستفنس وحزبه .

***

توجو *

المساحة : ٢٢٠٠٠ ميل مربع

السكان : ٦ر١ مليون

العاصمة : لومى ٨٠٠٠٠ نسمة

الجماعات العرقية الكبرى : كابرى (٢٠٪) ايوه (١٩٪)

الاقتصاد : الدخل القومى ٣٧ مليون استرلينى (٢٥ جنيها للفرد)

الصادرات ٦ر٤ مليون استرلينى (٤ جنيهات للفرد)

الكهرباء ١١ مليون ك . و . س (٧ ك . و . س للفرد)

العمالة ١٢٠٠٠ (٥ر٧ من كل الف)

---

* الرئيس جناسينجي ايادبما (١٩٦٧)
السكان (١٩٧٧) ٢٫٣٤٠٫٠٠٠
العاصمة (١٩٧٥) لومي ٢١٤٢٠٠
الوحدة النقدية فرنك
اللغات:
ايوى، مينا (في الجنوب) كابييه، كوتوكولي (في الشمال)
الفرنسية لغة رسمية.
الديانات:
وثنيون ــ مسيحيون ــ مسلمون.
الاقتصاد:
الزراعة والرعي
البن، الكاكاو، زيت النخيل
البترول ــ القطن

التعليم: (١٩٦٩)
١٥٧٥٤٨ بالابتدائي
١٣١٢٦ بالثانوي والفني
الحكم:
قاد ايادبما انقلابا في ١٣ يناير ١٩٦٧ ضد جرونيتسكو

الخدمات : تلاميذ ما بعد المرحلة الابتدائية ٧٫٠٠٠ (٤٫٤٠٠ من كل مليون)

الأطباء ٤٥ (٢٨ لكل مليون)

توزيع الصحف ١٤٠٠٠ (٨٧٥٠ لكل مليون)

الحكم : تولت فرنسا شئون ادارة القطاع الأكبر من مستعمرة توجو الألمانية . (فقد انضم الجزء الباقي الى غانا). وشكل سلفانوس أوليمبيو عام ١٩٤٦ لجنة وحدة توجو، وألف في العام ذاته الحزب الحاكم للجمعية الاقليمية. ومني الحزب في انتخابات ١٩٥١ للجمعية الفرنسية بهزيمة كبيرة أمام حزب توجو للتقدم بزعامة نيكولا جرونيتسكي الذى حظى بتأييد الادارة الفرنسية . وتولى جرونيتسكي رئاسة الوزراء من ١٩٥٦ حتى ١٩٥٨، ثم فاز أوليمبيو في انتخابات ١٩٥٨ وشكل الحكومة وأصبح رئيسا للوزراء عام ١٩٥٨ ثم رئيسا لجمهورية توجو بعد استقلالها عام ١٩٦١. واغتيل أوليمبيو عام ١٩٦٣ وأصبح جرونيتسكي رئيسا للجمهورية ولكن أطاح به انقلاب عسكرى عام ١٩٦٧.

***

فولتا العليا *

المساحة : ١٠٦٠٠٠ ميل مربع

السكان : ٤٫٥ مليون

المدن الرئيسية : أواجا دوجو (العاصمة ٥١٠٠٠) بوبو ديولاسو

---

* رئيس الدولة ــ جنرال سانجولي لاميزانا (١٩٦٦)
السكان (١٩٧٧) ٦٫٣١٠٫٠٠٠
العاصمة اواجا دوجو ١٥٠٫٠٠٠
الوحدة النقدية فرنك ←

الجماعات العرقية الكبرى : موصى (٥٠) بوبو، جورونسى .
الاقتصاد : الدخل القومى ٦٣ مليون استرلينى (١٤ جنيها للفرد)
الصادرات ٢ ر٣ مليون استرلينى (٧ ر ٠ جنيها للفرد)
الكهرباء ١٦ مليون ك . و . س (٥ر٣ ك . و . س للفرد)
العمالة ٢٥٠٠٠ (٥ر٥ من كل ألف)
الخدمات : تلاميذ مابعد المرحلة الابتدائية ٣٫٤٠٠ (٧٥٠ من كل مليون)
الأطباء ٥٨ (١٣ لكل مليون)
توزيع الصحف ١٥٠٠ (٣٣٠ لكل مليون)
الحكم : تحولت فولتا العليا من مستعمرة فرنسية الى عضو فى الاتحاد الفرنسى عام ١٩٥٨ ثم استقلت عام ١٩٦٠. وتأسس حزب اتحاد الفولتا الديمقراطى عام ١٩٥٦ من اندماج حزبين سابقين، وتولى قيادته أول الأمر أوزين كوليبالى . وخلفه بعد وفاته عام ١٩٥٨ موريس ياميوجو. وفاز الحزب فى انتخابات الجمعية الاقليمية عام ١٩٥٧ وفى كل الانتخابات التالية. وتولى ياميوجو رئاسة الجمهورية عام ١٩٥٩ ثم تنازل عن منصبه لحكومة عسكرية فى ديسمبر ١٩٦٥.

الديانات: وثنيون ٧٥٪ مسلمون ٢٠٪ مسيحيون ٥٪
الاقتصاد:
أهم الصادرات ١٩٧٢
الماشية ٤١٪، قطن ٢٠٪

الحكم: عزل رئيس الجمهورية في ٣ يناير ١٩٦٦ وتولى سانجولي لاميزانا السلطة وحل الجمعية الوطنية واوقف العمل بالدستور وقدم دستورا جديدا في نفس العام. وحدث انشقاق داخل حزب الاتحاد الديمقراطي الافريقي الحاكم ادى الى انقلاب عسكري في ٨ فبراير ١٩٧٤ أوقف العمل بالدستور وحل الجمعية الوطنية وحظر النشاط السياسي ولكنه أبقى على لاميزانا رئيسا للدولة.

المحتوى

صفحة

صدر في هذه السلسلة

١ ـ الحضارة	تأليف : د . حسين مؤنس
٢ ـ اتجاهات الشعر العربي المعاصر	تأليف د . احسان عباس
٣ ـ التفكير العلمي	تأليف : د . فؤاد زكريا
٤ ـ الولايات المتحدة والمشرق العربي	تأليف :د .أحمد عبدالرحيم مصطفى
٥ ـ العلم ومشكلات الانسان المعاصر	تأليف : زهير الكرمي
٦ ـ الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها	تأليف : د . عزت حجازي
٧ ـ الاحلاف والتكتلات في السياسة العالمية	تأليف : د . محمد عزيز شكري
٨ ـ تراث الاسلام ـ ١	ترجمة : د . زهير السمهوري
٩ ـ اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة	تأليف : د . نايف خرما
١٠ ـ جحا العربي	تأليف : محمد رجب النجار
١١ ـ تراث الاسلام ـ ٢	ترجمة : د . حسين مؤنس احسان صدقي العمد
١٢ ـ تراث الاسلام ـ ٣	ترجمة : حسين مؤنس احسان صدقي العمد
١٣ ـ الملاحة وعلوم البحار عند العرب	تأليف :د . أنور عبدالعليم
١٤ ـ جمالية الفن العربي	تأليف : د . عفيف بهنسي
١٥ ـ الانسان الحائر بين العلم والخرافة	تأليف : د . عبدالمحسن صالح

١٦ ـ النفط والمشكلات المعاصرة التنمية العربيه	تأليف :د . محمود عبدالفضيل
١٧ ـ الكون والثقوب السوداء	اعداد : رؤوف وصفي
١٨ ـ الكوميديا والتراجيديا	ترجمة : د . علي محمود
١٩ ـ المخرج في المسرح المعاصر	تأليف : سعد أردش
٢٠ ـ التفكير المستقيم والتفكير الأعوج	ترجمة: حسن سعيد الكرمى
٢١ ـ مشكلة انتاج الغذاء في الوطن العربى	تأليف : د . محمد الفرا
٢٢ ـ البيئة ومشكلاتها	تأليف : رشيد الحمد محمد سعيد صباريني
٢٣ ـ الرق	تأليف : د . عبدالسلام الترمانينى
٢٤ ـ الابداع في الفن والعلم	تأليف : د . حسن احمد عيسى
٢٥ ـ المسرح في الوطن العربى	تأليف : د . على الراعى
٢٦ ـ مصر وفلسطين	تأليف : د . عواطف عبدالرحمن
٢٧ ـ العلاج النفسي الحديث	تأليف : د . عبدالستار ابراهيم

من الكتب القادمة

- الانسان والثروات المعدنية — تأليف : د . محمد فتحى عوض الله
- العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة — تأليف : د . عزت قرنى
- ارتقاء الانسان — ترجمة : د . موفق شخاشيرو



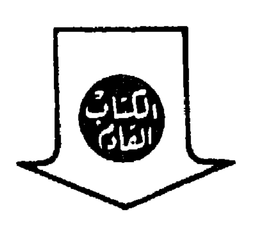
المؤلف والمترجم في سطور

بيتر لويد

- ولد في بورنمث بانجلترا عام ١٩٢٧، وتلق تعليمه في اكسفورد. ومنها حصل على الدكتوراه في الانتروبولوجيا الاجتماعية عام ١٩٥٨.
- كان حتى عام ١٩٦٩ مدرسا في جامعة سكس بانجلترا.
- احد المختصين في الدراسات الاجتماعية الانتروبولوجية عن افريقيا، وقد قام بالكثير من البحوث الميدانية في نيجيريا وغرب افريقيا. كما أسس قسم الاجتماع بجامعة ابيدان بنجيريا.
- من مؤلفاته :
  - قانون الأراضي في يوروبا (١٩٦٢)
  - الصفوة الجديده في افريقيا الاستوائية (١٩٦٥)
  - الاحزاب السياسية والوحدة القومية (١٩٦٥)

شوقي جلال

- تخرج في كلية الآداب جامعه القاهرة - قسم الفلسفة وعلم النفس عام ١٩٥٦.
- أسهم بكتابة العديد من المقالات في كبرى المجلات العربية النظرية المتخصصة.
- ترجم للمكتبة العربية اكثر من اثني عشر كتابا في الفلسفة وعلم النفس واللغة والآداب منها:
  - بافلوف وفرويد (دراسة مقارنة) في مجلدين.
  - الاصوات والاشارات.
- عضو لجنة قاموس علم النفس التي شكلها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة لوضع قاموس للمصطلحات النفسية.



العرب والتحدي

تأليف

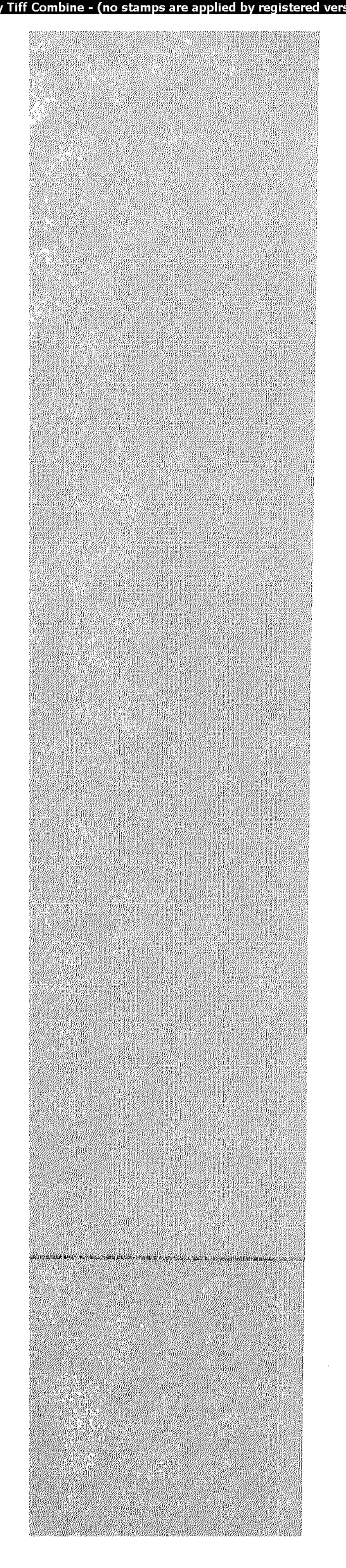
د. محمد عمارة

الكويت	٢٥٠	فلسا	ليبيا	٢٥	قرشا	عمان	٤	ريال
السعودية	٥	ريال	المغرب	٥	دراهم	اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس
العراق	٣٠٠	فلسا	تونس	٥٠٠	مليم	اليمن الشمالية	٥ر٤	ريال
الاردن	٢٥٠	فلسا	الجزائر	٥	دنانير	البحرين	٤٠٠	فلس
سوريا	٣	ليرات	مصر	٢٥٠	مليما	قطر	٥	ريال
لبنان	٥ر٢	ليرة	السودان	٢٥٠	مليما	الامارات العربية	٥	درهم

الاشتركات : يكتب بشأنها الى المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب،

ص ب ٢٣٩٩٦ - الكويت







مطابع اليقظة